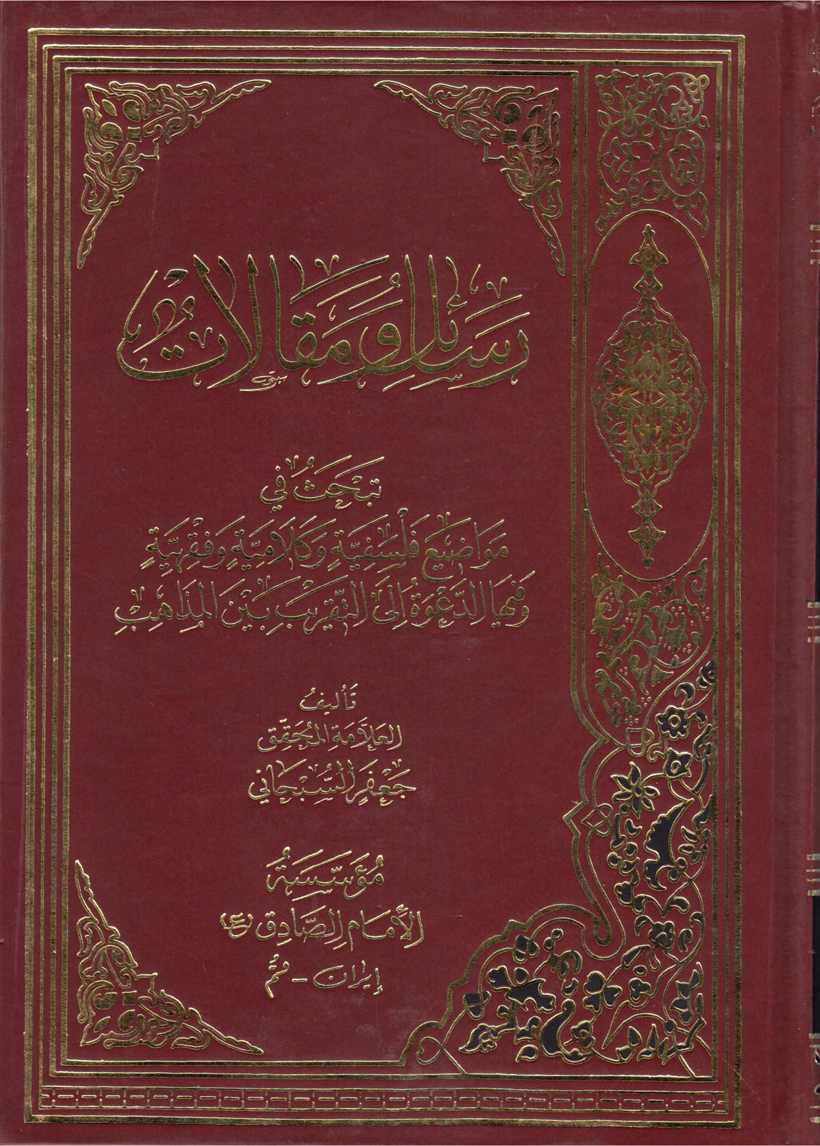
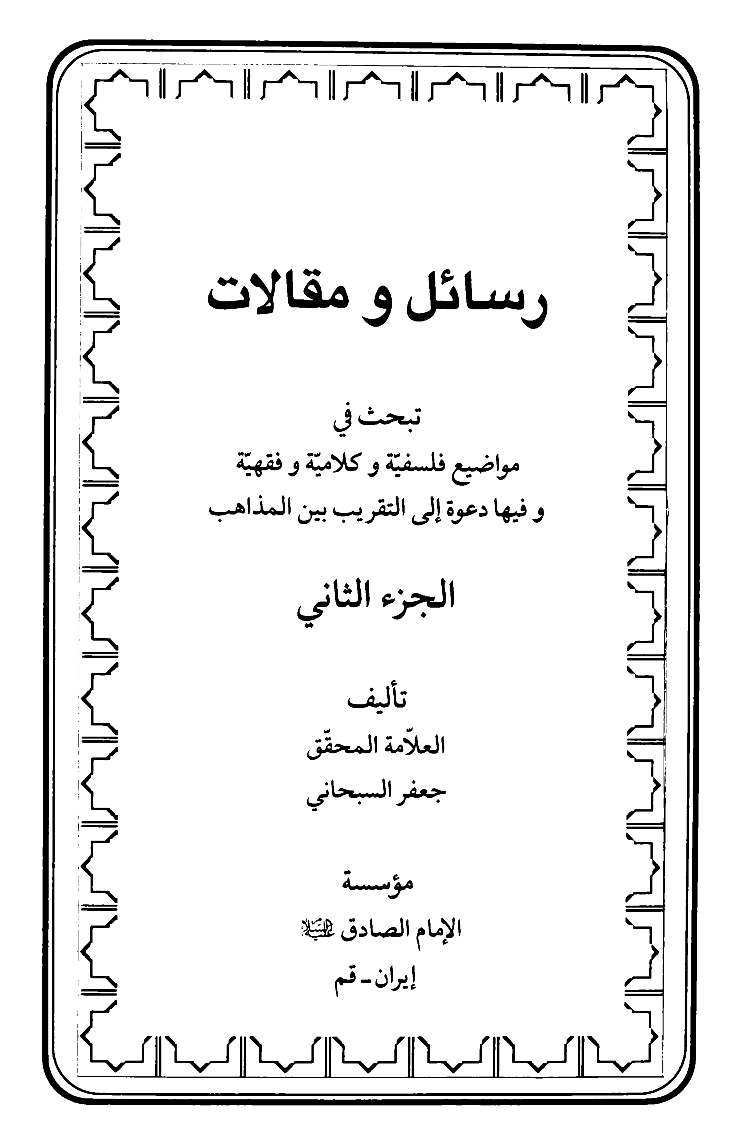

رسائل ومقالات
تبحث في
مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية
وفيها الدعوة إلى التقريب بين المذاهب
تأليف
العلامة المحقق
جعفر السبحاني
مؤسسة
الإمام الصادق (ع)
إيران - قم



رسائل و مقالات

تبحث في

مواضيع فلسفيّة و كلاميّة و فقهيّة

و فيها دعوة إلى التقريب بين المذاهب

الجزء الثاني

تأليف

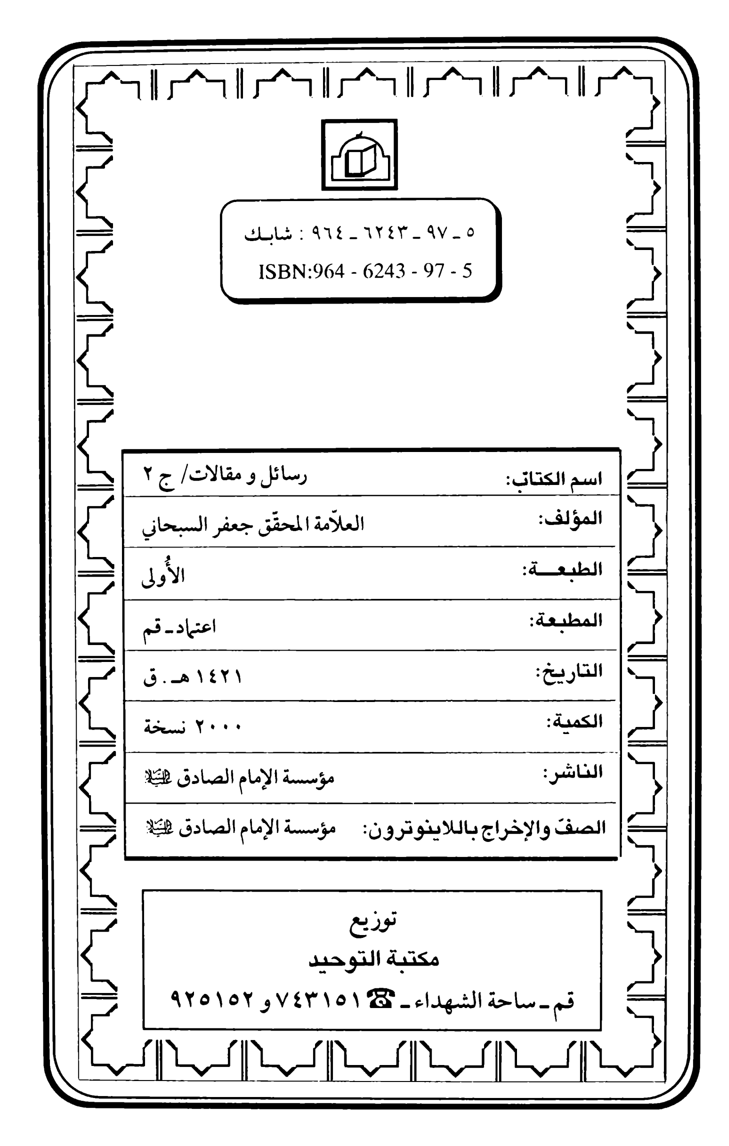
العلاّمة المحقّق

جعفر السبحاني

مؤسسة

الإمام الصادق عليه السلام

إيران ـ قم



شابك: ٩٦٤ ـ ٦٢٤٣ ـ ٩٧ ـ ٥

ISBN:964 - 6243 - 97 - 5

اسم الكتاب:	رسائل و مقالات/ ج ٢
المؤلف:	العلاّمة المحقّق جعفر السبحاني
الطبعـــة:	الأُولى
المطبعة:	اعتماد ـ قم
التاريخ:	١٤٢١ هـ. ق
الكمية:	٢٠٠٠ نسخة
الناشر:	مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
الصفّ والإخراج باللاينوترون:	مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

توزيع

مكتبة التوحيد

قم ـ ساحة الشهداء ـ ☎ ٧٤٣١٥١ و ٩٢٥١٥٢


بسم الله الرحمن الرحيم
شبكة الفكر
alfeker.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الـذي لا يبلغ مـدحته الحامـدون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يقدر على إدراكـه المجتهدون، الباقـي بعد فنـاء كلّ شيء، نشكره على تـوالي نعمه وسوابغ أفضاله.

ونصلّي ونسلّم على أشرف النفوس الـزكية، وأفضل الذوات القـدسيّة، سيد البريـة محمد المصطفـى، وعترته المرضيـة، صلاة دائمـة مادامـت السماوات ذات أبراج، والأرض ذات فجاج.

أمّا بعـد: فهذا هـو الجزء الثاني مـن كتابنـا «رسائل ومقـالات» جادت بـه القريحة في مناسبات مختلفة، تناول موضوعات: فلسفية، كلامية، فقهية، حديثية، ورجالية، إلى غير ذلك .

والعنـوان الجامع لأكثـر هذه الـرسائل والمقـالات هو الـذبُّ عن حيـاض الإسلام، والإفصاح عن عقائد الشيعة التي طالما حيكت حولها نسيج من الخيال والأوهـام، والدعـوة إلى التقريـب بين المسلمين، وعقـد مؤتمرات حـول التوحيـد والشرك، والإيمان والكفر، وتقييم بعض الكتب المنشورة.

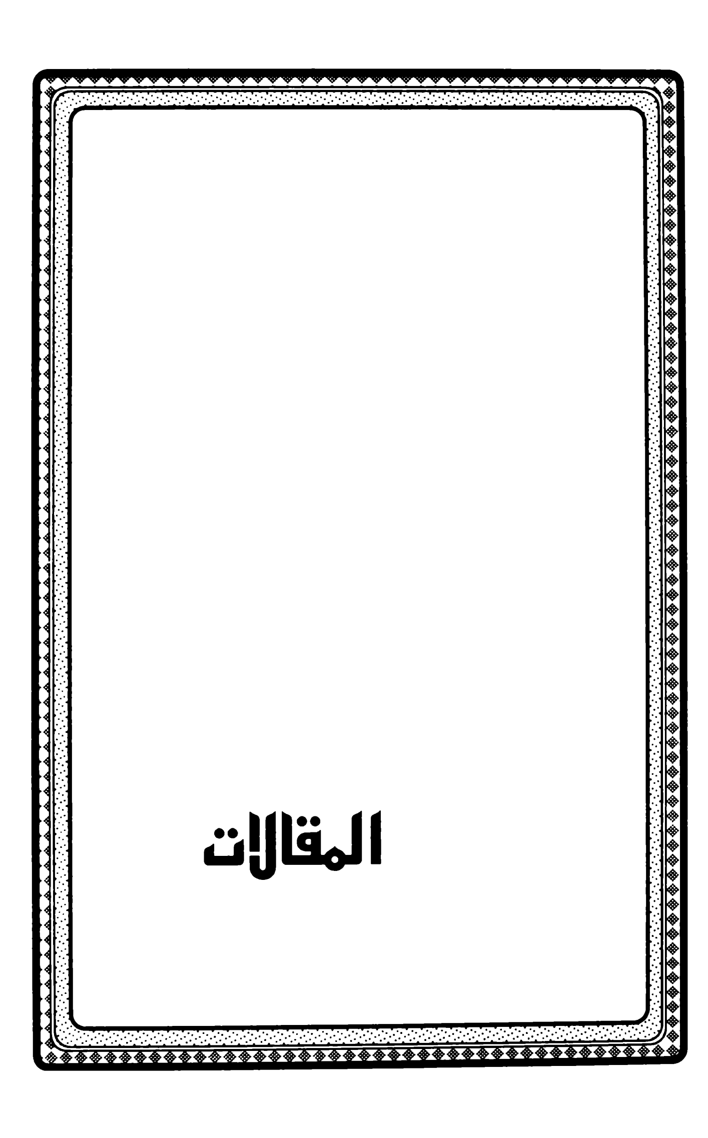
وقد سلكنا في هـذا الكتاب النهج الموضوعي الـذي يعتمد على الحوار بلغة

هادئة، وعلى هـذا الأساس بعثنا برسـائل إلى بعض قادة السلطة والفكـر، تتضمن الدعـوة إلىٰ عقد مـؤتمرات لحلِّ المشاكـل العالقة بـا لمجتمع الإسـلامي؛ فـإنّ فيه تقريبَ الخطى، وتلبية لما جاء به الكتـاب و السنّة النبوية من الاعتصام بحبل الله المستحكـم، ومسايـرة لـروح العصر الـذي هو عصر المنطـق والحوار والمذاكـرة، والانفتاح على أفكار الآخرين.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢٩ رجب المرجب من شهور عام ١٤٢١هـ



المقالات

١
الاجتهاد و تحديات العصر

تزامن القـرن العشرون بقيام نهضة علميّة وصناعيـة كبيرة في الغرب، أعقبها ظهور العديد من المستجدّات التي كانت تطلب لنفسها حلولاً ولم يكن في الفقه الإسلامي أيُّ حل لها لحداثتها، فصار ذلـك سبباً لسريان وهم في أذهان كثير ممّن أبهرتهم الحضارة الغـربية، وهو عـدم قدرة التشريـع الإسلامي علىٰ مـواكبة عصره وتخلفه عن ركب الحضارة، وقد كرس هذه الشبهة المستشرقون في البلاد الإسلامية بذريعة انّ النصـوص الشرعية في الأحكام من القلـة بمكان لا تفي بوضـع حلول للمستجدات الطارئة على المجتمع.

وكـان في الشرق آذان صـاغية لسماع هـذه الشبهـة، فتجـاوبوا مـع هـؤلاء المستشرقين متشبّثين بأنّ الحضارة الغـربية أفرزت حقوقـاً وعقوداً في مجالات مختلفة وموضـوعات جديـدة، لم يكن لها أي حلول في الفقه الإسـلامي، كلّ ذلـك صار سببـاً لتوهـم وجود النقـص في التشريع الإسـلامي و عجـزه عن إدارة المجتمـع بقوانينه وطقـوسه، فلا محيص للمسلمين من التطفّل على مـوائد الغربيّين في هذه المجالات مثلاً:

١ . التأمين بكـافة أقسـامه أمر جـديد لا يوجـد له أيّ حكـم منصوص في التشريع الإسلامي.

٢. حقّ التـأليف، وحق ثبت الاختراع، وحـق الطبع، وحق الانتشـار، هذه الحقوق لم يكن لها حكم في التشريع الإسلامي.

٣. التلقيـح الصنـاعـي و زرع الأعضــاء وبيعهـا والاستنســاخ البشري والتشريح وتغيير الجنسية وغيرها من الموضوعات الجديدة في عالم الطب.

٤. الشركـات التجـاريــة كشركـة التضـامـن وشركـة التــوصيـة وشركـة المحاصةوشركة المساهمة وغيرها من الشركات.

٥. البنوك التي لا محيص عنها في المجتمع المدني اليوم.

إلى غير ذلك من الموضوعات التي واجهت علماء الإسلام منذ مطلع القرن العشرين و كانت سبباً لإثارة شبهة النقص في التشريع الإسلامي.

وهذه الشبهة بالتقرير الذي عرفت تخالف مبادئ الإسلام من زاويتين:

الأُولى: مخالفتها لكمال الـدين الذي جـاء صريحاً في قوله سبحـانه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُـمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْـتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتـي وَرَضِيتُ لَكُـمُ الإِسْلامَ دِينـاً**﴾[1]. فكيف أكمل دينه مع أنّ التشريع لا يفي بإدارة مجتمع متحضّر ومتطوّر.

الثانيـة: مخالفتها لخاتميـة الشريعة الإسـلامية، فـالنبي ﷺ خاتم الأنبياء، وكتابـه خاتمة الكتـب، وشريعته خـاتمة الشرائع، فكيف يمكـن أن تكون شريعـة خاتمة والمسلمـون بعد متطفّلـون على موائد الغـربيّين لا سيما في حقل الحقـوق و العقود والأحكام؟

هذه هي الشبهة التي احتلّت مساحة شاسعة من اهتمام العلماء والمثقفين، والإجابة عليها رهن بيان أُمور:

---

١. المائدة:٣.

الأوّل: دراسة ما روي عن النبيﷺ دون تحيّز

إنّ الحديث النبوي عدل القرآن في الحجّية فيجب التعبد به وتطبيق العمل عليه من دون تحيّز لأحاديث طائفة دون أُخرى، فانّ في اقتصار كلّ طائفة بما لديهم مع غض النظر عن الطائفة الأُخرى من الأحاديث المروية عن الصادع بالحق، يورث رسوخ هذه الشبهة ، إذ لا شكّ انّ إخواننا أهل السنة كرّسوا جهودهم في جمع الأحاديث النبوية في صحاحهم وسننهم فيما يرجع إلى التشريع، كما أنّ شيعة أهل البيت بذلوا قصارىٰ جهودهم في جمع ما روي عن النبي ﷺ عن طريق أئمّة أهل البيت، فجمعوا كمية هائلة ممّا أثر عنه ﷺ في تلك المجالات، فلو كان هناك مساهمة فقهية جامعة ووقف كلّ طائفة على ما عند الطائفة الأُخرى من الأحاديث المتضمنة للتشريع لتضاءلت الشبهة بشكل واضح.

مثلاً قد جمع ابن حجر العسقلاني(المتوفّى ٨٥٢هـ) ما روي عنهﷺ في مجال التشريع في كتاب أسماه «بلوغ المرام في شريعة خير الأنام» فبلغ ما بلغ، كما أنّ محدّثي الشيعة جمعوا ما روي عن النبي عن طريق أئمّة أهل البيت في جوامع مختلفة كـ «الوافي» للفيض الكاشاني (المتوفّى ١٠٩١هـ) و«وسائل الشيعة» للحرّ العاملي (المتوفّى ١١٠٤هـ)، فلو تضافرت الجهود في جمع كلّ ما روي عنه ﷺ لظهر انّ للشريعة الإسلامية مادة حيوية قادرة على الإجابة على كافة المستجدات بأوضح الوجوه وأحسن الطرق.

و قد صرح أئمّة أهل البيت كأبي جعفر الباقر عليه السلام بذلك و قال: «إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله وجعل لكلّ شيء حدّاً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحدّ

حداً».[١]

وعنه أيضاً انّه قال: «ما من شيء إلاّ وفيه كتاب أو سنّة».[٢]

وعن سماعة، عن الإمام أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قلت له: أكل شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه، أو تقولون فيه؟ قال: «بل كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه».[٣]

إنّ الأُمّة و إن اختلفت في أمر الخلافة، وانّها هل هي تنصيصية أو انتخابية، لكنّها ـ من حسن الحظ ـ لم تختلف في مرجعية أهل البيت عليهم السلام في العلم والفقاهة أخذاً بالحديث المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، فما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا أبداً».

ولأجل ذلك يجب الأخذ بما روي عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام من مجالات كثيرة من الأحكام والحقوق حتى يستطيع المستنبط الإجابة على المستجدات وغيرها.

الثاني: الاجتهاد ومواكبة التشريع للزمان

إنّ الاجتهاد الذي هو عبارة عن استنباط الحكم الشرعي الفرعي عن أدلّته، موهبة إلهية لهذه الأُمّة وسبب لخلود التشريع الإسلامي واقتداره للإجابة على كافة المسائل.

فهو يساير سنن الحياة وتطورها، ويجعل النصوص الشرعية حيّة متحركة نامية متطورة، تتمشىٰ مع نواميس الزمان والمكان، فلا يُحمد الجمود الذي يباعد بين الدين والدنيا، أو بين العقيدة والحياة الذي نشاهده في إقفال الاجتهاد.

١، ٢ و ٣. راجع الكافي: ١/ ٥٩ـ٦٢، باب الردّ إلى الكتاب والسنّة، الحديث ٢ و ٤ و ١٠.

إنّ تجويز الاجتهاد في ظل الأُصول العامة الواردة في الشريعة، أغنىٰ صاحبها عن ذكر التفاصيل والجزئيات، ولو قام بذكرها لأعرض الناس عن هذه الدعوة لتعقّدها و لأنّها تضمنت أحكاماً عن جزئيات ومخترعات لا تقع تحت حسّهم ويصعب عليهم تصورها لأنّها لم تعرف في زمانهم، وكان اللازم عليه حينئذٍ بيان قوانين وقواعد عامة يقتدر معها المستنبط على استنباط الأحكام.

الثالث: جوامع التشريع في السنّة

اشتملت السنّة النبوية على جوامع التشريع فصارت مبدأ فياضاً لكثير من الأحكام، ومادةً حيويةً للإجابة على المستجدات الطارئة، وإليك نزراً يسيراً من هذه الجوامع.

١. كلّ قرض جرّ منفعة فهو ربا.

٢. على اليد ما أخذت حتّى تؤدّي.

٣. ليس لعرق ظالم حقّ.

٤. من أحيا أرضاً ميتة فهي له.

٥. لا ضرر ولا ضرار.

٦. انّ الله وضع عن أُمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

٧. رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل.

٨. المؤمنون عند شروطهم إلاّ شرطاً حرّم حلالاً، أو أحلّ حراماً.

٩. البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر.

١٠. الصلح جائز بين المسلمين إلاّ ما حرّم حلالاً، أو حلّل حراماً.

فإذا أُضيفت إلى هذه الأُمور الثلاثة ما ورد في الكتاب العزيز من الأحكام والحقوق يستطيع المستنبط الإجابة على كلّ ما أُلقي إليه من الأسئلة في مختلف الأزمنة.

التاريخ المرير أو إقفال باب الاجتهاد

لا شكّ انّ إقفال باب الاجتهاد كان خسارة كبيرة وسبباً لركود الحركة الفقهية وجمود العلماء و إضعاف روح الاستقلال الفكري، وطغيان فكرة التقليد حتى ساد في أذهان الناس انّ بلوغ درجة الاجتهاد أصبح متعذراً ومستحيلاً، وأنّ أقدارهم ومواهبهم لا تصل إلى ما وصل إليه أئمّة المذاهب الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، والتزم كلّ إنسان مذهباً معيناً، إمّا بدافع امتناعي ذاتي، أو لظروف معيشية أو مراعاة لأوضاع سياسية معينة.[١]

ويعزو الاستاذ أحمد أمين إقفال باب الاجتهاد إلى حالة نفسية سادت الأُمّة إبّان غزو المغول، و يقول: لم يكن مجردَ إغلاق باب الاجتهاد باجتماع بعض العلماء وإصدار قرار منهم، وإنّما كانت حالة نفسية واجتماعية، وذلك انهم رأوا غزو التتار لبغداد وعسفهم بالمسلمين فخافوا على الإسلام ورأوا انّ أقصى ما يصبون إليه هو أن يصلوا إلى الاحتفاظ بتراث الأئمّة ممّا وضعوه و استنبطوه.[٢]

إنّ التبرير المذكور لا يمكن أن يصمد أمام النقد، و ذلك لأنّ الاحتفاظ بتراث الأئمّة لا ينافي دراسة هذا التراث من خلال عرض أفكار الأئمّة وآرائهم

١. وهبة الزحيلي، أُصول الفقه الإسلامي: ٢/ ١٠٣٣.

٢. أحمد أمين، رسالة الإسلام، العدد الثاني من السنة الثالثة.

ونقدها وتحليلها على ضوء الاجتهاد.

وهناك من برّر إقفال باب الاجتهاد بأنّ الفقهاء لأجل أن يوصدوا الباب أمام من ليس أهلاً للاجتهاد والنظر و يقطعوا الطريق على الفرق والمذاهب التي كثرت، ويحموا الأُمّة من الانقسام الديني، فأقفلوا باب الاجتهاد وقسموا المجتهدين إلى طبقات:

طبقة الاجتهاد المطلق، وطبقة مجتهدي المذاهب، وطبقة مجتهدي المسائل، ثمّ يأتي بعدهم المقلّدون.[١]

فسواء أصحّ التبرير المذكور أم لم يصحّ، فقد كان لإقفال الاجتهاد مضاعفات سلبية أهمها ركود الحركة الفقهية على وجه لم يكن للعلماء شأن سوى التصفّح في كتب أئمّة المذاهب وقد لمس الأُستاذ مصطفى أحمد الزرقا ء، خطورة الموقف، فأخذ يصف القرن السابع بأنّه قرن الانحطاط والجمود ويقول: في هذا الدور أخذ الفقه بالانحطاط، فقد بدأ في أوائله بالركود وانتهى في أواخره إلى الجمود، وقد ساد في هذا العصر الفكر التقليدي المغلق وانصرفت الأفكار عن تلمس العلل والمقاصد الشرعية في فقه الأحكام إلى الحفظ الجاف والاكتفاء بتقبل كلّ ما في الكتب المذهبية دون مناقشة، وطفق يتضاءل ويغيب ذلك النشاط الذي كان لحركة التخريج والترجيح والتنظيم في فقه المذاهب وأصبح مريد الفقه يدرس كتاب فقيه معين من رجال مذهبه فلا ينظر إلى الشريعة وفقهها إلاّ من خلال سطوره بعد ان كان مريد الفقه قبلاً يدرس القرآن والسنّة وأُصول الشرع ومقاصده.

وقد أصبحت المؤلفات الفقهية إلاّ القليل أواخر هذا العصر اقتصاراً لما

١. أُصول الفقه الإسلامي: ٢/ ١٠٣٣.

وجد من المؤلفات السابقة أو شرحاً له، فـانحصر العمل الفقهي في ترديد ما سبق ودراسة الألفـاظ وحفظها وفي أواخـر هذا الـدور حل الفكـر العامـي محل الفكر العلمي لدى كثير من متأخري رجال المذاهب الفقهية.[1]

وعلى كلّ حال فقد كان الإقفال بخساً لحق الأُمّة وعرقلة لتقدّمها.

نحـن لا نتكلم فيما سبـق ــ عفـا الله عمّا سلف ــ وإنّما نتكلـم في العصر الحاضر، و نقول لا محيص عـن فتح باب الاجتهاد وانّـه أمر ضروري لا ستره منه، لأنّ للفقيه في المسائل المستجدة انتهاج أحد الطرق التالية:

١. بـذل الوسـع في استنباط أحكـامهـا على ضوء الكتـاب والسنّة وسـائر الأُصول الشرعية.

٢. اتّباع المبادئ الغربية من دون نظر إلى مقاصد الشريعة.

٣. الوقوف دون إعطاء حكم لها.

ومن الواضح بمكان انّ الأوّل هو الذي يناسب المجتمع الإسلامي.

ومن حسـن الحظ انّ لفيفاً من المفكّريـن من القدامىٰ والجدد قـد دعوا إلى فتح باب الاجتهاد فمن القدامى العلاّمة الشوكاني حيث قال:

و من حصر فضل الله على بعـض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعـة على ما تقدم عصره فقـد تجرأ على الله عزّوجـلّ، ثمّ على شريعتـه الموضوعـة لكلّ عبـاده، ثمّ على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنّة.[2]

وأمّا مـن المتأخريـن فقد دعا العديـد منهم إلى ضرورة فتح بـاب الاجتهاد منهم:

---

١. المدخل الفقهي العام:١/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

٢. إرشاد الفحول:٢٢٤.

١. أحمد أمين الكاتب المصري نشر مقالة في مجلة رسالة الإسلام العدد الثالث.

٢. الأُستاذ علي منصور المصري مستشار مجلس الدولة السابق لمحكمة القضاء الإداري، فقد نشر مقالاً حول فتح باب الاجتهاد نشرته مجلة رسالة الإسلام في عددها الأوّل من السنة الخامسة.

٣. الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه «أُصول الفقه»، يقول: فمن الذي أقفل باب الاجتهاد؟ وما هي أدلّته؟ وهل يستطيع أحد أن يزعم انّ مواهب الله ومنحُه قاصرة على جيل دون جيل، أو إنسان دون إنسان؟ لهذا فانّ دعوى إقفال باب الاجتهاد غير مسموعة، لأنّ من مستلزمات ختم الشرائع السماوية بشريعة الإسلام فتح باب الاجتهاد على مصراعيه إلى ما شاء الله، وقد أحسن الشيعة والحركات السلفية الحديثة إذ قرروا بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً.[1]

وفي الختام نقول تبعاً لما أفاده الدكتور ـ حفظه الله ـ : إذا كان الاجتهاد بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلّتها التفصيلية، فلقد كان مفتوحاً منذ عصر النبي وأئمتهم عند الشيعة إلى يومنا هذا، ولم يزل الأئمّة يحرضون شيعتهم على الاجتهاد والتفريع والتخريج من الأُصول التي ألقوها على تلامذتهم.

قال الإمام الصادق عليه السلام : «إنّما علينا أن نلقي إليكم الأُصول وعليكم التفريع».[2]

وقال الإمام الرضا عليه السلام : «علينا إلقاء الأُصول وعليكم التفريع».[3]

وقد كان أئمّة أهل البيت عليهم السلام يعلمون كيفية استنباط الحكم الشرعي من

---

١. أُصول الفقه الإسلامي:٢/ ١٠٣٤.

٢ و ٣. وسائل الشيعة:١٨ ، الباب ٦ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٥١و ٥٢.

الآية، وكان موقفهم موقف المعلم بالنسبة إلى المتعلّم، فها نحن نكتفي بنقل رواية واحدة من روايات كثيرة في هذا المضمار.

روى عبد الأعلى مولى آل سام، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: عثرت فانقطع ظفري، فجعلت على أصبعي مرارة، فكيف أصنع بالوضوء؟ قال: «يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿**ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[١]، امسح على المرارة».[٢]

على أنّ للقرآن آفاقاً خفية لا يحيط بها إلاّ الراسخون في العلم، وقد أرشد أئمّة أهل البيت عليهم السلام إلى هذا النوع من الاستفادة و نقتصر على سرد هذه الحادثة التاريخية ليكون نموذجاً لما نروم إليه.

قُدِّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحدّ فأسلم، فقال يحيى بن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، و قال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود، فكتب المتوكل إلى الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام يسأله، فلمّا قرأ الكتاب، كتب:

يضرب حتى يموت، فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العلّة، فكتب: **بِسم الله الرّحمن الرحيم**

﴿**فَلَمّا رَأَوا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِالله وَحْدَهُ وَكَفَرنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكين * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوا بَأْسنا سنَّت اللهِ الّتي قَدْ خَلَتْ في عِباده وَخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرُون**﴾[٣] فأمر به المتوكل فضرب حتى مات.[٤]

---

١. الحج: ٧٨.

٢. وسائل الشيعة: ١، الباب ٣٩ من أبواب الوضوء، الحديث ٥.

٣. غافر: ٨٤ ـ ٨٥.

٤. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥.

وأمّا تاريخ إقفال باب الاجتهاد وكيفيته فقد ذكره المقريزي في خططه وقال:

إنّه تولّى القاضي أبو يوسف القضاء من قبل هارون الرشيد بعد سنة ١٧٠ إلى أن صار قاضي القضاة فكان لا يولّي إلاّ من أراده، ولمّا كان هو من أخصّ تلاميذ أبي حنيفة فكان لم ينصب للقضاء ببلاد خراسان والشام والعراق وغيرها إلاّ من كان مقلّداً لأبي حنيفة، فهو الذي تسبب في نشر مذهب الحنفية في البلاد.

وفي أوان انتشار مذهب الحنفية في المشرق نُشر مذهب مالك في إفريقية المغرب، بسبب زياد بن عبد الرحمان، فإنّه أوّل من حمل مذهب مالك إليها، وأوّل من حمل مذهب مالك إلى مصر سنة ١٦٠هـ، هو عبد الرحمان بن القاسم.

قال: و نشر مذهب محمد بن إدريس الشافعي في مصر بعد قدومه إليها سنة ١٩٨هـ وكان المذهب في مصر لمالك والشافعي إلى أن أتى القائد «جوهر» بجيوش مولاه «المعز لدين الله أبي تميم معد» الخليفة الفاطمي، إلى مصر سنة ٣٥٨هـ فشاع بها مذهب الشيعة حتى لم يبق بها مذهب سواه(أي سوى مذهب الشيعة).

ثمّ إنّ المقريزي بيّن بدء انحصار المذاهب في أربعة فقال:

فاستمرت ولاية القضاة الأربعة من سنة ٦٦٥هـ حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام غير هذه الأربعة وعُودي من تمذهب بغيرها، وأنكر عليه، ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب وأفتى فقهاؤهم في هذه الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتّباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها، والعمل على هذا إلى اليوم.[١]

---

١. راجع الخطط المقريزية: ٢/ ٣٣٣، ٣٣٤و ٣٤٤.

و هذه الكلمة الأخيرة: «وتحريم ما عداها» تكشف عن أعظم المصائب على الإسلام حيث إنّه قد مضى على الإسلام ما يقرب من سبعة قرون و مات فيها على دين الإسلام ما لا يحصي عددهم إلاّ ربّهم ولم يسمع أحد من أهل القرنين الأوّلين اسم المذاهب أبداً ، ثمّ فيما بعد القرنين كان المسلمون بالنسبة إلى الأحكام الفرعية في غاية من السعة والحرية، كان يقلد عاميّهم من اعتمد عليه من المجتهدين، وكان المجتهدون يستنبطون الأحكام عن الكتاب والسنّة على موازينهم المقررة عندهم في العمل بالسنّة النبوية، فأي شيء أوجب في هذا التاريخ على عامة المسلمين: «العامي المقلّد والفقيه المجتهد» أن لا يخرج أحد في الأحكام الشرعية عن حد تقليد الأئمّة الأربعة، وبأي دليل شرعي صار اتّباع أحد المذاهب الأربعة واجباً مخيراً، والرجوع إلى ما ورائها حراماً معيّناً.

والعجب انّ الشيخ محمد زاهد الكوثري (١٢٩٦ـ ١٣٧١هـ) ممّن يهاجم فتح باب الاجتهاد وكسر حصر المذاهب الأربعة ويصفه بأنّ «اللا مذهبية قنطرة اللا دينية» و أنا أتعجب من هذا المحقّق كيف وصف هذه الموهبة الإلهية بما ذكره مع أنّ عدم الالتزام بمذهب خاص كان أمراً مسلماً قبل الأئمّة الأربعة، فهل يمكن أن نقول إنّ: «اللامذهبية قنطرة اللا دينية»؟!

وحقيقة الأمر انّ الإسلام لم يفرض على مكلف تقليد أحد الأئمة الأربعة، فلو قلنا بأنّه يجوز تقليد مجتهد، حياً كان أو ميتاً يجوز تقليد كلّ من أراد من المجتهدين الماضين إذا كان مذهبه الفقهي واصلاً إلى المكلف عن طريق معتبر، وإن قلنا بشرطية الحياة في المجتهد فعلى كلّ مكلف أن يقلّد أي مجتهد حي.

وأمّا على أُصول الإمامية فبما انّ تقليد الميت باطل من رأس، كما أنّ تقليد الأعلم فرض و معه لا يجوز تقليد غيره، فيجب على كلّ مكلّف تقليد المجتهد

الحي الأعلم حتى تجتمع كلمة المسلمين على مجتهد واحد .

و في الختام نقول: إنّ من أراد أن يحيط بتاريخ الاجتهاد في الإسلام وتطوره وعلل إيصاد بابه لدى المسلمين، فليرجع إلى المصادر التالية:

١ . المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار: تأليف الشيخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المعروف بالمقريزي المولود في بعلبك عام ٧٦٦هـ والمتوفّى بالقاهرة عام ٨٤٥هـ.

٢. تاريخ اليعقوبي في المائة السابعة لكمال الدين عبد الرزاق بن المروزي الفوطي البغدادي المتوفّى سنة ٧٢٣.

٤ . الانصاف في بيان سبب الاختلاف.

٥ . عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد: ألّفهما ولي الله الدهلوي، المولود سنة ١١١٤ والمتوفّى ١١٨٠.

٦ . الإقليد لأدلّة الاجتهاد والتقليد.

٧. الطريقة المثلى في الإشارة إلى ترك التقليد: ألّفهما صديق حسن خان القنوجي البخاري، المتوفّى سنة ١٣٠٧، وطبع بالاستانة عام ١٢٩٥ .

٨. حصول المأمول من علم الأُصول: له أيضاً طبع في الجوائب سنة ١٢٩٦.

٩ . مقالة صاحب السعادة أحمد تيمور باشا ابن إسماعيل بن محمد، المولود في القاهرة سنة ١٢٨٨هـ ، وهي تحت عنوان «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة» طبعت مستقلة في القاهرة سنة ١٣٤٤هـ.

١٠ . ما كتبه محمد فريد وجدي في دائرة معارفه في مادتي «جهد وذهب» وما كتبه يعد أبسط ما كتب في الموضوع.

١١. أعلام الموقعين عن ربّ العالمين: للحافظ ابن القيم.

١٢. تاريخ حصر الاجتهاد: لشيخنا العلاّمة الطهراني، المتوفّى يوم الجمعة ١٣ ذي الحجّة عام ١٣٨٩هـ.

إلى غير ذلك من المؤلفات.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٤ ربيع الأوّل ١٤٢١هـ

٢

مكانة العقل

في العقيدة والشريعة

الإسلام عقيدة وشريعة، معارف وأحكام، فالعقيدة هي الرؤية الكونية التي ينبغي للمسلم الإذعان بها، كما أنّ الأحكام برامج عملية يسير على ضوئها.

وقد حاز العقل دوراً متميزاً علىٰ صعيد العقائد والمعارف والأحكام ممّا يدعونا إلىٰ تسليط المزيد من الضوء عليه، فنقول:

لقد حثَّ الإسلام منذ نشوئه على التفكير والتعقّل في الكون وباطنه الذي يعبّر عنه سبحانه بملكوت السماوات والأرض، وقال: **﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰواتِ وَالأَرضِ وَما خَلقَ اللهُ مِنْ شَيء﴾** [1] وقد استأثر التفكير والتعقّل بمساحة شاسعة من اهتماماته، حتى بلغت الآيات التي زهت بألفاظ (الفكر)، (العقل) من الكثرة بمكان. فقد ورد لفظ (الفكر) في القرآن بمختلف صيغه ثماني عشرة مرّة، كما ورد لفظ (العقل) فيه كذلك تسع وأربعين مرّة.

إنّه سبحانه زوّد الإنسان بالتفكير والتعقّل وأعطى له الأدوات المطلوبة وأفضلها السمع والبصر، قال سبحانه: **﴿وَاللهُ أَخرجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمهاتِكُمْ لاٰتَعْلَمُونَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾** [2].

---

١. الأعراف: ١٨٥.

٢. النحل: ٧٨.

والمراد من الشكر في ذيل الآية صرف النعمة في مواضعها، فشكر السمع والبصر هو إدراك المسموعات والمبصرات بهما، وشكر الفؤاد هو إدراك المعقولات وغير المشهودات به، فالآية كما تحرّض على إعمال السمع والبصر في درك ظواهر الكون، تحرّض أيضاً على استعمال الفؤاد والقلب والعقل فيما هو خارج عن إطار الحس وغير واقع تحت متناوله، فمن أراد قصر التعليم والتفكير على ظواهر الكون وحرمان الإنسان من التفكير فيما هو خارج عن نطاق الحس فقد خالف القرآن الكريم.

فهو أشبه بالطفل الذي يقتصر بما حوله من الأشباه والصور، دون أن يستطلع ما وراءهما، فالإنسان بحاجة إلى الحس والعقل معاً بغية التحليق في سماء العلم والعرفان.

القرآن هو المنطلق الأوّل لتنمية الفكر الإنساني

إنّ القرآن هو المنطلق الأوّل لتنمية الفكر الإنساني وحثّه على التعقّل والتفكير، فمن أراد أن يخلص لله في العبودية بلا تحليق العقل في سماء المعرفة، فقد تغافل عن آيات الذكر الحكيم ونظائرها. قال سبحانه: **﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُون* أَمْ خَلَقُوا السَّماوات وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾**[1].

فلو فسرنا «الشيء» في الآية بالسبب والعلة، فالجزء الأوّل من الآية يشير إلى برهان الإمكان الذي يقوم على لزوم سبب موجب لخروج الشيء من العدم إلى الوجود، والجزء الثاني منها يشير إلى بطلان كونهم خالقي أنفسهم، الذي يستقل العقل الصريح ببطلانه قبل أن يستقلّ العقل الفلسفي ببطلانه لأجل استلزامه

١. الطور: ٣٥ ـ ٣٦.

الدور.

ومن سبر غور هذه الآيات وتدبّر فيها يقف على عظمة قوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلّ شَيءٍ شَهِيد﴾[١].

فإذا كان التفكير هو جوهر الإسلام وأساسه وعليه أُقيم صَرْح الدين، فمع الأسف الشديد انّ جماعة من المسلمين عطّلوا العقول عن التفكير في المعارف بذريعة انّ كلّ ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه.[٢]

أقول: كيف يكون تفسير ما وصف الله به نفسه، بتلاوته والسكوت عليه، مع أنّ القرآن نزل للتدبّر في آياته من دون فرق بين آية وأُخرى، يقول سبحانه: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِه وليتذَكَّرَ أُولوا الأَلباب﴾[٣].

والعجب انّ بعض هؤلاء راح يتفلسف في إثبات نظريته، ويقول: «إنّما أُعطينا العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية، فمن شغل ما أُعطي لإقامة العبودية بإدراك الربوبية، فاتته العبودية ولم يدرك الربوبية».

وقائل هذا الكلام يفسِّر العبودية بالقيام والقعود والإمساك والصيام التي هي من واجبات الأعضاء، ولكنّنا نقول: إنّ العبودية تقوم على ركنين: ركن منه يرجع إلى فرائض الأعضاء وواجباتها، وركن آخر يرجع إلى العقل واللب، فتعطيل العقول عن معرفة المعبود بالمقدار الذي يستطيع الإنسان الوصول إليها، تعطيل لإقامة العبودية أو لجزئها، ولو اقتصر الإنسان في إقامة العبودية بالقيام والقعود

١. فُصّلت: ٥٣.

٢. الرسائل الكبرى، لابن تيمية: ١/ ٣٢، نقله عن سفيان بن عيينة.

٣. ص: ٢٩.

من دون إدراك للمعبود بصفات جماله وجلاله وأسمائه وصفاته، لكانت عبوديته كعبودية الحيوان والنبات والجماد، بل ربما تكون عبوديته أدنى مرتبة من عبوديتهم، كيف و قد قال سبحانه:

﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيخرجُ مِنْهُ الماءُ و إنّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُون﴾[1].

فالحجر يستشعر عظمته سبحانه حسب وجوده، ولكن الإنسان تُفرض عليه تلاوة كتابه سبحانه والسكوت ثم السكوت عليه.

ولعمر الحقّ إذا كانت وظيفة الإنسان المسلم الواعي هو تلاوة ما يرجع إليه سبحانه، فمن المخاطب بالآيات التي تحمل دقائق البراهين على توحيده ونفي الندِّ عنه، ويقول: **﴿وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمّا يَصِفُون﴾**[2].

ولو كانت الدعوة الإسلامية منحصرة بما يدركه الإنسان بالحس واللمس، فمن المخاطب يا تُرىٰ! بقوله سبحانه: **﴿لَو كانَ فِيهِما آلهةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفُون﴾**[3].

المعطّلة بثوبها الجديد

وقد ظهر التعطيل ــ أي تعطيل العقول عن المعارف والإلهيات ــ بثوبه الجديد في العصر الأخير، وقد حمل رايتها المغترّون بالعلوم الطبيعية.

---

١. البقرة: ٧٤.

٢. المؤمنون: ٩١.

٣. الأنبياء: ٢٢.

يقول فريد وجدى:

بما انّ خصومنا يعتمـدون على الفلسفة الحسية والعلم الطبيعـي في الدعوة إلى مذهبهـم، فنجعلهما عمدتنـا في هذه المبـاحث، بـل لا مناص لنـا من الاعتماد عليهما لأنهّما اللّذان أوصلا الإنسان إلى هذه المنصة من العهد الروحاني.(١)

ويقول بعض آخر:

كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعـاله، وعن بداية هذا العـالم ومصيره، وما يهجم عليـه الإنسان بعد مـوته، وآتـاهم علم ذلـك كلّه بواسطتهم عفواً بلا تعب، وكفوهم مؤونة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادؤهـا ولا مقدمـاتها التي يبنـون عليها بحثهـم ليتوصلـوا إلى مجهول، لأنّ هـذه العلـوم وراء الحس والطبيعة، لاتعمـل فيها حـواسهـم، ولا يؤدي إليهـا نظرهـم، وليست عندهم معلوماتها الأوّلية.

إلى أن يقول: الذيـن خاضوا في الإلهيات مـن غير بصيرة، وعلى غير هدى، جاءوا في هـذا العلم بآراء فجـة، ومعلومات نـاقصة وخواطـر سانحة، ونظـريات مستعجلة، فضلّوا وأضلوا.(٢)

لو صـحّ قول القـائل: إنّ هذه العلوم وراء الحس والتجـربة لا تعمـل فيها حواس، ولا يؤدي إليهـا النظر فلا تتوفر معلـوماتها الأوّلية، لزم تعطيـل التدبّر في المعارف القرآنية التي تقع مبادؤها وراء الحسّ، وعندئذٍ يتوجه إليه السؤال بأنّه لماذا يطرح الذكر الحكيـم جملةمن المعارف ويحرض على التدبر فيهـا، وهي ممّا تقع وراء الحس والطبيعة، وليسـت الغاية مـن طرحها هـو التلاوة والسكوت حتـى تصبح

---

١. على إطلال المذهب المادي:١/ ١٦.

٢.ماذا خسر العالم:٩٧.

الآيات لقلقة لسان لا تخرج عن تراقي القارئ بدل أن تنفذ إلى صميم الذهن وأعماق الروح.

وإن كنت في ريب من وجود هذه المعارف في الكتاب العزيز، فلاحظ الآيات التالية:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء﴾[١].

﴿وَللهِ المَثَلُ الأَعلىٰ﴾[٢].

﴿لَهُ الأَسماءُ الحُسْنىٰ﴾[٣].

﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾[٤].

﴿أَمْ خلقوا مِنْ غَيْرِ شَيءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُون﴾[٥].

﴿وهو مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾[٦].

﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاثةٍ إِلاّ هُوَ رابِعُهُم وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدنى مِنْ ذٰلِكَ ولاَ أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمّ يُنَبِّئُهُم بما عملوا يومَ القِيامةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليم﴾[٧].

فهل يصح أن نعطّل عقولنا بحجّة إنّما أعطينا لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية...؟!

أو بذريعة انّ الوحي كفانا مؤنة البحث والفحص في علوم لا نملك مباداها ولا مقدماتها.

---

١. الشورىٰ: ١١.
٢. النحل: ٦٠.
٣. طٰه:٨.
٤. البقرة: ١١٥.
٥. الطور: ٣٥.
٦. الحديد: ٤
٧. المجادلة: ٧.

إنّ هناك أُصولاً عقلية مبرهنة يعتقد بها الإلهيون وفي طليعتهم المسلمون، ولا يمكن للعلوم الطبيعية أن تساعدهم في فهمها ولا أن تهدي إليها البشر. كالبحث عن أنّ المصدر لهذا العالم والمبدئ له، أزلي أو حادث، واحد أو كثير، بسيط أو مركب، جامع لجميع صفات الجمال والكمال، أم لا؟هل لعلمه حد ينتهي إليه أم لا؟هل لقدرته نهاية أم لا؟ هل هو أوّل الأشياء وآخرها، أم لا؟ هل هو ظاهر الأشياء وباطنها أم لا؟

فالاعتقاد بهذه المعارف عن طريق العلوم الطبيعية والحسية غير ممكن، والاعتماد على الوحي للتعرف عليها غير مقدور لكلّ إنسان، مضافاً إلى أنّه تجب معرفتها قبل معرفة النبي ﷺ فكيف يتعرّف عليها عن طريق النبي والوحي المنزل؟

كلّ هذا يدفعنا إلى استخدام العقل في فهم هذه الحقائق التي لا تنال بالحس بل تنال بالعقل، فهل يمكن للشارع الحكيم الدعوة إلى هذه الحقائق والمنع من استخدام ما هو أداة فهمها ودركها .

إنكار التحسين والتقبيح العقليين ومضاعفاته

إنّ إهمال العقل في مضمار المعارف، جرّ المنكرون إلى إنكار التحسين والتقبيح العقليين، و قالوا : إنّه لا يمكن للعقل إنكار ما هو الحسن بالذات والقبيح كذلك، بل يرجع في ذلك إلى الشرع كله، وبالتالي ليس للعقل القضاء الباتّ بحسن العدل والصدق، أو قبح الكذب والظلم، وإنّما يتبع ذلك الوحي، فما حسّنه الشارع فهو حسن، وما قبّحه الشارع فهو قبيح، وهذا الكلام وإن كان له بظاهره طلاوة، ولكن القول به ينتهي إلى عدم إمكان إثبات نبوة الأنبياء كافة .

١ . إذا كان العقل عاجزاً عن درك حسن الأفعال وقبحها، فمن أين نعلم

صدق مدّعي النبوة الذي زود بمعاجز تجذب القلوب و تورث الإيمان؟

فلو اعتمدنا على العقل فهو كفيل بإثبات نبوته، لأنّه يحكم بأنّه قبيح على الحكيم أن يزود المتنبئ الكاذب بمعاجز، فتمكينه من هذه المعاجز دليل على صدقه وكونه مبعوثاً من قبل الله سبحانه، وأمّا لو أنكرنا ذلك فمن أين نميّز الصادق عن الكاذب ونحن نحتمل أنّه سبحانه يزوّد الكاذب بالمعاجز، كما يزوّد الصادق بها، لإنّه لم يثبت قبح الأوّل، و لا حسن الثاني؟!

٢. نفترض انّه ثبت نبوة نبيّ من الأنبياء، لكن من أين نعلم أنّ الشارع في حكمه وقضائه في مجال الصدق والكذب صادق، لأنّه ما لم يثبت قبل السماع والوحي، حسن الصدق ولا قبح الكذب، فمن أين نرفع احتمال الكذب في إخبار الشارع بحسن الصدق أو قبح الكذب، فلا يرفع ذلك إلاّ بقضية محرزة مفادها انّ العقل يحكم في صميم ذاته بأنّ الحكيم يقبح عليه الكذب ويحسن عليه الصدق.

وبالجملة إنكار التحسين والتقبيح العقليين ينتهي إلى إنكار التحسين والتقبيح الشرعيين.

إلى هنا تبيّن انّه لابد من استخدام العقل في تبيين العقائد والمعارف والبرهنة عليها، فمن حاول أن يُقصي العقل عن مقامه فقد أقصى الشرع أيضاً .

مفاهيم لا بدّ أن تبحث من جديد

فإذا كان العقل له الدور الكبير والرصيد العظيم في تقييم المعارف والعقائد، فثمة مسائل تعدّ من العقائد ولكن لا يدعمها العقل وليس لها من النقل رصيد قطعي، وها نحن نشير إلى بعض هذه المسائل من دون أن نخوض في

أغوارها فانّ لشرحها وبيان مفاهيمها مكاناً آخر لا يسع هذا المختصر.

١. جواز التكليف بما لا يطاق

وقد صرح بـه الإمام الأشعـري في اللمع[١] مع أنّ العقـل الصريح يحكـم بامتناعـه ـ يعني العقل الذي عرفنـاه به سبحانه ـ إذ كيـف يمكن أن يطلب شيء على نحو الجدّ ممّن لا طاقة له به.

٢. جواز إيلام الأطفال في الآخرة

يقول الإمام الأشعـري: هل لله تعالى أن يؤلم الأطفال في الآخـرة؟ قيل له: لله تعالى ذلك وهو عادل ان فعل، وكذلك كلّ ما يفعله.[٢]

و هذا شيء يناقض العقل الصريح، وليس تنزيهه سبحانه عنه، بمعنى عدم استطاعته عليه، بل تنزيهه سبحانه بمعنى كـونه مقتضى عدله وحكمته، فالعقل يدلّ على أنّـه سبحانـه عادل حكيم، والعـادل الحكيم لا يـأخذ البريء بـذنب لم يرتكبه.

وما ربما يقال من أنّ العالم كلّه ملـك لله سبحانه، والمالك يتصرف في ملكه كيفما شاء مغـالطة محضـة، بل المالـك الحكيم يتصرف في ملكـه حيث مـا تقتضي حكمته.

٣. القرآن ليس بمخلوق

يقول الإمـام أحمد بن حنبل: القرآن كـلام الله ليس بمخلوق، فمـن زعم انّ

١. اللمع:١١٦.
٢. اللمع: ١١٦.

القرآن مخلوق، فهو جهمي كافر، ومن زعم انّ القرآن كلام الله عزّوجلّ ووقف، فلم يقل مخلوق ولا غير مخلـوق، فهو أخبث من الأوّل، و مـن زعم انّ الفاظنا بـالقرآن وتلاوتنا له مخلـوقة، والقرآن كلام الله فهو جهمي، ومن لم يكفّـر هؤلاء القوم كلّهم فهو مثلهم.[١]

إنّ البحث عن قدم القرآن وحدوثه، وكـونه مخلوقاً أو غير مخلوق ذوشجون، وقد جـرّت تلك المسـألة على المسلمين الـويلات قـد ضبطها التـاريخ في عصر المأمـون والواثـق وبعـدهما، وقد شهـرت المعتزلـة هـذه المسألـة بـوجه المحـدّثين والأشاعرة لمّا راج سوقهم، كما آل الأمر إلى العكـس في عصر المتوكل و من أعقبه حيث شهرت الأشاعرة هذه المسألة بوجه المعتزلة، و أسفر ذلك عن وقوع ضحايا عديدة من الطرفين.

وبغض النظر عن ذلـك، نعلق على ما ذكره ونقول: ما ذا يـريد الإمام من قوله: «القرآن كـلام الله ليس بمخلوق»؟ هل يريد انّه ليـس بمختلق فقد صدق، لأنّ من يقول إنّه مختلق، فقد كفر برسالة النبي ﷺ و معجزته و تبع كفّار قريش، حيث كانوا يقولون: ﴿إِنْ هذا إِلاّ قَولُ البَشَر﴾ [٢].

أو يريد انّ القرآن في مرتبة علمه سبحانه ليس بمخلوق فقد صدق أيضاً، فإنَّ علمه سبحانه قـديم و القرآن أحد معلوماته سبحانـه، ولكن لا يختص ذلك بالقرآن بل علمه كله على حد سواء.

و إن أراد أنّ القرآن الملفوظ والمكتوب بعد نزوله قـديم كذاته سبحانه، فهو نفس الاعتراف بالقديم الثاني، ولا قديم عند المسلمين إلاّ الله سبحانه.

والقول بأنّـه ليس بقديم، ولكنّـه أيضاً ليس بمخلوق، تفكيـك بين اللازم

١. كتاب السنّة :٤٩.
٢. المدثّر: ٢٥.

والملزوم، فإذا لم يكن قديماً يكون حادثاً، وكلّ حادث مخلوق.

وبالجملة ليس على صفحة الوجود قديم إلاّ سبحانه وما سواه حادث .

٤ . رؤيته سبحانه يوم القيامة بالأبصار المادية

يقول الإمام الأشعري بجواز رؤية الله تعالى بهذه الأبصار المادية يوم القيامة، ويقول: وليس في تجويز الرؤية إثبات أي حدث.[١]

ويقول أيضاً في «الإبانة»: وندين بـأنّ الله تعالى يرى في الآخرة بالأبصار، كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون.[٢]

يترتـب على القول بـالرؤيـة مضـاعفات كثيرة تجعلهـا في عداد المحـالات، فمثلاً:

إنّ المرئي إمّا كلّه سبحانه أو بعضه، فعلى الأول يكون سبحانه محاطاً، والله محيط، وعلى الثـاني يلزم أن يكـون مركبـاً ذا أجزاء وهـو محال ، ولم يرد في صريـح القرآن ما يدلّ على ذلك.

وأظهر ما استـدلّ به على الرؤية هو قولـه سبحانه: **﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ ناضرة * إلى ربّها ناظرة﴾**[٣]. فخرج المستدلّ إلى أنّ المراد من النـاظرة انّها رائية، ترى ربها عزّ وجلّ، ولكـن المستدلّ غفل عن إسنـاد النظر إلى الوجوه لا إلى العيـون، فلو أراد سبحانه الرؤية لقال عيون يومئذ ناضرة، ولم يقل وجوه يومئذٍ ناضرة.

على أنّ قوله: **﴿ إلى ربّها ناظرة﴾** عِدْل لقوله سبحانه: **﴿تَظُنُّ أن يُفْعَلَ بها فاقرة﴾**[٤] وبـالإمعان في مفهـوم العـدل، يعلـم المقصـود مـن قولـه: **﴿إلى ربّها**

---

١ . اللمع في الردّ على أهل الزيغ والبدع:٦١.
٢ . الإبانة:٢١.
٣.القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
٤ . القيامة: ٢٥.

ناظرة﴾ .

توضيح ذلك:

إنّ الآية لا تدلّ على نظرية الرؤية حتى ولو قلنا بأنّ النظر في الآية بمعنى الرؤية، بل الآية تهدف إلى أمر آخر لا صلة له بمسألة الرؤية، ويعرف مفاد الآيات بمقارنةبعضها ببعض، وإليك بيانه:

إنّ الآية الثالثة تقابل الآية الأُولى، كما أنّ الرابعة تقابل الثانية، وعند المقابلة يرفع ابهام الثانية بالآية الرابعة، وإليك تنظيم الآيات حسب المقابلة:

١ . **﴿وجوه يومئذٍ ناضرة﴾** يقابلها قوله: **﴿وجوه يومئذ باسرة﴾** .

٢ . **﴿إلى ربّها ناظرة﴾** يقابلها قوله: **﴿تظن أن يُفعل بها فاقرة﴾** .

وبما انّ المقابل للآية الثانية واضح المعنى، فيكون قرينة على المراد منها، فإذا كان المقصود من المقابل أنّ الطائفة العاصية تظن وتتوقع أن ينزل بها عذاب يَكسر فقارها، ويقصم ظهرها، يكون المراد من عدله وقرينه عكسه، و ليس هو إلاّ أنّ الطائفة المطيعة تكون مستبشرة برحمته ومتوقعة لفضله وكرمه،لا النظر إلى ذاته وهويته و إلاّ لخرجت المقابلات عن التقابل، وهو خلف.

وبعبارة أُخرى: يجب أن تكون المقابلات متحدة المعنى والمفهوم، إلاّ في النفي والإثبات، فلو كان المراد من المقابل الأوّل أعني: **﴿إلى ربّها ناظرة﴾** هو رؤية جماله سبحانه وذاته، فيجب أن يكون الجزاء في قرينه أعني: **﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾** هوحرمان هؤلاء عن الرؤية أخذاً بحكم التقابل، وبما انّ تلك الجملة ـ أعني: القرين الثاني ـ لا تحتمل ذلك المعنى، أعني الحرمان من الرؤية، بل صريحة

في انتظار العذاب الفاقر، يكون ذلك قرينة على المراد من القرين الأوّل وهو رجاء رحمته وانتظار فرجه وكرمه.

هذه نماذج مما يضاد العقل الصريح، ولها نظائر في السنة النبوية المنسوبة إلى النبي ﷺ وهو ﷺ بريء منها. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا «الحديث النبوي بين الرواية والدراية».

فقد خرجنا بالنتيجة التالية:

إنّ الطريقة المثلىٰ هي سلوك منهج لا يؤدّي إلى التشبيه ولا إلى التعطيل، فأهل التشبيه يصبّون المعارف العملية في قوالب جسمية وصفات مادية، وأهل التعطيل يوصدون نوافذ عقولهم وأفهامهم من التطلع إلى ما وراء الطبيعة، ولكن الطريق الوسط هو التعرف على ما وراء الطبيعة بما فيها من الجمال والجلال عن طريق التدبّر و إمعان النظر بتنظيم الحجج العقلية أو بالنظر إلى آيات وجوده، فعند ذلك يخرج الإنسان عن مهلكة التشبيه ومغبَّة التعطيل وافراط المجسمة وتفريط المعطلة، وهذا هو الذي يدعو إليه القرآن الكريم وخطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

قال الإمام علي عليه السلام: «لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته».[١]

وقال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: «إنّ اللهَ عزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان متعمقون، فأنزل الله تعالى سورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والآيات الستّ من سورة الحديد».[٢]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٩.

٢. الكافي: ١/ ٩١، باب النسبة، الحديث ٣؛ نور الثقلين: ٥/ ٢٣١.

وكتب الإمام الصادق عليه السلام في جواب سؤال «عبد الرحيم بن عتيك القصير» ـ عندما سأله عن قوم بالعراق يصفون الله بالصورة وبالتخطيط ـ: «سألت رحمك الله عن التوحيد وما ذهب إليه من قبلك فتعالى الله الذي ليس كمثله شيء و هو السميع البصير، تعالى عمّا يصفه الواصفون المشبّهون الله بخلقه المفترون على الله.

فاعلم رحمك الله أنّ المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزّ وجلّ، فانفِ عن الله تعالى البطلان والتشبيه، فلا نفي ولا تشبيه هو الله الثابت الموجود، تعالى الله عمّا يصفه الواصفون ولا تعدوا القرآن فتضلّوا بعد البيان».[1]

مشكلة الصفات الخبريّة

الصفات الخبرية عبارة عما أخبر عنها النقل ولم يدلّ عليه العقل كاليد واليدين، والعين، والاستواء وما ضاهاها. فقد شغلت بال المحدّثين والمتكلمين عبر القرون واحتدمت مساجلات ومشاجرات، لأنّها بظاهرها تحكي عن التشبيه والتجسيم، ولذلك اختار كلّ ـ غير المجسمة ـ مهربا.

والآراء المشهورة فيها عبارة:

١. الإثبات مع التشبيه والتكييف.

٢. الإثبات بلا تشبيه ولا تكييف.

٣. تفويض معناها إلى الله والإمرار على الآية.

٤. التأويل والتصرف في ظاهر الآية حذراً من مخالفة العقل، والجميع لا

١. الكافي١، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه، الحديث ١.

يخلو من هن وهنات.

أمّا الأوّل، فهـو عقيدة المشبهـة والمجسمة، وهـو مخالف لصريـح الوحـي، واتفاق المسلمين، وبداهة العقل.

أمّا الثـاني فلا يخفى انّ فيـه استسلاماً للمتنـاقضين فانّ واقع اليـد، حسب اللغة يتقوّم بـالهيئة المخصوصة والكيفية المعلـومة، فإثبات اليد بـالمعنى اللغوي، التزام بالهيئة، والكيفية و إردافها بالبلكفة ـ أي بلا كيف ـ جمع بين النقيضين.

وأمّا الثالث ففيه تعطيل العقول عن فهم الآيات والتدبّر فيها، كما سبق.

وأمّا الرابع أي تـأويل ما ورد في القرآن من الصفات الخبريـة، فإن أُريد به، حمل الآية على خلاف ظاهرها بحجّة انّ ظاهرها يخالف العقل، فهو باطل لأنّه من المستحيل أن يكون الوحي القطعي مخالفاً للعقل الصريح القطعي، فما اشتهر على الألسنة مـن أنّه إذا خالف النقـل حكم العقل، يـؤوّل النقل ممّا لا أساس لـه من الصحّـة، إذا كـان النقـل أمـراً قطعيّاً كـالـوحـي، فـانّ لازم ذلـك الاستسـلام للمتناقضين.

وإن أُريد بـالتأويـل، الإمعان في القـرائن الحافّة بـالآية أو مـا ورد في سائر الآيات لتحصيل الظهور المستقر، فهو صحيح لكنّه ليس بتأويل، وتسميته تأويلاً إنّما هو بالنسبة إلى الظهور البدوي لا بالنسبة إلى الظهور المستقر.

توضيح ذلك انّ لبعض الجمل ظهورين:

١. ظهور بدوي.

٢. ظهور مستقر.

فإذا قلت: «زيد كثير الـرماد» أو «جبان الكلب» فالظهور البـدوي يوحي بذم صاحـب البيت وكلبه، فانّ البيت المملـوء بالرماد يكـون وسخاً منفّراً، كما أنّ

أهمية الكلب تُكمن في ضراوته لا في جبنه.

ولكن بـالنظر إلى الظهور المستقـر، فالجملتـان وردتا لمدح صاحـب البيت وكلبه، حيث إنّ العرب تكني بهما عن سماحته وكثـرة عطائه، ولو سُمّي هذا النوع من التفسير تـأويلاً أي مخالفاً للظـاهر، فإنّما هـو بالنظر إلى الظهـور البدوي دون الظهور المستقر، والتأويل الباطل هو صرف الظهور المستقر عن ظاهره، وهو غير متحقّق، وأمّا المتحقّق فهو رفع الظهور البدوي غير المستقرّ وهو ليس بمحذور.

إذا عرفـت ذلك فلنـرجع إلى تفسير آية واحـدة وردت فيها الصفـة الخبرية حتى تكـون مقياسـاً لتفسير سائر الآيـات الواردة فيهـا، الصفات الخبريـة ، قال سبحانه: ﴿**يٰا إِبْلِيسُ مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدي**﴾[١].

فالآية بظاهـرها البدوي تثبت لله سبحانه «يـدين»، فللمخاطب أن يفسر الآية بأحد الطرق التالية:

١ . الإثبات مع التكييف وهو نفس التجسيم.

٢ . الإثبات بلا تكييف، وهو استسلام للمتناقض.

٣. التفويض والإمرار عليها، وهو تعطيل للعقول.

٤ . التأويل، وحمل الآية خـلاف ظاهرها وهو أمر باطـل، إذ لو كان الظهور حجّة، فليس لنا التصرف فيه بحجّة انّ العقل يخالفه .

٥ .التفـريق بين الظهـور البـدوي والظهور المستقـر، بـرفض الأوّل، وأخـذ الثاني، لأنّ العبرة في كشف المقاصد هو الثاني دون الأوّل.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ الإمعان في القـرائن المحتفّةبالآية تعرب عن أنّ

---

١ . ص : ٧٥.

الإخبار بخلق آدم بيديه كناية عن اهتمامه سبحانه بخلقه، وانّه كان مصنوعاً له سبحانه دون غيره، فكأنّه سبحانه يقول لماذا رفضت يا إبليس السجود لمن كان لي الاهتمام بمكانه؟

فَأُطلقت الخلقة باليد وكنّى بها عن قيامه سبحانه بخلقه، وعنايته بإيجاده، وتعليمه إيّاه أسماءه، لأنّ الغالب في عمل الإنسان هو القيام به باستعمال اليد، يقول: هذا ما بنيته بيدي، أو ما صنعته بيدي، أو ربّيته بيدي، و يراد من الكلّ هو القيام المباشري بالعمل، وربّما استعان فيه بعينه وسمعه وغيرهما من الأعضاء، لكنّه لا يذكرها ويكتفي باليد. وكأنّه سبحانه يندّد بالشيطان بأنّك تركت السجود لموجود اهتممت بخلقه وصنعه.

ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مالِكُونَ**﴾[1] فالأيدي كناية عن تفرّده تعالى بخلقها، لم يشركه أحد فيه. فهي مصنوعة لله تعالى والناس يتصرّفون فيها تصرف الملاّك كأنّها مصنوعة لهم، فبدل أن يشكروا يكفرون بنعمته. وأنت إذا قارنت بين الآيتين تقف على أنّ المقصود هو المعنى الكنائي، والمدار في الموافقة والمخالفة هو الظهور المستقر لا البدوي.

وما ذكرناه في تفسير الآية يكون اسوة لتفسير عامة الصفات الخبرية الواردة في القرآن من دون أن يستلزم التشبيه، أو الاستسلام للمتناقضين، أو التعطيل أو التأويل المرفوض.

وقس على ذلك قوله سبحانه:

١. ﴿**وَالسّماءَ بَنَيْناها بِأَيدٍ و إنّا لَمُوسِعُونَ**﴾[2]

---

١. يس: ٧١.
٢. الذاريات: ٤٧.

٢. ﴿ثُمَّ استَوى على العَرشِ يُدبّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفيعٍ إلاّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ﴾[١].

٣. ﴿وَاصبِر لِحُكْمِ ربّكَ فَإنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾[٢].

إلى غير ذلك من الآيات التي وردت فيها الصفات الخبرية، فانّ الحل الناجع، لتفسيرها، هو التفكيك بين الظهور البدوي والظهور المستقر، والاعتماد في كشف المراد على الثاني دون الأوّل، وذلك بالإمعان بالقرائن الموجودة في نفس الآية وسياقها.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١. يونس: ٣.

٢. الطور: ٤٨.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»

(الكافي: ١/ ٢٧)

٣

الإسلام و متطلّبات العصر

أو

دور الزمان والمكان في الاستنباط

تقديم

دلّت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واتّفاق المسلمين على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو النبي الخاتم، وكتابه خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع، ونبوته خاتمة النبوات، فما جاء على صعيد التشريع من قوانين و سنن تعدّ من صميم ثوابت هذا الدين لا تتطاول عليها يد التغيير، فأحكامه في العبادات والمعاملات وفي العقود والإيقاعات، والقضاء والسياسات أُصول خالدة مدى الدهر إلى يوم القيامة وقد تضافرت عليها الروايات:

١. روى أبو جعفر الباقر عليه السلام قال: قال جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيّها الناس حلالي حلال إلى يوم القيامة ، وحرامي حرام إلى يوم القيامة، ألا وقد بيّنهما الله عزّ وجلّ في الكتاب وبيّنتهما لكم في سنتي وسيرتي».[1]

---

١. الوسائل: ١٨/ ١٢٤.

٢. كما روى زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلال والحرام، فقال: «حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيرَه ولا يجيء بعده».[1]

والروايات في هذا الصدد عن النبي الأعظم وأهل بيته ـ صلوات الله عليهم ـ كثيرة، وقد جمعنا طائفة منها في كتابنا مفاهيم القرآن فبلغت ١٣٥ حديثاً، وبما انّ خلود شريعته أمر لم يشكّ فيه أحد من المسلمين، وهو من ضروريات الدين نقتصر على ذلك المقدار، ونطرح السؤال التالي:

إذا كانت الحياة الاجتماعية على وتيرة واحدة لصحّ أن يديرها تشريع خالد ودائم، وأمّا إذا كانت متغيرة تسودها التحوّلات والتغييرات الطارئة، فكيف يصحّ لقانون ثابت أن يسود جميع الظروف مهما اختلفت وتباينت؟

إنّ الحياة الاجتماعية التي يسودها الطابع البدوي والعشائري كيف تلتقي مع حياة بلغ التقدم العلمي فيها درجة هائلة، فكلّ ذلك شاهد على لزوم تغيير التشريع حسب تغيير الظروف.

هذا السؤال كثيراً ما يثار في الأوساط العلمية ويراد من ورائه أمر آخر، وهو التخلص من قيود الدين والقيم الأخلاقية، مع الغفلة انّ تغير ألوان الحياة لا يصادم ثبات التشريع وخلوده على النحو الذي بيّنه المحقّقون من علماء الإسلام.

وذلك لأنّ السائل قد قصّرالنظر على ما يحيط به من الظروف المختلفة المتبدلة، وذهل عن أنّ للإنسان خُلقاً وغرائز ثابتة قد فطر عليها وهي لا تنفك عنه مادام الإنسان إنساناً، وهذه الغرائز الثابتة تستدعي لنفسها تشريعاً ثابتاً يدوم بدوامها، ويثبت بثباتها عبر القرون والأجيال، وإليك نماذج منها:

---

١. الكافي: ١/ ٥٧.

١. انّ الإنسان بما هو موجود اجتماعي يحتاج لحفظ نسله إلى الحياة العائلية، وهذه حقيقة ثابتة في حياة الإنسان وجاء التشريع وفقاً لها، يقول سبحانه: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيامىٰ مِنكُمْ وَالصّالِحينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾[١].

٢. العدالة الاجتماعية توفّر مصلحة المجتمع وتدرأ عنه الفساد والانهيار والفوضى، فليس للإنسان في حياته الاجتماعية إلاّ السير وفق نهج العدل والابتعاد عن الظلم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسان وَايتاءِ ذِي القُربىٰ وَيَنْهىٰ عَنِ الفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

٣. انّ الفوارق الرئيسية بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس، فهما يختلفان في الخلقةعلى رغم كلّ الدعايات السخيفة التي تبغي إزالة كلّ تفاوت بينهما، وبما انّ هذا النوع من الاختلاف ثابت لا يتغير بمرور الزمان فهو يقتضي تشريعاً ثابتاً علىٰ شاكلة موضوعه، يقول سبحانه: ﴿الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ وَبِما أَنْفقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ﴾[٣].

٤. الروابط العائلية هي روابط طبيعية ، فالأحكام المنسّقة لهذه الروابط من التوارث ولزوم التكريم ثابتة لا تتغير بتغير الزمان، يقول سبحانه: ﴿وَأُولُوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَولىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ الله﴾[٤] والمراد من الأولوية هي الأقربية.

٥. انّ الحياة الاجتماعية رهن الحفاظ على الأخلاق، وممّا لا شكّ فيه انّ الخمر والميسر والإباحة الجنسية تقوّض أركان الأخلاق، فالخمر يزيل العقل، والميسر يورث العداء في المجتمع، والإباحة الجنسية تفسد النسل والحرث فتتبعها أحكامها في الثبات والدوام.

---

١. النور: ٣٢.
٢. النحل: ٩٠.
٣. النساء: ٣٤.
٤. الأنفال: ٧٥.

هذه نماذج استعرضناها للحياة الاجتماعية التي لا تمسّها يد التغير، وهي ثابتة دائماً، فإذا كان التشريع على وفق الفطرة، وكان نظام التشريع قد وضع وفق ملاكات واقعية، فالموضوعات تلازم أحكامها، ملازمة العلة لمعلولها، والأحكام تتبع موضوعاتها تبعيّة المعاليل لعللها.

هذا جواب إجمالي، وأمّا الجواب التفصيلي فهو رهن الوقوف على الدور الذي يلعبه الزمان والمكان في مرونة الأحكام الشرعية، وتطبيع الأحكام على متطلبات العصر، وهذا هو الذي سنقوم بدراسته.

دور الزمان والمكان في الاستنباط

قد يطلق الزمان والمكان ويراد منها المعنى الفلسفي، فيفسر الأوّل بمقدار الحركة، والثاني بالبعد الذي يملأه الجسم، والزمان والمكان بهذا المعنى خارج عن محط البحث، بل المراد هو المعنى الكنائي لهما، أعني: تطور أساليب الحياة والظروف الاجتماعية حسب تقدم الزمان وتوسع شبكة الاتصالات. وهذا المعنى هو الذي يهمّنا في هذا البحث، ودراسته تتم في ضمن فصول خمسة:

الأوّل: دراسة الروايات الواردة في ذلك المضمار.

الثاني: نقل مقتطفات من كلمات الفقهاء.

الثالث: تطبيقات عملية.

الرّابع: دورالزمان والمكان في الأحكام الحكوميّة.

الخامس: في دراسة تأثيرالعنصرين في الفقه السنّي.

وإليك دراسة الجميع واحداً تلو الآخر.

الفصل الأوّل

استعراض الروايات الواردة
في ذلك المضمار

قد أُشير في غير واحد من الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام إلى أنّ للزمان والمكان دوراً في تغير الأحكام إمّا لتبدّل موضوعه بتبدّل الزمان، أو لتغير ملاك الحكم إلى ملاك آخر، أو لكشف ملاك أوسع من الملاك الموجود في عصر التشريع أو غير ذلك ممّا سيوافيك تفسيره عند البحث في التطبيقات.

وأمّا ما وقفنا عليه في ذلك المجال من الأخبار، فنذكره على الترتيب التالي:

١. سئل علي عليه السلام عن قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «غيّروا الشيبَ ولا تشبّهوا باليهود».

فقال عليه السلام: «إنّما قال صلى الله عليه وآله وسلم ذلك والدين قلّ، فأما الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار».[1]

فأشار الإمام بقوله: إنّ عنوان التشبّه كان قائماً بقلّة المسلمين وكثرة اليهود، فلو لم يخضِّب أحد من المسلمين شيبته وكانوا في أقلية صار عملهم تشبهاً باليهود وتقوية لهم، وأمّا بعد انتشار الإسلام في أقطار الأرض على نحو صارت اليهود هم الأقلية فلا يصدق التشبّه بهم إذا ترك الخضاب.

---

١. نهج البلاغة، قسم الحكم، رقم ١٧.

٢. روى محمد بن مسلم و زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام انهما سألاه عن أكل لحوم الحمُر الأهلية، فقال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أكلها يوم خيبر، وإنّما نهى عن أكلها في ذلك الوقت لأنّها كانت حمولة الناس، وإنّما الحرام ما حرّم الله في القرآن».[١]

والحديث يشير إلى أنّ نهي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أكل لحومها كان لأجل انّ ذبحها في ذلك الوقت يورث الحرج والمشقة ،لأنّها كانت سبباً لحمل الناس و الأمتعة من مكان إلى آخر، فإذا ارتفعت الحاجة في الزمان الآخر ارتفع ملاك الحرمة.

٣. روى محمد بن سنان ، أنّ الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: «كره أكل لحوم البغال والحمر الأهلية لحاجة الناس إلى ظهورها واستعمالها والخوف من فنائها وقلّتها لا لقذر خلقها ولا قذر غذائها».[٢]

٤. روى عبد الرحمن بن حجاج، عمّن سمعه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سألته عن الزكاة ما يأخذ منها الرجل؟ وقلت له: إنّه بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أيّما رجل ترك دينارين فهما كيّ بين عينيه، قال: فقال: «أُولئك قوم كانوا أضيافاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا أمسى، قال: يا فلان اذهب فعشّ هذا، فإذا أصبح قال: يا فلان اذهب فغدّ هذا، فلم يكونوا يخافون أن يصبحوا بغير غذاء ولا بغير عشاء، فجمع الرّجل منهم دينارين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه هذه المقالة، فانّ الناس إنما يُعطَون من السنة إلى السنة فللرّجل أن يأخذ ما يكفيه ويكفي عياله من السنة إلى السنة».[٣]

---

١ و ٢. وسائل الشيعة:١٦، الباب ٤ من كتاب الأطعمة والأشربة، الحديث ١و٨.

٣. معاني الأخبار:١٥٢، باب معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أيما رجل ترك دينارين».

٥. روى حماد بن عثمان، قال: كنت حاضراً عند أبي عبد الله عليه السلام. إذ قال له رجل : أصلحك الله، ذكرت أنت علي بن أبي طالب كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم و ما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيّد، قال: فقال له:«إنّ علي بن أبي طالب صلوات الله عليه كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشُهر به، فخير لباس كلّ زمان، لباس أهله».[١]

٦. روى مسعدة بن صدقة: دخل سفيان الثوري على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياب بيض كأنّها غرقئ البيض، فقال: إنّ هذا اللباس ليس من لباسك، فقال الإمام ـ بعد كلام ـ: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مُقْفر جدْب، فأمّا إذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها».[٢]

٧. روى عبد الله بن سنان، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :«بينا أنا في الطواف وإذا برجل يجذب ثوبي، وإذا هو عباد بن كثير البصري»، فقال: يا جعفر ابن محمد تلبس مثل هذه الثياب وأنت في هذا الموضع مع المكان الذي أنت فيه من علي عليه السلام؟! فقلتُ :«فرُقبيّ اشتريته بدينار، وكان علي عليه السلام في زمان يستقيم له ما ليس فيه، ولو لبستُ مثل ذلك اللباس في زماننا لقال الناس هذا مراء مثل عباد».[٣]

٨. روى المعلى بن خنيس، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ عليّاً كان عندكم فأتى بني ديوان واشترى ثلاثة أثواب بدينار، القميص إلى فوق الكعب والإزار إلى نصف الساق، و الرداء من بين يديه إلى ثدييه ومن خلفه إلى إليتيه، وقال: هذا اللباس الذي ينبغي للمسلمين أن يلبسوه، قال أبو عبد الله: «ولكن لا تقدرون أن

---

١ و ٢. الوسائل: ٣، الباب ٧ من أبواب أحكام الملابس، الحديث ٧ و١٠ .
٣. الوسائل: ٣، الباب ٧ من أبواب أحكام الملابس، الحديث ٣ .

تلبسوا هذا اليوم ولو فعلناه لقالوا مجنون، ولقالوا مرائيّ».[١]

٩. روى أبو بكر الحضرميّ، قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «لسيرة علي عليه السلام في أهل البصرة كانت خيراً لشيعته ممّا طلعت عليه الشمس انّه علم انّ للقوم دولة، فلو سباهم تُسب شيعته».[٢]

١٠. روى السراد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: أبيع السلاح، قال: «لا تبعه في فتنة».[٣]

١١. روى المعلى بن خنيس إذا جاء حديث عن أوّلكم وحديث عن آخركم بأيّهما نأخذ؟ فقال: «خذوا به حتى يبلغكم عن الحي، فخذوا بقوله، أما والله لا ندخلكم إلاّ فيما يسعكم».[٤] فإنّ الحكم الثاني المخالف لما روى سابقاً رهن حدوث تغير في جانب الموضوع أو تبدل الملاك أو غير ذلك من العناوين المؤثرة لتبدّل الحكم.

١٢. روى محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: «إنّ النبي صلى الله عليه وآله نهى أن تحبس لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام من أجل الحاجة، فأمّا اليوم فلا بأس به».[٥]

١٣. روى محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن إخراج لحوم الأضاحي من منىٰ ؟ فقال: «كنّا نقول: لا يخرج منها بشيء لحاجة الناس إليه، وأمّا اليوم فقد كثر الناس فلا بأس بإخراجه».[٦]

---

١. الكافي: ٦، باب تشمير الثياب من كتاب الزي والتجمل، الحديث ٢.

٢. الكافي: ٥، كتاب الجهاد:٣٣ باب (لم يذكر عنوان الباب) الحديث ٤.

٣. الكافي: ٥، باب بيع السلاح منهم الحديث ٤ و في الباب ما له صلة بالمقام.

٤. الكافي: ١، باب اختلاف الحديث، الحديث ٩.

٥. الوسائل: ١٠، الباب ٤١ من أبواب الذبح، الحديث٣.

٦. الوسائل: ١٠، الباب ٤٢ من أبواب الذبح، الحديث ٥.

١٤ . روى الحكم بن عتيبة ، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال: قلت له: إنّ الديات إنّما كانت تؤخذ قبل اليوم من الإبل والبقر والغنم، قال: فقال: «إنّما كان ذلك في البوادي قبل الإسلام، فلمّا ظهر الإسلام وكثرت الورق في الناس قسّمها أمير المؤمنين عليه السلام على الورق» قال الحكم:قلت: أرأيت من كان اليوم من أهل البوادي، ما الذي يؤخذ منهم في الدية اليوم؟إبل؟ أم ورق؟ فقال:« الإبل اليوم مثل الورق بل هي أفضل من الورق في الدية، انّهم كانوا يأخذون منهم في دية الخطأ مائة من الإبل يحسب لكلّ بعير، مائة درهم ،فذلك عشرة آلاف».

قلت له: فما أسنان المائة بعير؟ فقال: «ما حال عليه الحول ذُكْران كلّها».[1]

إنّ المشكلة في المقرر من الديات الست من وجوه:

الأوّل: عدم وجود التعادل والتساوي بين الأُمور الست في بدء الأمر، الواردة في بعض الأحاديث.

١٥ . روى عبد الرحمن بن الحجاج دية النفس بالشكل التالي:

أ: مائة إبل كانت في الجاهلية وأقرّها رسول الله.

ب: مائتا بقر على أهل البقر.

ج: ألف شاة ثنيّة على أهل الشاة.

د: ألف دينار على أهل الذهب.

هـ: عشرة آلاف درهم على أهل الورق.

و:مائتا حلّة على أهل اليمن.[2]

---

١ . الوسائل: ١٩، الباب ٢ من أبواب ديات النفس، الحديث ٨.

٢ . الوسائل: ١٩، الباب ١ من أبواب دية النفس، الحديث١ .

فأين قيمة مائتي حلة من قيمة مائة إبل أو غيرها؟! فقد أوجد ذلك مشكلة في أداء الدية خصوصاً إذا قلنا بما هو المشهور من أنّ اختيار أي واحد منها بيد القاتل، فإذاً كيف يتصور التخيير بين الأقل والأكثر؟!

والجواب انّه من المحتمل أن تكون جميع هذه الموارد متقاربة القيمة، لأنّ الحلل اليمانية وإن كانت زهيدة الثمن إلاّ انّ صعوبة اقتنائها حال دون انخفاض قيمتها.

وعلىٰ فرض انخفاض قيمتها لما كان للجاني اختيار الحلل أخذاً بالمتيقن من مورد النص للجاني.

الثاني: المراد من الورق الوارد في النصوص هو الدينار والدرهم المسكوكين الرائجين، وهذا غير متوفر في غالب البلدان، لأنّ المعاملات تتم بالعملة الرائجة في كلّ بلد، وهي غير النقدين، وعلى فرض وجود النقدين في الأعصار السابقة، فليسا رائجين.

الثالث: لم ترد في النصوص الاجتزاء بالعملة الرائجة فما ورد من الدينار والدرهم فغير رائجين وما هو الرائج اليوم كالعملة الورقية فلم يرد فيها نصّ .

والجواب عن الأخيرين هو انّ تقويم دية النفس بالأنعام أو الحلل، لم يكن لخصوصية فيها دون غيرها، بل لأجل انّ قلّة وجود النقدين كانت سبباً لتعامل الناس بالأجناس فكان الثمن أيضاً جنساً كالمثمن ولما كثر الورق، قسّمها الإمام على الورق.

و هذا يعرب عن أنّ الدية الواقعية هو قيمة هذه الأنعام والحلل، لا أنفسها بما هي هي، بنحو لو أدى قيمتها لما أدّى الدية الواقعية.

ولو صحّ ذلك فلا فرق عندئذٍ بين النقدين والعملة الرائجة في البلاد هذه

الأيام، إذ الغرض أداء قيمة النفس بأشكالها المختلفة.

١٦. روى الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألت عن الوبا يكون في ناحية المصر فيتحول الرجل إلى ناحية أُخرى، أو يكون في مصر فيخرج منه إلى غيره.

فقال: «لا بأس إنّما نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك لمكان ربيئة كانت بحيال العدو فوقع فيهم الوبا فهربوا منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الفارّ منه كالفار من الزحف كراهية أن يخلو مراكزهم».[١]

فدلّ الحديث على أنّ النهي كان بملاك خاص، وهو انّ الخروج كان سبباً لضعف النظام الإسلامي وإلّا فلا مانع من أن يخرجوا منه بغية السلامة.

١٧. روى علي بن المغيرة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: القوم يكونون في البلد فيقع فيه الموت، ألهم أن يتحوّلوا عنها إلى غيرها، قال: «نعم»، قلت: بلغنا انّ رسول الله صلى الله عليه وآله عاب قوماً بذلك، فقال: «أُولئك كانوا ربيئة بازاء العدو فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله أن يثبتوا في موضعهم ولا يتحولوا عنه إلى غيره، فلما وقع فيهم الموت تحولوا من ذلك المكان إلى غيره، فكان تحويلهم عن ذلك المكان إلى غيره كالفرار من الزحف».[٢]

١٨. روى عبد الله بن بكير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام: لا ينبغي أن يتزوج الرجل الحرّ المملوكةَ اليوم، إنّما كان ذلك حيث قال الله عزّوجلّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طولاً﴾ والطول المهر، ومهر الحرة اليوم مثل مهر الأمة أو أقل.[٣]

---

١. الوسائل: ٢، الباب ٢٠ من أبواب الاحتضار، الحديث١.

٢. الوسائل: ٢، الباب ٢٠ من أبواب الاحتضار، الحديث ٢.

٣. الوسائل: ١٤ الباب ٤٥ من أبواب ما يحرم بالمصاهرة، الحديث ٥.

فالحديث يهدف إلى تفسير قوله سبحانه:

﴿وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أن يَنكِحَ المُحْصناتِ المُؤمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ مِنْ فتيَاتِكُمُ المَؤمِناتِ﴾[١].

فالآية تعلّق جواز تزويج الأمة بعدم الاستطاعة على نكاح الحرة لأجل غلاء مهرها بخلاف مهر الأمة فانّها كانت زهيدة الثمن.

فإذا عاد الزمان إلى غير هذا الوضع وصار مهر الأمة والحرة على حدّ سواء بل كان مهر الحرة أقل فلا ينبغي أن يتزوج المملوكة فقد غيرّت الظروف جواز الحكم إلى كراهته أو تحريمه.

١٩. روى بكير بن محمد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال سأله رجل وأنا حاضر، فقال: يكون لي غلام فيشرب الخمر ويدخل في هذه الأُمور المكروهة فأُريد عتقه، فهل أُعتقه أحبّ إليك أم أبيعه وأتصدق بثمنه؟ فقال: «إنّ العتق في بعض الزمان أفضل، وفي بعض الزمان الصدقة أفضل، فإن كان الناس حسنة حالُهم، فالعتق أفضل، وإذا كانوا شديدة حالُهم فالصدقة أفضل، وبيع هذا أحبّ إليّ إذا كان بهذه الحال».[٢]

٢٠. روى محمد بن سنان، عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام في حديث: «ليس بين الحلال والحرام إلاّ شيء يسير، يحوله من شيء إلى شيء فيصير حلالاً وحراماً».[٣]

هذه بعض ما وقفنا عليه، ولعلّ الباحث في غضون الجوامع الحديثيّة يقف على أكثر من ذلك.

---

١. النساء: ٢٥.

٢. الوسائل: ١٦، الباب ٢٧ من أبواب العتق، الحديث ١.

٣. بحار الأنوار:٦/ ٩٤، الحديث١، باب علل الشرائع و الأحكام.

حصيلة الروايات

إنّ الإمعان في مضامين هذه الروايات يثبت انّ تغير الحكم إنّما كان لإحدى الجهات التالية:

١. كان الحكم، حكماً حكومياً وولائياً نابعاً من ولاية النبي على إدارة المجتمع وحفظ مصالحه، ومثل هذا الحكم لا يكون حكماً شرعياً إلهياً نزل به أمين الوحي عن ربّ العالمين، بل حكماً مؤقّتاً يدور مدار المصالح والمفاسد التي أوجبت تشريع هذا النوع من الأحكام.

ومن هذا القبيل النهي عن إخراج اللحم من منىٰ قبل ثلاثة أيّام، أو النهي عن أكل لحوم الحمير، ولذلك قال الإمام بعد تبيين علّة النهي إنّما الحرام ما حرّم الله في القرآن، مشيراً إلى أنّه لم يكن هذا النهي كسائر النواهي النابعة من المصالح والمفاسد، الذاتية كالخمر و الميسر بل نجم عن مصالح ومفاسد مؤقتة .

ونظيرهما النهي من الخروج عن مكان ظهر فيه الطاعون، حيث إنّ النهي كان لأجل انّ تحوّلهم من ذلك المكان كان أشبه بالفرار من الزحف فوافاهم النهي فإذا انتفى هذا القيد فلا مانع حينئذٍ من خروجهم.

٢. انّ تبدل الحكم كان لأجل انعدام الملاك السابق، وظهور ملاك مباين، كما هو الحال في حديث الدينارين بخلاف عصر الإمام الصادق حيث كان يعطون من السنة إلى السنة.

ومثله جواز نكاح الأمة مع القدرة على الحرة، لأنّ ملاك الجواز هو غلاء مهر الحرة، وقد انتفى في ذلك العصر، بل صار الأمر على العكس كما في نفس الرواية.

٣. عروض عنوان محرم عليه، ككونه لباس الشهـرة أو رمي اللابس بالجنون كما في أحاديث الألبسة، كما يمكن أن يكون من قبيل تبدلّ الملاك، فقد ورد النهي في عصر مقفر، جدب، وأين هو من عصر الخصب والرخاء؟!

٤. كـون الملاك أوسع كما هـو الحال بالاكتفـاء بالـدرهم والـدينار في ديـة النفس، في عصر الإمام علي عليه السلام فانّ الملاك توفر ما يقوّم به دم المجني عليه، ففي أهل الإبل الإبل، وفي أهل البقر والغنم بهما، وفي أهل الدرهـم والدينار بهما.

الفصل الثاني

نقل مقتطفات من كلمات الفقهاء

إنّ تأثيرالظروف في تفسير الروايات والفتاوى في كلام الفقهاء أمر غير عزيز، وقد وقفوا على ذلك منذ أمد بعيد، ونذكر هنا مقتطفات من كلامهم:

١. الصدوق(٣٠٦ـ٣٨١هـ)

١. روى الصدوق في الفقيه عن النبي ﷺ انّه قال: «الفرق بين المسلمين والمشركين التلحي بالعمائم».

ثمّ قال الصدوق في شرح الحديث: ذلك في أوّل الإسلام وابتدائه، وقد نقل عنه ﷺ أيضاً انّه أمر بالتلحّي ونهى عن الاقتعاط.[١]

قال الفيض الكاشاني بعد نقل الحديث: التلحّي إدارة العمامة تحت الحنك، والاقتعاط شدُّها من غير إدارة، وسُنّة التلحّي متروكة اليوم في أكثر بلاد الإسلام كقصر الثياب في زمان الأئمة، فصارت من لباس الشهرة المنهي عنها.[٢]

---

١. الفقيه:١/ ٢٦٠برقم ٨٢١.

٢. الوافي: ٢٠/ ٧٤٥.

٢. العلاّمة الحلّي (٦٤٨ـ٧٢٦هـ)

قال في مبحث تجويز النسخ: الأحكام منوطة با لمصالح، والمصالح تتغير بتغير الأوقات، وتختلف باختلاف المكلّفين، فجاز أن يكون الحكم المعين مصلحة لقوم في زمان فيؤمر به، ومفسدة لقوم في زمان آخر فينهى عنه.[١]

٣. الشيخ الشهيد محمد بن مكي العاملي (المتوفّى عام ٧٨٦هـ)

قال: يجوز تغيير الأحكام بتغير العادات كما في النقود المتعاورة[٢] والأوزان المتداولة، ونفقات الزوجات والأقارب فانّها تتبع عادة ذلك الزمان الذي وقعت فيه، وكذا تقدير العواري بالعوائد.

ومنه الاختلاف بعد الدخول في قبض الصداق، فالمروي تقديم قول الزوج، عملاً بما كان عليه السلف من تقديم المهر على الدخول.

ومنه: إذا قدّم بشيء قبل الدخول كان مهراً إذا لم يسم غيره، تبعاً لتلك العادة فالآن ينبغي تقديم قول الزوجة، واحتساب ذلك من مهر المثل.[٣]

فقد أشار بقوله «ينبغي تقديم قول الزوجة» إلى مسألة التنازع بينهما فيما إذا ادّعت الزوجة بعد الدخول بعدم تسلم المهر، وادّعى الرجل تسليمه إليها، فقد روى الحسن بن زياد، قال: إذا دخل الرجل بامرأته، ثمّ ادّعت المهر وقال: قد أعطيتك فعليها البيّنة وعليه اليمين.[٤]

---

١. كشف المراد: ١٧٣، ط مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

٢. المتعاورة أي المتداولة.

٣. القواعد والفوائد: ١/ ١٥٢، القاعدة الخامسة، ط النجف الأشرف.

٤. الوسائل: الجزء ١٥، الباب ٨ من أبواب المهور، الحديث ٧.

غير انّ لفيفاً من الفقهاء حملوا الرواية على ما إذا كانت العادة الإقباض قبل الدخول و إلاّ فالبيّنة على الزوج.

قال صاحب الجواهر: الظاهر انّ مبنى هذه النصوص على ما إذا كانت العادة الإقباض قبل الدخول، بل قيل إنّ الأمر كذلك كان قديماً، فيكون حينئذٍ ذلك من ترجيح الظاهر على الأصل.[١]

٤. المحقّق الأردبيلي (المتوفّى ٩٩٣هـ)

قال: ولا يمكن القول بكلية شيء بل تختلف الأحكام باعتبار الخصوصيات والأحوال والأزمان والأمكنة والأشخاص وهو ظاهر، وباستخراج هذه الاختلافات والانطباق على الجزئيات المأخوذة من الشرع الشريف، امتياز أهل العلم والفقهاء، شكر الله سعيهم ورفع درجاتهم.[٢]

٥. صاحب الجواهر (المتوفّى ١٢٦٦هـ)

قال في مسألة بيع الموزون مكيلاً وبالعكس: إنّ الأقوىٰ اعتبار التعارف في ذلك وهو مختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.[٣]

٦. الشيخ الأنصاري (١٢١٤ ـ ١٢٨١هـ)

وقال الشيخ الأنصاري في بحث ضمان المثلي والقيمي: بقي الكلام في أنّه

---

١. الجواهر: ٣١/ ١٣٣.

٢. مجمع الفائدة والبرهان: ٣/ ٤٣٦.

٣. الجواهر: ٢٣/ ٣٧٥.

هل يعد من تعذر المثل خروجه عن القيمة كالماء على الشاطئ إذا أتلفه في مفازة والجمد في الشتاء إذا أتلفه في الصيف أم لا؟ الأقوى بل المتعيّن هوالأوّل بل حكي عن بعض نسبته إلى الأصحاب وغيرهم والمصرح بـه في محكي التذكرة والإيضاح والدروس قيمـة المثل في تلك المفازة ويحتمـل آخر مكان أو زمان يخرج المثـل فيه عن المالية.[١]

٧. الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء(١٢٩٤ـ ١٣٧٣هـ)

قـال في تحريـر المجلـة في ذيـل المادة٣٩:«لا ينكـر تغيير الأحكـام بتغير الأزمان» قد عـرفت أنّ من أُصول مـذهب الإمامية عـدم تغيير الأحكام إلاّ بتغيير الموضوعات امّا بالزمان والمكـان والأشخاص، فلا يتغير الحكم ودين الله واحد في حـقّ الجميع لا تجد لسنّـة الله تبـديـلاً، وحلال محمّـد ﷺ حلال إلى يـوم القيامـة وحرامه كذلك.

نعم يختلـف الحكم في حقّ الشخـص الواحد باختـلاف حالاته مـن بلوغ ورشد وحضر وسفر وفقـر وغنىً وما إلى ذلك من الحالات المختلفة، وكلّهـا ترجع إلى تغيير الموضوع فيتغير الحكم فتدبر ولا يشتبه عليك الأمر.[٢]

الظاهـر انّه يريـد من قولـه: «امّا بالـزمان والمكان والأشخـاص فلا يتغير الحكم» أنّ مرور الزمان لا يوجب تغيير الحكـم الشرعي بنفسه، وأمّا إذا كان مرور الزمان سبباً لطروء عناوين موجبة لتغير الموضوع فلا شكّ انّه يوجب تغير الحكم وقد أشار إليه في ذيل كلامه.

---

١. المكاسب: ١١٠.

٢. تحرير المجلة: ١/ ٣٤.

٨. السيد الإمام الخميني (١٣٢٠ـ١٤٠٩هـ)

قال: إنّي على اعتقاد بالفقه الدارج بين فقهائنا وبالاجتهاد على النهج الجواهري، وهذا أمر لابدّ منه، لكن لا يعني ذلك انّ الفقه الإسلامي لا يواكب حاجات العصر، بل انّ لعنصري الزمان والمكان تأثيراً في الاجتهاد، فقد يكون لواقعة حكم لكنّها تتخذ حكماً آخر على ضوء الأُصول الحاكمة على المجتمع وسياسته واقتصاده.[١]

وقد طرح هذه المسألة غير واحد من أعلام السنّة.

١. منهم ابن قيم الجوزية (المتوفّى ٧٥١هـ) فقد عقد في كتابه فصلاً تحت عنوان «تغيّرالفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأموال والنيات والعوائد».

يقول في ذيل هذا الفصل:

هذا فصل عظيم النفع، ووقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة، وتكليفِ ما لا سبيل إليه، ما يعلم انّ الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فانّ الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلّها، ورحمة كلّها، ومصالح كلّها، وحكمة كلّها، فكلّ مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة.[٢]

٢. و منهم: أبو إسحاق الشاطبي (المتوفّى ٧٩٠هـ) في الموافقات» قال: المسألة العاشرة: إنّا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد والأحكام العادية تدور

---

١. صحيفة النور: ٢١/ ٩٨.

٢. اعلام الموقعين: ٣/ ١٤ وقد استغرق بحثه في هذا الكتاب ٥٦ صفحة.

معه حيثما دار، فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة فإذا كان فيه مصلحة جاز.[١]

وقال في موضع آخر: النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك انّ المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلّفين بالإقدام أو بالإحجام إلّا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل.[٢]

٣. و منهم: العلاّمة محمد أمين أفندي الشهير بـ«ابن عابدين» مؤلف كتاب «مجموعة رسائل» قال ماهذا نصّه:

اعلم أنّ المسائل الفقهية إمّا أن تكون ثابتة بصريح النص، وإمّا أن تكون ثابتة بضرب اجتهاد ورأي، وكثيراً منها ما يبينه المجتهد على ما كان في عرف زمانه بحيث لو كان في زمان العرف الحادث لقال بخلاف ما قاله أوّلاً، ولهذا قالوا في شروط الاجتهاد انّه لابدّ فيه من معرفة عادات الناس، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغيّر عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو فساد أهل الزمان بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أوّلاً للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنيّة على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد لبقاء العالم على أتم مقام وأحسن أحكام، ولهذا ترى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد في مواضع كثيرة بناها على ما كان في زمنه لعلمهم بأنّه لو كان في زمنهم لقال بما قالوا به أخذاً في قواعد مذهبه.[٣]

٤. و منهم :الفقيه الأُستاذ أحمد مصطفى الزرقاء في كتابه «المدخل الفقهي

١. الموافقات: ٢/ ٣٠٥، ط دار المعرفة.

٢. الموافقات: ٤/ ١٤٠، ط دار الكتب العلمية، والعبارة الأُولى أصرح في المقصود.

٣. رسائل ابن عابدين: ٢/ ١٢٣.

العام»، قال:

الحقيقة ان الأحكام الشرعية التي تتبدّل بتبدّل الموضوعات مهما تغيرت باختلاف الزمان، فانّ المبدأ الشرعي فيها واحد وليس تبدّل الأحكام إلاّ تبدّل الوسائل والأساليب الموصلة إلى غاية الشارع، فانّ تلك الوسائل والأساليب في الغالب لم تحدّد في الشريعة الإسلامية بل تركتها مطلقة لكي يختار منها في كلّ زمان ما هو أصلح في التنظيم نتاجاً وأنجح في التقويم علاجاً.

ثمّ إنّ الأُستاذ جعل المنشأ لتغيير الأحكام أحد أمرين:

أ: فساد الأخلاق وفقدان الورع وضعف الوازع، وأسماه بفساد الزمان.

ب: حدوث أوضاع تنظيمية ووسائل فرضية وأساليب اقتصادية.

ثمّ إنّه مثّل لكلّ من النوعين بأمثلة مختلفة اقتبس بعضها من رسالة «نشر العرف» للشيخ ابن عابدين، ولكنّه صاغ الأمثلة في ثوب جديد.[١]

٥. و منهم: الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه «أُصول الفقه الإسلامي» فقد لخص ما ذكره الأُستاذ السابق وقال في صدر البحث: تغير الأحكام بتغير الأزمان.

إنّ الأحكام قد تتغير بسبب تغير العرف أو تغير مصالح الناس أو لمراعاة الضرورة أو لفساد الأخلاق وضعف الوازع الديني أو لتطور الزمن وتنظيماته المستحدثة، فيجب تغير الحكم الشرعي لتحقيق المصلحة ودفع المفسدة و إحقاق الحق والخير، وهذا يجعل مبدأ تغير الأحكام أقرب إلى نظرية المصالح المرسلة منها إلى نظرية العرف.[٢]

---

١. المدخل الفقهي العام: ٢/ ٩٢٤.
٢. أُصول الفقه الإسلامي: ٢/ ١١١٦.

وقبل تطبيق هذا الأصل على مـوارده نود أن نشير إلى أُمور يتبين بها حدّ هذا الأصل:

الأوّل: حصر التشريع في الله سبحانه

دلّت الآيـات القرآنية على حصر التشريـع في الله سبحانه وانّـه ليس مشرع سواه، قال سبحانه: ﴿**إِنِ الحُكْمُ إلاّ لله أَمَرَ أَنْ لا تَعْبُدُوا إلاّ إِيّاهُ ذٰلِـكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلكنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لاٰ يَعْلَمُون**﴾[1].

والمراد من الحكـم هو الحكـم التشريعي بقـرينة قـوله: ﴿**أَمَرَ أَنْ لا تَعْبُـدوا إلاّ إِيّاهُ**﴾ وهذا أمر أوضحنا حاله في موسوعتنا «مفاهيم القرآن».

وينبغي التأكيد علىٰ نكتة وهي انّ تغير الحكـم وفق الزمان والمكان يجب أن لا يتنافى مع حصر التشريع بالله سبحانه.

الثاني: خلود الشريعة

دلّ القرآن والسنّة على خلود الشريعة الإسلاميـة وانّ الرسول خاتـم الأنبياء وكتابـه خاتـم الكتـب، و شريعته خاتمة الشرائع، فحلالـه حلال إلى يوم القيـامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة وبذلك تضافرت الآيات والروايات وقد تقدم.

فـاللازم أيضـاً أن لا يكون أيّ تنـاف بين خلـود الشريعة وتـأثير الزمـان والمكان على الاستنباط.

ومن حسن الحظ انّ الأُستاذ أحمد مصطفـى الزرقاء قد صرح بهذا الشرط، وهو انّ عنصري الزمـان والمكان لا تمسان كرامة الأحكام المنصـوصة في الشريعة، وإنّما يـؤثـران في الأحكـام المستنبطـة عـن طريـق القيـاس والمصـالـح المرسلـة والاستحسان وقال ما هذا نصّه:

---

١. يوسف: ٤٠.

قد اتفقت كلمة فقهاء المذاهب على أنّ الأحكام التي تتبدّل بتبدّل الزمان وأخلاق الناس هي الأحكام الاجتهادية من قياسية ومصلحية، أي التي قررها الاجتهاد بناء على القياس أو على دواعي المصلحة، وهي المقصودة من القاعدة المقررة «تغيير الأحكام بتغير الزمان».

أمّا الأحكام الأساسية التي جاءت الشريعة لتأسيسها وتوطيدها بنصوصها الأصلية الآمرة، الناهية كحرمة المحرمات المطلقة وكوجوب التراضي في العقود، والتزام الإنسان بعقده،وضمان الضرر الذي يلحقه بغيره وسريان إقراره على نفسه دون غيره، ووجوب منع الأذى وقمع الإجرام، وسد الذرائع إلى الفساد وحماية الحقوق المكتسبة، ومسؤولية كلّ مكلّف عن عمله وتقصيره، وعدم مؤاخذة بريء بذنب غيره، إلى غير ذلك من الأحكام والمبادئ الشرعية الثابتة التي جاءت الشريعة لتأسيسها ومقاومة خلافها، فهذه لا تتبدل بتبدل الأزمان، بل هي الأُصول التي جاءت بها الشريعة لإصلاح الأزمان والأجيال، ولكن وسائل تحقيقها وأساليب تطبيقها قد تتبدل باختلاف الأزمنة المحدثة.[١]

وكلامه صريح في أنّ المتغير عندهم هو الأحكام الاجتهادية لا الأحكام المنصوصة، ويريد من الأحكام الاجتهادية ما استنبطه المجتهد من القواعد الخاصة، كالقياس والمصالح المرسلة، وقد صرّح بذلك الدكتور وهبة الزحيلي حيث قال: وذلك كائن بالنسبة للأحكام الاجتهادية ـ القياسية أو المصلحية ـ المتعلقة بالمعاملات أو الأحوال المدنية من كلّ ما له صلة بشؤون الدنيا وحاجات التجارة والاقتصاد وتغير الأحكام فيها في حدود المبدأ الشرعي، وهو إحقاق الحق وجلب المصالح ودرء المفاسد.

---

١. المدخل الفقهي العام:٢/ ٩٢٤ـ ٩٢٥.

أمّا الأحكـام التعبدية والمقـدرات الشرعية وأُصـول الشريعة الدائمـة، فلا تقبل التبديـل مطلقاً، مهما تبدل المكان وتغير الـزمان ، كحرمة المحـارم، ووجوب التراضي في العقود، و ضمان الضرر الـذي يلحقه الإنسـان بغيره، و سريان إقـراره على نفسه، وعدم مؤاخذة بريء بذنب غيره.[١]

نعم، نقل تقديم بعض الأحكام الاجتهادية على النص عن أحمد بن إدريس المالكي، ونجم الـدين أبو ربيع المعـروف بالطوفي، و بما انّا لم نقـف على نصوص كلامهم نتوقف عن القضاء في حقّهم.

وعلى أي تقديـر يجب على من يقـول بتأثير العـاملين على استنباط الحكـم الشرعي أن يحددهما بشكل لا تمس الأصلين المتقـدمين أي نحترز أولاً عن تشريع الحكم، وثـانياً عن مـس كرامة تـأبيد الأحكـام، وعلى ذلك فلا فـرق بين الأحكام الاجتهادية والمنصوصة إذا كان الأصلان محفوظين.

الثالث: انّ المراد من تأثير الزمان والمكان على الاستنباط، هو أن يكون تغير الوضع مـوجباً لتبدل الحكم مـن دون أن يكون في النص إشارة إلى هـذا النوع من التغيير، وإلاّ فلو كـان التشريع الأوّل متضمنـاً لتغير الحكم في الـزمان الثـاني فهو خارج عن مـوضوع بحثنا وإن كان يمكن الاستئنـاس به، وعلى ذلك تخرج الموارد التالية عن موضوع البحث.

أ: اختلاف الحكم الشرعي في دار الحرب مع غيرها، مثلاً لو ارتكب المسلم فعلاً يستتبع الحد فلا يقام عليه في دار الحرب، بخلاف ما لو كان في دار الإسلام.

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «لا يقام على أحد حدّ بدار العدو».[٢]

---

١. أُصول الفقه:٢/ ١١١٦.

٢. الوسـائل:١٨، الباب ١٠ من أبواب مقـدمات الحدود، الحديث ١. لاحـظ الخلاف:٥/ ٥٢٢ قال ابن قدامة في المغني: ١٠/ ٥٣٨. قال أبو حنيفة : لا حدّ ولا قصاص في دار الحرب ولا إذا رجع.

ب:من زنىٰ في شهر رمضان نهاراً كان أو ليلاً عوقب على الحد لانتهاكه الحرمة، وكذا لو كان في مكان شريف أو زمان شريف.[١]

ج:اختلاف المجاهدين والمنفقين قبل الفتح وبعده، يقول سبحانه: **﴿لا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنىٰ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبير﴾**[٢].

د: نسخ الحكم في الزمان الثاني، كما في قوله سبحانه: **﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُول فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي نَجْواكُمْ صَدَقَة﴾**[٣] فقد نسخ بقوله سبحانه: **﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي نَجْواكُمْ صَدقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ...﴾**[٤].

هـ: تغير الأحكام بطروء العناوين الثانوية كالضرر والحرج وتقديم الأهم على المهم، والنذر والعهد واليمين وما أشبه ذلك.

وحصيلة الكلام أنّ محور البحث هو انّ الظروف المختلفة هي العامل الوحيد لتغير الأحكام بعد التشريع الأوّل، و هذه هي التي تبعث الفقيه على الإمعان في بقاء التشريع الأوّل أو زواله، وأمّا إذا قام الشارع بنفسه ببيان اختلاف الحكمين في الظرفين فهو خارج عن محط البحث وإن كان ربما يقرّب فكرة التأثير، ويستأنس بها المجتهد. أو كان التغيير لأجل طروء عناوين ثانوية كالاضطرار والحرج فهو خارج عن محط البحث وبذلك يعلم انّ استناد بعض من نقلنا نصوصهم من أعلام السنّة إلى تلك العناوين، خروج عن مصب البحث.

---

١. الشرائع: ٤/ ٩٤١، كتاب الحدود، المسألة العاشرة.

٢. الحديد: ١٠. ٣. المجادلة: ١٢. ٤ المجادلة: ١٣.

الرابع: إذا قلنا بتأثير الزمان والمكان على الاستنباط، فالحكم المستنبط عندئذٍ حكم واقعي وليس حكماً ظاهرياً كما هو معلوم، لعدم أخذ عنوان الشكّ في موضوعه ولا حكماً واقعيّاً ثانوياً الذي يعتمد على عنواني الضرر والحرج أو غير ذلك من العناوين الثانوية، فالمجتهد يبذل جهده في فهم الكتاب والسنّة لاستنباط الحكم الشرعي الواقعي في هذه الظروف، ويكون حكمه كسائر الأحكام التي يستنبطها المجتهد في غير هذا المقام، فالحكم بجواز بيع الدم أو المني أو سائر الأعيان النجسة التي ينتفع بها في هذه الأيام ليس حكماً ظاهرياً ولا مستخرجاً من باب الضرر والحرج ،وإنّما هو حكم واقعي كسابقه (أي التحريم) غير انّ الحكم السابق كان مبنياً على عدم الانتفاع بالأعيان النجسة انتفاعاً معتداً به، وهذا الحكم مبني على تبدل الموضوع .

وإن شئت قلت بتبدل مصداق الموضوع إلى مصداق موضوع آخر، تكون الحرمة والجواز كلاهما حكمين شرعيين واقعيين.

الفصل الثالث

تطبيقات عملية

إذا وقفت على الروايات الواردة حول تأثير الزمان والمكان، وعلى كلمات المحقّقين من الفريقين في ذلك المضمار فآن الآوان للبحث عن التطبيقات والفروع المستنبطة على ضوء ذلك الأصل، وبما انّ تأثير الزمان و المكان على الاستنباط ليس تأثيراً عشوائياً بل هو خاضع لمنهاج خاص يسير على ضوئه، فلذلك نذكر الأمثلة تحت ضوابط معينة لئلا تقع ذريعة إلى إنكار ثبات الأحكام و دوامها:

الأوّل : تأثيرهما في تطبيق الموضوعات على مواردها

لا شكّ انّ هناك أُموراً وقعت موضوعاً لأحكام شرعية نظير :

١. الاستطاعة: قال سبحانه: **﴿وَ للهِ عَلى النّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً﴾**[١].

٢. الفقر: قال سبحانه: **﴿إِنّما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالمَساكِينِ... وَ ابْنِ السَّبِيلِ﴾**[٢].

٣. الغنى: قال سبحانه: **﴿وَمَنْ كانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِف وَمَنْ كانَ فَقيراً فليَأْكُل**

---

١. آل عمران: ٩٧.

٢. التوبة: ٦٠.

بِالمَعْرُوفِ﴾[١].

٤. بذل النفقة للزوجة: قال سبحانه: ﴿**أسكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سكَنتُم مِنْ وُجِدْكُمْ**﴾[٢].

٥. إمساك الزوجة بالمعروف: قال سبحانه: ﴿**فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾[٣].

ومن الواضح انّ مصاديق هذه الموضوعات تتغير حسب تغير أساليب الحياة، فالإنسان المستطيع بالأمس للحجّ، لا يعد مستطيعاً اليوم، لكثرة حاجات الإنسان في الزمان الثاني دون الأوّل ، وبذلك يتضح حال الفقر والغنى، فربّ غني بالأمس فقير اليوم.

ـ كما أنّ نفقة الزوجة في السابق كانت منحصرة في الملبس والمأكل والمسكن، وأمّا اليوم فقد ازدادت حاجاتهاعلى نحو لو لم يقم الرجل ببعض تلك الحاجات يعد عمله بخساً لحقها، وامتناعاً من بذل نفقتها.

ـ إنّ المثلي والقيمي والمكيل و الموزون موضوعات للأحكام الشرعية، مثلاً: لا تجوز معاوضة المتماثلين إذا كان مكيلاً أو موزوناً إلاّ بمثله قدراً و وزناً، دون المعدود والموزون، فيجوز تبديلهما بأكثر منهما فالمثلي يضمن بالمثلي، والقيمي بالقيمي، وقد عُرِّف المثلي بكثرة المماثل، والقيمي بقلّته، ولذلك عُدت الثياب والأواني من القيميات، لكن صارا اليوم بفضل الصناعة الحديثة، مثليين .

ثمّ إنّ المتبع في كون شيء مكيلاً أو موزوناً أو معدوداً هو عرف البلد الذي يتعامل فيه وهو يختلف حسب اختلاف الزمان والمكان.

---

١. النساء: ٦ ٢. الطلاق: ٦ ٣. البقرة: ٢٣١.

وبذلك اتضح انّ عنصري الزمان والمكان يؤثران في صدق المفاهيم في زمان دون زمان.

الثاني: تأثيرهما في تغير الحكم بتغيّر مناطه

لا شكّ انّ الأحكام الشرعية تابعة للملاكات والمصالح والمفاسد، فربما يكون مناط الحكم مجهولاً ومبهماً، وأُخرى يكون معلوماً بتصريح من قبل الشارع، والقسم الأوّل خارج عن محلّ البحث، وأمّا القسم الثاني فالحكم دائر مدار مناطه وملاكه.

فلو كان المناط باقياً فالحكم ثابت، وأمّا إذا تغيّر المناط حسب تغير الظروف فيتغير الحكم قطعاً، مثلاً:

١. لا خلاف في حرمة بيع الدم بملاك عدم وجود منفعة محلّلة فيه، ولم يزل حكم الدم كذلك حتى اكتشف العلم له منفعة محلّلة تقوم عليها رحى الحياة، وأصبح التبرع بالدم إلى المرضى كإهداء الحياة لهم، وبذلك حاز الدم على ملاك آخر فحلّ بيعه وشراؤه.[1]

قال السيد الإمام الخميني: الأقوى جواز الانتفاع بالدم في غير الأكل وجواز بيعه لذلك،[1] و على ذلك فما تعارف من بيع الدم من المرضى وغيرهم لا مانع منه فضلاً عمّا إذا صالح عليه أو نقل حق الاختصاص ويجوز نقل الدم من بدن إنسان إلى آخر، وأخذ ثمنه بعد تعيين وزنه بالآلات الحديثة، ومع الجهل لا مانع من الصلح عليه، والأحوط أخذ المبلغ للتمكين على أخذ دمه مطلقاً، لا مقابل الدم ولا يترك الاحتياط ما أمكن.

---

١. المكاسب المحرّمة: ١/ ٥٧.

٢. انّ قطع أعضاء الميت أمر محرّم في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور»[١] ومن الواضح انّ ملاك التحريم هو قطع الأعضاء لغاية الانتقام والتشفّي، ولم يكن يومذاك أي فائدة تترتّب على قطع أعضاء الميت سوى تلبية للرغبة النفسية ـ الانتقام ـ ولكن اليوم ظهرت فوائد جمّة من وراء قطع أعضاء الميت، حيث صارت عملية زرع الأعضاء أمراً ضرورياً يستفاد منها لنجاة حياة المشرفين على الموت. ويمكن أن يكون من هذه المقولة المثال التالي:

٣. لا شكّ انّ التوالد والتناسل أمر مرغوب في الشرع. روى محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «تزوّجوا فإنّي مكاثر بكم الأُمم غداً يوم القيامة».[٢]

وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: ما يمنع المؤمن أن ينفذ أهلاً لعل الله يرزقه نسمة تثقل الأرض بلاإله إلاّ الله».[٣]

حتى أنّه سبحانه يمن على عباده بكثرة المال والبنين، ويقول: **﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾**[٤]

إلى غير ذلك من الآيات والروايات الحاثّة على تكثير النسل، لكن ربما تعتري البلاد أزمة اقتصادية وثقافية خانقة لا تتمكن من توفير الخدمات اللازمة لمواطنيها نتيجة كثافة سُكّانها، فعند ذلك ينقلب ملاك الحكم الاستحبابي إلى غيره، لأنّ هدف الشارع من تكثير النسل هو توفير العزّة والمنعة، فإذا تعسّر فحينها يكون تحديد النسل هو الحل المطلوب.

---

١. لاحظ نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٤٧.

٢ و ٣. الوسائل: ١٤، الباب الأوّل من أبواب مقدمات النكاح، الحديث ٢و٣.

٤. نوح: ١٠ـ ١٢.

و هناك أمثلة أُخرى لم نستعرضها لعدم ثبوت تغيير الملاك عندنا، كصناعة التماثيل فربما يتصور انّ الملاك في التحريم هو كـون صناعة التماثيل ذريعة لعبادة أصحابها، وأمّا اليوم فقد انتفى ذلك الملاك وعادت من الفنون الجميلة.

هذا بالنظر إلى البلاد الإسلامية، وأمّا بالنظر إلى دول جنوب آسيا فالتجسيم هناك رمز العبادة والشرك وذريعة إليه فهل يكفي في الحلية خلو العمل من الملاك في بلد خـاص، أو يجب أن يكون كذلـك في كافـة البلدان أو أغلبها، والثـاني هو المتعيّن.

الثالث: تأثيرهما في كشف مصاديق جديدة للموضوع

إنّ الزمان والمكان كما يؤثران في تغيّر الملاك وتبـدّله، كذلك يؤثران في إسراء الحكم إلى موضوع لم يكن موجـوداً في عصر التشريع وذلك بفضل الملاك المعلوم، ولنذكر هنا أمثلة:

١. انّ السبق والـرمايـة من التماريـن العسكريـة التي يكتسـب بها المهارة اللازمة للدفاع عن النفس وللقتال والظـاهر من بعض الروايات حصرها في أُمور ثلاثة.

روى حفص بن غياث، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا سبق إلاّ في خف أو حافر أو نصل ـ يعني: النضال ـ».(١)

وروى عبد الله بن سنان عنه عليه السلام قال: سمعته يقول: «لا سبق إلاّ في خف أو حافر أو نصل ـ يعني النضال ـ».(٢)

وروى الإمام الصادق عليه السلام عن رسـول الله صلى الله عليه وآله أنّه كان يقـول: «إنّ الملائكة تحضر الرهان في الخف والحافر والريش وما سوى ذلك فهو قمار حرام».(٣)

---

١ و ٢ و ٣. الوسائل ١٣، الباب ٣ من أبواب السبق والرماية، الحديث ١، ٢، ٣، ٥.

ومن المعلوم انّ المناط للسبق بهذه الأُمور هو تقوية البنية الدفاعية، فتحصيل هذا الملاك في هذه الأعصار لا يقتصر على السبق بهذه الأُمور الثلاثة، بل يتطلب لنفسه وسائل أُخرىٰ أكثر تطوراً.

قال الشهيد الثاني في «المسالك»: لا خلاف بين المسلمين في شرعية هذا العقد، بل أمر به النبي ﷺ في عدّة مواطن لما فيه من الفائدة المذكورة هي من أهمّ الفوائد الدينية لما يحصل بها من غلبة العدو في الجهاد لأعداء الله تعالى، الذي هو أعظم أركان الإسلام ولهذه الفائدة يخرج عن اللهو واللعب المنهي عن المعاملة عليهما.[1]

فإذا كانت الغاية من تشريعها الاستعداد للقتال والتدرب للجهاد، فلا يفرق عندئذٍ بين الدارج في زمن النبي ﷺ وغيره أخذاً بالملاك المتيقن.

وعلى ذلك فالحصر ناظر إلى السبق فيما يعد لهواً كاللعب بالحمام كما في رواية عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «كلّ لهو... باطل إلاّ في ثلاث: في تأديبه الفرس، ورميه عن قوسه، وملاعبته امرأته فانّهن حقّ».[2]

٢. الدفاع عن بيضة الإسلام قانون ثابت لا يتغير، وإليه يرشد قوله سبحانه: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوّكُمْ**﴾[3]، فكان الدفاع في الصور السابقة بالسهم والنصل والسيف وما أشبه ذلك.

وأمّا اليوم وفي ظل التقدم العلمي الهائل، فقد أصبحت المعدات الحربية تدور حول الدبابات والمدرعات والحافلات والطائرات المقاتلة والبوارج البحريّة.

---

١. المسالك: ٢/ ٦٩.

٢. الوسائل: ١٣، الباب ١ من أحكام السبق والرماية، الحديث ٥.

٣. الأنفال: ٦٠.

٣. أمر الإسلام بنشر الثقافة والتعليم والتربية وكـانت الوسائل المستخدمة في هذا الصدد يوم ذاك لا تتعدىٰ أُموراً بسيطة كالمداد والدواة، ولكن اليوم في ظل التقدم العلمي فقد أصبحت وسائل التعليم متطورة للغاية حتى شملت الكامبيوتر والتلفزة والاذاعة وشبكة المعلومات «الانترنت».

٤. لقد ذهب المشهور إلى تخصيص الاحتكار بأجناس معدودة.

روى السكوني، عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الحكرة في ستة أشياء: في الحنطة والشعير والتمر والزيت والسمن والزبيب».[١]

وروى غياث، عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال:« ليس الحكرة إلاّ في الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن».[٢]

وقد ذهب الشيخ الطوسي في النهاية بعد عدها إلى أنّه لا يكون الاحتكار في سوى هذه الأجناس وتبعه لفيف من الفقهاء.[٣]

وثمة احتمال آخر وهو انّ الأجناس الضرورية يومذاك كانت منحصرة بما ورد في الروايات على نحو ينجم عن احتكارها أزمة في المجتمع الإسلامي، دون سائر الأجناس، وأمّا اليوم فلا شكّ انّه اتسعت الحاجات وتغيرت فعاد مالم يكن ضرورياً في الماضي أمراً ضرورياً في عصرنا هذا، فلو أوجد الحكرة في غير هذه الأجناس نفس الأزمة، يكون الجميع على حد سواء، خصوصاً وانّ الحلبي روى عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال: سألته عن الرجل يحتكر الطعام ويتربص به، هل يصلح ذلك، ثمّ قال: «إن كان الطعام كثيراً يسع الناس فلا بأس به وإن كان الطعام قليلاً لا يسع الناس فانّه يكره أن يحتكر الطعام ويترك الناس ليس لهم

---

١ و ٢. الوسائل ١٢، الباب ٢٧ من أبواب آداب التجارة، الحديث ١٠ و٤.

٣. الحدائق الناضرة: ١٨/ ٦٢.

طعام».[١]

فإذا كـان الميزان هو تـوفير السعة على الناس وعـدمه فلا فـرق بين الطعام وغيره فلا يبعد أن تعم حرمة الحكرة إلى غيره.

إنّ مـن المعلوم انّ الأحكـام الشرعية تـابعـة للملاكـات فانّها شرعـت على أساس المصالح والمفاسد، وهذا يقتضي استيعـاب الحكرة لغير ما نصّ عليه، وقد عرفـت أنّ الروايـات الحاصرة ناظـرة إلى عمدة مـا يحتاج إليـه الناس في العصـور الماضية.

و هذا هـو خيرة صاحب الجواهر فـانّه قال: بـل هو كذلك في كـلّ حبس لكلّ ما تحتاجه النفوس المحترمة ويضطرون إليه ولا مندوحة لهم عنه من مأكول أو مشروب أو ملبـوس أو غيرها، مـن غير تقييـد بـزمان دون زمـان، ولا أعيـان دون أعيان، ولا انتقال بعقـد، ولا تحديد بحدّ، بعد فرض حصـول الاضطرار... بل لا يبعد حـرمة قصد الاضطـرار بحصول الغلاء ولـو مع عـدم حاجة النـاس ووفور الأشياء، بل قد يقـال بالتحريم بمجرد قصد الغـلاء وحبه و إن لم يقصد الإضرار، ويمكن تنزيل القول بالتحريم على بعض ذلك.[٢]

وقال أيضاً: لو اعتاد الناس طعاماً في أيّـام القحط مبتدعاً جرىٰ فيه الحكم لو بنـي فيه على العلـة وفي الأخبار ما ينـادي بأنّ المدار على الاحتيـاج وهو مـؤيد للتنزيل على المثال، و إن كان فيه مالا يخفى.[٣]

و إلىٰ ذلك ذهب فقيه عصره السيد الاصفهـاني، قال: الاحتكار وهو حبس

---

١. وسائل الشيعة:١٢، الباب ٢٧ من أبواب آداب التجارة، الحديث ٢.

٢. جواهر الكلام:٢٢/ ٤٨١.

٣. جواهر الكلام:٢٢/ ٤٨٣.

الطعام وجمعه يتربص به الغلاء حرام مع ضرورة المسلمين وحاجتهم وعدم وجود من يبذلهم قدر كفاية...وإنّما يتحقّق الاحتكار بحبس الحنطة والشعير والتمر والزبيب والدهن، و كذا الزيت والملح على الأحوط لو لم يكن الأقوىٰ، بل لا يبعد تحققه في كلّ ما يحتاج إليه عامة أهالي البلد من الأطعمة كالارز والذرّة بالنسبة إلى بعض البلاد.[١]

وقال المحقّق الحائري: إذا فرض الاحتياج إلى غير الطعام من الأُمور الضرورية للمسلمين كالدواء والوقود في الشتاء بحيث استلزم من احتكارها الحرج والضرر على المسلمين فمقتضى أدلة الحرج والضرر حرمته وإن لم يصدق عليه لغة الاحتكار.

ويمكن التمسّك بالتذييل الذي هو في مقام التعليل بحسب الظاهر المتقدم في معتبر الحلبي، بناء على أنّه إذا كان الظاهر أنّ التعليل بأمر ارتكازي فيحكم بإلغاء قيد الطعام، لأنّه ليس بحسب الارتكاز إلاّ من جهة توقّف حفظ النفس عليه، فإذا وجد الملاك المذكور في الدواء مثلاً فلا ريب انّه بحكمه عرفاً، وهذا يوجب إلغاء الخصوصية المأخوذة في التعليل.[٢]

أقول: إنّ صاحب الجواهر والمحقّق الحائري حكما بتحريم الاحتكار لأجل الاضطرار، فصارت الحرمة حكماً ثانوياً .

ولكن الحقّ انّ الحرمة حكم أوّلي لما عرفت من أنّ الملاك هو كون الناس في السعة والضيق فيجوز الأوّل، ويحرم في الثاني، ولا أظن انّ الضيق الناجم عن احتكار الدواء للمرضىٰ والجرحىٰ أقل وطأة من حكر الملح والسمن والزيت.[٣]

---

١. وسيلة النجاة: ٢/ ٨.

٢. ابتغاء الفضيلة في شرح الوسيلة: ١/ ١٩٧ .

٣. وراجع في حكم الاحتكار، مفتاح الكرامة: ٤/ ١٠٧؛ مصباح الفقاهة: ٥/ ٤٩٨ .

الرابع: تأثيرهما في تغير أساليب تنفيذ الحكم

١ .تضافرت النصوص على حلّية الأنفال للناس، ومن الأنفال: الآجام والأراضي الموات، وقد كان انتفاع الناس بها في الأزمنة الماضية لا يورث مشكلة في المجتمع، وذلك لبساطة الأدوات التي تستخدم في الاستفادة المحدودة من الأنفال. فلم يكن هناك أيّ ملزم للحد من انتفاع الناس من الأنفال، وأمّا اليوم فقد تطورت أساليبُ الانتفاع من الأنفال وازداد جشع الإنسان حيالها، فدعت الضرورة إلى وقف الاستغلال الجشع لهذه الأنفال من خلال وضع قوانين كفيلة بتحديد هذا الانتفاع صيانة للبيئة.

٢. اتّفق الفقهاء على أنّ الغنائم الحربية تقسم بين المقاتلين على نسق خاص بعد إخراج خمسها لأصحابها، لكن الغنائم الحربية في عصر صدور الروايات كانت تدور حول السيف و الرمح والسهم والفرس وغير ذلك، ومن المعلوم انّ تقسيمها بين المقاتلين كان أمراً ميسراً آنذاك ، وأمّا اليوم وفي ظل التقدم العلمي الهائل فقد أصبحت الغنائم الحربية تدور حول الدبابات والمدرّعات و الحافلات و الطائرات المقاتلة والبوارج البحريّة ، ومن الواضح عدم إمكان تقسيمها بين المقاتلين بل هو أمر متعسّر، فعلى الفقيه أن يتخذ أُسلوباً في كيفية تطبيق الحكم على صعيد العمل ليجمع فيها بين العمل بأصل الحكم والابتعاد عن المضاعفات الناجمة عنها.

٣. انّ الناظر في فتاوى الفقهاء السابقين فيما يرجع إلى الحج من الطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار والذبح في منى يحس حرجاً شديداً في تطبيق عمل الحج على هذه الفتاوى، ولكن تزايد وفود حجاج بيت الله عبر الزمان يوماً بعد يوم أعطىٰ للفقهاء رؤى وسيعة في تنفيذ تلك الأحكام على

موضوعاتها ، فأفتوا بجواز التوسع في الموضوع لا من باب الضرورة والحرج، بل لانفتاح آفاق جديدة أمامهم في الاستنباط.

كانت الفتاوى في الأعصار السابقة على تحديد المطاف بـ٢٦ ذراعاً ومن المعلوم انّ هذا التحديد كان يرجع فيما إذا كان عدد الحجاج لا يزيد على ١٠٠ ألف حاج، وأمّا اليوم فعدد الطائفين تجاوز عن هذا الحد بكثير حتى بلغ عددهم في هذه الأعصار إلى مليوني حاج بل أزيد، فإذا خوطب هؤلاء بالطواف على البيت فهل يفهم منه انّه يجب عليهم الطواف بين الحدين؟ إذ معنى ذلك أن يحرم الكثير من هذه الفريضة، أو يفهم إيجاد التناوب بين الطائفين حتى لا يطوف حاج طوافاً ندبياً إلى أن يفرغ الحجاج عن الفريضة، أو يفهم منه ما فهمه الآخرون من أنّهم يطوفون بالبيت بالأقرب فالأقرب؟ وإلى تينك الحالتين تشير الروايتان التاليتان[1]:

١. فقد روى محمد بن مسلم مضمراً، قال :سألته عن حدّ الطواف بالبيت الذي من خرج عنه لم يكن طائفاً بالبيت؟ قال: «كان النّاس على عهد رسول الله ﷺ يطوفون بالبيت والمقام وأنتم اليوم تطوفون ما بين المقام وبين البيت، فكان الحدّ موضع المقام اليوم، فمن جازه فليس بطائف، والحدّ قبل اليوم واليوم واحد قدر ما بين المقام و بين البيت من نواحي البيت كلّها، فمن طاف فتباعد من نواحيه أبعد من مقدار ذلك كان طائفاً بغير البيت بمنزلة من طاف بالمسجد لأنّه طاف في غير حدّ ولا طواف له».

٢. محمّد بن علي الحلبيّ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الطواف خلف المقام؟ قال: «ما أحبّ ذلك وما أرى به بأساً، فلا تفعله إلاّ أن لا تجد منه بداً».

---

١. الوسائل: الجزء٩، الباب ٢٨ من أبواب الطواف، ح١ و٢.

والأُولى ناظرة إلى الحالة التي يتمكن الحاج من الطواف بين الحدين بلا مشقة كثيرة، ولعلّ الإمام المروي عنه هو أبو جعفر الباقر عليه السلام ، ولم يكن يوم ذاك زحام كثير؛ والثانية منهما ناظرة إلى عصر الزحام بحيث يعسر للحاج أن يراعي ذلك الحدّ.

٣. أفتى القدماء بأنّ الإنسان يملك المعادن المركوزة في أرضه تبعاً لها دون أي قيد أو شرط، وكان المداعي من وراء تلك الفتوى هو بساطة الوسائل المستخدمة لذلك، ولم يكن بمقدور الإنسان الانتفاع إلاّ بمقدار ما يعد تبعاً لأرضه، ولكن مع تطور الوسائل المستخدمة للاستخراج، استطاع أن يتسلط على أوسع مما يعدّ تبعاً لأرضه، فعلى ضوئه لا مجال للإفتاء بأنّ صاحب الأرض يملك المعدن المركوز تبعاً لأرضه بلا قيد أو شرط، بل يحدد بما يعد تبعاً لها عرفاً، وأمّا الخارج عنها فهو إمّا من الأنفال أو من المباحات التي يتوقف تملّكها على إجازة الإمام.

نعم لا ينبغي التأمل في قيام السيرة العقلائية بل وكذا الشرعية ــ و إن انتهت إليها ـ على دخولها في ملك صاحب الأرض بتبع ملكه للأرض فتلحق الطبقة السافلة بالعالية والباطنة بمحتوياتها بالظاهرة أخذاً بقانون التبعية و إن لم يتم هذا الإلحاق من ناحية الإحياء حسبما عرفت ومن ثمّ لو باع ملكه فاستخرج المشتري منه معدناً ملكه وليس للبائع مطالبته بذلك، لأنّه باعه الأرض بتوابعها.

ولكن السيرة لا إطلاق لها والمتيقن من موردها ما يعد عرفاً من توابع الأرض وملحقاتها كالسرداب والبئر وما يكون عمقه بهذه المقادير التي لا تتجاوز عن حدود الصدق العرفي فما يوجد أو يتكون و يستخرج من خلال ذلك فهو ملك لصاحب الأرض بالتبعية كما ذكر.

وأمّا الخارج عن نطاق هذا الصدق غير المعدود من التوابع كآبار النفط

العميقة جداً وربما تبلغ الفرسخ أو الفرسخين، أو الآبار العميقة المستحدثة أخيراً لاستخراج المياه مـن عروق الأرض البالغة في العمـق والبعد نحو ما ذكـر أو أكثر، فلا سيرة في مثله ولا تبعية، ومعه لا دليل على إلحاق نفس الأرض السافلة بالعالية في الملكية فضلاً عن محتوياتها من المعادن ونحوها.

نعم في خصـوص المسجد الحرام ورد أنّ الكعبـة من تخوم الأرض إلى عنـان السماء. ولكن الـرواية ضعيفة السنـد. و من ثمّ ذكـرنا في محله لـزوم استقبال عين الكعبة لجميع الأقطار لا ما يسامتها من شيء من الجانبين.

٥. انّ روح القضاء الإسلامـي هو حماية الحقوق وصيانتهـا،وكان الأُسلوب المتبع في العصـور السابقة هو أُسلـوب القاضي الفرد، وقضاؤه على درجـة واحدة قطعيـة، وكان هـذا النوع مـن القضاء مـؤّمناً لهدف القضـاء، ولكن اليـوم لما دبّ الفسـاد في المحاكـم، وقـلّ الورع اقتضـى الزمـان أن يتبـدل أُسلوب القضـاء إلى أُسلوب محكمة القضاة الجمع، و تعدّد درجات المحاكم حسب المصلحة الزمانية التي أصبحت تقتضي زيادة الاحتياط.

الخامس: تأثيرهما في بلورة موضوعات جديدة

إنّ التطور الصنـاعي والعلمـي أسفر عن مـوضوعـات جديـدة لم يكن لها وجـود من ذي قبـل، فعلى الفقيه دراسـة هذه الموضـوعـات بدقـة و إمعان و لـو بالاستعـانة بـأهل الخبرة والتخصـص في ذلك المجـال، وهانحـن نشير إلى بعض العناوين المستجدة.

١. التأمين بكافـة أقسامه، فهناك مـن يريد دراسة هـذا الموضوع تحت أحد العنـاوين المعـروفة في الفقـه كالصلـح والضمان وغيره، مع أنّـه عقد مستقـل بين

العقلاء، فعلى الفقيه دراسة ذلك العنوان كا لموجود بين العقلاء.

٢. لقد ظهرت حقوق عقلائية مستجدّة لم تكن مطروحة بين العقلاء، كحقّ التأليف، وحقّ براءة الاختراع، وحق الطبع، وحق الانتشار، وغيرها من الآثار الخلاّقة، وهذا ما يعبر عنه با لمالكية الفكرية وقد أقرّ بها الغرب واعترف بها رسمياً، ويعدّ المتجاوز على هذه الحقوق متعدياً.

٣. المسائل المستجدّة في عالم الطب كثيرة من التلقيح الصناعي ، و زرع الأعضاء وبيعها، والاستنساخ البشري، والتشريح، وتغيير الجنسية إلى غير ذلك من المسائل.

٤. الشركات التجارية هي من المستجدات والتي تقوم بدور أساسي في الحياة الاقتصادية، وهي بين شركات الأشخاص وشركات الأموال.

أمّا الأُولى فهي عبارة عن شركة التضامن، وشركة التوصية، وشركة الخاصة .

وأمّا الثانية فأهم أقسامها هي شركة المساهمة، فعلى الفقيه استنباط حكم هذه الشركات على ضوء النصوص والقواعد.

***

إلى هنا تبين انّ تغيير الأحكام من خلال تبدّل الظروف خاضع لأُصول صحيحة لا تتنافىٰ مع سائر الأُصول وليس التغيير في ضوئها مصادماً لحصر التشريع أو لتأييد الأحكام أو سائر الأُصول.

السادس: تأثيرهما في تفسير القرآن الكريم

لا ينحصر تأثير الزمان والمكان على الاستنباط بل تعدّاه إلى حقل التفسير أيضاً، فإنّ للقرآن الكريم آفاقاً لا متناهية، يظهر واحد تلو الآخر، و هو كما قال

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عندما سأله سائل بقوله: ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدرس إلاّ غضاضة؟

فأجاب عليه السلام: «إنّ الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة.[1]

نرى أنّ الإمام الرضا عليه السلام لا يشير في هذا الحديث إلى موضوع خلود القرآن فقط، بل يشير أيضاً إلى سرّ خلوده وبقائه غضاً جديداً لا يتطرق إليه البلىٰ والذبول.

فكأنّ القرآن هو النسخة الثانية لعالم الطبيعة الواسع الأطراف الذي لا يزيد البحث فيه والكشف عن حقائقه وأسراره ، إلاّ إذعان الإنسان بأنّه في الخطوات الأُولى من التوصل إلى مكامنه الخفية في أغواره، فانّ كتاب الله تعالى كذلك لا يتوصل إلى كلّ ما فيه من الحقائق و الأسرار، لأنّه منزل من عند الله الذي لا تتصور له نهاية، ولا يمكن تحديده بحدود وأبعاد، فيجب أن تكون في كتابه لمعة من لمعاته، ويُثبت بنفسه أنّه من عنده، ويتوفر فيه ما يدلّ على أنّه كتاب سماوي ليس من صنع البشر، وهو خالد إلى ما شاء الله تعالى.

إنّ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم هو أوّل من لفت الأنظار إلى تلكم المزية وانّ هذه المزية من أهم خصائصه، حيث يقول في وصفه للقرآن: «له ظهر وبطن، وظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصىٰ عجائبه ولا تبلىٰ غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة».[2]

فلنستعرض مثالاً نبين فيه دور الزمان في كشف اللثام عن مفهوم الآية.

إنّه سبحانه يصف عامة الموجودات بالزوجية من دون فرق بين ذي حياة

---

١. البرهان في تفسير القرآن: ١/ ٢٨.

٢. الكافي: ٢/ ٥٩٩، كتاب القرآن.

وغيره، يقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلقْنا زَوجَينِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾[١].

و قد شغلت الآية بال المفسرين و فسّروه بما وصلت إليه علومهم، قال الراغب في تفسير الآية: «وفي الآية تنبيه على أنّ الأشياء كلّها مركبة من جوهر وعرض، ومادة وصورة، وان لا شيء يتعرّى من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً وأنّه لابدّ له من صانع، تنبيهاً على أنّه تعالى هو الفرد، فبيّن أنّ كلّ ما في العالم زوج، حيث إنّ له ضداً أو مثلاً ما، أو تركيباً ما، بل لا ينفك بوجه من تركيب وإنّما ذكرها هنا زوجين، تنبيهاً على أنّ الشيء وإن لم يكن له ضد ولا مثل، فانّه لا ينفك من تركيب جوهر وعرض، وذلك زوجان.[٢]

غير انّ الزمان فسّر حقيقة هذه الزوجية العامة، بتركيب الذرّة (أتُم) من جزءين معروفين.

وقد عبّر القرآن عن هذين الجزءين الحاملين للشحنتين المختلفتين، بالزوجية، حتى لا يقع موقع التكذيب والردّ، إلى أن يكشف الزمان مغزى الآية ومفادها.

وبذلك يعلم سرّ ما روي عن ابن عباس انّه قال: إنّ القرآن يفسره الزمان.[٣]

فكما أنّ الزمان يفسر الحقائق الكونية الواردة في القرآن الكريم فكذلك يفسر إتقان تشريعه في مجال الفرد والمجتمع، كما هو أيضاً يفسر أخباره الغيبية الواردة فيه، وعلى ذلك فللزمان دور في الإفصاح عن معاني الآيات كدوره في استنباط الأحكام.

---

١. الذاريات: ٤٩. ٢. مفردات الراغب، مادة زوج، ص ٢١٦.

٣. راجع النبات في حقل الحياة، تأليف نقي الموصلي، الشيخ العبيدين.

السابع: تأثيرهما في تفسير السنّة

ربما يرى الباحث اختلافاً في السنة المروية عن النبيﷺ وأهل بيته الطاهرين، فيعود إلى رفع الاختلاف بوجوه مختلفة مذكورة في الكتب الأُصولية، ولكن ثمة حل لطائفة من هذه السنن المتخالفة ، وهو انّ لكلّ من الحكمين ظرفاً زمانياً خاصاً يستدعي الحكم على وفاقه فلو حارب النبيّ ﷺ قريشاً في بدر و أحد فلمصلحة ملزمة في ذلك الزمان، ولو أظهر المرونة وتصالح معهم في الحديبية فلمصلحة ملزمة في ذلك ولم يصغ إلى مقالة من قال: «أنعطي الدنيّة في ديننا» وتصور انّ في الصلح تنازلاً عن الرسالة الإلهية والأهداف السامية وغفل عن آثاره البنّاءة التي كشف عنها سير الزمان كما هو مذكور في تاريخ النبي ﷺ.

التفسير الخاطئ لتأثير الزمان والمكان

لا شكّ انّ الأحكام الشرعية تابعة لمصالح ومفاسد في متعلقاتها فلا واجب إلاّ لمصلحة في فعله، ولا حرام إلاّ لمفسدة في اقترافه، انّ للتشريع الإسلامي نظاماً لا تعتريه الفوضىٰ، و هذا الأصل وإن خالف فيه بعض المتكلّمين، غير أنّ نظرهم محجوج بكتاب الله وسنّة نبيّه و نصوص خلفائه عليهم السلام .

ترى أنّه سبحانه يعلل حرمة الخمر والميسر بقوله:

﴿إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ وَالبَغْضاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِر وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون﴾[1].

ويستدل على وجوب الصلاة بقوله سبحانه: **﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَر﴾**[2] إلى غير ذلك من الفرائض والمناهي التي أُشير إلى

---

١. المائدة: ٩١.
٢. العنكبوت: ٤٥.

ملاكات تشريعهما في الذكر الحكيم.

وقد قال الإمام الطاهر علي بن موسى الرضا عليه السلام : «إنّ الله تبارك و تعالى لم يبح أكلاً ولا شرباً إلاّ لما فيه المنفعة والصلاح، ولم يحرّم إلاّ ما فيه الضرر والتلف والفساد».[١]

والآيات القرآنية تشهد بوضوح على ما قاله ذلك الإمام الطاهر حيث إنّها تعلّل تشريع الجهاد بقوله: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**﴾[٢] كما تعلّل القصاص بقوله: ﴿**وَلَكُمْ فِي القِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الأَلْباب لعَلَّكُمْ تَتَّقُون**﴾[٣].

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على ذلك بوضوح، ومع أنّ المعروف من الإمام الأشعري هو عدم تبعية الأحكام للمصالح والمفاسد بزعم انّ في القول بذلك تضييقاً للإرادة الإلهية، ولكن المحقّقين من أهل السنة على خلاف ذلك منهم الشاطبي في موافقاته قال:

وقد ثبت انّ الشريعة موضوعة لتحقيق مصالح الناس عاجلاً أم آجلاً، إمّا بجلب النفع لهم، أو لدفع الضرر والفساد عنهم، كما دلّ عليه الاستقراء وتتبع مرادالأحكام.[٤]

وعلى ضوء ذلك فالمصالح المستكشفة عبر الزمان إذا كانت مصالح عامة أو مفاسد كذلك ولم يرد في موردها أمر ولا نهي، فللفقيه أن يستكشف من المصلحة الملزمة أو المفسدة كون الشيء واجباً أم حراماً وذلك كتعاطي المخدرات في مورد المفاسد، و تزريق الأمصال فيما إذا انتشر الداء في المجتمع الذي لا ينقذه إلاّ التزريق، ففي هذه الموارد التي ليس للإسلام حكم إلزامي يمكن أن يستكشف الوجوب أو الحرمة ببركة إدراك العقل للمصلحة النوعية أو

١. مستدرك الوسائل: ٣/ ٧١.
٢. الحج: ٣٩.
٣. البقرة: ١٧٩.
٤. الموافقات: ٢/ ٦.

المفسدة كذلك.

إنّ استكشاف العقل المصالح والمفاسد إنّما يقع ذريعة للتشريع إذا كان المورد من قبيل «منطقة الفراغ» أي لم يكن للشارع هناك حكم بالإلزام بالفعل أو الترك، وأمّا إذا كان هناك حكم شرعي قطعي فلا يصح للمستنبط تغيير الحكم بالمصالح والمفاسد المزعومة، فانّه يكون من قبيل تقديم المصلحة على النص، وهو أمر غير جائز، وقد عرفت في صدر البحث انّ تأثير الزمان والمكان إنّما هو في الأحكام الاجتهادية دون الأحكام المنصوصة.

والحاصل انّه إذا كان هناك نص من الشارع ولم يكن الموضوع من قبيل (منطقة الفراغ) فلا معنىً لتقديم المصلحة على النص، فانّه تشريع محرّم يكون ذريعة للتخلص من الالتزام بالأحكام الشرعية.

وبذلك يعلم أنّ ما صدر من بعض السلف في بعض الموارد من تقديم المصالح على النصوص قد جانب الصواب بلا شكّ كالمثال التالي:

دلّ الكتاب والسنّة على بطلان الطلاق ثلاثاً، من دون أن يتخلّل بينها رجوع أو نكاح، فلو طلّق ثلاثاً مرّة واحدة أو كرّر الصيغة فلا يحتسب إلاّ طلاقاً واحداً. وقد جرى عليه رسول الله والخليفة الأوّل وكان ﷺ لا يمضي من الطلقات الثلاث إلاّ واحدة منها، وكان الأمر على هذا المنوال إلى سنتين من خلافة الخليفة الثاني، وسرعان ما عدل عن ذلك، قائلاً : إنّ الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم.[1]

إنّ من المعلوم أنّ إعمال الرأي فيما فيه نصّ من كتاب أو سنّة، أمر خاطئ، ولو صحّ إعماله فإنّما هو فيما لا نصّ فيه، و مع ذلك جاء الآخرون يبرّرونه بتغيّر

---

١. مسلم: الصحيح: ٤/ ١٨٣، باب الطلاق الثلاث، الحديث ١.

الأحكام بالمصالح والمفاسد، لا سيما ابن قيم الجوزية، فقال: لمّا رأى الخليفة الثاني انّ مفسدة تتابع النصّ في إيقاع الطلاق لا تندفع إلاّ بإمضائها على الناس، ورأى مصلحة الإمضاء أقوى من مفسدة الإيقاع، أمضى عمل الناس، وجعل الطلاق ثلاثاً، ثلاثاً.[١]

يلاحظ عليه : أنّ إبطال الشريعة أمر محرّم لا يستباح بأي عنوان، فلا يصحّ لنا تغيير الشريعة بالمعايير الاجتماعية من الصلاح والفساد، وأمّا مفسدة تتابع النص في إيقاع الطلاق الثلاث فيجب أن تدفع عن طريق آخر، لا عن طريق إمضاء ما ليس بمشروع مشروعاً.

والعجب انّ ابن قيم التفت إلى ذلك، وقال: كان أسهل من ذلك (تصويب الطلقات ثلاثاً) أن يمنع الناس من إيقاع الثلاث، ويحرّمه عليهم، ويعاقب بالضرب والتأديب من فعله لئلاّ يقع المحذور الذي يترتّب عليه، ثمّ نقل عن عمر بن الخطاب ندامته على التصويب، قال: قال الخليفة الثاني: ما ندمت علىٰ شيء مثل ندامتي علىٰ ثلاث.[٢]

و هنا كلمة للشيخ محمد شلتوت شيخ الأزهر حول عدّ الاجتهاد من مصادر التشريع حيث قال:

ويشمل الاجتهاد أيضاً، النظر في تعرف حكم الحادثة عن طريق القواعد العامة وروح التشريع، التي عرفت من جزئيات الكتاب وتعرفات الرسول، وأخذتْ في نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التي يرجع إليها في تعرف الحكم للحوادث الجديدة.

١. أعلام الموقعين:٣/ ٤٨.

٢. أعلام الموقعين: ٣/ ٣٦، وأشار إليه في كتابه الآخر إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان:١/ ٣٣٦.

وهذا النوع هـو المعروف بالاجتهاد عن طـريق الرأي وتقدير المصـالح. وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عـن أن يخضعوا في أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله، ومنحهـم حق التفكير و النظـر والترجيـح واختيـار الأصلح في دائرة مـا رسمه من الأُصول التشريعية، فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات، ولم يقيده في كلّ شيء بمنصـوص قد لا يتفق مع مـا يجدّ من شؤون الحياة، كما لم يلـزم أهل أي عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا.[١]

ما ذكره حقّ ليس وراءه شيء إلاّ انّي لا أوافق قوله: «ولم يقيده في كلّ شيء بمنصوص قد لا يتفق مع ما يجدّ من شـؤون الحياة» فانّه هفوة من الأُستاذ، إذ أي أصل وحكم شرعي منصوص لا يتفق مع مـا يجدّ من شؤون الحياة. وليس ما ذكره إلاّ من قبيل تقديم المصلحة على النص، وهو تشريع محرم، وتقدّم على الله ورسوله، قال سبحانه: ﴿**يا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُولِه**﴾[٢].

فالـواجب على كـلّ مسلم التجنب عـن هذا النـوع من الاستصـلاح، نعم للاستصـلاح صور متنـوعة ذكـرناها في الجزء الأوّل مـن تقديمنـا على «موسـوعة طبقات الفقهاء».[٣]

---

١. رسالة الإسلام، السنة الرابعة، العدد الأوّل، ص٥.

٢. الحجرات: ١.

٣. طبقات الفقهاء، المقدمة: القسم الأوّل: ٢٦٥.

الفصل الرابع:

دور الزمان والمكان
في الأحكام الحكومية

ثم إنّ ما ذكرناه يرجع إلى دور الزمان والمكان في عملية الاجتهاد والإفتاء، وأمّا دورهما في الأحكام الحكومية التي تدور مدار المصالح والمفاسد وليست من قبيل الأحكام الواقعية ولا الظاهرية، فلها باب واسع نأتي بكلام موجز فيه.

إنّ تقدّم العناوين الثانوية على الأوّلية يحلّ العُقَد والمشاكل في مقامين:

الأوّل: إذا كان هناك تزاحم بين الحكم الواقعيّ الأوّلي والحكم الثانوي، فيقدّم الثاني على الأوّل، إمّا من باب الحكومة أو من باب التوفيق العرفيّ، كتقدّم لا ضرر و لا حرج على الأحكام الضررية والحرجية، وهذا النوع من التقدّم يرجع إلى باب الإفتاء والاستنباط.

الثاني: إذا كان هناك تزاحم بين نفس الأحكام الواقعيّة بعضها مع بعض بحيث لو لم يُتدَخَّل في فك العُقَد، وحفظ الحقوق لحصلت مفاسد، وهنا يأتي دور الحاكم والفقيه الجامع للشرائط، المتصدي لمنصب الولاء، بتقديم بعض الأحكام الواقعيّة على بعض بمعنى تعيين أنّ المورد من صغريات أيّ واحد من الحكمين الواقعيين، ولا يحكم الحاكم في المقام إلاّ بعد دقة و إمعان ودراسة للظروف الزمانية

والمكانية ومشاورة العقلاء والخبراء.

وبعبارة أُخرى: إذا وقع التزاحم بين الأحكام الأوليّة فيقدّم بعضها على بعض في ظلّ هذه العناوين الثانوية[1]، ويقوم الحاكم الإسلاميّ بهذه المهام بفضل الولاية المعطاة له، فتصير هذه العناوين مفاتيح بيد الحاكم، يرفع بها التزاحم والتنافي، فمعنىٰ مدخليّة الزمان والمكان في حكم الحاكم عبارة عن تأثيرهما في تعيين أنّ المقام صغرى لأي كبرى من الكبريات، وأيّ حكم من الأحكام الواقعية، فيكون حكمه بتقديم إحدى الكبريين شكلاً إجرائياً للأحكام الواقعية ومراعاة لحفظ الأهمّ وتخطيطاً لحفظ النظام وعدم اختلاله.

وبذلك يظهر أنّ حكم الحاكم الإسلامي يتمتّع بميزتين:

الأُولى: إنّ حكمه بتقديم إحدى الكبريين، ليس حكماً مستنبطاً من الكتاب والسنّة مباشرة وإن كان أساس الولاية وأصلها مستنبطاً ومستخرجاً منهما، إلاّ أنّ الحاكم لمّا اعتلى منصّة الحكم ووقف على أنّ المقام من صغريات ذلك الحكم الواقعيّ دون الآخر للمقاييس التي عرفتها، يصير حكمه حكومياً وولائياً في طول الأحكام الأوّلية والثانوية وليس الهدف من وراء تسويغ الحكم له إلاّ الحفاظ على الأحكام الواقعيّة برفع التزاحم، ولذلك سمّيناه حكماً إجرائيّاً، ولائيّاً حكوميّاً لا شرعيّاً، لما عرفت من أنّ حكمه علاجيّ يعالج به تزاحم الأحكام الواقعية في ظلّ العناوين الثانوية، وما يعالج به حكم لا من سنخ المعالَج، ولو جعلناه في عرض الحكمين لزم انخرام توحيد التقنين والتشريع.

---

١. العناوين الثانوية عبارة عن: ١. الضرورة والاضطرار. ٢. الضرر والضرار. ٣. العسر والحرج. ٤. الأهم فالأهم. ٥. التقيّة. ٦. الذرائع للواجبات والمحرمات. ٧. المصالح العامّة للمسلمين.

وهذه العناوين أدوات بيد الحاكم، يحل بها مشكلة التزاحم بين الأحكام الواقعية والأزمات الاجتماعية.

الثانية: إنّ حكم الحاكم لمّا كان نـابعاً عن المصالح العامّـة وصيانة القوانين الإسلامية لا يخرج حكمه عن إطار الأحكام الأوّليّة والثانويّة، ولأجل ذلك قلنا إنّه يعالج التزاحم فيها، في ظلّ العناوين الثانويّة.

وبالجملة الفقيه الحاكـم بفضل الولاية الالهية يرفع جميـع المشاكل الماثلة في حياتنا، فإنّ العناويـن الثانوية التي تلوناها عليـك أدوات بيد الفقيه يسد بها كل فراغ حاصـل في المجتمع، وهي في الوقـت نفسه تغيّر الصغريات ولا تمس كـرامة الكبريات.

ولأجل تـوضيح المقـام، نأتي بـأمثلة نبين فيهـا مدخليّـة المصالـح الزمـانية والمكانية في حكم الحاكم وراء دخالتهما في فتوى المفتي.

الأوّل: لا شكّ أنّ تقوية الإسلام والمسلمين من الوظائف الهامّة، وتضعيف وكسر شوكتهم مـن المحرّمات الموبقة، هذا مـن جانب، ومن جانـب آخر أنّ بيع وشراء التنباك أمر محلّل في الشرع، والحكمان من الأحكام الأوّلية ولم يكن أيّ تزاحم بينهما إلّا في فترة خاصة عندما أعطى الحاكم العرفيّ امتيازاً للشركة الأجنبية، فصار بيعه وشراؤه بيدها، ولمّا أحسّ الحاكم الشرعي آنذاك ـ السيد الميرزا الشيرازي ﴿قدس سره﴾ ـ انّ استعماله يوجب انشباب أظفار الكفّـار على هيكل المجتمع الإسلامي، حكم ﴿قدس سره﴾ بأنّ استعمالـه بجميع أنواع الاستعمال كمحـاربة وليّ العصر ﴿عليه السلام﴾ [1] فلم يكن حكمه نـابعاً إلّا مـن تقديم الأهـمّ على المهمّ أو مـن نظائره، ولم يكـن الهدف من الحكم إلّا بيـان أنّ المورد من صغريات حفـظ مصالح الإسلام واستقـلال البلاد، ولا يحصل إلّا بترك استعمال التنباك بيعاً وشراءً وتدخيناً وغيرها، فاضطرت الشركة

---

١. عام ١٨٩١ م وحكمه كالتـالي: بسم الله الرحمن الرحيم: «اليوم استعمال التنبـاك والتتن، بأي نحو كان، بمثابة محاربة إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف».

حينئذ إلى فسخ العقد.

الثاني: إنّ حفظ النفوس من الأُمور الواجبة، وتسلّط الناس على أموالهم وحرمة التصرّف في أموالهم أمر مسلّم في الإسلام أيضاً، إلاّ أنّه على سبيل المثال ربّما يتوقّف فتح الشوارع في داخل البلاد و خارجها على التصرّف في الأراضي والأملاك، فلو استعدّ مالكها بطيب نفس منه فهو و إلاّ فللحاكم ملاحظة الأهمّ بتقديمه على المهمّ، ويحكم بجواز التصرّف بلا إذن، غاية الأمر يضمن لصاحب الأراضي قيمتها السوقية.

الثالث:إنّ إشاعة القسط والعدل ممّا ندب إليه الإسلام وجعله غاية لبعث الرسل، قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ**﴾[1]

ومن جانب إنّ الناس مسلّطون على أموالهم يتقلّبون فيها كيفما شاءوا، فإذا كان هناك تزاحم بين الحكمين الواقعيين، كما في احتكار المحتكر أيّام الغلاء أو إجحاف أصحاب الحرف والصنعة وغيرهم، فللحاكم الإسلامي ـ حسب الولاية الإلهيّة ـ الإمعان والدقة والاستشارة والمشورة في حلّ الأزمة الاجتماعية حتى يتبيّن له أنّ المقام من صغريات أيّ حكم من الحكمين، فلو لم تحلّ العقد بالوعظ والنصيحة، فآخر الدواء الكيّ، أي: فتح المخازن وبيع ما احتكر بقيمة عادلة وتسعير الأجناس وغير ذلك.

الرابع: لا شكّ أنّ الناس أحرار في تجاراتهم مع الشركات الداخلية والخارجية، إلاّ أنّ إجراء ذلك، إن كان موجباً لخلل في النظام الاقتصاديّ أو ضعف في البنية الماليّة للمسلمين، فللحاكم تقديم أهمّ الحكمين على الآخر

١. الحديد:٢٥.

حسب ما يرىٰ من المصالح.

الخامس: لو رأىٰ الحاكمُ أنّ بيع العنب إلى جماعة لا يستعملونه إلّا لصنع الخمر وتوزيعه بالخفاء، أورث فساداً عند بعض أفراد المجتمع وانحلالاً في شخصيّتهم، فله أن يمنع من بيع العنب إلى هؤلاء.

إلى غير ذلك من المواضع الكثيرة التي لا يمكن للفقيه الحاكم غضّ النظر عن الظروف المحيطة به، حتى يتضح له أنّ المجال مناسب لتقديم أي الحكمين على الآخر وتشخيص الصغرى كما لا يخفى.

هذا كلّه حول مدخلية الزمان والمكان في الاجتهاد في مقام الإفتاء أوّلاً ومنصة الحكم ثانياً، وأمّا سائر ما يرجع إلى ولاية الفقيه فنتركه إلى محلّه.

الفصل الخامس:

دراسة في تأثير الزمان والمكان
في الفقه السنّي

طرحـت هذه المسألـة من قبل بعـض فقهاء السنّـة قديماً وحديثـاً، وإليك التنويه بأسمائهم وببعض كلماتهم:

١. ابـن القيـم الحنبلي (المتـوفّى ٧٥١ هـ) يقـول في فصـل «تغيّر الفتـوىٰ واختلافها بحسب تغيّر الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيّات والعوائد» :

هذا فصل عظيم النفع، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقّة، وتكليـف مالا سبيل إليه، ما يعلم انّ الشريعـة الباهرة التي في أعلى رتب المصـالح لا تأتي به، فـإنّ الشريعة مبناها وأسـاسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عـدل كلّها، ورحمة كلّها، ومصالح كلّها، وحكمة كلّها، فكلّ مسـألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعـن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة. [١]

---

١. اعلام الموقعين:٣/ ١٤ ط دار الفكر وقد استغرق بحثه ٥٦ صفحة . فلاحظ.

٢. السيد محمد أمين أفندي الشهير بـ«ابن عابدين»[١] مؤلّف كتاب «مجموعة رسائل» قال ما نصّه:

اعلم أنّ المسائل الفقهية إمّا أن تكون ثابتة بصريح النص، وإمّا أن تكون ثابتة بضرب اجتهاد ورأي، وكثيراً منها ما يُبيّنه المجتهد على ما كان في عرف زمانه بحيث لو كان في زمان العرف الحادث لقال بخلاف ما قاله أوّلاً، ولهذا قالوا في شروط الاجتهاد انّه لابدّ فيه من معرفة عادات الناس، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغيّر عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو فساد أهل الزمان بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أوّلاً، للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعدَ الشريعة المبنيّة على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد لبقاء العالم على أتم نظام وأحسن أحكام، ولهذا ترى مشايخ المذهب خالفوا ما نصّ عليه المجتهد في مواضع كثيرة بناها على ما كان في زمنه لعلمِهم بأنّه لو كان في زمنهم لقال بما قالوا به أخذاً في قواعد مذهبه.

ثمّ إنّ ابن عابدين ذكر أمثلة كثيرة لما ذكره من الكبرى تستغرق عدّة صحائف[٢] ولنذكر بعض الأمثلة:

أ. افتاؤهم بجواز الاستئجار على تعليم القرآن ونحوه لانقطاع عطايا المعلّمين التي كانت في الصدر الأوّل، ولو اشتغل المعلّمون بالتعليم بلا أُجرة يلزم ضياعهم وضياع عيالهم، ولو اشتغلوا بالاكتساب في حرفة وصناعة، يلزم ضياع القرآن والدين، فأفتوا بأخذ الأُجرة على التعليم وكذا على الإمامة والأذان كذلك، مع أنّ ذلك مخالف لما اتّفق عليه أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن

---

١. هو محمد أمين الدمشقي، فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية في عصره، ولد عام ١١٩٨هـ وتوفي عام ١٢٩٢هـ له من الآثار «مجموعة رسائل» مطبوعة.

٢. انظر رسائل ابن عابدين: ٢/ ١٢٣ـ١٤٥.

الشيباني من عدم جواز الاستئجار وأخذ الأُجرة عليه كبقية الطاعات من الصوم والصلاة والحج وقراءة القرآن ونحو ذلك.

ب. قول الإمامين [١] بعدم الاكتفاء بظاهر العدالة في الشهادة مع مخالفته لما نصّ عليه أبو حنيفة بناء على ما كان في زمنه من غلبة العدالة، لأنّه كان في الزمن الذي شهد لـه رسول الله بالخيريّة، وهما أدركا الزمن الذي فشا فيه الكذب، وقد نصّ العلماء على أنّ هذا الاختلاف اختلاف عصر وأوان، لا اختلاف حجّة وبرهان.

ج. تحقّق الإكراه من غير السلطان مع مخالفته لقول الإمام «أبي حنيفة» بناء على ما كان في زمنه من أنّ غير السلطان لا يمكنه الإكراه ثمّ كثر الفساد فصار يتحقّق الإكراه من غيره، فقال محمد (ابن الحسن الشيباني) باعتباره، وأفتى به المتأخّرون لذلك.

وقد ساق الأمثلة على هذا النمط إلى آخر الرسالة.

٣. و قد طرق هذا البحث أيضاً الأُستاذ مصطفى أحمد الزرقاء في كتابه القيّم «المدخل الفقهي العام» وقال ما نصّه:

الحقيقة انّ الأحكام الشرعية التي تتبدّل بتبدّل الموضوعات مهما تغيرت باختلاف الزمن، فإنّ المبدأ الشرعي فيها واحد وليس تبدّل الأحكام إلاّ تبدّل

---

١. الظاهر انّه يريد تلميذي أبي حنيفة: أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني ولم يكن الفصل بين الإمام أبي حنيفة وبينهم طويلاً، فقد توفّي أبو حنيفة عام ١٥٠هـ وتوفّي أبو يوسف عام ١٨٢هـ وتوفي الشيباني عام ١٨٩هـ و إذا كان كذلك فلماذا يعدّون القرون الثلاثة الأُولى خير القرون، والحقّ انّ بين السلف والخلف رجالاً صالحين وأشخاصاً طالحين، ولم يكن السلف خيراً من الخلف، ولا الخلف أكثر شرّاً من السلف و إنّما هي دعايات فارغة فقد شهد القرن الأوّل وقعة الطفّ والحرّة في المدينة.

الوسائل والأسـاليب الموصلة إلى غاية الشـارع، فإنّ تلك الوسـائل والأساليب في الغالب لم تُحدَّد مـن الشريعة الإسلامية بل تـركتها مطلقة لكي يُختـار منها في كلّ زمان ما هو أصلح في التنظيم نتاجاً وأنجح في التقويم علاجاً.

ثمّ إنّ الأُستاذ جعل المنشأ لتغير الأحكام أحد أمرين:

أ. فساد الأخلاق، وفقدان الورع وضعف الوازع، وأسماه بفساد الزمان.

ب. حدوث أوضاع تنظيمية، ووسائل فرضية، وأساليب اقتصادية.

ثمّ إنّه مثّل لكـل من النوعين بأمثلة مختلفة اقتبس بعضهـا من رسالة «نشر العرف» للشيـخ ابن عـابدين، ولكنّـه صاغ الأمثلـة في ثوب جديـد، ولنذكـر كلا الأمرين وأمثلتهما.

أ. تغيير الأحكام الاجتهادية لفساد الزمان

١. من المقـرر في أصل المذهب الحنفي انّ المديـن تنفذ تصرفاته في أمـواله بالهبة والوقف وسائر وجوه التبرّع، ولو كانت ديـونه مستغرقة أمواله كلّها، باعتبار انّ الديون تتعلّق بذمّته فتبقى أعيان أمـواله حرة، فينفذ فيها تصرّفه، وهذا مقتضى القواعد القياسية.

ثمّ لما فسدت ذمم الناس وكثر الطمع وقلّ الورعُ وأصبح المدينون يعمدون إلىٰ تهريب أموالهم من وجـه الدائنين عن طريق وقفها، أو هبتهـا لمن يثقون به من قريب أو صديـق، أفتى المتأخرون من فقهاء المذهبين الحنبلي والحنفـي بعدم نفاذ هذه التصرفات من المدين إلاّ فيما يزيد عن وفاء الدين من أمواله»[1].

---

١. المدخل الفقهي العام:٢، برقم ٥٤٣.

هذا في الفقـه السنّي، ولكن في الفقه الإمـامي ليس هناك أي مشكلـة حتىٰ نتوسل بعنصر الزمان ونلتزم بتغيّر الأحكام في ظلّه، لأنّ للمحجور حالتين:

الأُولى: إذا حجر عليه الحاكم وحكم بإفلاسـه فعند ذاك يتعلّق حقّ الغرماء بأمواله لا بذمَّته، نظير تعلّق حـقّ المرتهن بالعين المرهونة فلا يجوز له التصرف فيها بعوض كالبيع والإجارة، وبغير عوض كالوقف والهبة إلاّ بإذنهم و إجازتهم.

الثانية: إذا لم يُحجر عليه فتصرفاته علىٰ قسمين: قسم لا يريد الفرار من أداء الديـون ولا يلازم حرمان الـديّان، فيجوز لـه التصرّف بأمواله كيفما شـاء، والقسم الآخر يريد من الصلح أو الهبة الفرار من أداء الديون، فالحكم بصحة تصرفاتـه ـ فيما إذا لم يرج حصول مال آخر له باكتساب ونحوه ـ مشكل. [1] وجهه: انّ الحكم بلزوم تنفيذها حكم ضرري يلحق بـأصحاب الديون فلا يكون نافذاً، أضف إلىٰ ذلك انصراف عمومـات الصلح والهبة وسائر العقود عن مثـل هذه العقود. وعلى ذلك فلا داعي لتبنّي تغير الحكم الشرعي بـالعنصرين. بل الحكم الشرعي السائر مع الزمان موجود في أصل الشرع بلا حاجة إلى التوسل بعنصر «فساد الزمان».

٢. في أصل المذهب الحنفي انّ الغاصب لا يضمـن قيمة منافع المغصوب في مدة الغصب بـل يضمن العين فقط إذا هلكت أو تعيَّبت، لأنّ المنافـع عندهم ليست متقوّمة في ذاتها و إنّما تقوم بعقد الإجارة ولا عقد في الغصب.

ولكن المتأخرين من فقهـاء المذهب الحنفي نظروا تجرّؤ الناس على الغصب وضعف الوازع الديني في نفوسهم، فأفتوا بتضمين الغاصب أُجرة المثل عن منافع المغصـوب إذا كان المغصـوب مال وقـف أو مـال يتيم أو معـداً للاستغـلال على خلاف الأصل القياسي في المذهب زجراً للناس عن العدوان لفساد الزمان.

---

١. لاحظ وسيلة النجاة:١٣٣، كتاب الحجر، المسألة الأُولى؛ وتحرير الوسيلة:٢/ ١٦.

ثمّ أضاف إليها في التعليقة بأنّ الأئمّة الثلاثة ذهبوا إلى عكس ما ذهب إليه الاجتهاد الحنفي، فاعتبروا المنافع متقوّمة في ذاتها، كالأعيان، وأوجبوا تضمين الغاصب أُجرة المثل عن المال المغصوب مدة الغصب، سواء استعرض الغاصب منافعه أو عطّلها ثمّ قال: وهذا الاجتهاد أوجه وأصلح. [١]

أقول: إنّ القول بعدم ضمان الغاصب المنافع المستوفاة مستند إلى ما تفرّد بنقله عروة بن الزبير عن عائشة أنّ رسول الله قضى أنّ الخراج بالضمان. [٢]

فزعمت الحنفية انّ ضمان قيمة المغصوب لا يجتمع مع ضمان المنافع، وذلك لأنّ ضمان العين في مقابل كون الخراج له، ولكن الاجتهاد غير صحيح جداً، لأنّ الحديث ناظر إلى البيوع الصحيحة، مثلاً: إذا اشترى عبداً أو غيره فيستغلّه زماناً ثمّ يعثر منه على عيب كان فيه عند البائع، فله ردّ العين المبيعة وأخذ الثمن، ويكون للمشتري ما استغله، لأنّ المبيع لو تلف في يده لكان في ضمانه ولم يكن له على البائع شيء، والباء في قوله بالضمان متعلّق بمحذوف تقديره: الخراج مستحق بالضمان، أي في مقابلة الضمان، أي منافع المبيع بعد القبض تبقى للمشتري في مقابلة الضمان اللازم عليه بطرف المبيع.

هذا هو معنى الحديث، وعليه شرّاح الحديث [٣] ولا صلة للحديث بغصب الغاصب مال الغير واستغلال منافعه.

والذي يفسّر الحديث وراء فهم الشرّاح انّ عروة بن الزبير نقل عن عائشة أنّ رجلاً اشترى عبداً، فاستغلّه ثمّ وجد به عيباً فردّه، فقال: يا رسول الله إنّه قد

---

١. المدخل الفقهي العام: ٢، برقم ٥٤٤.

٢. مسند أحمد بن حنبل: ٦/ ٤٩؛ وسنن الترمذي: ٣، كتاب البيوع برقم ١٢٨٦؛ وسنن النسائي: ٧/ ٢٥٤، باب الخراج بالضمان.

٣. لاحظ شرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي على سنن النسائي وغيره.

استغلّ غلامي، فقال رسول الله: «الخراج بالضمان». [١]

وقد ورد من طرقنا أنّ الإمام الصادق عليه السلام لمّا سمع فتوى أبي حنيفة بعدم ضمان الغاصب قيمة المنافع التي استوفاها، قال: «في مثل هذا القضاء وشبهه تحبس السماء ماءَها وتمنع الأرضُ بركتها». [٢]

ثمّ إنّه يدل على ضمان المنافع المستوفاة عموم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحل مال امرئ مسلم لأخيه إلاّ عن طيب نفسه» والمنافع مال، ولأجل ذلك يجعل ثمناً في البيع وصداقاً في النكاح، مضافاً إلى السيرة العقلائية في تضمين الغاصب المنافع المستوفاة، وعلى ذلك فليس هاهنا مشكلة حتى تعالج بعنصر الزمان، ولم يكن الحكم المزعوم حكماً شرعيّاً حتى يتغير لأجل فساد أهل الزمان.

٣. في أصل المذهب الحنفي انّ الزوجة إذا قبضت مؤجّل مهرها تُلْزم بمتابعة زوجها حيث شاء، ولكن المتأخّرين لحظوا انقلاب الأخلاق وغلبة الجور، وانّ كثيراً من الرجال يسافرون بزوجاتهم إلىٰ بلاد نائية ليس لهنّ فيها أهل ولا نصير، فيسيئون معاملتهنّ ويجورون عليهنّ، فأفتى المتأخرون بأنّ المرأة لو قبضت مؤجل مهرها لا تجبر علىٰ متابعة زوجها، إلى مكان إلاّ إذا كان وطناً لها وقد جرى فيه عقد الزواج بينهما، وذلك لفساد الزمان وأخلاق الناس، وعلى هذا استقرت الفتوى والقضاء في المذهب. [٣]

أقول: إنّ لحلّ هذا النوع من المشاكل طريقاً شرعياً في باب النكاح، وهو اشتراط عدم إخراجها من وطنها أو أن يسكنها في بلد خاص، أو منزل مخصوص

---

١. سنن ابن ماجة: ٢، برقم ٢٢٤٣.

٢. وسائل الشيعة: الجزء ١٣، الباب ١٧ من أبواب أحكام الإجارة، الحديث ١ والحديث طويل جدير بالمطالعة.

٣. المدخل الفقهي العام: ٢، برقم ٥٤٦.

في عقد النكـاح، فيجب على الـزوج الالتزام به. وليـس مثل هـذاالاشتراط مخالفاً للكتاب والسنّة.

ولو افترضنا غفلـة أولياء العقد عن الاشتراط وأراد الزوج إخـراجها إلى بلاد نائيـة يصعب عليهـا العيش فيهـا ويعد حـرجيّاً لها، فللـزوجة رفـع الشكوى إلى الحاكـم بغية عـدم إخراجهـا من وطنهـا، فيحكم بعـد تبيّن الحال بعدم الإخـراج نتيجة طروء العناويـن الثانوية كالحرج والضرر، فليس للزمـان هنا أي مدخلية في تغيير الحكم، بل يكمن الحكم الشرعي في نفس الشرع.

٤. في أصـل المذهب الحنفـي وغيره انّ القاضي يقضي بعلمـه الشخصي في الحوادث، أي أنّ علمـه بالـوقـائع المتنازع فيهـا يصـح مستنـداً لقضائه، ويغنـي المدّعي عن إثبات مدّعاه بالبيّنة، فيكـون علم القاضي بواقع الحال هو البيّنة، وفي ذلك أقضيـة مأثورة عـن عمر وغيره، ولكن لوحـظ فيما بعد انّ القضاة قـد غلب عليهم الفساد والسوء وأخذ الرشا، ولم يعد يختـار للقضاء الأوفر ثقة وعفة وكفاية بل الأكثر تزلّفاً إلى الولاة وسعياً في استرضائهم و إلحافاً في الطلب.

لذلك أفتـى المتأخّرون بأنّه لا يصـحّ أن يقضي القاضي بعلمه الشخصي في القضاء بـل لابدّ أن يستنـد قضاؤه إلى البيّنـات المثبتة في مجلـس القضاء حتـى لو شاهد القاضي بنفسه عقداً أو قرضاً أو واقعة ما بين اثنين خارج مجلس القضاء ثمّ ادّعىٰ به أحدهما وجحـدها الآخر، فليس للقاضي أن يقضي للمدّعـي بلا بيّنة، إذ لو ساغ ذلـك بعدما فسدت ذمم كثير مـن القضاة، لزعموا العلم بـالوقائع زوراً، وميـلاً إلى الأقوىٰ وسيلـة مـن الخصمين، فهذا المنـع وإن أضـاع بعض الحقـوق لفقدان الإثبات لكنّه يـدفع باطلاً كثيراً، وهكذا استقر عمل المتـأخرين علىٰ عدم نفاذ قضاء القاضي بعلمه.

على أنّ للقـاضي أن يعتمـد علىٰ علمـه في غير القضـاء مـن أُمـور الحسبـة

والتدابير الإداريـة الاحتياطية، كما لـو علم ببينونة امـرأة مع استمرار الخلطـة بينها وبين زوجها، أو علم بغصب مال؛ فإنّ له أن يحول بين الرجل ومطلقته، وأن يضع المال المغصوب عند أمين إلى حين الإثبات. [١]

أقول: يشترط المذهـب الإمامـي في القاضي: العـدالـة والاجتهاد المطلـق، فالقاضي الجائر لا يستحق القضاء ولا ينفذ حكمه.

وعلىٰ ضوء ذلك فلا يترتب علىٰ عمل القاضي بعلمه أي فساد، لأنّ العدالة تصدّه عن ارتكاب الآثام.

ولوافترضنا إشغال منصة القضاء بالفرد الجائر فليس للقاضي العمل بعلمه في حقوق الله سبحانه، كما إذا علم أنّ زيـداً زنىٰ أو شرب الخمر أو غير ذلك، فلا يصحّ له إقامة الدعوىٰ وإجراء الحدود لاستلزامه وحدة القاضي والمدعي من غير فرق بين كونه عادلاً أو غيره.

وأمّا العمل بعلمه في حقـوق الناس فلا يعمل بعلم غير قابـل للانتقال إلى الغير بل يقتصر في العمل بعلمـه بنحو لو طولـب بالدليل لعـرضه وإلاّ فلا يجوز، وقد حقّق ذلك في كتاب القضاء.

٥. من المبـادئ المقرّرة في أصل المذهـب انّ العمل الواجـب علىٰ شخص شرعاً لا يصحّ استئجاره فيـه ولا يجوز له أخذ أُجرة عليه، ومن فـروع هذا المذهب الفقهي انّ القيـام بالعبـادات والأعمال الدينية الـواجبة كالإمـامة وخطبـة الجمعة وتعليم القرآن والعلم لا يجوز أخذ الأُجرة عليه في أصل المذهب بل على المقتدر أن يقوم بذلك مجاناً لأنّه واجب ديني.

غير انّ المتأخّرين من فقهاء المذهب لحظوا قعود الهمم عن هذه الواجبات،

---

١. المدخل الفقهي العام:٢، برقم ٥٤٦.

وانقطاع الجرايـات من بيت المال عـن العلماء ممّا اضطرهـم إلى التماس الكسب، حتى أصبح القيام بهذه الواجبات غير مضمون إلاّ بالأجر، ولذلك أفتى المتأخّرون بجواز أخذ الأُجـور عليها حرصاً علىٰ تعليـم القرآن ونشر العلم و إقامـة الشعائر الدينية بين الناس.[١]

أمّا الفقه الإمامي، فالمشكلة فيه مرتفعة بوجهين:

الأوّل: إذا كان هناك بيت مال معدّاً لهذه الأغراض لا تبذل الأُجرة في مقابل العمل، بل الحاكم يؤمّن له وسائل الحياة حتىٰ يتفرّغ للواجب.

الثاني: امّا إذا لم يكن هناك بيـت مال فإذا كان أخذ الأُجرة حـراماً منصوصاً عليه وكان مـن صلب الشريعة فلا يمسّـه عنصر الزمان ولكن يمكـن الجمع بين الأمرين وتحليله عـن طريق آخر، وهو أن يجتمع أوليـاء الصبيان أو غيرهم ممّن لهم حاجة إلىٰ إقامة القضاء والأذان والإفتاء فيشـاركون في سد حاجة المفتي والقاضي والمؤذن والمعلم حتـى يتفرّغـوا لأعمالهم العباديـة بلا هـوادة وتقاعـس، علىٰ أنّ ما يبذلون لا يعد أُجرة لهم وإنّما هو لتحسين وضعهم المعاشي.

وبعبـارة أُخـرى: القـاضي والمفتـي والمؤذّن والمعلـم يمارس كـلّ أعمالـه لله سبحـانـه، ولكـن بما انّ الاشتغـال بهذه المهمة يتـوقّـف على سـد عيلتهـم ورفـع حاجتهم فالمعنيّون من المؤمنين يسدّون عيلتهم حتى يقوموا بواجبهم وإلاّ فكما أنّ الإفتاء واجـب، فكذلـك تحصيل الضروريـات لهم ولعيالهم أيضـاً واجب. وعنـد التـزاحم يقـدّم الثـاني على الأوّل إذ في خلافـه، خـوف هـلاك النفوس وانحـلال الأُسرة، ولكن يمكن الجمع بين الحكمين على الطريق الذي أشرنا إليه.

٦. انّ الشهود الذين يقضى بشهـادتهم في الحوادث يجب أن يكونوا عدولاً،

---

١. المدخل الفقهي العام:٢، برقم ٥٤٧.

أي ثقـات، وهم المحـافظون على الـواجبات الـدينية المعـروفون بـالسرّ والأمانـة، وانّ عدالـة الشهود شريطـة اشترطها القرآن لقبـول شهادتهم وأيّـدتها السنّة وأجمع عليها فقهاء الإسلام.

غير أنّ المتأخّريـن من فقهائنا لحظـوا ندرة العدالة الكـاملة التي فسرّت بها النصوص لفساد الـزمن وضعف الذمـم وفتور الحس الديني الـوازع، فإذا تطلب القضاة دائماً نصاب العدالة الشرعية في الشهود ضاعت الحقوق لامتناع الإثبات، فلذا أفتوا بقبول شهادة الأمثل فالأمثل من القوم حيث تقلّ العدالة الكاملة.

ومعنى الأمثل فالأمثل: الأحسن فالأحسن حالاً بين الموجودين، ولو كان في ذاته غير كـامل العـدالة بحـدها الشرعـي، أي أنّهم تنازلـوا عن اشتراط العـدالة المطلقة إلى العدالة النسبية.[١]

أقول: إنّ القرآن ـ كما تفضّل به الكاتب ـ صريح في شريطة العدالة في تنفيذ شهـادتـه، يقـول سبحـانـه: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ﴾[٢] وقـال سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَي عَدْلٍ مِنكُمْ﴾[٣].

مضافاً إلى الروايات الواردة في ذلك المضمار، فتنفيذ شهادة غير العدل تنفيذ بـلا دليل أو مخالـف لصريـح الكتاب، ولكـن يمكـن للقـاضي تحصيل القـرائن والشواهد التي منها شهادة الأمثل فالأمثل التي تثبت أحد الطرفين على وجه يفيد العلم للقـاضي، ويكون علمـه قابـلاً للانتقـال إلى الآخريـن من دون حـاجة إلى العمل بقول الأمثل فالأمثل.

ثـمّ إنّ ترك العمـل بشهـادة غير العدول كما هـو مظنّـة إضـاعة الحقـوق،

١. المدخل الفقهي العام:٢/ ٩٣٣ـ٩٣٤ برقم٥٥١.

٢. البقرة: ٢٨٢.

٣. الطلاق:٢.

فكذلك هو مظنّة الإضرار على المحكوم عليه لعدم وجود العدالة في الشاهد حتّى تصونه عن الكذب عليه، فالأمر يدور بين المحذورين.

لو فسرّ القائل العدالة بالتحرّز عن الكذب وإن كان فاسقاً في سائر الجوارح لكان أحسن من تفسيره بالعدالة المطلقة ثمّ العدول عنها لأجل فساد الزمان.

٧. أفتى المتأخّرون في إثبات الأهلّة لصيام رمضان وللعيدين بقبول رؤية شخصين، ولو لم يكن في السماء علّة تمنع الرؤية من غيم أو ضباب أو غبار بعد أن كان في أصل المذهب الحنفي، لا يثبت إهلال الهلال عند صفاء السماء إلاّ برؤية جمع عظيم، لأنّ معظم الناس يلتمسون الرؤية، فانفراد اثنين بادّعاء الرؤية مظنّة الغلط أو الشبهة.

وقد علّل المتأخّرون قبول رؤية الاثنين بقعود الناس عن التماس رؤية الهلال، فلم تبق رؤية اثنين منهم مظنّة الغلط إذا لم يكن في شهادتهما شبهة أو تهمة تدعو إلى الشك والريبة.[1]

وأمّا في الفقه الإمامي، فلا يعتبر قول العدلين عند الصحو وعدم العلّة في السماء إذا اجتمع الناس للرؤية وحصل الخلاف والتكاذب بينهم بحيث يقوى احتمال اشتباه العدلين.

وأمّا إذا لم يكن هناك اجتماع للرؤية ـ كما هو مورد نظر الكاتب ـ حيث قال: لقعود الناس عن التماس رؤية الهلال، فقبول قول العدلين ـ على وفاق القاعدة لا على خلافها، فليس للزمان هناك تأثير في الحكم الشرعي.

وبعبارة أُخرى: ليس في المقام دليل شرعي على وجه الإطلاق يدل على عدم

---

١. المدخل الفقهي العام: ٢/ ٩٣٤ برقم ٥٤٩.

قول العدلين في الصحو وعدم العلّة في السماء حتّى يؤخذ بإطلاقه في كلتا الصورتين: كان هناك اجتماع للرؤية أم لم يكن، بل حجّية دليل البيّنة منصرف عن بعض الصور، وهو ما إذا كان هناك اجتماع من الناس للرؤية وحصل الخلاف والتكاذب بحيث قوىٰ احتمال الاشتباه في العدلين، وأمّا في غير هذه الصورة فإطلاق حجّية أدلّة البيّنة باق بحالها، ومنها ما إذا ادّعى العدلان و لم يكن اجتماع ولا تكاذب ولا مظنّة اشتباه.

هذه هي المسائل التي طرحها الأُستاذ مصطفى أحمد الزرقاء مثالاً لتغيّر الآراء الفقهية والفتاوى لأجل فساد الزمان، وقد عرفت أنّه لا حاجة لنا في العدول عن الحكم الشرعي، وذلك لأحد الأمرين:

أ. إمّا لعدم ثبوت الحكم الأوّلي كما في عدم ضمان الغاصب للمنافع المستوفاة.

ب. أو لعدم الحاجة إلى العدول عن الحكم الشرعي، بل يمكن حل المشكل عن طريق آخر مع صيانة الحكم الأوّلي، كما في الأمثلة الباقية.

***

ب . تغيير الأحكام الاجتهادية لتطوّر الوسائل والأوضاع

قد سبق من هذا الكاتب انّ عوامل التغيير علىٰ قسمين:

أحدهما: ما يكون ناشئاً من فساد الأخلاق، وفقدان الورع، وضعف الوازع، وأسماه بفساد الزمان،وقد مرّ عليك أمثلته كما مرّت مناقشاتنا.

والآخر: ما يكون ناشئاً عن أوضاع تنظيمية، ووسائل زمنية جديدة من أوامر قانونية مصلحية وترتيبات إدارية، وأساليب اقتصادية ونحو ذلك، وهذا النوع ـ

عند الكاتب ــ كالأوّل موجب لتغيير الأحكام الفقهية الاجتهادية المقرّرة قبله إذا أصبحت لا تتلاءم معه، لأنّها تصبح عندئذ عبثاً أو ضرراً، والشريعة منزّهة عن ذلك، وقد قال الإمام الشاطبي(المتوفّى ٧٩٠ هـ) في الموافقات :لا عبث في الشريعة.

ثمّ طرح لها أمثلة و إليك بيانها:

١. ثبت عن النبي ﷺ أنّه نهىٰ عن كتابة أحاديثه، وقال لأصحابه:«من كتب عني غير القرآن فليمحه» واستمر الصحابة والتابعون يتناقلون السنّة النبوية حفظاً وشفاهاً لا يكتبونها حتى آخر القرن الهجري الأول عملاً بهذا النهي.

ثمّ انصرف العلماء في مطلع القرن الثاني بأمر من الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، إلى تدوين السنّة النبوية، لأنّهم خافوا ضياعها بموت حفظتها ورأوا أنّ سبب نهي النبي عليه السلام عن كتابتها إنّما هو خشية أن تختلط بالقرآن، إذ كان الصحابة يكتبون ما ينزل منه علىٰ رقاع، فلمّا عمَّ القرآن وشاع حفظاً وكتابة، ولم يبق هناك خشية من اختلاطه بالحديث النبوي، لم يبق موجب لعدم كتابة السنّة، بل أصبحت كتابتها واجبة لأنّها الطريقة الوحيدة لصيانتها من الضياع. [١]

أقول: إنّ ما ذكره من أنّ النبي ﷺ نهىٰ عن كتابة حديثه غير صحيح من وجوه:

أوّلاً: روى البخاري أنّ رجلاً من أهل اليمن طلب من النبي أن يكتب له خطبته فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: اكتبوا لأبي فلان إلى أن قال: كتبت له هذه الخطبة. [٢]

---

١. المدخل الفقهي العام:٢/ ٩٣٣،وفي الطبعة العاشرة في ترقيم الصفحات في المقام تصحيف.

٢. البخاري: الصحيح:٢٩، باب كتابة العلم.

أضف إلى ذلك أنّ النبي ﷺ أمر في غير واحد من الموارد كتابة حديثه، يجدها المتفحص في مصادرها. [١]

ومع هذه الموارد الكثيرة التي رخّص النبيّ فيها كتابة الحديث، والعمل به، لا يبقىٰ أيُّ شك في موضوعية ما روي عنه ﷺ: «من كتب عنّي غير القرآن فليمحه».

ثانياً: هل يصحّ أن يأمر الله سبحانه بكتابة الدين حفظاً له، واحتياطاً عليه، وفي الوقت نفسه ينهىٰ نبيّه عن كتابة الحديث الذي يعادل القرآن في الحجّية؟!

ثالثاً: العجب من الأُستاذ أنّه سلّم وجه المنع، وهو أن لا يختلط الحديث بالقرآن، وقد نحته الخطيب البغدادي [٢] في كتاب «تقييد العلم» [٣] مع انّه غير تام، لأنّ القرآن الكريم في أُسلوبه وبلاغته يغاير أُسلوب الحديث وبلاغته، فلا يخاف على القرآن الاختلاط بغيره مهما بلغ من الفصاحة والبلاغة، فقبول هذا التبرير يلازم إبطال إعجاز القرآن الكريم، وهدم أُصوله.

والكلمة الفصل أنّ المنع عن كتابة الحديث كان منعاً سياسيّاً صدر عن الخلفاء لغايات وأهداف خاصّة، والخسارة التي مُني الإسلام والمسلمون بها من جرّاء هذا المنع لا تجبر أبداً، وقد فصلنا الكلام في فصل خاص من كتابنا بحوث في الملل والنحل. [٤]

---

١. سنن الترمذي: ٥/ ٣٩، باب كتابة العلم، الحديث ٢٦٦٦؛ سنن الدارمي: ١/ ١٢٥، باب من رخص في كتابة العلم؛ سنن أبي داود: ٢/ ٣١٨، باب في كتابة العلم، ومسند أحمد: ٢/ ٢١٥ وج: ٣/ ١٦٢.

٢. أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (٣٩٢ـ ٤٦٣هـ) مؤلّف تاريخ بغداد.

٣. تقييد العلم: ٥٧.

٤. لاحظ: الجزء الأوّل من الكتاب المذكور: ٦٠ـ ٧٦.

٢. قبل انشاء السجلات العقارية الرسميّة التي تحدد العقارات، وتعطي كلاً منها رقماً خاصّاً، كان التعاقد على العقار الغائب عن مجلس العقد لابدّ لصحّته من ذكر حدود العقار، أي ما يلاصقه من الجهات الأربع ليُتميّز العقار المعقود عليه عن غيره، وفقاً لما تقضي به القواعد العامة من معلومية محل العقد.

ولكن بعد إنشاء السجلات العقارية في كثير من الممالك والبلدان أصبح يكتفىٰ قانوناً في العقود بذكر رقم محضر العقار، دون ذكر حدوده، وهذا ما يوجبه فقه الشريعة، لأنّ الأوضاع والتنظيمات الزمنية أوجدت وسيلة جديدة أسهل وأتم تعييناً وتمييزاً للعقار من ذكر الحدود في العقود العقارية، فأصبح اشتراط ذكر الحدود عبثاً، وقد قدّمنا أنّه لا عبث في الشريعة.

أقول: إنّ الحكم الشرعي الأوّلي هو معلومية المبيع، وهذا هو لُبُّ الشريعة، وأمّا الباقي فهو ثوب يتغير بتغير الأزمان، فلا تحديد العقارات من الجهات الأربع حكم أصلي، ولا ذكر رقم محضر العقار، فالجميع طريق إلى الحكم الشرعي وهو معلومية المبيع وخروجه عن كونه مجهولاً، والشرط يحصل بكلا الوجهين وتغيير الثوب ليس له صلة بتغيير الحكم.

٣. كذلك كان تسليم العقار المبيع إلى المشتري لا يتم إلاّ بتفريغ العقار وتسليمه فعلاً إلى المشتري، أو تمكينه منه بتسليم مفتاحه ونحو ذلك، فإذا لم يتمّ هذا التسليم يبقى العقار معتبراً في يد البائع، فيكون هلاكه على ضمانه هو ومسؤوليته، وفقاً للأحكام الفقهية العامّة في ضمان المبيع قبل التسليم.

ولكن بعد وجود الأحكام القانونية التي تخضع العقود العقارية للتسجيل في السجل العقاري. استقر الاجتهاد القضائي أخيراً لدينا على اعتبار التسليم حاصلاً بمجرد تسجيل العقد في السجلّ العقاري، ومن تاريخ التسجيل ينتقل ضمان هلاك المبيع من عهدة البائع إلىٰ عهدة المشتري، لأنّ تسجيل المبيع فيه

تمكين للمشتري أكثر ممّا في التسليم الفعلي، إذ العبرة في الملكية العقارية قانوناً، لقيود السجلّ العقاري، لا للأيدي والتصرفات، وبتسجيل المبيع لم يبق البائع متمكناً أن يتصرف في العقار المبيع بعقد آخر استناداً إلىٰ وجوده في يده، وجميع الحقوق والدعاوي المتفرعة عن الملكية، كطلب نزع اليد، وطلب الآخرة، وغير ذلك تنتقل إلى المشتري بمجرّد التسجيل.

فبناء على ذلك يصبح من الضروري في فقه الشريعة أن يعتبر لتسجيل العقد العقاري حكم التسليم الفعلي للعقار في ظل هذه الأوضاع القانونية التنظيمة الجديدة. [١]

أقول: اتّفق الفقهاء على أنّه إذا تلف المبيع الشخصي قبل قبضه بآفة سماوية فهو من مال بائعه، والدليل عليه من طرقنا هو قوله ﷺ: «كل مبيع تلف قبل قبضه فهو من مال بائعه». [٢]

وروى عقبة بن خالد عن الإمام الصادق عليه السلام في رجل اشترى متاعاً من رجل وأوجبه غير أنّه ترك المتاع عنده ولم يقبضه، قال: آتيك غداً إن شاء الله فسرق المتاع، من مال من يكون؟ قال: «من مال صاحب المتاع الذي هو في بيته حتى يُقبض المتاع ويخرجه من بيته، فإذا أخرجه من بيته فالمبتاع ضامن لحقّه حتى يرد ماله إليه». [٣]

وأمّا من طرق أهل السنّة، روى البيهقي عن محمد بن عبيد الله الثقفي أنّه اشترى من رجل سلعة فنقده بعض الثمن وبقي بعض، فقال: ادفعها إليّ فأبى البائع، فانطلق المشترىٰ وتعجّل له بقية الثمن فدفعه إليه، فقال: ادخل واقبض

١. المدخل الفقهي العام: ٢/ ٩٣١.

٢. مستدرك الوسائل: ١٣، الباب ١ من أبواب الخيار، الحديث ١.

٣. الوسائل: ١٢، الباب ١٠ من أبواب الخيار، الحديث ١.

سلعتك، فوجدهـا ميتة، فقال له: رد عليَّ مالي، فأبـىٰ، فاختصما إلى شريح، فقال شريح: رد على الرجل ماله وارجع إلىٰ جيفتك فادفنها. [١]

وعلى هذا فالميـزان في رفع الضمان على البائع هو تسليم المبيـع وتسليم كلّ شيء بحسبـه، والجامع هـو رفع المانـع من تسليـط المشتري على المبيع و إن كـان مشغولاً بأموال البائع أيضاً إذ لم يكن هنا أي مانع من الاستيلاء والاستغلال.

وعلى ضوء ذلك فتسليم البيت والحانوت مثلاً بإعطاء مفتاحهما، وأمّا جعل مجرّد تسجيل العقد في السجل العقاري رافعاً للضمان بحجة انّ تسجيل البيع فيه تمكين للمشتري أكثر ممّا للتسليـم الفعلي اجتهاد في مقابل النـص بلا ضرورة مالم يكن تسجيل العقد في السجل العقاري متزامناً مع رفع الموانع من تسلّط المشتري على المبيع، إذ في وسع المتبايعين تأخير التسجيل إلى رفع الموانع.

وبعبارة أُخـرى: الميزان في رفع الضمان هو تحقّـق التسليم بالمعنـى العرفي، وهو قد يزامن التسجيل في السجل العقـاري وقد لا يزامن، كمالو سجل العقد في السجل ولكـن البائع أوجد مـوانع عـاقت المشتري عن التسلّـط على المبيع، فمالم يكن هناك إمكان التسلّط فلا يصدق التسليم.

على أنّ المشتري بالتسجيل و إن كـان يستطيع أن يبيع العقار ولكنّـه يعجز عن الانتفاع بالمبيع الذي هو المهم له مالم يكن هناك تسليم فعلي.

٤. أوجب الشرع الإسلامي علىٰ كلّ زوجة تطلّـق من زوجها عدّة تعتدها، وهي أن تمكث مدة معيّنة يمنع فيها زواجها برجل آخر، وذلك لمقاصد شرعية تعتبر من النظـام العام في الإسلام، أهمهـا، تحقّق فراغ رحمهـا من الحمل منعـاً لاختلاط الأنساب.

---

١. البيهقي: السنن: ٥/ ٣٣٤، باب المبيع يتلف في يد البائع قبل القبض.

وكان في الحالات التي يقضي فيها القاضي بالتطليق أو بفسخ النكاح، تعتبر المرأة داخلة في العدّة، ويُبدأ حساب عدّتها من فور قضاء القاضي بالفرقة، لأنّ حكم القاضي في الماضي كان يصدر مبرماً واجبَ التنفيذ فوراً، لأنّ القضاء كان مؤسساً شرعاً علىٰ درجة واحدة، وليس فوق القاضي أحد له حق النظر في قضائه.

لكن اليوم قد أصبح النظام القضائي لدينا يجعل قضاء القاضي خاضعاً للطعن بطريق الاستئناف، أو بطريق النقض، أو بكليهما. وهذا التنظيم القضائي الجديد لا ينافي الشرع، لأنّه من الأُمور الاستصلاحية الخاضعة لقاعدة المصالح المرسلة، فإذا قضى القاضي اليوم بالفرقة بين الزوجين وجب أن لا تدخل المرأة في العدّة إلاّ بعد أن يصبح قضاؤه مبرماً غيرخاضع لطريق من طرق الطعن القضائي. وذلك إمّا بانقضاء المهل القانونية دون طعن من الخصم، أو بإبرام الحكم المطعون فيه لدى المحكمة المطعون لديها ورفضها للطعن حين ترى الحكم موافقاً للأُصول.

فمن هذا الوقت يجب اليوم أن تدخل المرأة في العدة ويبدأ حسابها لا من وقت صدور الحكم الابتدائي، لأنّها لو اعتدت منذ صدور الحكم الابتدائي لربما تنقضي عدتها وتتحرّر من آثار الزوجية قبل الفصل في الطعن المرفوع على حكم القاضي الأوّل بانحلال الزوجية ثمّ ينقض هذا الحكم لخلل تراه المحكمة العليا فيه، وهذا النقض يرفع الحكم السابق ويوجب عودة الزوجية. [١]

أقول: إنّ الحكم الأوّلي في الإسلام هو انّ الطلاق بيد من أخذ بالساق [٢]، فللزوج أن يطلّق على الشروط المقرّرة قال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا النَّبيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ

١. المدخل الفقهي العام: ٢/ ٩٣٢.

٢. مجمع الزوائد: ٤/ ٣٣٤، باب لا طلاق قبل النكاح.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾[1].

نعم لو اشترط الزوجان في سجل العقد أن يكون الطلاق بيد المحكمة بمعنىٰ انّه إذا أدركت انّ الطلاق لصالح الزوجين فله أن يحكم بالفرقة والانفصال، والمراد من الحكم بالفرقة أمران:

أوّلاً: انّ الطلاق لصالح الزوجين.

ثانياً: توّلي إجراء صيغة الطلاق.

فلو كان قضاء القاضي بالفرقة علىٰ درجة واحدة، وليس فوقه أحد له حقّ النظر في قضائه فيقوم بكلا الأمرين: حق الانفصال وتنفيذه بإجراء صيغة الطلاق ويكون الحكم بالفرقة مبدأً للاعتداد.

ولو كان النظام القضائي يجعل قضاء القاضي خاضعاً للطعن بطريق الاستئناف، أو بطريق النقض أو بكليهما، فلأجل الاجتناب عن بعض المضاعفات التي أُشير إليها تقتصر المحكمة الأُولى على الأمر الأوّل ـ إنّ الطلاق لصالح الزوجين ـ ويؤخر الأمر الثاني إلى إبرامه، فعند ذلك تجرى صيغة الطلاق من قبل المحكمة الثانية وتدخل المرأة في العدة ويبدأ حسابها.

وبذلك يعلم أنّ ما ضربت من الأمثلة لتأثير الزمان والمكان بعيدة عمّا يروم إليه، سواء كان العامل للتأثير هو فساد الأخلاق وفقدان الورع وضعف الوازع، أو حدوث أوضاع تنظيمية ووسائل زمنية، فليس لنا في هذه الأمثلة أيُّ حافز من العدول عمّا عليه الشرع.

وحصلة الكلام: أنّ الأُستاذ قد صرّح بأنّ العاملين ـ الانحلال الأخلاقي والاختلاف في وسائل التنظيم ـ يجعلان من الأحكام التي أسّسها الاجتهاد في

---

١. الطلاق:١.

ظـروف مختلفـة خاضعـة للتغيير، لأنّها صـدرت في ظـروف تختلف عـن الظـروف الجديدة.

ولكنّه في أثناء التطبيق تعدّى تارة إلى التصرّف في الأحكام الأساسية المؤبدة التي لا يصـحّ للفقيه الاجتهاد فيهـا، ولا أن يحدث بها أيَّ خدشـة، وأُخرى ضرب أمثلة لم يكن للزمان أيُّ تأثير في تغيير الحكم المستنبط.

هذا بعض الكلام في تأثير عنصري الزمان والمكان في الاستنباط.

تمّت الرسالة بيد مؤلّفها العبد الفقير جعفر السبحاني في صبيحة يوم الجمعة المصادف يوم العشرين من رجب المرجب من شهور عام ١٤١٨هـ

حامداً مصلّياً على النبي وآله

في مدينة قم المقدسة

٤

ملامح الجهاد الإسلامي في الكتاب والسنّة

انّ الجهاد أحد الأُصول المهمّة في الفقه الإسلامي، وقد وقع في قفص الاتهام من قبل المستشرقين الذين يُفسرون تعاليم الإسلام حسب معاييرهم، ويزعمون انّ الهدف من تشريع الجهاد هو فرض الدين بالقوة على الناس، ومثل هذا الدين يفقد قيمته عند العقل، فها نحن في هذا المقال نُبين موقف الجهاد في الإسلام من منظار القرآن الكريم الذي هو من أوثق المصادر الفقهية.

نظرة عامة إلى آيات الجهاد

إنّ البحث عن آيات الجهاد وإن كان بحاجة إلى تأليف رسالة مفصلة تبحث عن هذه الآيات، وتبين خصوصياتها ونكاتها، غير انّنا ، نقف عندها وقفة قصيرة سريعة حتى يتضح هدف الآيات، فنقول:

إنّ الآيات الواردة حول الجهاد وما يرتبط بها من قريب أو بعيد تنقسم إلى طوائف خمس، لابدّ لكلّ مفسّر أن يلاحظ مجموعَها قبل اتخاذ الموقف وتفسيرها وإظهار الرأي فيها.

و إليك هذه الطوائف:

الأُولى: الآيات المطلقة التي تدعو إلى مطلق النضال والقتال، دون أن تقيِّد ذلك بقيد، كقوله سبحانه:

﴿قاتِلُوا الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِاليَومِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرّمَ اللهُ ورَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دينَ الحَقِّ مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتاب﴾[1].

و قوله:

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الكُفّارَ وَالمُنافِقينَ واَغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصير﴾[2].

فالآية الأُولى تدعو إلى مطلق النضال مع أهل الكتاب، و الثانية تدعو إلى مطلق النضال مع الكفّار والمنافقين، دون أن تقيِّد مقاتلة هذه الطوائف والجماعات بقيد، بل توجب مقاتلتهم، سواء أقاتلوا المسلمين أم لا، وسواء أجحدوا الإسلام أم لا.

الثانية: الآيات المقيّدة التي توجب مقاتلة المشركين شريطة قتالهم للمسلمين والعدوان عليهم، كقوله سبحانه:

﴿وَقاتِلُوا فِي سَبيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدين﴾[3].

فالقتال ـ حسب هذه الآية ـ يجب إذا تعرّض المسلمون لعدوان الكفّار والمشركين، ولا يجب قتالهم إذا لم يعتدوا، وربما قُيّد القتال بقيد آخر، وهو الخوف

---

١. التوبة: ٢٩. ٢. التوبة: ٧٣.

٣. البقرة: ١٩٠.

من نقض العـدو لعهوده التي قطعها مع المسلمين، وهو بمعنـى الاستعداد لقتال المسلمين والعدوان عليهم، فلأجل ذلك تجب على المسلمين مقاتلتهم ومحاربتهم. يقول سبحانه ـ بعد أمره بقتال المشركين في مطلع سورة التوبة ـ :

﴿كَيْفَ وَان يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرقبُوا فِيكُمْ إلاًّ وَلاَ ذِمّةً﴾[١].

ويقول:

﴿لاٰ يرقبون في مُؤمنٍ إلاًّ وَلاَ ذِمّةً وَأُولئكَ هُمُ الْمُعْتَدُون﴾[٢].

ويقول:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا ايْمانَهُمْ مِـنْ بَعْدِ عَهْـدِهِمْ وَطَعَنُـوا في دِينِكُمْ فَقـاتِلُوا أَئِمَّة الكُفرِ إِنَّهُمْ لاٰ أَيْمانَ لَهُمْ﴾[٣].

إلى غير ذلك من الآيـات التي تحث على مقاتلة المشركين لنقضهـم العهود المعقـودة بينهم و بين المسلمين، لأنّ نقـض العهد بمثـابة إعـلان الحرب، و إرادة العدوان.

إنّ ملاحظـة هذه الآيـات تفيد انّ القتـال لم يُشرع على الإطلاق بـل لأجل سبب، وهو إرادة قتـال المسلمين والعدوان عليهم، إمّا بصورة مبـاشرة، و إمّا عن طريق نقض عهود السلم والصلـح الذي لا يعني إلاّ إرادة القتال، فيكون القتال هنا من باب الدفاع عن النفس.

ومن هنا تكون هذه الآيات مقيّدة لإطلاق الطائفة الأُولى.

ومن المعلوم انّ المطلق يحمل على المقيد ويؤخذ بكليهما حسب ما هو المقرر في أُصول الفقه.

---

١. التوبة: ٨.

٢. التوبة: ١٠.

٣. التوبة: ١٢.

الثالثة: الآيات التي تدعو إلى إنقاذ المستضعفين ونجدة المظلومين وإخراجهم من ظلم الجائرين، ودفع الضيم والحيف عنهم.

و هذا هو أيضاً نوع آخر من الدفاع، إذ هو دفاع عن الغير.

فالاعتداء لم يستهدف الإنسانَ نفسه أو الشعبَ الذي ينتمي إليه، بل استهدف شخصاً أو شعباً آخر هُضمَت حقوقه من قبل الجائرين، فعندئذٍ يجب ـ وفق معيار العقل ـ الدفاع عن حقوق الإنسان أو الشعب، ويُعد هذا الدفاع من أفضل درجات الجهاد، فانّ ذلك إيثار وبذل للدّم في سبيل حياة الآخرين، وأيّ عمل أقدس من هذا. ولأجل ذلك نرى أنّه سبحانه يفرض على المسلمين إغاثة المضطهدين، ويقول:

﴿وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هٰذِهِ القَرْيَةِ الظّالِمِ أَهلُها وَاْجعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاْجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[1].

الرابعة: الآيات التي تدلّ على عدم الإكراه في الدين، لأنّ الدين عقيدة، والعقيدة لا توجد بالإكراه، كقوله سبحانه:

﴿لا إكراهَ فِي الدِّين﴾[2].

قيل انّها نزلت في رجل من الأنصار يدعى «أباالحصين» كان له ابنان فقدم تجار الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم ابنا أبي الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصّرا ومضيا إلى الشام، فأخبر أبو الحصين رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: **﴿لاإكراهَ في الدِّين﴾** .

---

١. النساء: ٧٥.

٢. البقرة: ٢٥٦.

فقال رسول الله ﷺ: «أبعدهما الله، هما أوّل من كفر»، فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي ﷺ حيث لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَينهم**﴾[١].

وقيل كانت امرأة من الأنصار تكون مقلاتاً[٢] فترضع أولاد اليهود، فجاء الإسلام وفيهم جماعة منهم، فلما أجليت بنو النضير إذا فيهم أُناس من الأنصار، فقالوا: يا رسول الله: أبناؤنا و إخواننا، فنزلت: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ . فقال: «خيّروا أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم، و إن اختاروهم فأجلوهم».[٣]

وكقوله سبحانه:

﴿**ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهُمْ بالّتي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[٤].

وقوله:

﴿**وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر**﴾[٥].

وقوله:

﴿**وَلَو شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرضِ كُلُّهُمْ جَميعاً أفأنتَ تُكْرِهُ النّاسَ حتّى يَكُونوا مُؤْمنين**﴾[٦]

وقوله:

﴿**لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَك ألاّ يَكُونُوا مُؤْمِنين* إنْ نَشأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِين**﴾[٧].

---

١. النساء: ٦٥.

٢. المقلاة: التي لا يعيش لها ولد.

٣. مجمع البيان: ٢/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

٤. النحل: ١٢٥.

٥. الكهف: ٢٩.

٦. يونس: ٩٩.

٧. الشعراء: ٣ ـ ٤.

إلى غير ذلك من الآيات الكاشفة عن حرية الاعتقاد.

الخامسة: الآيات الداعية إلى الصلح و التعايش السلمي، كقوله سبحانه:

﴿والصُّلحُ خَيْرٌ﴾[١].

وقوله:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[٢].

وقوله:

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبيلاً﴾[٣].

ومن المعلوم انّ الصلح المذكور في الآية الأُولى هو التعايش السلمي، وليس المراد الاستسلامَ والتسليم للظلم والعدوان.

إنّ للملاحظ والمتتبع لهذه الآيات التي تدور حول الجهاد وا لقتال، أن يتساءل:

إذا كان الإسلام ينشد الصلح والتعايش السلمي مع الطوائف الأُخرى. كما تشهد علىٰ ذلك الطائفة الخامسة.

وإذا كان الإسلام يحترم العقيدة الأُخرى، ويمنع من إكراه أحد على تقبُّل الإسلام واعتناقه كما تشهد على ذلك الطائفة الرابعة ...فكيف يمكن تفسير الآيات الحاثّة على القتال والمحاربة؟!

إنّ ملاحظة مجموع الآيات من الطوائف الخمس تهدينا إلى الجواب الصحيح.

فإنّ القتال ــ بملاحظة الطائفة الثانية والثالثة ـ إنّما شرّع لأجل الدفاع،

---

١. النساء: ١٢٨. ٢. الأنفال: ٦١. ٣. النساء: ٩٠.

وهذا الدفاع ينقسم مصداقاً إلى ثلاثة أقسام:

١. الدفاع عن النفس فرداً أو شعباً.

٢. الدفاع عن الغير (أي المستضعفين والمضطهدين) فرداً أو شعباً أيضاً.

٣. الدفاع عن القيم الإنسانية، من خلال الجهاد ضدّ الحاكم المستبد المانع من نفوذ الدعوة الإسلامية.

توضيحه: إذا كان الحاكم يقف حائلاً أمام نفوذ دعوة الأنبياء والأولياء، ونشر القيم الرفيعة التي جاءوا بها، بل يُساهم في بث العقائد الخرافية التي تعتبر سداً أمام السعادة الإنسانية، فعند ذلك يجب النضال ضد هذا الحاكم وطغمته لأمرين:

الأوّل: انّ الحاكم المستبِّد ظالم، ومعتد على حقوق الشعب حيث سلب عنهم الحقوق الطبيعية وهي الحرية في الدعوة والاستماع إليها، فعند ذلك يكون قتاله قتالاً ضد الظالم المعتدي.

الثاني: انّ الدفاع عن النفس والمال والشرف يعد حسناً و جميلاً عند كافة شعوب العالم.

غير انّ الملاك في كونه حسناً إنّما هو لأجل كونه دفاعاً عن الحقّ والحقيقة، والدفاع عن الحرية دفاع عن الحقّ، فالحاكم المستبد الذي صادر الحريات العامّة يضاد عملُه الحقَّ والحقيقة فيحسن قتاله لأجل تعزيز الحقّ ونصرته.

ومن هنا يكون الجهاد التحريري في حقيقته جهاداً دفاعياً. لأنّ ذلك الجهاد إنّما هو لأجل إنقاذ المستضعفين من براثن الظالمين، أو لأجل إنقاذ القيم والحقوق والمثل الإنسانية التي هدرت من قبل الظالم وطغمته، فأقاموا العراقيل في وجه الدعوة الإسلامية وسلبوا الناس حرّياتهم في اختيار العقيدة التي يريدون.

وبهذا تبيّن انّ الجهاد بأقسامه المختلفة جهاد دفاعي جوهراً، وإن كان ينقسم حسب الاصطلاح الفقهي إلى الدفاعي و الابتدائي.

وهاهنا نكتة نلفت إليها نظر القارئ الكريم، وهي انّ الآيات الأُولى التي نزلت في تشريع الجهاد تدلّ بوضوح على أنّ الدافع من وراء تشريع الجهاد هو الدفاع عن المسلمين وحقوقهم، ولم يشرع لأجل التجاوز والاعتداء على حقوق الآخرين، وإليك نصّ الآيات:

﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوّانٍ كَفُورٍ* أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِير* الَّذِينَ أُخرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَولا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ* الَّذِينَ إِنْ مَكَّنّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ و آتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ و نَهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عاقِبَةُ الأُمور﴾[١].

وتنطوي هذه الآيات على دلالات عدة:

١. قوله سبحانه: ﴿لا يُحِبُّ كُلّ خوانٍ كَفُور﴾ يدلّ بوضوح على أنّ الكافر المقاتل، خائن، وكلّ خائن معتد تجب محاربته.

٢. قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذينَ يُقاتَلُون﴾ يدلّ على أنّ المأذون في القتال مقاتَل (بالفتح) لا مقاتل (بالكسر)، فليس المسلم هو البادئ بالقتال، بل الكافر

١. الحجّ: ٣٨ـ ٤١.

هو البادئ، فعند ذلك يعد قتال المسلم دفاعاً.

٣. قوله سبحانه: ﴿بأنّهم ظُلموا﴾ يدلّ بوضوح على أنّ القتال لأجل رفع الظلم.

٤. قوله سبحانه: ﴿وَأُخرجوا مِنْ دِيارِهِم﴾ يدلّ على كونهم مشرّدين من ديارهم بغير سبب، وأيّ ظلم أعظم من إبعاد الإنسان عن موطنه.

٥. قوله سبحانه: ﴿لولا دفع الله الناس...﴾ يدلّ على أنّ الكافر لو تُرِك بحاله لهدّم البيوت المقدسة وأماكن العبادة التي بنيت لعبادة الله سبحانه و تربية الناس وتزكيتهم، فيجب قتاله حتى لا يرتكب تلك الجريمة الأثيمة.

٦. قوله سبحانه: ﴿الّذِين إنْ مَكَّناهُم...﴾ يشير إلى أنّ الغاية من تمكين المسلمين في الأرض هو إحياء المثل الإنسانية، وهي عبارة عن إقامة الصلاة التي هي رمز لصلة الإنسان بالله سبحانه، و إيتاء الزكاة التي هي رمز للتعاون الإنساني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما كناية عن إقامة دعائم النظام الصالح والنضال ضد كلّ نظام فاسد.

وقد تجلّت في ضوء هذه الأبحاث حقيقة ناصعة، وهي انّ تشريع الجهاد الابتدائي أو ما يعبر عنه بـ «التحريري» لم يكن لأجل الاعتداء على حقوق الآخرين ، بل كان لأجل الدفاع عن حقوق المستضعفين.

و مما ينبغي الإشارة إليه هو بيان فلسفه الجهاد الإسلامي بكلا شقيه : الدفاعي و الابتدائي، والدوافع من وراء تشريعه، وما يجب على المجاهد من رعاية أُصول وقيم في الجهاد.

الجهاد ضرورة حيويّة

يعتبر الجهاد في منطق الدين الإسلامي وسيلة فعّالة من وسائل ديمومة الدين وبقائه بل و بقاء الأُمّة الإسلامية، وصيانة كيانها من السقوط و الانهيار.

ولابدّ للوقوف على هذه الحقيقة من تقديم مقدمة ضرورية، فنقول:

عندما نطالع حياة الموجودات الحيّة، نجد أنّها تقوم بثلاثة نشاطات تكفل بقاءها، وحياتها.

أوّلاً: التنفس وجذب الغذاء المناسب.

ثانياً: التوالد و التكاثر، وهي صفة كلّ خليّة من خلايا الكائنات الحية.

ثالثاً: إزاحة الموانع، وطرد المواد الزائدة والمضرّة.

ولما كان الإسلام ظاهرة حيويّة ـ و إن لم يكن ظاهرة مادية بل ظاهرة إلهية ـ فانّه لا يخلو بدوره من هذه النشاطات الثلاثة ولا يستغني عنها في بقائه واستمراره، لا سيما النشاط الثالث.

فإنّ الإسلام، لكونه رسالة إلهية منزلة لهداية البشرية، يسعى إلى تغيير العادات والتقاليد البالية، والأوضاع الفاسدة والنُّظُم الباطلة... ولذلك من الطبيعي أن يواجه معارضة شرسة ممن يخالف هذا التغيير مصالحهم، ويتعارض مع أهدافهم ومطامعهم... وعندئذٍ يجب على هذا الدين أن يقوم بإزاحة هذه الموانع و يكتسح تلكم الحواجز، ليمضي قدماً في أداء رسالته، وتحقيق أهدافه.

إنّ هناك فرقاً واضحاً بين (المذهب الفلسفي) و (الدين الإلهي).

فالفيلسوف، يكتفي ببحث الأُمور الفلسفية، لمجرد التوضيح، أو النقد وينشر أفكاره،وتحليلاته بين الناس ليقفوا عليها ويعرفوها دون أن يرى إلزامهم بشيء منها.

فهو لا يهمّه سوى طرح أفكاره والدفاع عنها بقاطع البرهان، وواضح الدليل.

وأمّا (الدين الإلهي) فليس مذهباً فلسفياً ليكتفي بمجرد البيان والتوضيح ويُحصِرَ همَّتَه في النقد والإشكال، إنّما هو ثورة إصلاحية، وعملية تغييرية تهدف إلى إقامة نظام صالح عادل فوق ركام الأنظمة الفاسدة، والأوضاع المنحطة.

وبديهي انّه لا يتحقّق ذلك دون مواجهة الموانع، وقيام الصراعات والحروب، مع الجهات والقوى المعارضة لهذا التغيير.

فهل في العالم حركة تغييرية استطاعت تحقيق أهدافها دون خوض الصراعات الحامية، ودون نشوب الحروب و سقوط الضحايا، أو إراقة محجمة دم؟!

فهل استطاعت (الثورة الفرنسية) أن تتجنب إراقة الدماء؟!

وهل نجحت (الثورة الروسية) إلاّ بعد سقوط الملايين من القتلى؟!

وهل حقّقت (الثورة الهندية) أهدافها إلاّ عبر المئات من القرابين البشرية؟!

نعم إنّ ما يفارق به (الجهاد الإسلامي) عن الحروب التي تفرضها الحركات التغييرية الأُخرى، هو: تجنب الإسلام للحروب، وإراقة الدماء قدر الإمكان، والقيام بكلّ ذلك من باب الضرورة وفي حدود الإنسانية والرحمة.

هذا مضافاً إلى بقية الفوارق التي تتجسد في أحكام (الجهاد الإسلامي) كما

سيأتي تفصيلها.

و صفوة القـول: إنّ أية ثـورة إصلاحيـة وحركة تغييريـة تتطلب ـ بحكم الضرورة ـ هذه المواجهات الساخنة، دفعاً للموانع والحواجز، و إلاّ لأُخمدت هذه الثورة في المهد، كما تموت الخليّة الحيّة إذا تركت كذلك.

ولهذا وصفه القرآن بأنّه وسيلة للحياة والبقاءو الاستمرار، إذ قال:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا استَجيبُوا للهِ وَلِلـرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاْعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّه إِليهِ تُحْشَرُونَ﴾[١].

وبعبارة واضحة، انّ الإسـلام نظام اجتماعي ثوري، لم يـر العالم نظيره قط، فهو بما انّه رسالة إلهية، تضمن سعادة البشر، يرى لنفسه حقّ التوسعة والتعميم.

ولأجـل ذلك يسعـى لرفـع الموانـع والحواجز عـن طـريقه بـأسهل الطـرق وأعدلها.

فيبتدئ بالتبليـغ والتعليم والبحث والمجادلة والتوجيـه والإرشاد، فإذا رأى أنّ المانع لا يرتفع إلاّ بقـوة قاهرة يسعى لرفع الموانع بتلك القـوة، و إليه يشير قوله سبحانه:

﴿وَقـاتِلُـوا فِي سَبيـلِ اللهِ الَّـذِيـنَ يُقـاتِلُـونكُـمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدين﴾[٢].

ولم يكن هذا ليختـص بالدين الإسـلامي، بل كان هـذا هو نهج الأنبياء في الدعوة إلى الحقّ.

وفي ذلك يقول سبحانه:

﴿لَقَـدْ أَرْسَلْنا رُسلنـا بِـالبَيِّناتِ وَأَنْـزَلْنـا مَعَهُـمُ الكِتاب وَالمِيـزان

١. الأنفال: ٢٤.

٢. البقرة: ١٩٠.

لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ وَأَنْزَلْنا الحَديدَ فِيهِ بَأْسٌ شَديدٌ وَمنافِعُ لِلنّاسِ﴾[١].

والكتاب والميزان إشارة إلى أنّهم كانوا يتوصلون في بدء الأمر بأسهل الطرق، وهو تنوير الأفكار وإقناعهم بمنطق العقل.

وأمّا إذا رأوا انّ ذلك المنطق لا يجدي في دفع الموانع يتوصّلون بمنطق القوة، فالحديد في الآية كناية عن ذلك المنطق، وسيرة الأنبياء وتاريخهم خير شاهد على ذلك.

وهاهنا نقطة أُخرى ينبغي الإشارة إليها، وهي: انّ الإسلام سعىٰ و منذ البداية إلىٰ نشر العدالة الاجتماعية في جميع مناحي الحياة.

ومن الطبيعي انّ كلّ ثورة ـ من هذا القبيل ـ لا تكفل منافع جميع الطبقات بل ربما تهدِّد مصالح الطغاة والمستثمرين والمترفين، ولأجل ذلك وقف المترفون بوجه كافّة الحركات الإصلاحية التي دعت إلى الحقّ، كما قال القرآن:

﴿وَما أَرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ إِلاّ قالَ مُتْرَفُوها إِنّا بِما أُرسِلْتُمْ بِهِ كافِرُون﴾[٢].

فكان اللازم على صاحب الرسالة التوسل بمنطق القوة ـ حين لا تُجدي قوة المنطق ـ في رفع الحواجز والموانع، والتخلص ممن يقف حجر عثرة أمام الحقّ والعدالة.

هذه هي خلاصة فلسفةالجهاد الإسلامي وتشريعه.

ثمّ إنّ الجهاد الذي دعا إليه الإسلام وحثّ عليه المسلمين ينقسم إلى

---

١. الحديد: ٢٥.

٢. سبأ: ٣٤.

نوعين:

١. الجهاد الدفاعي.

٢. الجهاد الابتدائي.

وإليك لمحة سريعة عن حقيقة هذين النوعين من الجهاد وخصائصهما وأحكامهما على نحو الإيجاز والإجمال.

الجهاد الدفاعي

والمراد من هذا الجهاد هو مقاتلة الأعداء المعتدين، دفاعاً عن النفس والمال، وذبّاً عن الوطن والحرية، وذوداً عن الشرف والاستقلال.

إنّ الدفاع المذكور على قسمين:

أوّلاً: الدفاع عن حوزة الإسلام.

ثانياً: الدفاع عن النفس و المال وما شابه ذلك.

وأمّا البحث عن القسم الثاني فموكول إلى الكتب الفقهية المعدّة لتفصيل ذلك. راجع شرائع الإسلام الباب السادس في حدود المحارب من كتاب الحدود والتعزيرات، تجد فيه فروع وتفاصيل هذا المبحث.

وأمّا القسم الأوّل فمنه ما إذا غشي بلاد المسلمين أو ثغورها عدوٌّ يُخشى منه على بيضة الإسلام، فيجب عليهم الدفاع بأية وسيلة ممكنة من بذل الأموال والنفوس.

ولو خيف من الاستيلاء على بلاد المسلمين، وجب الدفاع بأية وسيلة ممكنة، كما لو خيف على حوزة الإسلام من الاستيلاء السياسي، والاقتصادي المؤدي إلى التبعية السياسية والاقتصادية، ووهن الإسلام والمسلمين حينها يجب

الدفاع بالوسائل المشابهة والمقاومة السلبية، كمقاطعة أمتعتهم وبضائعهم، وترك استعمالها وترك المعاملة والمراودة معهم مطلقاً إلى غير ذلك من أنواع المقاومة التي تختلف مع اختلاف ألوان الاستيلاء، واختلاف الظروف والمقتضيات .

هذا وقد وردت حول الدفاع عن النفس روايات وأحاديث منها:

قال رسول الله ﷺ: «من قتل دون عقاله (أو عياله) فهو شهيد».

وقال ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد».

وقال ﷺ: «يبغض الله تعالى رجلاً يدخل عليه في بيته فلا يقاتل».

وقال ﷺ: «من قتل دون مظلمته فهو شهيد».[1]

وقد وردت روايات مماثلة في المفاد أو النص عن أهل البيت عليهم السلام في المقام تركناها اختصاراً، فراجع وسائل الشيعة .

وعلى كلّ تقدير فالجهاد الدفاعي جهاد شرّعه الإسلام عندما تَتعرض الأُمّة الإسلامية لمهاجمة الأعداء، وعدوانهم وتصبح غرضاً لأطماعهم ومؤامراتهم.

وهذا ممّا تقتضيه طبيعة الحياة، و تحكم به الفطرة، و يحكم بحسنه وضرورته العقل السليم، كما تؤيده كافة المدارس والمذاهب الحقوقية والسياسية والاجتماعية.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الجهة الموجبة للجهاد والقتال، بقوله:

﴿وَقاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يُقاتِلُونكُمْ﴾[2] .

وقوله سبحانه:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدير﴾

١. الوسائل الجزء ١١، الباب ٤٥ من أبواب جهاد العدو

٢. البقرة: ١٩٠.

الَّذينَ أُخرِجُوا من دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلاّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ وَلَولا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صوامِعُ وَبيَعٌ وَصَلواتٌ وَمساجِدُ يُذكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيراً ولَيَنْصُرنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَويٌّ عَزِيز﴾[١].

وعلى هذا الأساس كانت أغلب الحروب والغزوات التي قام بها النبي ﷺ ونشبت في حياته مثل «بدر» و «أُحد» و «الخندق» كانت حروباً دفاعية قام بها المسلمون بقيادة النبي ﷺ وأمره دفاعاً عن حوزة الدين.

كما أنّ (السرايا) التي بعثها النبي ﷺ كانت لأجل إطفاء نيران الفتن وإحباط المؤامرات التي كان يحيكها أعداء الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية للقضاء على الدين الجديد، واستئصال جذوره وهدم بنيانه.

***

خصائص الجهاد الدفاعي

إنّ للجهاد الدفاعي في الإسلام حدوداً وأحكاماً تميّزه عن الحروب التي يقوم بها الآخرون في عالمنا المعاصر.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخصائص ـ في آية واحدة ـ إذ قال سبحانه:

﴿وَقاتلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يُقاتِلُونكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدين﴾[٢].

١. الحج: ٣٩ ـ ٤٠.

٢. البقرة: ١٩٠.

والخصائص التي ذكرتها هذه الآية هي باختصار:

أ. الجهاد في سبيل الله (الهدف)

إنّ الجهاد والقتال يجب أن يكون لله تعالى، و لكسب رضاه سبحانه، لا لنشر النفوذ، وضمِّ بلد إلى بلد.

وهذه هي أهمّ خصيصة في الجهاد الإسلامي.

و نظراً لأهميتها القصوى أكّد عليها القرآن الكريم في آيات متعددة، واعتبرها الفرق الجوهري بين الحروب الإسلامية والحروب غير الإسلامية، و بين الجهاد الذي يقوم به المسلمون، و القتال الذي تمارسه دول العالم، والجماعات غير المسلمة، إذ يقول:

﴿الّذينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ في سَبيلِ الطّاغُوت﴾[١].

ولأجل ذلك يذم الله سبحانه كلّ قتال أو قيام يراد به التسلط على حطام الدنيا ومتاعها، ويقول سبحانه:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ في سَبيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلقى إِلَيْكُمُ السَّلام لَستَ مُؤْمناً تبتَغُونَ عَرَضَ الحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثيرةٌ﴾[٢].

ويقول سبحانه:

﴿ما كانَ لِنَبيّ أنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّى يُثْخِنَ فِي الأَرضِ تُريدُونَ

١. النساء: ٧٦.

٢. النساء: ٩٤.

عَرَضَ الدُّنيا وَاللّهُ يُريدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزيزٌ حَكيم﴾[١].

ويقول سبحانه:

﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَريباً وَسَفراً قاصداً لاتَّبَعُوكَ وَلٰكِن بَعُدَت عَلَيْهِمُ الشُّقَةُ و سَيَحْلِفُونَ بِالله لَوِ استَطَعْنا لَخَرَجنا مَعَكُمْ يُهلِكُون أَنفسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُون﴾[٢].

ب. القتال ضد المعتدي

وهي: انّ القتال لا يجوز إلاّ مع الذين يقاتلون المسلمين، ويبدأونهم بالعدوان، وهو شرط في هذا النوع من الجهاد دون الجهاد الابتدائي، الذي سيوافيك تفصيله.

فالقتال أساساً شُرع لصد العدوان وردّ المعتدي، وإيقاف المتجاوز عند حدوده، ولهذا يأمر الإسلام أتباعه أن يكفّوا عن القتال إذا كفّ العدو عنه.

قال سبحانه:

﴿...فَإِن اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يقاتِلُوكُمْ و ألقَوْا إِليكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبيلاً﴾[٣].

ويقول في آية لاحقة:

﴿...فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيدِيَهُم فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[٤].

---

١. الأنفال: ٦٧.
٢. التوبة: ٤٢.
٣. النساء: ٩٠.
٤. النساء: ٩١.

على أنّ الجهاد الدفاعي ربما يُشرع أيضاً عنـدما يقوم العدو بنكث المواثيق، ونقـض المعـاهـدات، وتعـريـض السـلام المتفـق عليـه للخطـر، أو يقـوم بطـرد الشخصيات الإسلامية من مواطنهم، وتشريدهم ظلماً، وعدواناً.

فعن الأوّل، يقول سبحانه:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا في دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُون﴾[1].

وفي آية لاحقة يشير سبحانه إلى الأمر الثاني ويقول:

﴿أَلا تُقاتِلُونَ قَوماً نَكَثُوا ايْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أتخشونَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين﴾[2].

كما ويندرج تحت هذا مكافحة الاستعمار بكلّ أشكاله وألوانه...

ج . حدّ الجهاد

إنّ القتال يجب أن يكون في إطار الحقّ والعـدل ولا يتجاوز حدودهما. وهو شرط مشترك بين الدفاعي و الابتدائي.

ولما كان الإسـلام دين الحقّ و العدل فانّـه أكّد على هذا الشرط أشـدّ وأبلغ تأكيـد، وصرح ـ مثلاً ـ بأنّ القتال والعـدوان يجب أن يماثل العدوان الـواقع على المسلمين ولا يتجاوز مقداره، و إلاّ عـاد انتقاماً و خروجاً عن سنـة العدل، فقال ـ في نفس الآية ـ:

﴿فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ

١. التوبة: ١٢.

٢. التوبة: ١٣.

وَٱتَّقُوا الله وَٱعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَع ا لْمُتَّقِين﴾[١].

ويجدر بالذكر انّ إرداف الأمر بالجهاد بالحث على التقوى يوحي إلى ضرورة وجود صفة التقوى، و تقارنه مع الجهـاد منعاً من تجاوز الحقّ والعدل، فانّ المقاتل غالباً ما تدفعه سورة الغضب إلى ارتكاب الجرائم والتعدي عن الحقّ إلاّ إذا خاف الله تعالى.

وقد أشار القرآن إلى ضرورة رعاية الحقّ في جميع الأحوال فقال سبحانه:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ للهِ شُهَداءَ بِالقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَـومٍ عَلى ألاّ تَعْدِلُـوا اعْدِلُوا هُـوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْـوىٰ وَٱتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُون﴾[٢].

هذا و قد دلّـت ـ على تشريع هذا الجهاد ـ مضافاً إلى ما ذكـر من الآيات، أحاديث وروايات متضافرة نأتي ببعضها:

قال الإمام علي عليه السلام:

«الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه... هو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنته الوثيقة ».[٣]

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في رسالته إلى بعض خلفاء بني أُميّة:

«الجهاد الـذي فضّله الله على الأعمال وفضّل عاملـه على العمال تفضيلاً في الدرجات والمغفرة، لأنّه ظهر به الدين، و به يُدفع عن الدين».[٤]

---

١. البقرة: ١٩٤.   ٢. المائدة: ٨.   ٣. نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

٤. الوسائل: الجزء ١١، الباب ١ من أبواب جهاد العـدو، الحديث ٨. في هذا الحديث إشارة إلى كلا النوعين من الجهـاد (الدفاعي والابتـدائي) فقوله عليه السلام :« لأنّه ظهـر به الـدين» إشـارة إلى الثاني، و قوله عليه السلام :« وبه يدفع عن الدين» إشارة إلى الأوّل.

إلى غير ذلك من الأحاديث المذكورة في المصادر المعتبرة.

ثمّ إنّ من يجب جهادهم الدفاعي ثلاث طوائف:

١. البغاة على الإمام من المسلمين، كالخوارج الذين خرجوا على الإمام علي عليه السلام.

٢. أهل الذمّة ، وهم اليهود و النصارى و المجوس إذا أخلوا بشرائط الذمة.

٣. من ليس لهم كتاب إذا تآمروا على المسلمين.

هذه هي لمحة خاطفة عن حقيقة الجهاد الدفاعي ودوافعه وخصائصه، وأمّا معرفة مسائله وفروعه وأحكامه التفصيلية فمتروكة إلى الكتب الفقهية المفصلة.

***

الجهاد التحريري (الابتدائي)

لقد شرّع الإسلام ـ إلى جانب الجهاد الدفاعي ـ نوعاً آخر من الجهاد، هو الجهاد الابتدائي الذي يجدر أن يسمّى بالجهاد التحريري.

وتتلخص دوافع هذا النوع من الجهاد في أُمور عديدة نشير إلى ثلاثة منها، تاركين للقارئ الكريم مراجعة الكتب الفقهية المفصلة لمعرفة بقية هذه الدوافع والأسباب:

١. تحرير البشرية من الشرك

إنّ من أهمّ دوافع الجهاد التحريري هو مقارعة الوثنية والشرك، وتحرير البشرية من اتخاذ أيّ معبود سوى الله، فالإسلام يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن اتخاذ أيّ معبود سواه.

يقول الله سبحانه:

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُو﴾[1].

وهذه حقيقة تدركها الفطرة البشرية السليمة، ولكن هذه الفطرة قد تنحرف و تحيد عن مسيرها الصحيح بفعل المؤثّرات و الدعايات وتضليل المضلّلين.

وهنا يفرض الدين على أتباعه أن يجاهدوا لتحرير العقول من قيودها، وتخليص الفطرة الإنسانية المنحرفة من براثن الوثنية بكلّ وسيلة ممكنة.

وليس هذا ممّا يخالف حرية الإنسان في اتخاذ المعتقد الذي يريد، لأنّ الحرية ليست مطلوبة على إطلاقها.

ثمّ إنّ تخليص البشرية من براثن الوثنية إنّما هو خدمة وإكرام لها من الخضوع للموجودات الوضيعة.

وهذا أمر ضروري حتى إذا لم يدرك البشر أهميته، أو امتنع من قبوله تمشياً مع هواه.

فلو انّ وزارة الصحة ـ مثلاً ـ أرادت تلقيح الناس باللّقاح الصحي ضدّ مرض داهم، أو وباء قادم، لزم على الجميع القبول بهذا الأمر، ولم يكن لأحد الامتناع عن ذلك بحجة انّه حرّ لا يجوز إكراهه على شيء.

فلا تسمع منه هذه الحجّة، ولا يُقبل منه هذا الرفض، حفاظاً على الصحة العامة وصيانة للمجتمع من العَدْوىٰ.

ويعتبر هذا الإكراه والإلزام بهذا الأمر العقلائي رحمة له، ولطفاً به لا ظلماً وعدواناً.

إنّ عبادة الوثن تجعل عابد الوثن أذلّ من الصنم الذي نحته بيديه... وإلى ذلك يشير سبحانه ـ مستنكراً ـ ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُون﴾[2]؟!!.

---

١. القصص: ٨٨.

٢. الصافات: ٩٥.

ثمّ إنّ الخضوع للوثن يوجب انحطاط الفكر الإنساني،ووقوعه في الخرافات التي هي بمثابـة القيود التي تكبِّل الفكر البشري،وتمنعه عـن الانطلاق في مدارج الرقي والتكـامل، و تحجز النفس الإنسانيـة من نيل الفضائل والسجـايا الخلقية الكريمة.

هذا مضافـاً إلى أنّ عبادة الأوثان والأصنام توجد اختـلافاً وتحزباً بين البشر، وتُفرّق وحـدته، وتمزّق صفَّه، إذ كـلّ جماعة تتخذ وثناً خـاصاً تعبده وتتمسـك به، وتنفي سواه، وفي ذلـك ضرر عظيم على حياة البشرية لا يقل عن خطـر الطاعون و الوباء. يقول سبحانه حاكياً عن لسان يوسف:

﴿يـا صـاحِبَـي السِّجْـن ءَ أَرْبـابٌ مُتَفَـرِّقُـونَ خَيرٌ أَمِ اللهُ الواحِدُ القَهّار﴾[١].

ولهذا يرى الإسلام محاربة هذا الوباء الفكري، واقتلاعه من الجذور.

ومن هنا أقدم الرسول ﷺ عند فتحـه (مكة) على كسر الأصنام الموضـوعة على البيت الحرام، وأمر كلّ صاحب وثن أن يحطِّم وثنه، وكان ﷺ يفعل ذلك كلّما فتح منطقة من مناطق الجزيرة.[٢]

نعم صحيح انّ للتبليـغ والدعوة أثراً لا ينكر في إيقاظ الأفكـار، وفكّها من أسـارها، بيـد انّـه أثر محدود لا يعـرفـه إلاّ الـزمرة الـواعيـة، المثقَّفة، القـادرة على استيعاب التوجيهات و المواعظ.

ولأجل ذلك يجب على إمام المسلمين قبل نشوب الحرب أن يدعو الكفّار و الأعداء إلى الإسـلام، بالحكمـة والموعظة الحسنة، ويبـالغ في إيقـاظهم وتـوعيتهم ودعوتهم، و إتمام الحجّة عليهم.

---

١. يوسف: ٣٩.

٢. سيرة ابن هشام:٢/ ١٤٣.

قال صاحب شرائع الإسلام:

«ولا يُبدأون إلاّ بعد الدعاء إلى محاسن الإسلام ويكون الداعي الإمام أو من نصبه».[١]

وقد دلّت على ذلك من السنّة روايات متضافرة، منها ما عن السكوني عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قال :قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن فقال: يا علي ألا لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عزّوجلّ على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت ولك ولاؤه يا علي».[٢]

و قد سئل الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام عن كيفية الدعوة إلى الدين، فقال: «تقول: (بسم الله الرحمن الرحيم أدعوك إلى الله عزّوجلّ و إلى دينه و جُماعه أمران:

أحدهما: معرفة الله عزّوجلّ.

و الآخر: العمل برضوانه، وانّ معرفة الله عزّوجلّ أن يُعرف بالوحدانية والرأفة والرحمة والعزة، والعلم والقدرة والعلو على كلّ شيء، وانّه النافع الضار القاهر لكلّ شيء الذي لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وانّ محمّداً عبده و رسوله، وانّ ما جاء به هو الحقّ من عند الله عزّوجلّ وما سواه هو الباطل).

فإذا أجابوا إلى ذلك فلهم ما للمسلمين ، و عليهم ما على المسلمين».[٣]

---

١. شرائع الإسلام، كتاب الجهاد ، الركن الثاني.

٢. وسائل الشيعة :الجزء١١، الباب ١٠ من أبواب جهاد العدو، الحديث ١ .

٣. وسائل الشيعة :الجزء١١، الباب ١١ من أبواب جهاد العدو، الحديث ١ .

بــل ولــو أنّ أحــداً مــن المشركين استــأمــن و أراد أن يسمــع كلام الحاكم الإسلامي أُعطي له الأمان ثمّ أُعيد إلى مأمنه، سواء كان قبل نشوب الحرب أو في أثنائه.

قال الله سبحانه:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ استجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَومٌ لا يَعْلَمُون﴾[١].

غير انّ الدعوة والتبليغ ربما تؤثر في بعض الأشخاص ولا تؤثر في آخرين، خصوصاً إذا كان الدين يهدد مصالحهم ومطامعهم، ولذلك وجب محاربتهم...،إذ لا يكون الخير والإصلاح حينئذٍ إلّا بالسيف و منطق القوة.

و إلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله:

«الخير كلّه في السيف، و تحت ظلّ السيف، ولا يقيم الناس إلّا السيف».[٢]

فرض العقيدة ممنوع

قد يتوهم الجاهل بمعالم الدين الإسلامي وأحكامه انّ الهدف من الجهاد التحريري إنّما هو فرض العقيدة الإسلامية على الناس فرضاً.

ولكن هذا ظن واضح البطلان، معلوم الضعف لمن له أدنىٰ معرفة بطبيعة الدعوة الإسلامية.

فانّ الإسلام الذي يشجب ويستنكر على بعض الناس اتّباعهم لعقائد آبائهم وأجدادهم الباطلة، وتقليدهم تقليداً أعمى دون أن يسمحوا لهم بأن

---

١. التوبة: ٦.

٢. وسائل الشيعة: الجزء١١، الباب ١ من أبواب جهاد العدو، الحديث١.

يفكّروا، ويحقّقوا، ويفتشوا عن المعتقد الحقّ، ليعتنقوه بالبرهان، والدليل؟

إنّ اعتناق عقيدة ما يجب أن يكون قائماً على أساس البحث والفحص والتحقيق، ومرتكزاً على البرهان والدليل، و لذلك فهو يقبّح اتّباع السلف دون مراجعة لعقائدهم، وتحقيق في صحتها أو بطلانها، إذ قال:

﴿وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قالَ مُتْرَفُوها إنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمّةٍ [أي طريقة] وإنّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُون* قُلْ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءكُمْ قالُوا إنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُون* فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبين﴾[١].

و قال سبحانه:

﴿وَإِذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيئاً وَلا يَهْتَدُون﴾[٢].

وبتعبير آخر: انّ الإسلام ذمّ التقليد في الأُصول والعقائد والجري على سنن الآباء والأجداد بلا تأمل ولا تدبّر، وطالب بالتفكّر، والتعقّل، فكيف يأمر أتباعه بأن يفرضوا العقيدة الإسلامية على الآخرين بقوة النار و الحديد؟!

كيف؟! و قد صرح بحرية الاعتقاد، بقوله سبحانه:

﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيّ﴾[٣].

إنّ القرآن الكريم يصرح بأنّ الاختلاف الفكري، والتنافس الآيديولوجي أمر غريزي طبيعي، ولذلك فهو باق إلى يوم القيامة ولا يمكن إزالته من رأس، ولا يصحّ إلغاؤه بالمرة.

---

١. الزخرف: ٢٣ ـ ٢٥. ٢. البقرة: ١٧٠. ٣. البقرة: ٢٥٦.

قال سبحانه:

﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِين﴾ [١].

إنّ القرآن الكريم ينهى الرسول الأكرم ﷺ عن فرض العقيدة الإسلامية على الناس، لأنّ الله شاء لهم أن يكونوا أحراراً في ذلك، وهو في الوقت نفسه يعطينا درساً في مجال التبليغ والدعوة يجب أن نسير على ضوئه، فيقول:

﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تكرهُ النّاسَ حَتّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِين﴾ [٢].

إذن فلم يشرع الجهاد الابتدائي لفرض العقيدة على الناس أو حملهم على الخضوع لمنهج الدين دون اختيار منهم أو إرادة حرة.

٢. كسر الأطواق المفروضة على الشعوب

إنّ هناك داعياً آخر لتشريع الجهاد الابتدائي وهو كسر الأطواق المفروضة على الشعوب، و إسقاط الحكومات التي تمنع من وصول الإسلام إلى الناس وتسلب حرياتهم، وتكرههم على اتخاذ عقيدة خاصة، والمشي على حسب منهج خاص وإن كانوا لا يرتضونه.

وبهذا يكون الجهاد الابتدائي لرفع الموانع والحواجز التي تحيل دون وصول العقيدة الحقّة إلى الناس، وتحريرهم من تلك القيود التي تكبّلهم.

٣. تخليص المستضعفين من براثن الظالمين

إنّ الهدف الثالث من أهداف الجهاد التحريري أو الابتدائي هو إنقاذ

---

١. هود: ١١٨.

٢. يونس: ٩٩.

الشعوب المستضعفة من اضطهاد الحكام الجائرين، واستبدادهم وظلمهم، وحيث إنّ هذا الهدف لا يتحقّق إلاّ باستخدام القوّة وحمل السلاح، اتخذ القرآن طريق الجهاد، وقال:

﴿وَما لَكُمْ لاٰ تُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساء وَالوِلدانِ الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظّالِمِ أَهْلُها وَاْجْعَل لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاْجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[١].

وقد وردت الإشارة إلى هذا الهدف في تصريحات مبعوث عسكر المسلمين الذي أرسل إلى قائد جحافل الشرك حينما سأله: ما حملك علىٰ هذا، فقال: «الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، و من جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وورد في نص آخر: «وفي إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله».[٢]

إذن لم يكن تشريع هذا الجهاد لغرض الاستيلاء على الأراضي، أو بهدف السيطرة على منابع الثروة، أو استعمار الشعوب، كما هو هدف الحروب غيرالإسلامية في الماضي والحاضر.

كما أنّ الإسلام ينهى عن العدوان لبعض الأسباب التي تعود إلى المسائل الشخصية، والقضايا الفردية، التي لا تنطوي على مصلحة الإسلام والمسلمين الكلية...وفي هذا الصدد يقول القرآن الكريم:

﴿وَلاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَومٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ أَن

---

١. النساء: ٧٥.

٢. الكامل في التاريخ:٢/ ٤٦٢ـ ٤٦٣ من حوادث سنة ١٤.

تَعْتَدوا﴾[١].

وبما انّ الجهاد التحريري ينطوي على أحكام دقيقة، وظريفة، لا يعرفها إلاّ الإمام العادل العارف بالدين، والعالم بالظروف، لم يجز أن يقوم المسلمون بهذا الجهاد إلاّ بقيادة (إمام معصوم) أو من ينوب منابه في السلطة الدينية والزمنية.

نعم في مشروعية الجهاد التحريري في غياب الإمام المعصوم بحث مفصل في الكتب الفقهية.

وإلى هذا أشار الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

«والجهاد واجب مع إمام عادل».[٢]

نعم هناك كلمة أخيرة على هامش البحث، وهي:

إنّه يجب على الدولة الإسلامية ـ قبل نشوب أي حرب ـ إعداد المسلمين وتجهيزهم بكلّ ما تستطيع من قوة في كلّ زمان بحسبه، على أن يكون القصد الأوّل من ذلك هو إرهاب العدو، وإخافته من عاقبة التعدّي على بلاد المسلمين كي ينعم المواطنون بالطمأنينة والاستقرار في بلادهم، إذ يقول القرآن الكريم:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣].

ويبقى أن نقول إنّ القتال والنضال بما هوهو ليس أمراً قبيحاً، و إنّما يصطبغ بالحسن أو القبح نتيجة الغايات المترتبة على القتال.

---

١. المائدة: ٢.

٢. وسائل الشيعة: الجزء ١١، الباب ١٢ من أبواب جهاد العدو، الحديث ٩ و ١٠.

٣. الأنفال: ٦٠.

فلو كان القتال بهدف الاعتداء والتجاوز على النفوس والأعراض والأموال والحرمات فيكون القتال أمراً منكراً، ويعدّ وحشية همجية ، ويكون المباشر له حيواناً ضارياً تلبس بالإنسانية.

وإذا كان القتال لحفظ الشرف والإنسانية ومنع المعتدين عن الاعتداء، وغير ذلك من الأهداف المشروعة المذكورة سلفاً فلا يكون قبيحاً بل يعتبر وظيفة إنسانية.

هذه دراسة عابرة للجهاد التحريري حقيقة وهدفاً وفلسفة، والتفصيل موكول إلى محلّه في الكتب الفقهية المطوّلة.

رعاية الأخلاق في الحرب

إنّ وقائع الحروب تشهد بأنّ الجبابرة و الطواغيت ينسون ــ عند نشوب الحروب ــ كلّ القيم الإنسانية والأُصول الأخلاقية، فيرتكبون كلّ جريمة، ويقترفون كلّ جناية دون أن يردعهم عن ذلك رادع، أو يتقيدوا في القتال بقانون.

وليس هذا أمراً يتصل بالماضي، فساحات المعارك اليوم، وما تشهده من فظائع خير دليل علىٰ ما ذكرناه.

صحيح انّ هناك أعرافاً دولية، وقوانين عالمية للحروب، ولكن رعاية هذه القوانين والأعراف ضئيلة، أو كادت أن تكون مفقودة أصلاً.

هذا مضافاً إلى أنّ هذه القوانين والأعراف لا تكون ـ في الأغلب ـ شاملة، أو كافية.

غير انّ الإسلام سنَّ للحرب والقتال حدوداً دقيقة من شأنها أن تجعل الحرب في إطار الأخلاق والقواعد الإنسانية. ولم يكتف بمجرد تشريعها ووضعها،

بل عمل بها في كافة حروبه ووقائعه.

من هنا يجب علينا أن نقف على هذه الحدود، لنتعرف على مدى رحمة الإسلام و إنسانيته و عدالته حتى في الحروب، حيث يفقد المتقاتلون توازنهم عادة، فلا يتورّعون عن ارتكاب كلّ كبيرة وصغيرة، وتشهد على ذلك الحرب العالمية الأُولى والثانية، وكذا الحروب التي شنها الغرب على الشرق في مختلف المناطق في القرن الحاضر، ونخص بالذكر المعارك الدامية بين الاستعمار الفرنسي والشعب الجزائري البطل، و الاستعمار الإمريكي والشعب الفيتنامي، والاستعمار الإسرائيلي والشعب الفلسطيني، وما جرى في هذه الحروب من الممارسات الوحشية المروعة على يد هذه القوى الاستعمارية.

١. الآمنون في الحرب

لمّا كانت العدالة الاجتماعية هي المطلب الأقصى للإسلام، ولم تكن للحرب أصالة في منطقه، ولم تكن بنفسها هدفاً بل شرعت لدفع المعتدين وإزالتهم عن طريق الدعوة الحقّة، اقتضى ذلك كلّه أن لا يحمل إلاّ على الظالمين، ولذا قال القرآن الكريم:

﴿فَلا عُدوانَ إلاّ عَلى الظّالِمين﴾[1].

ولأجل ذلك نهى الإسلام عن قتل طائفة من الناس إذا لم يساندوا الأعداء الظالمين ولم يمارسوا القتال معهم، وهؤلاء هم:

١. النساء.

٢. الولدان.

---

١. البقرة: ١٩٣.

٣. المجانين.

٤. الأعمى.

٥. الشيخ الفاني.

٦. المقعد.

وقد دلّت على ذلك أحاديث متضافرة، منها ما عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال:

«نهى رسول الله عن قتل المقعد والأعمى والشيخ الفاني والمرأة والولدان في دار الحرب».[1]

٢. السيطرة على النفس

لا ريب انّ الحرب سبب قوي لغليان المشاعر وارتفاع سورة الغضب إلى أقصاها، ولهذا ربما يؤدي إلى ارتكاب أقسى ألوان الجريمة في حقّ الخصم.

ومن هنا يجب أن يعطى زمام الحرب للعقل لا للمشاعر الملتهبة، والأحاسيس المشتعلة.

ولقد أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعاليماً عامة في الحرب، وكان يوصي بها كلّ جيش يبعثه، وكلّ سرية يرسلها.

وإليك فيما يأتي نموذجاً من الآداب التي أدّب فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام علي عليه السلام المجاهدين و المقاتلين والتي تكفل إنسانية الحروب وعدالتها.

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام انّه قال:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يبعث سرية، دعاهم فأجلسهم بين يديه، ثمّ

---

١. الكافي:٥/ ٢٨ ح٦، كتاب الجهاد.

يقول:

سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله و على ملّة رسول الله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً، ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلاّ أن تضطروا إليها.

وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله، فان تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فأبلغوه مأمنه، و استعينوا بالله».[1]

وعنه عليه السلام أيضاً انّه قال:

«إنّ النبي صلى الله عليه وآله كان إذا بعث أميراً له على سرية أمره بتقوى الله عزّ وجلّ في خاصة نفسه، ثمّ في أصحابه عامة، ثمّ يقول:

اغز باسم الله، وفي سبيل الله.

قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا متبتلاً في شاهق ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه با لماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً، لأنّكم لا تدرون لعلّكم تحتاجون إليه.

ولا تعقروا من البهائم ما يؤكل لحمه إلاّ ما لابدّ لكم من أكله، وإذا لقيتم عدواً للمسلمين فادعوهم ... ».[2]

بل ونصّ بعض الفقهاء على أنّ المرأة لا تُقتل حتى لو كانت تعاون الأعداء، لأنّ النساء مستضعفات غالباً، وهنّ يُرغمنَ على القيام بمثل هذا التعاون إرغاماً.

---

١. الوسائل: الجزء ١١، الباب ١٥ من أبواب جهاد العدو، الحديث ٢.

٢. الوسائل: الجزء ١١، الباب ١٥ من أبواب جهاد العدو، الحديث ٣.

قال المحقّق الحلي في المختصر النافع:

«ولا يُقتل نساؤهم ولو عاونّ إلاّ مع الاضطرار».(١)

وهذا يجسد منتهى الرحمة والإنسانية التي يتحلىٰ بها الدين الإسلامي.

وقد جاء في بدر انّ عمر بن الخطاب، قال لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله دعني انـزع[اقلع] ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلـع لسانه [وكان سهيل خطيباً يهرّج ضد النبي] فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً.

فقال رسول الله ﷺ:

«لا أُمثّل به فيمثّل الله بي و إن كنت نبياً».(٢)

إنّ مقـارنة بين هـذه التعـاليم وا لمواقـف الإسـلاميـة والجنايـات والجرائم الوحشيـة التي ارتكبتهـا الدول الكبرى في مستعمـراتها كالجزائر وفيتنـام وغيرهما توقفنا على إنسانية الدين الإسلامي ورحمته في الحروب.

٣. منع ممارسة الأساليب الوحشية

إنّ الإسلام يحرّم إهـلاك العدو بـالطرق غير الإنسانيـة مثل إلقـاء السمّ في الماء، أو قطعه عنهم، أو إرساله على مخيمهم لغرقهم، أو حرقهم بالنار.

وفي ذلك يقول المحقّق الحلي في المختصر النافع:

«ويجوز المحاربة بكلّ ما يرجى به الفتح...».

ثمّ قال:

«ويكره بإلقاء النار و يحرم بإلقاء السم».(٣)

---

١. المختصر النافع:١١٢، كتاب الجهاد، طبعة القاهرة.

٢. سيرة ابن هشام:٢/ ٦٤٢.

٣. المختصر النافع: ١١٢، كتاب الجهاد.

و قال العلاّمة الحلّي في تبصرة المتعلمين:

«ويجوز المحاربة بسائر أنواع الحرب، إلاّ القاء السمّ في بلادهم».[١]

ثمّ ها هو الإمام علي عليه السلام في صفين بعد الاستيلاء على المشرعة لا يمنع جيش معاوية عن الماء وإن كان معاوية قد فعل ذلك قبل ذلك.[٢]

إلى هذه الدرجة الرفيعة من الرحمة والشفقة تبلغ رحمة الإسلام، بينما لا تتورع الدول الكبرى عن قصف الشعوب المقهورة، بقنابل النابالم، وغيرها من أسلحة الدمار الشامل.

ومن الذي يمكن أن ينسىٰ ما فعلته الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية حينما قصفت «هيروشيما»، و«ناكازاكي» بالقنابل الذرية، فأبادت ما يقارب نصف مليون نسمة وحذف ذينك البلدين من الخارطة الجغرافية، بذريعة التعجيل في إنهاء الحرب، كما قال «ترومن» رئيس الجمهورية الإمريكي الأسبق عام ١٩٤٥م.

٤. إعطاء الأمان للكفّار

إنّ الإسلام ــ بحكم كونه رسالة إلهية ودعوة سماوية لهداية الإنسان ـ يحرص على الانضواء تحت لوائه عن رغبة وإرادة.

و لتحقيق هذا الهدف الأسمى نجد انّ الإسلام يسمح بإعطاء الأمان لكلّ من يطلب ذلك من الكفّار لكي يسمع منطق الإسلام، ويقف على تعاليمه، سواء كان ذلك عند نشوب الحرب، أو في غير الحرب.

---

١. تبصرة المتعلمين: ٨١، كتاب الجهاد.

٢. راجع وقعة صفين لابن مزاحم: ١٦٦ـ ١٦٧، طبعة مصر.

بل انّ الإسلام يعطي الحقّ لكلّ مسلم أن يمنح الأمان لمن شاء، ولو كان لغير الهدف المذكور.

قال المحقّق الحلي في الشرائع:

«ويجوز أن يذم الواحد من المسلمين لآحاد من أهل الحرب».[١]

وقال في المختصر النافع:

«ويذم الواحد من المسلمين للواحد ويمضي ذمامه على الجماعة ولو كان أدونهم».[٢]

ثمّ إنّ ما يدلّ على مدى عناية الإسلام و حرصه على الدماء انّه يجير حتى من دخل في حوزة المسلمين بشبهة الأمان وظنه، فهو مأمون حتى يرد إلى مأمنه دون أن يصيبه أذى.

قال المحقّق في الشرائع:

«وكذا كلّ حربي دخل في دار الإسلام بشبهة الأمان، كأن يسمع لفظاً فيعتقده أماناً، أو يصحب رفقة فيتوهمها أماناً».[٣]

وقال في المختصر النافع:

«ومن دخل بشبهة الأمان فهو آمن حتى يردّ إلى مأمنه».[٤]

وتدل على هذا، أحاديث منها:

ما عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال:

«لو انّ قوماً حاصروا مدينة فسألوهم الأمان، فقالوا: لا، فظنوا انّهم قالوا:

---

١. شرائع الإسلام:١/ ٣١٣، كتاب الجهاد، في الذمام، طبعة البقال؛ وراجع الجواهر:٢١/ ٩٦.
٢. المختصر النافع:١١٢، كتاب الجهاد .
٣. الشرائع:١/ ٣١٣ـ ٣١٤، كتاب الجهاد.
٤. المختصر النافع:١١٢، كتاب الجهاد .

نعم، فنزلوا إليهم كانوا آمنين».[١]

و من مظاهر العدل والمساواة انّ الإسلام يجيز أمان العبد المسلم، كما يجيز أمان الحرّ المسلم سواء بسواء.

وتدلّ على هذا الحكم الإسلامي العظيم، روايات عديدة، منها:

ما عن الإمام الصادق عليه السلام لمّا سأله السكوني عن معنى قول النبي صلى الله عليه وآله يسعى بذمتهم أدناهم، قال عليه السلام:

«لو انّ جيشاً من المسلمين حاصروا قوماً من المشركين فأشرف رجل، فقال: أعطوني الأمان حتى ألقىٰ صاحبكم وأناظره، فأعطاه أدناهم الأمان، وجب على أفضلهم الوفاء به».[٢]

وعن الصادق عليه السلام أيضاً انّه قال:

إنّ علياً عليه السلام أجاز أمان عبد مملوك لأهل حصن من الحصون، وقال: هو من المؤمنين».[٣]

ولقد روىٰ ابن الأثير في تاريخه الكامل: انّ المسلمين نزلوا بجنديسابور فأقاموا عليها يقاتلونهم، فرمى إلى من بها من عسكر المسلمين بالأمان. فلم يفجأ المسلمين إلّا وقد فتحت أبوابها، وأخرجوا أسواقهم وخرج أهلها، فسألهم المسلمون، فقالوا: رميتم بالأمان، فقبلناه، وأقررنا بالجزية على أن تمنعونا.

فقال المسلمون: ما فعلنا... .

وسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد يدعى كثيفاً كان أصله منهم، فعل

---

١. الوسائل: الجزء ١١، الباب ٢٠ من أبواب جهاد العدو، الحديث ٤.

٢ و ٣. الوسائل: الجزء ١١، الباب ٢٠ من أبواب جهاد العدو، الحديث ١، ٢.

هذا.

فقالوا: هذا عبد.

فقـال أهلها: لا نعـرف العبد مـن الحرّ، وقـد قبلنا الجزيـة، و... فإن شئتـم فاغدروا. فكتبوا لعمر فأجاز أمانهم، فآمنوهـم، وانصرفوا عنهم».[١]

و هذا هو نموذج واحد من سلوك المسلمين في هذا المجال ويجد نظائره كلّ من راجع التاريخ الإسلامي.

هذه إلمامة عابرة بملامح الجهاد في القرآن الكريم وفلسفته وغايته.

١. الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٥٣.

٥

شخصية النبي ﷺ و سيرته في القرآن الكريم

تمر علينا هذه الأيام، ذكرىٰ عطرة هـي ذكرى مولد النبي ﷺ، هذه الولادة التي دخلتْ التاريخَ من أوسع بابـه واستطاعت أن تُنقذ البشرية من براثن الإلحاد والشرك إلى التوحيد والعـدل. فإقامة الاحتفـال في هذه المناسبة العظيمـة،و إلقاء الخطب والقصائد في مـدحه، وذكر جهوده في إنقـاذ الأُمّة كلُّها من مظـاهر حبّ النبي ﷺ الذي هو أصل مـن أُصول الإسلام، ومن دعا إلى الاحتفال بمـولد النبي ﷺ عبر القرون فقـد انطلق مـن هذا المبـدأ، وجسّد حـبّ النبي ﷺ الذي أمـر به القرآن والسنة وعلى ذلك جرى علماؤنا السابقون.

يقول الـديار بكري في هـذا الصدد: لا يـزال أهل الإسلام يحتفلـون بشهر مولـده، ويعملون الـولائم، ويتصدّقـون في لياليـه بأنـواع الصدقـات، ويُظهرون السرور، ويزيدون في المبرات، ويعنـون بقراءة مولده الشريـف، و يظهـر عليهم من كراماته كلّ فضل عظيم.[١]

وقال ابن حجر القسطلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام

١. تاريخ الخميس: ١/ ٣٢٣.

يعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون المبرّات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كلّ فضل عميم... فرحم الله امرئ اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشدّ علة على من في قلبه مرض و أعياه داء.[١]

إنّ حبّ النبي ﷺ أصل من أُصول الإسلام وتكفي في ذلك الآيتان التاليتان:

قال سبحانه:

﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُم وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَونَ كَسادها وَمَساكِنُ تَرْضَونَها أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِه وَجهادٍ في سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدي القَومَ الفاسِقين﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَولَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُون﴾[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ماله وأهله والناس أجمعين».[٤]

فالاحتفاء بميلاد النبي ﷺ إذا كان مجرداً عن كلّ ما يخالف الإسلام فإنّما هو تجسيد للحب الذي فرض علينا، ولا أقول إنّه المظهر المنحصر لا غير وإنّما أقول إنّ الاحتفال من أحد مظاهر الحبّ.

---

١. المواهب اللدنية: ١/ ٢٧.
٢. التوبة: ٢٤.
٣. المائدة: ٥٦.
٤. جامع الأُصول: ١/ ٢٣٨.

و هذا هو كعب بن زهير ينشد قصيدة طويلة في مدح رسول الله ﷺ منطلقاً من حبه له ورسول الله ﷺ يستمع إليه، قال:

بانت سعادُ فقلبي اليوم مَتبُول ... مُتَيَّم إثرَها لم يُفْدَ مكبول

نبِّئت انّ رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

إنّ الرسول لنور يستضاء به ... مهنَّد من سيوف الله مسلول[١]

إلى آخر ما ذكره.

وما ربما يتوهم انّ الاحتفال بدعة لم يرد في القرآن والسنّة، فإنّما هو غفلة عن حقيقة البدعة وتحديدها، فهي عبارة عمّا لم يرد في السنة بخصوصه وعمومه، وأمّا إذا ورد بصورة عامة وتركت التفاصيل والجزئيات إلى الأجيال فهذا ليس بدعة، فقد أُمر الناس بحبّ النبي ﷺ وتركت مظاهره إلى مقتضيات العصر.

هذا إلى جانب انّه سبحانه يصف النبي ﷺ بقوله: ﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٢] وهذا يدلّ على أنّ رفع ذكر النبي ﷺ أمر مطلوب قام به سبحانه بإعطائه النبوة، وتكريمه بالرسالة، فنحن أيضاً نقتفي أثره ونرفع ذكراه بإقامة المجالس والاحتفالات ليكون رفعاً لذكره وذكر أهل بيته.

فلماذا لا نقتدي بالقرآن؟

أليس القرآن قدوة وأُسوة لنا؟

هذا... وليس لأحد أن يقول: إنّ رفع ذكره ﷺ خاص بالله سبحانه ولا يشمل غيره، لأنّ ذلك يشبه أن يقول: إنّ نصر النبي خاص بالله سبحانه، ولا يجوز لأحد من المسلمين أن ينصره، وقد قال تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزيزاً﴾[٣].

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٥٠٣. ٢. الانشراح:٤. ٣. الفتح : ٣.

فعلى ذلك نحتفل بذكر النبي ﷺ ببيان سيرته وشخصيته في القرآن الكريم، فنقول:

لقد استأثرت حياة النبي ﷺ باهتمام عدد كبير من المفكّرين الإسلاميين وغيرهم على مرّ العصور، فكتبوا حول هذه الشخصية العظيمة، موسوعات و كتباً ورسائل كل يتناول جانباً من جوانب حياة هذه الشخصية بنحو قلما تجد له مثيلاً في التاريخ البشري، ولوجمعت هذه الدراسات بمختلف اللغات لشكّلت مكتبة عامرة وضخمة يجد فيها الإنسان بغيته في التاريخ النبوي وما يمت إليه بصلة.

إنّ أوثق المصادر في دراسة سيرته هو القرآن، فقد وردت آيات مختلفة، تشير إلى شخصيته وسيرته، و إلى أخذ الميثاق من النبيّين على الإيمان به، و إلى ثقافة قومه وحضارة بيئته، و إلى العراقيل والموانع الموجودة حيال دعوته ومعراجه وإسرائه، وهجرته إلى يثرب واشتباكه المسلح مع اليهود، وغزواته وبراءته من المشركين وجهاده في الإسلام وتبليغ رسالته إلى ملوك عصره، إلى غير ذلك ممّا يجده الباحث في غضون آيات القرآن.

فإذا كان القرآن هو كلام الله سبحانه الموحىٰ إلى عبده الذي لا يتطرق إليه الخطأ والسهو ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالقرآن هو أفضل محك لمعرفة صحيح سيرة النبي ﷺ، عن سقيمها فعلىٰ ضوء ذلك يجب أن يطبق ما ورد في كتب السير والتاريخ حول حياته، على القرآن الكريم كي يرد ما خالفه و يقبل ما لم يخالفه.

فالقرآن الكريم يتتبع سيرة حياته في فصول ثلاثة:

أ: من ولادته إلى بعثته.

ب: من بعثته إلى هجرته.

ج: من هجرته إلى رحلته.

وبما انّ دراسة هذه الفصول الثلاثة في ظل الكتاب العزيز ونقد ما خالفه من الروايات يحوجنا إلى تأليف مفرد أو محاضرات عدة، فنكتفي بالفصل الأوّل من فصول حياته الثلاثة ونحيل الباقي إلىٰ كتابنا «سيد المرسلين».

أ: من ولادته إلى بعثته

نجد في القرآن الكريم إشارات عدّة إلى حياته في هذا المقطع الزماني.

١. عاش يتيماً فآواه.

٢. كان ضالاً فهداه.

٣. كان عائلاً فأغناه.

٤. كان أُمّياً لا يجيد القراءة والكتابة.

إليك دراسة هذه الجوانب في أوّليات حياته أي من الولادة إلى البعثة.

الأوّل: الإيواء بعد اليتم

قال سبحانه: **﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ* وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدىٰ* وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنىٰ﴾**[١].

فما هو السر في أنّه عاش يتيماً؟!

ويمكن أن يكون وجهه هو انّ هذا الطفل سيلقى عليه في مستقبل حياته قول ثقيل، كما قال سبحانه: **﴿إِنّا سَنُلْقي عَلَيْكَ قَولاً ثَقيلاً﴾**[٢].

---

١. الضُّحى: ٦ ـ ٨.
٢. المزّمّل: ٥.

وأي قول أثقل من هداية الأُمّـة الأُمية إلى معالم السعادة، والّتي لا يقوم بهذا العبء الثقيل إلاّ الأمثل فالأمثل من الشخصيات التي مـلأ روحها الصمـود والثبات، ولا تحصل تلـك الحالة إلاّ بعد تذوق مـرارة الدهور ومآسي الأيـام حتى يقع في بوتقـة الأحداث ويخرج مؤهلاً لحمل عبأ الـرسالة وهداية النـاس وقد صار كزبر الحديد، عركته المحن وحنّكته التجارب.

كما يمكن أن يكـون وجهه انّـه ولد يتيماً ونشأ يتيماً حتـى يقف على الـوضع المأساوي السائد على الأيتـام في عامة الأجيال، ولـذلك يقول: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ**﴾ ثمّ يرتب عليه ﴿**فَأَمّا اليَتيم فَلا تَقْهَر**﴾ .

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام وجه ثالث لتولده يتيماً وعيشه كذلك، فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ أيتم نبيّه لكي لا يكون لأحد عليه طاعة».[١]

ومـن غـرائب التفسير، تفسير اليتيم في الآيـة بـالـوحيد، كما يقـال «الـدرّة اليتيمة»، ولكنّه تفسير بالرأي لا يناسب قوله ﴿**فآوى**﴾ كما لا يناسب مع ما رتب عليه من النهي عن قهر اليتيم.

الثاني: الهداية بعد الضلالة

ويشير إلى هذه الحقبة من حياتـه، قوله سبحانه: ﴿**وَوَجَدَكَ ضالاً فَهَدىٰ**﴾ فالمهم تفسير هذه الضلالة التي أعقبتهـا الهداية، فانّ الضلالة تطلق على معنيين يجمعها فقد الهداية.

الأوّل:هيئة نفسـانية تحيـط بالقلـب فيكفر.بـالله سبحانـه وآياتـه وحججه الباهرة وأنبيائه ورسله، فالضلالة بهذا المعنـى هي الهيئة الراسخة في قلوب الكفّار

١. علل الشرائع:١/ ٣١.

والمنافقين فهم منحرفون في التصورات والعقائد، كما أنّهم منحرفون في الخلق والسير.

الثاني: الضلالة بمعنى فقد الهداية في مورد يقبلها، كما هو الحال في الاطفال والاحداث فهم يفقدون الهداية التفصيليّة لا الفطرية، فتشملهم هداية العقل والشرع.

فالله سبحانه يصف النبي ﷺ بكونه ضالاً، ثمّ شملته الهداية، فيريد من الضلالة فقد الهداية الذاتية لا الهيئة النفسية الوجودية، وهذا شأن كلّ موجود امكاني لا يملك الكمال من صميم ذاته و إنّما يُفاض إليه من جانب علته، فقد كان النبي ﷺ فاقداً لتلك الهداية الذاتية، ثمّ أُفيضت إليه من لدن ان كان فطيماً.

كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «**ولقد قرن الله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليلاً ونهاراً**».[1]

وعلى ذلك فوزان قوله ﴿**فوجدك ضالاً فهدى**﴾ وزان قوله سبحانه:

﴿**أَعْطىٰ كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ**﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الإِنْسان لَفي خُسْر * إِلاّ الّذينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصّالِحات**﴾[3].

فالخسران في الآية لا يشير إلى ولادة الإنسان كافراً بالله سبحانه، بل يهدف إلى عدم حيازته لهداية ذاتية.

نعم لو عاش واكتمل رشده ورفض دعوة الرسل وأنكر آيات الله لتبدّل الخسران الذاتي إلى هيئة ظلمانية تحدق بالقلب والروح، فالضلالة بالمعنى الأوّل

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

٢. طه: ٥٠.

٣. العصر: ٢ ـ ٣.

ذاتية ،وبالمعنى الثاني: مكتسبة.

وبما ذكرنا يتضح معنى الآية الأُخرى التي اتخذ منها المخطئة ذريعة لنفي عصمته قبل أن يُبعث، أعني قوله سبحانه: ﴿**وَكَذلِكَ أَوحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْت تَدري مَا الكِتابُ ولاَ الإِيمانُ وَلكِن جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا و إِنَّكَ لتَهدي إِلى صِراطٍ مُسْتَقيم**﴾[1].

فقد وقعت الآية ذريعة لنفي العصمة عن النبيﷺ وتمسكوا في ذلك بأمرين:

١. ما تدري ما الكتاب.

٢. و(ما كنت تدري) الإيمان.

لكن الاستدلال مخدوش من جهتين:

الأُولى:انّ حياته المشرقة بالتوحيد والإيمان ــ قبل البعثة ـ تدلّ على أنّه كان مؤمناً بالله، متعبّداً إياه، لم يسجد لصنم، ولم يقترف سيئة، فهل يمكن أن يكون مثله مجانباً عن الإيمان بوجوده سبحانه أو توحيده، و قد كان ـ صلوات الله عليه ـ يعتكف قبل البعثة في غار حراء شهر رمضان، ولو أردنا أن نذكر جلّ ما ورد في التاريخ حول تلك الحقبة من حياته لطال بنا الكلام، ولخرجنا عمّا هو المقصود.

الثانية : ليست في الآية المباركة أية إشارة إلى ادّعاء المخطّئة فضلاً عن الدلالة، لأنّه سبحانه بدأ كلامه في هذه الآية بقوله: ﴿**كذلك**﴾ أي كما قد أوحينا إلى من تقدم من الأنبياء، كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، والمراد من الروح، هو القرآن الموحىٰ إليه، و سمّي روحاً لأنّه قوام الحياة الأُخروية كما أنّ الروح قوام الحياة الدنيوية.

---

١. الشورىٰ: ٥٢.

ثمّ يقول: ﴿ما كنت تَدري مَا الكتاب ولا الإيمان﴾ أي لولا الوحي ما كان من شأنك الـوقوف على تفاصيل ما في الكتاب، ولا على تفـاصيل ما يجب الإيمان به،فالعلم التفصيلي بمضـامين الكتاب وما فيه من الأُصول والتعـاليم والقصص ثمّ الإذعان والإيمان بتلك التفاصيل حصل عند نزول الوحي، ولولاه لما كان هناك علم ولا إيمان.

وبما انّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، فهناك آيتان تفسّران كلاً من الأمرين .

أمّا قوله: ﴿ما كُنْت تَـدري مَا الكتاب ﴾ ، فيفسره قولـه ﴿تِلكَ مِن أنباءِ الغَيْبِ نُـوحِيها إليـكَ ما كُنتَ تَعْلَمُهـا أنتَ ولا قَـوْمُكَ مِن قَبْـلِ هَذا فَـاْصْبِر إنَّ العاقبةَ للمُتّقين﴾[١] فالآية صريحة في أنّ النبي لم يكن عـالماً بتفاصيل الأنباء وإنّما وقف عليها عن طريـق الوحي، فعبر عن عدم وقوفه عليها في هـذه الآية، بقوله: ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك﴾ .

وأمّا قوله: ﴿وَلاَ الإيمان﴾ فيفسره قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَ مَلائِكتِهِ وَ كُتِبه وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَـكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ المَصير﴾[٢] فقوله :﴿آمَنَ الرَّسُـول بِما أُنْزِل إليه ﴾ صريح في أنّ متعلّق الإيمان الحاصـل بعد الوحي، الإيمان بما أُنـزل إليه من تفاصيل الكتاب، لا الإيمان بالله وتوحيده.

و جميع هذه الآيات تشير إلى تكريمه سبحانه نبيّه و إنعامه عليه الذي جاء في الآية التالية: ﴿و أنزَلَ عَليكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظيماً﴾[٣].

١. هود: ٤٩. ٢. البقرة: ٢٨٥. ٣.النساء: ١١٣.

٣. الإغناء بعد العيلولة

يذكر سبحانه من مننه الكبرى على النبي ﷺ انّه كان فقيراً فأغناه الله بالكسب، وهذا أمر واضح لمن طالع سيرته حتى انّ عمّه أباطالب حينما خطب خديجة لابن أخيه، فوصفه بالقول التالي:

هذا محمد بن عبد الله لا يوازىٰ برجل من قريش إلاّ رجح عليه، ولا يقاس بأحد منهم إلاّ عظم عنه، وإن كان في المال مُقلاًّ، فانّ المال ورق حائل، وظلّ زائل.[1]

وحصيلة البحث: انّ هذه الآيات الثلاث، أعني: قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ* وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدىٰ* وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنىٰ﴾ تعرب عن الود والحبّ والرحمة والإيناس التي عمَّ النبي ﷺ بها في أوان حياته.

٤. أُمّية النبيﷺ

القرآن الكريم يصف النبي ﷺبكونه أُمّياً في آيتين، ويقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوراةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيحلُّ لَهُمُ الطَّيِّبات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[2].

فهذه الآية تصف النبي ﷺبصفات عشر:

١. رسول، ٢. نبي، ٣. أُمّي، ٤. مكتوب اسمه في التوراة والإنجيل، ٥. منعوت فيهما بأنّه يأمر بالمعروف، ٦. وينهى عن المنكر، ٧. ويحلّ لهم الطيّبات، ٨.

---

١. بحار الأنوار: ١٦/ ٦ نقلاً عن مناقب ابن شهر آشوب: ١/ ٢٦.

٢. الأعراف: ١٥٧.

ويحرّم عليهم الخبائث، ٩. ويضع عنهم إصرهم، ١٠. ويضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم.

كما أنّه سبحانه يصرح بكونه أُمّياً في آية ثانية، ويقول:

﴿فَآمنوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمّيِّ الّذِي يُؤمِنُ بِاللهِ وَكَلماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾[1].

إنّما الكلام فيما هو المراد من الأُمّي.

والأُمّي هو المنسوب إلى الأُمّ، ويراد منه بقاء الإنسان على ما ولدته أُمّه، وبما انّ الإنسان الذي لا يجيد القراءة والكتابة فهو باقٍ على ما ولدته أُمّه يطلق عليه الأُمّي، وعلى ذلك فتفسير الأُمّي بمن لا يقرأ ولا يكتب تفسير باللازم.

كما أنّ تفسير الأُمّة العربيّة يوم نزول القرآن بالأُميّة بهذا المعنى أي الباقون على ما ولدتهم أُمّهاتهم، قال الرازي: إنّه تعالى وصف محمداً ﷺ في هذه الآية بصفات تسع[2]، إلى أن قال: الصفة الثالثة كونه أُمّياً، قال الزجاج: معنى الأُمّي الذي هو على صفة أُمّة العرب، قال عليه الصلاة والسلام: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب، فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون، والنبي كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أُمّياً.[3]

هذا هو المعنى المعروف للأُمّي بين المفسرين، غير انّ ثمة رأياً آخر يخالف ما عليه مشاهير المفسرين وهو:

الأُمّي منسوب إلى أُمّ القرى

وهذا القول يفسر الأُمّي بالمنسوب إلى أُمّ القرىٰ التي هي من أعلام مكة ،

---

١. الأعراف: ١٥٨.   ٢. لا بل عشر كما عرفت.   ٣. مفاتيح الغيب: ٤/ ٣٠٩.

يقول سبحانه:

﴿وَكَذٰلِكَ أَوحَيْنا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرىٰ وَمَنْ حَولَها﴾[١]

وعلى ذلك فالآيتان تهدفان إلى بيان موطن النبيﷺ ومولده وانّه مكّي، و على ذلك فلا دلالة في هذا الوصف على أنّه لم يكن يقرأ و يكتب.

لكن هذا القول يخالف الصواب، لوجهين:

الأوّل: انّ أُمّ القرىٰ ليست من أعلام مكة و إن كان يطلق عليها، لكنّه من قبيل إطلاق الكلي على مصداقه، ولذلك يقول ابن فارس: «كلّ مدينة هي أُمّ ما حولها من القرىٰ»، ويدل على ذلك قوله سبحانه: **﴿وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرىٰ حَتّى يَبْعَثَ في أُمّها رسولاً﴾**[٢]. والضمير يرجع إلى القرى، فهي صريحة في أنّ أُمّ القرىٰ ليست علماً لموضع خاص، وذلك لأنّ مشيئته سبحانه في إهلاك الأُمّم و إبادتهم بعد إنذارهم ببعث الرسل، تعمُّ الأُمم جميعاً ولا تختص بمكان خاص دون مكان.

الثاني: لو افترضنا انّها من أعلام مكة، فالصحيح عند النسبة إليها هو القروي لا الأُمّي، يقول ابن مالك في ألفيّته:

وانسِب لصدر جملة وصدر ما	ركِّب مزجا وبثان تتما
إضافة مبدوة بابن وأب	أو ما له التعريف بالثاني وجب
فيما سوى هذا انسبن للأوّل	ما لم يخف لَبْس كعبد الأشهل

وحاصل كلام ابن مالك هو انّ الاسم المركب إن كان مركباً تركيبَ جملة أو تركيبَ مزج حذف عجزه وأُلحق صدره ياء النسبة، فتقول في تأبط شراً، تأبطي،

١. الشورى: ٧.

٢. القصص: ٥٩.

وفي بعلبك بعلي.

و إن كان مـركب إضافـة فإن كان صـدره ابناً أو أبـاً أو كان معروفـاً بعجزه حذف صـدره والحق عجزه ياءُ النسبـة فتقول في ابن الـزبير، زبيري، وفي أبي بكر، بكري وفي غلام زيد زيدي.[1]

وأُمّ القرىٰ من قبيـل الثاني أي المركب إضافـة مصدراً بأُمّ، ففي مثلـه يقال قروي لا أُمّـي فتلحق ياء النسبـة بعجزها ويقال: قـروي لا بصدرها حتـى يقال: أُمّي.

على أنّ وصف النبيّ ﷺ في الآية المباركة بكونه أُمّياً بمعنى منسوباً إلى مكة لا يتناسب مـع سائر الصفات، أعني كـونه رسولاً نبيّاً آمـراً با لمعروف، ناهيـاً عن المنكر، محلاً لهم الطيبات، ومحرّماً عليهم الخبائث، وواضعاً عنهم إصرهم والأغلال التـي كانـت عليهم، بخـلاف ما إذا فسرنـاه بمن لا يقـرأ و لا يكتب، إذ يكـون عندئذٍ مشيراً إلى برهان رسـالته فهو مع أنّه لا يقرأ ولا يكتب، أتـى بشريعة كافلة لسعادة الناس.

الرأي الآخر في تفسير الأُمّي

وهناك رأي آخر في تفسير الأُمّي لا يقل في الضعف عن الرأي الماضي، وهو خيرة الـدكتور عبـد اللطيف الهنـدي في مقـال كتبه حـول أُمّية النبـي ﷺ باللغة الانكليزية، وقال: الأُمّي من لم يعرف المتون العتيقة السامية ولم ينتحل ملة أو كتاباً من الكتب السماوية، والشاهد عليه انّ الله جعـل الأُمّي في الكتاب العزيز مقابل أهل الكتاب ويستظهر منه بحكم المقابلة انّ المراد منه هي الأُمّة العربية الجاهلية

---

١. شرح ابن عقيل: ٢/ ٣٩١.

بما في زبر الأوّلين من التوراة والإنجيل لا من لا يقدر على التلاوة والكتابة.

أقول: المتبادر من الأُمّي حسب تصريح علماء اللغة من لا يعرف القراءة والكتابة على الإطلاق حيث بقي على ما ولدته أُمّه لا من يجيد قراءة لغته وكتابتها وفي الوقت نفسه لا يجيد سائر اللغات و إلاّ يلزم وصف قاطبة الناس بالأُميّة، لأنّ السائد عليهم هو اتقانهم لغتهم أو لغتين أو ثلاث مع الجهل بسائر اللغات.

وبعبارة أُخرى: ليست الأُمّية أمراً نسبياً حتى يكون الواقف على لغة العرب أُمّياً بالنسبة إلى سائر اللغات، فتفسير الأُمّي بخصوص الجاهل بالمتون السامية تفسير بالرأي.

وأمّا ما استدلّ به من أنّه سبحانه جعل الأُمّي في مقابل أهل الكتاب، فهو ناظر إلى قوله سبحانه: ﴿**وقُلْ لِلّذينَ أُوتُوا الكتابَ وَالأُمّيينَ أ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدوا وَإِنْ تَولَّوا فَإِنّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصيرٌ بِالعِباد**﴾[1].

ولكن الآية لا تدلّ على مقصود المستدل، فإنّ الأُمّيين في الآية هم العاجزون عن القراءة والكتابة على الإطلاق، و ذلك لأنّ القاطنين بيثرب وما حولها كانوا يقسمون إلى طائفتين:

أهل الكتاب وكان السائد عليهم معرفة القراءة والكتابة.

طوائف عربية وكان السائد عليها الجهل بالقراءة والكتابة.

وهذا هو التاريخ يوقفنا على عدد الذين يعرفون مجرد القراءة والكتابة في الجزيرة العربية في عصر الرسالة، وقد أتى الإمام البلاذري في فتوح بلدانه بأسماء العارفين بالقراءة والكتابة في العهد الجاهلي فما تجاوز عدتهم عن١٧ رجلاً في مكة و ١١ رجلاً في يثرب.[2]

---

١. آل عمران: ٢٠.

٢. فتوح البلدان:٢٥٧.

وعلى هذا فـالمراد من الأُمّيين المقابل لأهـل الكتاب من لا يجيـدون القراءة والكتابة بشهادة سريان الأُمية إلى قاطبة العرب في عصر الرسالة لا من يجيد القراءة والكتابة ولكنّه لا يعرف العبري ولا السرياني.

من وراء الكواليس

قد أكرم الله نبيّه وأعظمه وأنعم عليـه ما لم ينعم على غيره، ولكنّه سلب عنه موهبـة القراءة والكتابـة، وما ذلك إلاّ لهدف سـامٍ وهو نفي ريـب المبطلين وشك المشككين، إذ لو كـان الرسول في بـرهة من عمـره تاليـاً للكتب وممارسـاً لها لصار للبسطاء من أُمّتـه والمعاندين أن يرتابـوا في رسالته وقرآنه، ويتوهموا انّ مـا جاء به من السور والآيات فـإنّما تلقاها من الصحف الدينية وصاغهـا وسبكها في قوالب فصيحة تهتز منها النفوس وترتاح إليها القلوب.

فلإزاحة هذه التهمة وسدّ باب هذا الوهم سلب عنه سبحانه هذه الموهبة، ولذلك كان النبي ﷺ يحتج على أنّ كتابـه، رسالة سماوية وليس مـن صنيع نفسه وفكره بما أمره الله إليه أن يقول:

﴿قُلْ لَوْ شـاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْراكُـمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُـمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾[١] .

كما أنّه سبحانه يذكر ما ذكـرناه من حكمة السلب بقوله : **﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلاٰ تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إِذاً لارتابَ المُبْطِلُون﴾**[٢].

ومـن المعلوم انّ النكـرة في سياق النفـي تفيد العمـوم، حيث يقـول: **﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ﴾** .

---

١. يونس: ١٦. ٢. العنكبوت: ٤٨.

و مع أنّ النبي ﷺ لم يقرأ و لم يكتب قبل بعثته ولو مرّة واحدة، ومع ذلك كان المعاندون يتهمونه بوضع الكتاب ونسبته إلى الله، كما يحكيه سبحانه عنهم: **﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيهِ قَوْمٌ آخَرونَ فَقَدْ جاءوا ظُلْماً وَزُوراً* وَقالُوا أَساطِيرُ الأوّلينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصيلاً﴾**[١].

فهو على رغم انّه لم يقرأ ولم يكتب، اتّهموه ـ ظلماً ـ بوضع الكتاب ودسّه ونسبته إلى الله، فكيف إذا كان ممارساً للقراءة والكتابة أمام الناس منذ طفولته إلى شبابه ثمّ كهولته؟!

إنّ سلب نعمة الكتابة والقراءة عن النبي ﷺ كسلب نضد الشعر عنه، يقول سبحانه: **﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعرَ وَما يَنْبَغي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ وَقُرآنٌ مُبِين﴾**[٢].

وينبغي الإشارة إلى أنّ سلب القراءة والكتابة لا يعني عدم علمه بإسرار الكون و رموزه وما يسود عليه من نظام و قوانين، بل انّ الله سبحانه قد أوقفه على حقائق الموجودات من طريق آخر غير الكتابة والقراءة، وبذلك انتفت الحاجة إليهما، و قد عرفت ما في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في حقّه ﷺ لما قال: «ولقد قرن الله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله و نهاره».[٣]

وكفى في علم النبي ﷺ انّه سبحانه وصف علمه بالعظمة، وقال:

﴿وَأَنْزَل اللّهُ عَلَيْكَ الكِتاب وَالحِكْمَة وَعلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَم فَكانَ فَضْل الله عَليك عَظيماً﴾[١].

---

١. الفرقان: ٤ ـ ٥.
٢. يس: ٦٩.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.
٤. النساء: ١١٣.

فالمراد من الفضل في الآية هو علمه، وكفى في عظمة علمه انّه عاين آيات الله بأُمّ عينيه حينما عرج إلى السماء، وقال سبحانه: ﴿**سُبْحانَ الّذي أَسرىٰ بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرام إِلى المَسْجِد الأقصا الذي بارَكْنا حَولَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنّهُ هُوَ السَّميعُ البَصير**﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿**عَلَّمَهُ شَديدُ القُوىٰ* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ** ـ إلى أن قال ـ **لَقَدْ رأى مِنْ آيات رَبِّهِ الكُبرىٰ**﴾[٢].

إنّ القراءة والكتابة أداة من ليس له سبيل إلى معرفة ما في الكون من الأسرار إلاّ التعلّم والإمساك بالقلم والدواة للكتابة، أمّا من كان له سبيل إلى معرفة حقائق الكون أوسع من ذلك فلا يضره عدم التمكن من القراءة والكتابة.

كلّ ما ذكرنا من حديث الأُمّية، ليرجع إلى قبل البعثة، وأمّا بعدها فهو خارج عن موضوع بحثنا فلنطو الكلام عنه.

وفي الختام نأتي بكلمة قصيرة وهي انّ سورة «الضحى» كانت هي المصدر الوحيد للتعرف على أوصاف النبي ﷺ قبل البعثة، ولأجل ذلك نشير إلى ما في تلك السورة من النكتة، وهي انّه سبحانه حلف بالضحى والليل، وذلك لغاية ما جاء في جواب القسم، أعني: قوله: ﴿**ما وَدَّعَكَ رَبّكَ وَما قَلىٰ* و لَلآخِرَةُ خَيرٌ لَكَ مِنَ الأُولى *وَلَسوفَ يُعْطيكَ رَبّكَ فَتَرضىٰ**﴾ فيقع السؤال ما هي الصلة بين المقسم به أعني الضحىٰ والليل إذا انتشر وبين الجواب، فانّ من الأُمور الدقيقة في أقسام القرآن، هو كشف الصلة بين المقسم به والمقسم عليه وقد ترك أكثر المفسرين بيان النكتة من أقسام القرآن.

---

١. الإسراء: ١.

٢. النجم: ٥ ـ ١٨.

ويمكن أن يقال انّ الوجه هو:

١ . انّ نزول الوحي يناسب الضحىٰ كما أنّ انقطاعه يناسب الليل.

٢ . انّ عماد الحياة هو مجيء الليل عقب النهار، لا استدامة النهار ولا استدامة الليل، فهكذا الحال في عماد الحياة النبوية الذي هو نزول الوحي نجوماً تثبيتاً لقلب النبي ﷺ.

٣. انّ الضحى والليل نعمة من نعم الله سبحانه منّ بها على عباده لما لهما من تأثير مباشر في استقرار الحياة، وهكذا الحال في نزول الوحي نجوماً.

جعفر السبحاني

٦

عليٌّ عليه السلام

في الكتاب والسنّة[١]

اللّهمّ لـك الحمد والثناء، ولك المجـد والبهاء، والصلاة على سيّـد رسلك، وعلى الأصفياء من عترة نبيك، محمّد وآله الطاهرين: الذين أذهبت عنهم الرجس وطهّرتهم تطهيراً.

أمّا بعـد، لقد كانـت دعوة الرسـول الأعظم، دعوة عـالميّة، ورسالتـه خاتمة الرسالات التي اختصه بها من بين سائر الرسل، فهو خاتم الأنبياء، وكتابه خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع.

كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بدء البعثة، خـاصة بأهله وعشيرته غـالباً ممتثلاً لأمره سبحانه: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشيرتكَ الأَقْرَبين**﴾ .[٢]

ولمّا نـزل قولـه : ﴿**فَاْصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكين**﴾ [٣] جهر بدعوته بين الناس وناداهم باتّباع شريعته ، وبدأت الدعوة تخطو خطوات حثيثة، تجذب قلوب الشبّـان و تستهوي أفئـدتهم، غير أنّ المناوئين لـرسالات الله عـامّة، ورسالـة الرسـول الأعظم خاصّـة، عقدوا العـزم على الإطاحة بـدعوتـه بمختلف

---

١. طبع هذا المقال كمقدمة لكتاب المناقب للخوارزمي.

٢. الشعراء: ٢١٤.　　٣. الحجر: ٩٤.

الأساليب و السبل، من اتهام صاحب الرسالة بالسحر والجنون، إلى تعذيب المعتنقين والمؤمنين بها، إلى ضرب الحصار الاقتصادي عليهم، للحيلولة دون وصول الوافدين إلى مكّة لسماع دعوته، إلى أن أجمعوا أمرهم على إنهاء حياته وإطفاء نوره بقتله في داره غيلة، لكنّ الله سبحانه حال بينهم وبين أُمنيّتهم الخبيثة، وردّ كيدهم إلى نحورهم، فخيّب رجاءهم بإخبار الرسول بالمؤامرة والمكيدة، فلم ير النبي الأعظم بدّاً من مغادرة مكّة متوجّهاً إلى يثرب، ولمّا نزل دار مهجره، اجتمع حوله رجال من الأوس والخزرج فبايعوه ووعدوه بالنصر والمؤازرة، تأكيداً للبيعة التي أجراها نقباؤهم مع النبي ﷺ في «منى» أيّام إقامته في مكّة فصار النصر حليفه، والتقدم في مسير الدعوة أليفه.

ولكنّ خصماءه الألدّاء ما تركوه حتى بعد مغادرة موطنه، فأخذوا يشنّون عليه الغارة المرة بعد الأُخرى، ويحزبون الأحزاب عليه، ويستعينون باليهود وبمشركي الجزيرة عامّة ليطفئوا نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون، فهم أرادوا شيئاً، والله سبحانه أراد شيئاً آخر، فإذا قضى أمراً إنّما يقول له كن فيكون.

وعندئذٍ أخذت الدعوة الإلهية بالتقدم و الانتشار في أكثر الأصقاع والربوع من الجزيرة العربية، بعونه و مشيئته سبحانه، وبهمّة أصحابه وأتباعه وتضحياتهم فبدت بوادر اليأس على الأعداء وأذعنوا إلى حدّ ما بأنّهم ليسوا قادرين علىٰ إيقاف ركب الدعوة وعرقلة مسيرها إلاّ أنّه بقيت لهم نافذة رجاء هي أنّ صاحب الدعوة ـ على حدّ زعمهم ـ ليس له عقب يخلفه، فهو يموت وتموت معه دعوته، ويعود الأمر على ما كان عليه، وتصبح الأرض خالصةً للوثن والوثنيين فكانوا ينتظرون ذلك اليوم، وإليه يشير سبحانه: **﴿أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ به رَيْبَ الْمَنُونِ* قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبّصِين* أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحلامُهُم بِهذا أَمْ هُمْ قَومٌ**

طاغُون﴾.[١]

كان المشركون يحلمون بتحقق هذه الأُمنية الشيطانية، ويتربّصون به ريب المنون لايشكّون في أنّ دعوته ستموت بموته، لأنّه في نظرهم ملك في صورة نبي، وسلطته سلطة في صورة دعوة إلهية، فلئن مات أو قتل انقطع أثره وخمد ذكره، كما هو المشهود من حال الملوك والجبابرة مهما تعالى أمرهم، وبلغوا في التكبّر والتجبّر وركوب رقاب الناس، مبلغاً عظيماً وكانوا علىٰ هذه الحالة حتى جاء أمين الوحي فأدهشهم وطارت عقولهم، إذ أمر النبي بتنصيب علي عليه السلام لمقام الولاية الإلهية، واستخلافه في أمر المسلمين بعده، مخاطباً إياه بقوله: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاس﴾.[٢]

فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في محتشد عظيم من الناس التفّ حوله وجوه المهاجرين والأنصار وأخذ بيد عليّ عليه السلام ورفعها، وقال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: اللهم بلى. فقال: من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه. اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.[٣]

فصار عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيامه بواجبه في تنصيب عليّ عليه السلام مقام القيادة بعد وفاته، سبباً ليأس المشركين قاطبة فأذعنوا أنّ النبيّ نور لا يُطفأ، وسراج لا يخبو، وأنّ كتابه فرقان لا يخمد برهانه، وتبيان لا تهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أنصاره، وحقّ لا تخذل أعوانه. و قد نزل أمين الوحي يبشّر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن قنوط المشركين

---

١. الطور: ٣٠ـ٣٢.

٢. المائدة:٦٧ .وتسمّى الآية آية البلاغ لاشتمالها على لفظة بلّغ. راجع للوقوف على مصادر نزولها في حقّ الإمام عليّ عليه السلام كتب الحديث والتفسير، وكفانا في ذلك ما حقّقه الشيخ الأكبر الأميني في كتابه «الغدير»ج١، ص ٢١٤ـ ٢٢٩.

٣. لاحظ مصادر حديث الغدير في موسوعة «الغدير» ج١، ص ١٤ـ ١٥١.

ويأسهم. إذ قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ دِينكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ ديناً﴾.[١]

وحيث إنّ هذه الواقعة التاريخية الكبرى وقعت ـ عند منصرف النبي من حجّة الوداع ـ في مكان يسمّى بغدير خمّ، سمّيت بواقعة الغدير واشتهرت بين الأجيال بهذا الاسم، وجاء ذكرها في أغلب القصائد والأشعار .

لم يكن يوم الغدير أوّل يوم نوّه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمقام عليّ عليه السلام وفضله ومنقبته، ولا آخره، بل كانت النبوّة والإمامة منذ فجر الدعوة الإلهية صنوين. فقد أصحر النبي بإمامة وصيه ووزارة وزيره يوم جهر بدعوته بين قومه وأُسرته في السنة الثالثة من بعثته، يوم أمره سبحانه بإنذار الأقربين من عشيرته. فدعا الأقربين إلى داره فخاطبهم بقوله: «والله الذي لا إله إلاّ هو إنّي رسول الله إليكم خاصّة و إلى الناس عامّة... فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت و إنّي لأحدثهم سنّاً، و أرمصهم عيناً...أنا يا نبي الله... فأخذ برقبتي، ثمّ قال: إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم».[٢]

كان النبي الأعظم واقفاً على خطورة الموقف وعظم مقام القيادة فكان يهيّئ زعيم الأُمّة والقائم بعده بأعباء الخلافة حيناً بعد حين، بأساليب مختلفة، فتارة يشبّهه بهارون[٣]، و أُخرى بأنّه وأولاده أحد الثقلين[٤]، و ثالثة بأنّهم كسفينة نوح[٥]

١. المائدة:٣.

٢. تاريخ الطبري:٢/ ٦٣، مسند الإمام أحمد:١/ ١٥٩.

٣. مستدرك الحاكم:٣/ ١٠٩، و صحّحه الذهبي في تلخيصه على شرط مسلم.

٤. مسند الإمام أحمد: ٥/ ١٨٢و ١٨٩. من حديث زيد بن ثابت بطريقين صحيحين.

٥. مستدرك الحاكم: ٣/ ١٥١، من حديث أبي ذر.

إلى غير ذلك من نصوصه المباركة حول إمام المتقين وأولاده المعصومين.

كلّ ذلك يعرب عن أنّ النبي لم يترك مسألة الوصاية سدىٰ، ولم يفوضها إلى شورىٰ الأمّة ومفاوضاتها أو منافساتها، أو إلى بيعة رجل أو رجلين أو بيعة عدّة من المهاجرين والأنصار، بل عالج مسألة الخلافة في حياته بأحسن الوجوه والأساليب وعرّف الأُمّة زعيمها وقائدها من بعده في أُخريات أيّامه الشريفة في محتشد عظيم لم يكن له نظير في تاريخ الرسالة حتى ينقله الحاضرون ـ عند وصولهم إلى أوطانهم ـ إلى الغائبين وينتشر خبر الولاية بين الأُمّة جمعاء حتى لا يبقى لمريب ريب.

الأُمّة الإسلامية والخطر الثلاثي

هذا ما قادتنا إليه دراسة النصوص النبوية التي رواها الحفّاظ من الأُمّة، ولك أن تستشف الحقيقة من طريق آخر، وهو تحليل الأوضاع السائدة على الأُمّة قُبيل وفاة النبي ﷺ فانّها تقضي بأنّ المصلحة العامّة كانت في تنصيب القائد لا في تفويض أمر الزعامة إلى الأُمّة أو تركه سدى وعدم النبس فيه بكلمة.

إنّ الدولة الإسلامية الفتيّة يوم ذاك كانت محاصرة من جهتي الشمال والغرب بأكبر امبراطوريتين عرفهما التاريخ ـ آنذاك ـ و كانتا على جانب كبير من القوّة و العدة وهما الامبراطوريتان الرومية والساسانية.

هذا من الخارج، و أمّا من الداخل فكان الإسلام والمسلمون مهدّدين من جانب المنافقين الذين يشكّلون العدوّ الداخلي المبطن، بنحو ما يسمّى الآن بالطابور الخامس، وخطر العدوّ الداخلي لم يكن بأقلّ من خطر العدوّ الخارجي من الروم والفرس، وهذا الخطر الثلاثي الرهيب، كان يفرض على النبي ﷺ أن

يقف موقـف قائد يحبط بتدبيره الـرصين، كلّ مؤامرة محتملـة ضد الدعوة النـاشئة وأُمّته الفتيّـة، إذ كان مـن المحتمل جـدّاً أن يتّفـق العدوّ الخارجـي مع الـداخلي ويتحد هذا الثلاثـي الناقم على الإسلام على محو الدين وهدم كلّ مـا بناه الرسول الأكرم طيلـة ثلاثة وعشرين عـاماً ويُضيع كلّ مـا قدمه المسلمون مـن تضحيات غالية في سبيل إقامة صرح الدين.

أفيصحّ عند ذاك ترك أمـر الزعامة إلى الأُمّة الفتية التـي لم تمرّ عليها إلاّ عدّة أعوام قليلة ولم تكتسب فيهـا تجارب كافية ولم تتدرع أمام الأخطار المحـدقة؟ وهو يعلـم أنّه لـو توفّر للأُمّة قائد محنّـك متفق عليه لقامت في وجه الأعـداء قيام رجل واحد، وصدّت جميع محاولاتهم العدوانية بنجاح، وبالتالي ستنجو الأُمّة من التفرّق والتشرذم والسقوط والفشل بعد غياب رسول الله.

النزعة القبلية ومشكلة القيادة

لقد برزت في حياة المسلمين مشكلة أُخرى كانت تصدّ النبي عن تفويض القيادة إلى رأي الأُمّة، وهي مشكلة النزعة القبليـة التي كانت سائدة على المجتمع الإسلامـي يومـذاك والتي تتميز بـالخضوع المطلق لسيـد القبيلة وزعيمهـا ورفض سلطة الآخرين.

فهل يسوغ للنبي ﷺ أن يترك مصير الخلافة لأُمّة هذه حـالها، خصوصاً بعد مـا كان النبـي واقفـاً على ما بين الأوس والخزرج مـن نزاع و مـا بين المهـاجريـن والأنصار من خلاف، وقـد شهد خلافهم بأُمّ عينيه في غـزوة بني المصطلق[1]، كما شاهد نزاع الحيّين(الأوس والخزرج) في قصة الإفك[2] إلى غير ذلك من المشاجرات

١. السيرة النبوية: ٢/ ٩١.

٢. صحيح البخاري: ٥/ ١٠١.

المعاصرة لحياة النبي وبعده ممّا سجلها التاريخ.

ولا أظن أنّ قائداً يقيم لدعوته وزنـاً، ويضحّي في سبيلها بالنفس والنفيس يقف على تلك المشاكل ويرحل إلى ربّه من دون أن يفكّر في قيادة أُمّته بعد رحيله.

فضائل الإمام ومناقبه في كتب الحديث

هذا ممّا دعا النبي الأكرم ﷺ إلى تنصيب القائد المحنّك لمسند الخلافة، كما دفعه إلى التعريف بفضـائله ومناقبه في مواطن شتّى ليقطـع بذلك عذر المتعلّلين ويتم الحجّة على الجميع ولله الحجّة البالغة.

ومع هـذه الجهود الجبّارة التي بـذلها النبي ﷺ في سبيل التعريـف بخليفته والإشادة بفضائله، عمدت السلطات الجائرة من أُمويّة وعباسيّة في مختلف القرون إلى إخفاء فضائله ومناقبه، ولم يكتفوا بـذلك بل عمدوا إلى جعل الحديث، ونسبة تلك الفضائل والمناقب إلى الآخرين، كلّ ذلك بالترغيب والترهيب وبذل الأموال الطائلة للمرتزقة من وعّاظ السلاطين و تجّار الحديث.

ومن قـرأ تاريخ الـدولتين وما بـذل أصحاب السلطة فيهما مـن الأموال في تشويه سمعة أمير المؤمنين علي عليه السلام والحطّ من مكانته وتبجيل خصومه عرف أنّ ما ذكرناه بعـض الحقيقة لا كلّها، وأذعن أنّ انتشار فضائلـه ومناقبه بهذا الحجم، معجـزة من معـاجز الله، حيـث أراد أن يبطل كيـد الأعداء ويخيّـب آمالهم حتـى انتشرت فضائله في عاصمة الأُمويّين وبين أعدائه الغاشمين والله غالب على أمره.

قيّض سبحـانه ثلّـة من المحـدّثين الحفّاظ في كـلّ عصر ممّن يطلبـون الحقّ والحقيقة ولا يعتنون برضا الناس و سخطهم، فألّفوا كتباً ورسائل في مناقب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام و فضائله حتـى زخرت المكتبة العربيـة بهذه الكتب، بل

المكتبة الإسلامية عامّة على اختلاف لغاتها وألسنتها، فانتشرت مناقبه بطرق صحيحة لم يكن خصومه يحلمون بها، حتّى قال الإمام الحافظ أحمد بن حنبل والشيخ النسائي وأضرابهما بأنّه ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل بطرق صحيحة ما جاء لعلي بن أبي طالب.[1]

وقد أحس بعض المحدّثين بمسؤوليته الدينية أمام الله سبحانه و أمام أُمّته، فقام بنشر فضائله وإن بلغ الأمر ما بلغ وإن انجرّ إلى استشهاده وقتله في سبيل نشر فضائل المرتضى.

هذا والتاريخ يوقفنا على لفيف من المحدثين الذين استشهدوا في هذا السبيل نذكر ما يلي:

١. أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب المعروف بالحافظ النسائي (المتوفّى عام ٣٠٣هـ) أحد أصحاب الصحاح والسنن غادر مصر في أُخريات عمره نازلاً مدينة دمشق، فوجد الكثير من أهلها منحرفين عن الإمام فأخذ ينشر مناقبه وفضائله، فألقى محاضرات متواصلة في فضائل الوصي، وبعد أن فرغ من تأليف كتابه ونشره، سئل عن معاوية وما روي من فضائله فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل؟!

وفي رواية أُخرى: لا أعرف له فضيلة إلاّ، لا أشبع الله بطنه. فهجموا عليه. يضربونه بأرجلهم في خصييه حتى أخرجوه من المسجد فقال: احملوني إلى مكّة، فحمل إليها وتوفّي بها.[2]

٢. الحافظ فخر الدين أبو عبد الله محمّد بن يوسف بن محمّد الكنجي

١. الاستيعاب:٢/ ٤٦٦، الصواعق المحرقة: ١١٨ و غيرهما من المصادر.

٢. خصائص النسائي: ص ٢٤ـ ٢٥ طبع النجف، وقد طبع أيضاً بمصر عام ١٣٤٨هـ. ق بمطبعة التقدم؛ صحيح النسائي، المقدمة، صفحة هـ بشرح جلال الدين السيوطي.

الشافعي. فقد قتل عام ٦٥٨هـ في سبيل نشر فضائل أمير المؤمنين. فألّف كتاباً باسم «كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب»، و كتاباً آخر باسم «البيان في أخبار صاحب الزمان» فنشرهما في دمشق الشام، فقتل في جامعه بلا مبرّر ولا مسوّغ، سوى أنّه قام بواجبه في نشر فضائل علي عليه السلام.

قال في أوّل كتابه: «لمّا جلست يوم الخميس لستّ بقين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧هـ بالمشهد الشريف بالحصباء من مدينة الموصل ودار الحديث المهاجرية، حضر المجلس صدور البلد من النقباء والمدرسين والفقهاء وأرباب الحديث، فذكرت بعد الدرس أحاديث وختمت المجلس بفصل في مناقب أهل البيت، فطعن بعض الحاضرين لعدم معرفته بعلم النقل في حديث زيد بن أرقم في غدير خمّ و في حديث عمّار في قوله صلى الله عليه وآله: «**طوبى لمن أحبّك وصدق فيك**»، فدعتني الحميّة لمحبتهم على إملاء كتاب يشتمل على بعض ما رويناه من مشايخنا في البلدان من أحاديث صحيحة من كتب الأئمّة والحفّاظ في مناقب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه.[1]

***

سيرة مؤلّف الكتاب

وممّن قام بالتأليف في هذا المجال الحافظ الموفّق بن أحمد بن أبي سعيد إسحاق بن المؤيد المكّي الحنفي المعروف بأخطب خوارزم، فقد سجل له كتابه هذا ذكراً خالداً فترجمه أصحاب المعاجم، و إن لم يستوفوا حقّه، ولكن فيما نذكره من أقوالهم في حقّ الرجل تسليط لبعض الضوء على شخصيته العلمية والأدبية

١. كفاية الطالب:١٢، طبع النجف، تحقيق محمّد هادي الأميني.

والحديثية ومشايخه وتلامذته، ونذكر نصوصهم حسب الترتيب التاريخي:

١ . قال ابن عساكر(المتوفّى ٥٧١هـ) في ترجمة الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار أبي علي الديار بكري:

فمما أنشدني لنفسه ممّا كتب به إلى خطيب خوارزم أحمد بن مكي وكان مشهوراً بالفضل، جواباً له عن أبيات كتبها إليه ثمّ ذكر جواب الحسن أوّلاً وأبيات الخطيب ثانياً، و إليك أبيات الخطيب:

هدى علم الدين المفخّم شأنه ... له في عظامي والعروق دبيب
تشوّقني الذكرى إليه فأنثني ... وأيسر ما بين الضلوع لهيب
أحنّ إليه حِنّة كلّما دعت ... شئابيب دمع العين فهي تجيب
بعيد إذا قلبت طرفي نازح ... و إن لحظته فكرتي فقريب
يشيم لكشف الغامضات مهنداً ... يطبّق في أوصالها ويطيب

ويظهر ممّا أجاب به الحسن بن سعيد[1]، كون المجيب مقراً لفضله ومقامه، فقد عرّفه بقوله:

إمام له في الفضل أشرف رتبة ... إذا رامها خلق سواه يخيب
إذا ما على صدر الأئمّة منبرا ... فقسّ عليه بالبيان خطيب[2]

٢ . قال جمال الدين القفطي (المتوفّى ٦٤٦هـ):

«الموفّق بن أحمد بن محمّد المكّي الأصل، أبو المؤيّد خطيب خوارزم، أديب

١ . وللشاعر (الحسن بن سعيد) ترجمة في «مجمع الآداب في معجم الألقاب» الجزء الرابع، القسم الأوّل لابن الفوطي، ص ٥٧٥.
٢ . التاريخ الكبير: ٤/ ١٧٧ـ ١٧٨، طبع الشام، عام ١٣٣٢ .

فاضل، له معرفة تامّة بالأدب والفقه، يخطب بجامع خوارزم سنين كثيرة وينشئ الخطب به. أقرأ الناس علم العربية وغيره، وتخرج به عالم في الآداب. منهم أبو الفتح ناصر بن أبي المكارم المطرّزي الخوارزمي، و توفيّ الموفق بخوارزم في حادي عشر صفر سنة ثمان وستين وخمسمائة».[١]

٣. و نقل «ابن الفوطي كمال الدين أبوالفضل عبدالرّزّاق الشيباني الحنبلي (٦٤٢ ـ ٧٢٣هـ)» نثراً للمؤلّف في وصف أُستاذه الزمخشري:

«قال صدر الأئمّة الموفق بن أحمد المكّي في وصفه: خوارزم كانت قبل فخرها بأبي بكرها، صادقة في زهوها به سنّ بكرها، تعدّه لغرائبه من رغائبها وتعدّه لرغائبه عن غرائبها».[٢]

٤. وقال عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي (٦٩٦ ـ ٧٧٥هـ):

«الموفّق بن أحمد بن محمّد المكّي خطيب خوارزم أُستاذ ناصر بن عبد السيّد صاحب المغرب أو المؤيّد المطرّزي مولده في حدود سنة أربع وثمانين وأربعمائة ذكره القفطي في «أخبار النحاة». ثمّ ذكر عبارة القفطي التي نقلناها آنفاً.[٣]

٥. روى الذهبي عن هذا الكتاب في «ميزان الاعتدال» في ترجمة «الحسن بن غفير المصري العطّار» كما روى عنه في لسان الميزان في ترجمة الحسن أيضاً.[٤]

٦. «و قال تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي الموفق بن أحمد

---

١. إنباه الرواة على أنباه النحاة:٣/ ٢٣٢، رقم الترجمة ٧٧٩، طبع القاهرة عام ١٣٧٧هـ.

٢. تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: تحقيق الدكتور مصطفى جواد، و في التعليقة ترجمة للخطيب على نحو الإجمال.

٣. الجواهر المضية في طبقات الحنفيّة: ٢/ ١٨٨، طبع الهند، عام ١٣٣٥هـ.

٤. ميزان الاعتدال:١/ ٥١٧، طبع الحلبي، مصر؛ لسان الميزان:٢/ ٢٤٣، طبع الهند.

ابن محمّد المكّي أبو المؤيّد العلّامة خطيب خوارزم كان أديباً فصيحاً مفوّهاً، خطب بخوارزم دهراً وأنشأ الخطب وأقرأ الناس، وتوفّي بخوارزم في صفر سنة ثمان وستين وخمسمائة، وذكره هكذا الذهبي في تاريخ الإسلام[1] و ذكره الشيخ محيي الدين عبد القادر الحنفي في «طبقات الحنفية»، ثمّ نقل، ما ذكره القفطي في «أخبار النحاة» و أضاف في آخره: من مؤلفاته «مناقب الإمام أبي حنيفة».[2]

٧. وقال الحافظ جلال الدين السيوطي (المتوفّى ٩١١هـ) في بغية الوُعاة:

«الموفق بن أحمد بن أبي سعيد إسحاق أبو المؤيّد المعروف بأخطب خوارزم. قال الصفدي: كان متمكناً في العربية، غزير العلم، فقيهاً، فاضلاً، أديباً، شاعراً، قرأ على الزمخشري وله خطب وشعر.

قال القفطي: وقرأ عليه ناصر المطرّزي. ولد في حدود سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ومات سنة ثمان وستين وخمسمائة».[3]

٨. وقال محمّد بن عبد الحي اللكنوي الهندي في فوائده البهيّة:

«أحمد بن محمّد موفّق الدين خطيب خوارزم مولده في حدود سنة أربع وثمانين و أربعمائة، وكان أديباً فاضلاً، له معرفة تامّة بالفقه، أخذ عن نجم الدين عمر النسفي، وأخذ علم العربية عن جار الله محمود الزمخشري، وأخذ عنه ناصر الدين صاحب المغرب. مات سنة ثمان و تسعين و خمسمائة، (قال الجامع) ذكره السيوطي في «بغية الوعاة» في طبقات النُّحاة في من اسمه الموفّق وقال: «ثمّ ذكر

---

١. قال محقّق الكتاب: هذه السنة من السنوات الساقطة من نسخة تاريخ الإسلام للذهبي المخطوطة بدار الكتب المصريّة.

٢. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين:٧/ ٣١٠ تحقيق فؤاد سيد ـ القاهرة ـ طبع ١٣٨٧.

٣. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة:٢/ ٣٠٨، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، طبع مصر.

نص السيوطي الذي عرفت.[١]

٩. وقال«الخوانساري» في روضات الجنّات:

وأمّا الأخطب فهو لقب الشيخ المحدّث المتقن المتبحّر صدر الأئمّة عند العامة أخطب خوارزم، والخوارزمي أو ابن خوارزم موفّق بن أحمد المكّي وغيره.[٢]

١٠. وقال العلاّمة «الأميني»:

«الحافظ أبو المؤيد وأبو محمّد موفّق بن أحمد بن أبي سعيد إسحاق بن المؤيد المكّي الحنفي المعروف بأخطب خوارزم، كان فقيهاً غزير العلم، حافظاً طائل الشهرة محدّثاً كثير الطرق، خطيباً طائر الصيت متمكّناً في العربية خبيراً على السيرة والتاريخ، أديباً شاعراً له خطب وشعر مدوّن.[٣]

١١. وقال السيد محمّد رضا الموسوي الخرسان في مقدمته على المناقب للخوارزمي:

«الإمام الأجل الصدر ضياء الدين شمس الإسلام، ناصح الخلفاء مفتي الأُمّة مقتدى الفريقين، صدر الأئمّة، وفّاء بالوعد، أخطب الخطباء الحافظ الموفق ابن أحمد بن محمّد البكري المكي الحنفي فروعاً والأشعري أُصولاً المعروف بأخطب، إلى أن قال: تخرّج به عالم في الآداب من الأفاضل الأكابر فقهاً وأدباً والأماثل الأكارم حسباًونسباً».[٤]

---

١. «الفوائد البهية في تراجم الحنفية: ٤١، ألّفه عام ١٢١٩هـ.

٢. روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: ١/ ٦٤، في التعليقة و٢٨٩ـ ٢٩٠ في المتن، نشر مكتبة إسماعيليان، قم ـ إيران.

٣. الغدير: ١/ ٣٩٨، الطبعة الثالثة ـ بيروت.

٤. المناقب للخوارزمي: ١٦، المقدمة ، طبع النجف.

هذا بعض ما وقفت عليه من النصوص حول المترجم له، وقد خصّه غير هؤلاء من أصحاب المعاجم بالثناء والإطراء، ولا أرى حاجة لنقل كلماتهم و من أراد التوسع فليرجع إلى المصادرالمذكورة في الهامش.[1]

تسليط الأضواء على جوانب من حياة المؤلّف

ولأجل تسليط الضوء على بعض خصوصيات المؤلّف ومشايخه في الرواية والرواة عنه، نأتي بما يلي:

أ: الاختلاف في اسمه

يلاحظ الاختلاف في اسمه بين أصحاب المعاجم، فعرّفه «ابن عساكر» ومحمّد بن عبدالحي اللكنوي الهندي ـ كما عرفت ـ بـ«أحمد بن مكي»، لكن غيرهم عرّفوه بـ«موفق بن أحمد»، والظاهر المتضافر هو الثاني وأكثر المعاجم عليه، وذكر العلاّمة الأميني في تعليقته أنّ الشاعر اسمه في شعره موفّقاً، ولكن لم يذكر شعره الذي جاء فيه اسمه.[2]

ب: الاختلاف في اسم جدّه

ويلاحظ الاختلاف أيضاً في اسم جدّه، فهل هو «محمّد» كما عليه القفطي،

---

١. هدية العارفين: ٢/ ٤٨٢؛ ريحانة الأدب: ١/ ٤٧؛ دائرة المعارف للأعلمي:٣/ ٣١١، معجم المطبوعات: ٢/ ١٨١٧؛ العبقات:٦/ ٥٧٨ .نقلاً عن العماد الاصفهاني والمجلّد الثاني من مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط ففيها قصيدتان في مدح المؤلف كل ذلك يعرب عن مكانة المؤلّف العلمية وسمو مقامه وشهرته الطائلة التي دفع أصحاب المعاجم إلى التنويه باسمه وكتبه ومشايخه وتلامذته وإن لم يستوفوا حقّه، وسيوافيك أسماء مشايخه والرواة عنه.

٢. الغدير: ٤/ ٣٩٨.

والقرشي والفاسي، أو أنّ اسمه أبو سعيد إسحاق، كما عليه جلال الدين السيوطي، والعلاّمة الأميني؟ والظاهر هو الأوّل.

ج: عام وفاته

تضافرت نصوص أصحاب المعاجم على أنّ وفاته كان عام ٥٦٨، ولكن صاحب «الفوائد البهية» أرّخه بـ «٥٩٨»، والظاهر أنّه تصحيف وقد نقل هو نفسه عن السيوطي عام وفاته كما ذكرناه.

د: ما هو لقبه؟ خطيب خوارزم أو أخطب خوارزم؟

عرفه «القرشي» و «الفاسي» كما عرفت بخطيب خوارزم، والسيوطي بأخطب خوارزم، والمرمى واحد ومن عبّر عنه بصيغة التفضيل يريد تبجيله ويعرب عن تضلّعه في إنشاء الخطب.

هـ: مشايخه في الرواية

قام الشيخ الأميني ــ قدّس الله سرّه ـ باستخراج مشايخه من كتبه فأنهاهم إلى خمسة وثلاثين شيخاً، كما قام بعده السيّد محمّد رضا الخرسان باستدراك ما فات من شيخنا الأميني فأنهاهم إلى خمسة وستين شيخاً، وفيما تحمّلوه من الجهود في استخراج مشايخه كفاية في التعرّف على مكانة المؤلّف وموقفه من الحديث والرواية، وأنّ ما أسبغ عليه من نعوت وألقاب، لم يكن على وجه التبرّع بل كان الرجل حقيقاً بها.

وإليك فهرس مشايخه حسب ما ذكره الباحثان الكبيران واستخرجاه من

خلال السبر في المعاجم، وكتب المؤلف، وغيرهما:

١ .إبراهيم بن علي الرازي نزيل همدان.

٢ . أبو الحسن بن بشران العدل، لقيه ببغداد وأخذ عنه الحديث.

٣. أبو علي الحدّاد.

٤ . أبو الفضل بن عبد الرحمان الحفر بندي إجازة.

٥ . أبو القمر حمزة بن أبي طاهر مكاتبة من همدان.

٦ . أبو المعالي المصري.

٧. أبوه أحمد بن محمّد بن المؤيد المكّي الحنفي.

٨. أحمد بن أبي مسعود محمّد الحافظ الاصفهاني مكاتبة من إصفهان.

٩ . أحمد بن إسماعيل سماعاً منه بجرجان.

١٠ . أحمد بن محمّد بن بندار.[1]

١١ . أحمد بن محمّد بن أحمد القمّي المدني سمع منه في طريق الحجّ.

١٢ . بكر بن محمّد بن علي الزرنجري مكاتبة من بخارى.

١٣ . جار الله محمود بن عمر الزمخشري، سمع منه و قرأ عليه بخوارزم.

١٤ . الحسن بن علي بن الحسن العماري، إجازة.

١٥ . حماد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار الوائلي البخاري، مكاتبة من بخارى.

---

١ . هكذا ذكره السيد الخرسان في قائمة مشايخه، ولكن المؤلّف نفسه عبّر عنه في الفصل التاسع عشر بـ «كمال الدين أبو ذر أحمد بن محمد بن أحمد بن علي بن بندار».

١٦. الحسن بن علي بن عبد العزيز المرغيناني، مكاتبة من بخارى.

١٧. الحسن بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن محمّد العطّار الهمداني المقري، إجازة.

١٨. سعيد بن عبد الله بن الحسن المروزي الثقفي الشافعي الهمداني مكاتبة من همدان.

١٩. سعيد بن محمّد بن أبي بكر الفقيمي، إجازة.

٢٠. شهردار بن شيرويه الديلمي، إجازة و مكاتبة من همدان.

٢١. العباس بن محمّد بن أبي منصور الغضاري الطوسي، مكاتبة من نيسابور.

٢٢. عبد الحميد بن ميكائيل بن أحمد البراتقيني، قراءة عليه بخوارزم.

٢٣. عبد الرحمان بن أميرويه الكرماني، قراءة عليه بخوارزم.

٢٤. عبد الرحيم بن محمّد بن أحمد الاصفهاني، مكاتبة من مرو.

٢٥. عبد الكريم بن محمّد السمعاني مكاتبة من مرو.

٢٦. عبد الملك بن أبي القاسم بن أبي سهل الكروخي الهروي، فقد لقيه وسمع منه بداره على شط دجلة ببغداد عند منصرفه من مكّة المكرّمة.

٢٧. عبد الملك بن علي بن محمّد الهمداني نزيل بغداد، إجازة.

٢٨. عبد الواحد بن الحسن الباقرجي.

٢٩. عثمان بن أحمد الاسفرايني، مكاتبة.

٣٠. عثمان بن أحمد الصرام الخوارزمي، سماعاً منه بخوارزم.

٣١. علي بن أحمد بن حمويه الجويني البزدي.

٣٢. علي بن أحمد الكرباسي الخوارزمي، إملاء عليه بخوارزم.

٣٣. علي بن الحسن الغزنوي الملقب بالبرهان، فقد لقيه و سمع منه بداره ببغداد في رباط الميمون بمشرعة باب الأزج سلخ ربيع الأوّل سنة ٥٤٤ هـ راجعاً من الحجّ.

٣٤. علي بن أحمد العاصمي.

٣٥. علي بن عمر بن إبراهيم العلوي الزيدي، فقد لقيه بالكوفة، كان يقرأ عليه وهو يسمع.

٣٦. عمر بن أبي بكر الزرنجري، مكاتبة من بخارى.

٣٧. عمر بن بكر بن علي ابن الفضل الزرنجري، مكاتبة من بخارى.

٣٨. عمر بن محمّد بن أحمد النسفي، مكاتبة من سمرقند.

٣٩. الفضل بن سهل بن بشر الحلبي الاسفرايني، إجازة ببغداد.

٤٠. فضل بن محمّد الاستر آبادي.

٤١. الفضل بن محمّد الزيادي، إجازة.

٤٢. المبارك بن محمّد السقطي، قراءة عليه بدير العاقول.

٤٣. محمّد بن إبراهيم الوبري الخوارزمي.

٤٤. أخوه محمّد بن أحمد الملكي، قراءة عليه و إملاء.

٤٥. محمّد بن إسحاق السراجي الخوارزمي، قراءة عليه بخوارزم.

٤٦. محمّد بن الحسن البخاري، مكاتبة من بخارى.

٤٧. محمّد بن الحافظ أبي مسعود الاصبهاني مكاتبة من اصبهان.

٤٨. محمّد بن الحسن بن أبي جعفر بن أبي سهل الزورقي ـ الزورني خ ل ـ ،

مكاتبة من مرو.

٤٩. محمّد بن أبي الربيع المازني المقري، قرأ عليه بخوارزم كتاب «العالم والمتعلم» لأبي حنيفة.

٥٠. محمّد بن الحسن الختني البخاري، مكاتبة من بخارى.

٥١. محمّد بن الحسين الاستر آبادي، سماعاً منه بمدينة الري.

٥٢. محمّد بن الحسين بن محمّد البغدادي، مكاتبة من همدان.

٥٣. محمّد بن أبي جعفر الطائي مكاتبة من همدان.

٥٤. محمّد بن جامع بن أبي نصر الصيرفي مكاتبة من نيسابور.

٥٥. محمّد بن سمان بن يوسف الهمداني مكاتبة.

٥٦. محمّد بن عبد الملك بن الشعار.

٥٧. محمّد بن عبيد الله بن نصر الزاغوني، لقيه ببغداد وسمع منه عند منصرفه من حجّ بيت الله الحرام.

٥٨. محمّد بن علي بن محمّد بن المطهر بن المرتضى الحسيني مكاتبة من الري.

٥٩. محمّد بن عمر بن أبي علي الجمحي مكاتبة.

٦٠. محمّد بن محمّد الشيخي الخطيب بمرو، مكاتبة من مرو.

٦١. محمّد بن ناصر بن محمّد بن علي السلامي لقيه ببغداد وسمع منه هناك.

٦٢. محمّد بن منصور بن علي المقري المعروف بالديواني لقيه بالري وسمع منه بداره في محلّة نصر آباد.

٦٣. محمود بن سليمان بن محمّد الخيام الهمداني، مكاتبة من همدان.

٦٤. مسعود بن أحمد الدهستاني مكاتبة من دهستان.

٦٥. منصور بن نوح الشهرستاني لقيه بشهرستان وسمع منه منصرفه من الحجّ غرّة جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ.

وهذا العدد الغفير من مشايخ الرواية يعرب عن انكباب الرجل على علم الحديث وصرف شطر كبير من عمره فيه، ولا يقاس بمن سمع حديثاً أو كتاباً أو نقل أحاديث ارتجالاً دون أن يمت إلى علم الحديث بصلة.

و: تلامذته والرواة عنه

أطبقت النصوص الماضية على أنّ «برهان الدين بن أبي المكارم المطرّزي الخوارزمي» صاحب كتاب «المغرّب في ترتيب المعرب» (المتوفّى عام ٦١٠هـ) من تلامذته، ولكنّهم قصّروا القول في المقام، و قد نهض شيخنا العلاّمة الأميني وبعده السيد الخرسان باستخراج أسماء من قرأ عليه أو أخذ عنه من غضون الكتب لا سيما «المناقب» للشيخ «ابن شهر اشوب» و بعض الإجازات، و إليك أسماؤهم:

١. برهان الدين أبو المكارم ناصر بن عبد السيد المطرّزي الخوارزمي ،المولود سنة ٥٣٨ والمتوفّى في ٢١ جمادى الأُولى سنة ٦١٠ أو ٦١١، كما عرفت النص عليه عن غير واحد.

٢. مسلم بن علي بن الأُخت فقد روى عنه كتاب «المناقب» كما في إجازة[1] أحد تلامذة الشيخ «نجيب الدين يحيى بن سعيد الحلي» (المتوفّى سنة ٦٨٩هـ)

---

١. الإجازة للسيد محمّد بن الحسن بن محمّد بن أبي الرضاء العلوي، على ما ذكره العلاّمة المجلسي في كتاب إجازات البحار، ص ٣٠.

للشيخ «شمس الدين محمّد بن جمال الدين أحمد» أُستاذ الشهيد الأوّل.

٣. طاهر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي الخوارزمي، فانّه يروي عنه كتابه «المناقب» كما في إجازة تلميذ الحلّي آنف الذكر.

٤. عبد الله بن جعفر بن محمّد الحسني. فقد روى عنه كتابه «المناقب» كما في الإجازة آنفة الذكر.

٥. محمّد بن علي بن شهر اشوب المازندراني (٤٨٨ـ ٥٨٨هـ) و كانت بينه و بين المؤلف مكاتبات، فقد كاتبه «الموفق» بأربعينه كما في صريح ابن شهر اشوب في مناقبه، ج١، ص ١٢.

٦. جمال الدين بن معين، فإنّه روى عنه مقتله كما في «فرائد السمطين».

٧. ناصر بن أحمد بن بكر النحوي (المتوفّى سنة ٦٠٧هـ) فقد قرأ على المترجم له كما في «بغية الوعاة»، ص ٢ـ٤.

٨. أبو القاسم بن أبي الفضل بن عبد الكريم، فقد روى عنه إجازة، وعن أبي القاسم هذا و عن المطرّزي يروي الجويني بواسطة أو واسطتين أو أزيد وبهذا يكون «الموفّق» من مشايخ الإجازة، ذكر ذلك «البهاري» في مقدّمة الطبعة الأُولى من كتاب المناقب، ص ٣.

٩. ولده أحمد المؤيّد ذكره السماوي في مقدمة مقتل الخوارزمي ص ٢ من الجزء الأوّل.

هذا ما تيسرّ لنا الاطلاع عليه من أسماء تلامذة الموفّق والرواة عنه[١] وسيوافيك أسماء خصوص من رووا عنه كتاب الفضائل.

---

١. لاحظ الغدير: ٤/ ٤٠١، ومقدمة الطبعة الثانية، ص ٢١، ٢٢.

ز: تآليفه

إنّ للموفّق تآليف في الفضائل والتاريخ وردت أسماؤها في المعاجم والكتب، وقد قضى الدهر على أكثرها:

١. مناقب الإمام أبي حنيفة طبع في حيدر آباد سنة ١٣٢١هـ.

٢. ردّ الشمس لأمير المؤمنين : نقل عنه ابن شهر اشوب في المناقب ج١ص ٤٨٤.

٣. الأربعون في مناقب النبي الأمين ووصيّه أمير المؤمنين ﷺ : يروي عنه ابن شهر اشوب وينقل عنه في مقتله.

٤. كتاب قضايا أمير المؤمنين: ينقل عنه ابن شهر اشوب في مناقبه، ج١ـ٢، ص ٤٨٤.

٥. مقتل أمير المؤمنين: ينقل عنه الميرزا عبد الله الأفندي في «رياضه» و «الجواهر» في دائرة المعارف على ما في مقدّمة الطبعة الثانية.

٦. مقتل الإمام السبط الشهيد: المطبوع في النجف الأشرف سنة ١٣٦٧ في جزءين.

٧. المسانيد على البخاري: ذكره السماوي في مقدّمة مقتل الحسين، وتوجد منه نسخة في مكتبة جامعة طهران.

٨. ديوان شعره: ذكره الچلبي في كشف الظنون ج١، ص ٥٢٤. قال: ديوانه جيّد، و كان في الشعر في طبقة معاصريه.

٩. «الكفاية» في علم الإعراب: على نهج «المفصل» للزمخشري في الأسماء والأفعال والحروف، ذكره في «كشف الظنون» ج٢/ ١٤٩٨، منه نسخة في جامعة طهران برقم ٦٩٦٧ يستظهر أنّها من نسخ القرن التاسع والعاشر، ومنها أيضاً

نسخة في مكتبة مدرسة الفيضية بقم.

١٠. فضائل الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام : المعروف بـ«المناقب» طبع مرّة على الحجر في «تبريز» سنة ١٣١٣، و على الحروف في النجف الأشرف مع تقديم «محمد رضا الموسوي الخرسان».

وينبغي إبداء بعض التوضيحات حول هذا الكتاب:

١ .إنّ كتاب «الفضائل» اكتسب شهرة عظيمة بين المحدّثين، فرواه لفيف من الأعلام عن المؤلف بلا واسطة، كما نقله عنه لفيف آخر مع الواسطة.

أمّا الّذين رووه عن المؤلّف بلا واسطة، فمنهم:

١ . الشيخ مسلم بن علي بن الأخت.

٢ .الشيخ أبو الرضا طاهر بن أبي المكارم عبد السيد الخوارزمي.

٣. السيد أبو محمّد عبد الله بن جعفر الحسيني.

٤ . الشيخ نجيب الدين يحيى بن سعيد الحلّي (المتوفّى ٩٨٩هـ). قال: قرأت كتاب «المناقب» للخوارزمي على الشيخ أبي محمّد عبد الله بن جعفر بن محمّد الحسيني في سنة ٥٩٣.[١]

٥. برهان الدين أبو المكارم ناصر بن أبي المكارم المطرّزي.

٦. محمّد بن علي بن شهر اشوب المازندراني (المتوفّى ٥٨٨هـ).

وأمّا الذين نقلوا عن الكتاب أو رووه عن المؤلف مع الواسطة فحدّث عنهم ولا حرج، وقد عرفت نصّ الذهبي في «ميزان الاعتدال» في ما سبق، وذكره «الچلبي»في «كشف الظنون»، وينقل عنه مفتي الحرمين صاحب «كفاية

---

١. الظاهر أنّه تصحيف لأنّ الحلي ولد عام ٦٠٠ أو ٦٠١.

الطالب» في غير واحد من فصول كتابه، كما ينقل عنه رضي الدين ابن طاووس (المتوفّى ٦٦٤هـ) في كتابه «علي أمير المؤمنين» إلى غير ذلك من الشخصيات البارزة في الحديث والتاريخ، و قد ذكر أسماء شطر منهم شيخنا الأميني في غديره، ج٤، ص ٤٠٥.

٢. وربما يحتمل أنّ كتاب الفضائل الذي نحن بصدد نشره هو نفس الكتاب الثالث أي الأربعون في مناقب النبي الأمين ووصيه أمير المؤمنين، والذي نقل عنه كثيراً أبو جعفر ابن شهر اشوب في كتابه «مناقب آل أبي طالب».

غير أنّ العلاّمة الأميني ذهب إلى خلاف ذلك، وقال: نحن راجعنا في الأحاديث المنقولة عنه في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام كتاب مناقبه الدائر السائر فما وجدناها فيها، فاحتمال اتحاد الكتابين في غير محلّه.

أقول: إنّ اتحاد كتاب المناقب مع الأربعين من الوهن بمكان، لأنّ عدد روايات المناقب تزيد على الأربعين، ولكن هناك احتمال آخر وهو أنّ كتاب «المناقب» المطبوع كان أوسع ممّا بأيدينا، وكان الكتاب موسوعة كبيرة تشمل فضائل النبي، و وصيّه وآله، وإنّما بقي في أيدينا هذا المقدار الموجود، ويؤيّد ذلك أمران:

الأوّل: إنّ المؤلّف يقول في الفصل الثاني من كتابه عند سرد نسب علي بن أبي طالب: «وقد ذكرنا نسب عبد المطلب في باب فضائل النبي» مع أنّه لم يذكر قبل هذا الفصل شيئاً من نسب عبد المطلب كما لم يذكر فيه فضائل النبي فكيف يحيل إليه؟

الثاني: إنّ النسخة المخطوطة في مكتبة وزيري في مدينة يزد، تشتمل على قسم من فضائل النبي.

وهذان الأمران يعربان عن أنّ الكتاب كان أوسع من الموجود بين أيدينا، وعلىٰ هذا فإماطة اللثام عن وجه الحقيقة بحاجة ماسة إلى التتبع في المكتبات العامّة في العالم وجمع كلّ ما يرجع إلى المؤلّف في باب الفضائل حتى يتبيّن الحقّ، ولعلّ الله يقيض بعض أصحاب الهمم العالية للقيام بهذه المهمّة ويسدي إلى الأُمّة خدمة جليلة في سبيل إشاعة فضائل النبي وآله الطاهرين.

٣. قد طبع الكتاب على الحجر لأوّل مرّة بصورة غير مرغوبة، وكان المترقب من الطبعة الثانية، التي قوبلت مع نسخ صحيحة مخطوطة والتي طبعت على الحروف، أن تكون مصحّحة غير مغلوطة، ولكن يا للأسف لم تكن الطبعة الثانية بأصحّ من الطبعة الأُولى لو لم نقل أنّ الأمر كان على العكس،والمزيّة التي نالتها الطبعة الثانية هي اشتمالها على مقدمة مبسوطة حول كتب المناقب في الإسلام، وترجمة مفصّلة عن المؤلف، وأمّا الاهتمام بالمتن وتطبيق نصوصه على النسخ والمراجعة إلى المصادر الحديثية فلم يظهر لنا منه شيء. ولعلّ الملابسات والظروف الحرجة يوم ذاك في النجف الأشرف لم تسمح للسيد الخرسان بذلك، و لأجل ذلك أصبحت الطبعة الثانية كالطبعة الأُولى مشتملة على سقطات كثيرة.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام

يوم العشرين من صفر المظفر سنة ١٤١٠هـ.ق

٧

نظرة عامة في حديث
لا تجتمع أُمّتي على ضلالة

دليل حجّية الإجماع عند أهل السنّة

استدلّ الأُصوليون من أهل السنّة على حجّية الإجماع بما هو هو، بأُمور نذكر منها أمرين:

الأمر الأوّل: قوله سبحانه: **﴿وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبيلِ الْمُؤْمِنينَ نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّىٰ وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً﴾**[1] حيث إنّ الآية توجب اتباع سبيل المؤمنين، فإذا أجمع المؤمنون على حكم، فهو سبيلهم، فيجب اتّباعه.

يلاحظ عليه بوجهين:

أوّلاً: أنّ الآية بمنطوقها و مفهومها تقسّم الأُمّة إلى قسمين:

أ. من يشاقق الرسول و يخالفه و يعاديه من بعد ما تبيّن له الهدى و ظهر له

---

١. النساء:١١٥.

من تولّى له و اتّكل عليه من الأوثان و الأصنام و يلزمه بدخول جهنم عقوبة له.

ب. من يطيع الرسول ﷺ ولا يعاديه من بعد ما تبيّن له اعلام الحق و يتّبع سبيل المؤمنين في الإيمان بالنبي و مؤازرته في المواقف، فمصيره إلى الجنّة، و أين هذا من حجّية اتّفاق فقهاء الأُمّة على حكم شرعي؟!

والمستدلّ أخذ جزءاً من الآية و هو قوله: ﴿**ويتّبع غير سَبيِلِ المُؤْمِنين**﴾ وقطع النظر عن أنّه عطف على قوله: ﴿**وَمَنْ يُشاقِقِ**﴾ و الآية تندّد بالمعاند و التابع لغير سبيل المؤمنين، و تمدح مقابله وليس المراد من سبيل المؤمنين في هذه الآية شيء سوى الإيمان بالنبي ومناصرته ومؤازرته. وأين هو من حجّية اتفاق العلماء على حكم شرعي لعامة الناس؟!

ثانياً: أنّ الآية لا تشير إلى حجّية إجماع الأُمّة بعد عصر الرسول و إنّما توجب تبعية سبيل المؤمنين في عصره، لأجل انّ سبيلهم في ذلك العصر هو سبيل نفس الرسول، فكان الرسول و المؤمنون في جانب و المنافقون و المشركون في جانب آخر، و من المعلوم انّ تبعية غير ذلك السبيل ضلال و وبال و تبعية مقابله هداية و سعادة، وأين ذلك من كون نفس سبيل المؤمنين مجرّداً عن الرسول حجّة، و الآية ناظرة إلى عصره و هي بحكم القضية الخارجية بقرينة قوله: ﴿**وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُول**﴾ لا الحقيقية.

الأمر الثاني: ما روي عن النبي ﷺ : «انّ أُمّتي لا تجتمع علىٰ ضلالة» رواه أصحاب السنن ولكن في طرق الجميع ضعف صرح به المحقّقون.

قال الشيخ العراقي[1] في تخريج أحاديث البيضاوي: جاء الحديث بطرق في كلها نظر.

---

١. لاحظ تعليقة محقّقي سنن ابن ماجة: ٢/ ١٣٠٣.

و بما انّ الرواية تعد مصدراً في باب الإمامة لخلافة الخلفاء كما عد مصدراً بعد الإجماع من مصادر التشريع، نبحث عنها من كلتا الجهتين سنداً ودلالة و إن طال بنا المقام.

أسانيد الحديث

قد روي هذا الحديث في السنن والمسانيد، وغيرهما من كتب الحديث، والأُصول، والاستدلال فرع ثبوت الحديث سنداً، ودلالة، فلنتطرق إلى الحديث من كلا الجانبين.

١. سنن ابن ماجة

روى الحديث الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(٢٠٧ـ٢٧٥هـ) في «سننه»، قال: حدثنا العباس بن عثمان الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا مُعان بن رفاعة السلامي، حدثني أبو خلف الأعمىٰ، قال: سمعت أنس ابن مالك، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إنّ أُمّتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم».

وينقل محقّق الكتاب عن كتاب «مجمع الزوائد» للهيثمي: في إسناده أبو خلف الأعمىٰ، واسمه حازم بن عطا، وهو ضعيف. وقد جاء الحديث بطرق في كلّها نظر. قاله شيخنا العراقي في تخريج أحاديث البيضاوي.[١]

أقول: أبو خلف الأعمى، قال عنه الذهبي: يروي عن أنس بن مالك، كذّبه يحيى بن معين، وقال أبو حاتم: منكر الحديث.[٢]

---

١. ابن ماجه: السنن: ٢/ ١٣٠٣، الحديث ٣٩٥٠.

٢. ميزان الاعتدال: ٤/ ٥٢١، برقم ١٠١٥٦.

وأمّا السواد الأعظم في متن الرواية هو الجماعة الكثيرة، وإنّما أمر بالتمسّك بهم باعتبار أنّ اتّفاقهم أقرب إلى الإجماع.

قال السيوطي في تفسير السواد الأعظم: أي جماعة الناس ومعظمهم.

وقد استعمل الإمام علي عليه السلام هذا المعنى في بعض خطبه، وقال:

«ألزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة، وإيّاكم والفرقة، فإنّ الشاذ من الناس للشيطان، كما أنّ الشاذ من الغنم للذئب، ألا مَن دعا إلىٰ هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه».[١]

٢. سنن الترمذي

روى الترمذي(٢٠٩ـ٢٩٧هـ) في «سننه»، قال: حدثنا أبو بكر بن نافع البصري، حدثني المعتمر بن سليمان، حدثنا سليمان المدني، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله لا يجمع أُمتي، أو قال: أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله علىٰ ضلالة، ويد الله مع الجماعة، و من شذَّ شذَّ إلى النار».

قال أبو عيسى(الترمذي): هذا حديث غريب من هذا الوجه، وسليمان المدني هو عندي سليمان بن سفيان، وقد روى عنه أبو داود الطيالسي، وأبو عامر العقدي، وغير واحد من أهل العلم.

ثمّ أضاف وقال: وتفسير الجماعة عند أهل العلم، هم أهل الفقه والعلم و الحديث، قال: وسمعت الجارود بن معاذ، يقول: سمعت علي بن الحسن، يقول: سألت عبد الله بن المبارك، مَن الجماعة؟ قال: أبو بكر وعمر، قيل له: قد مات أبو بكر وعمر؟ قال: فلان وفلان، قيل له: قد مات فلان وفلان؟ فقال عبد الله بن

---

١. نهج البلاغة، ط عبدة، الخطبة برقم ١٢٣؛ وفي طبعة صبحي الصالح برقم ١٢٧.

المبارك: أبو حمزة السّكري جماعة.

ثمّ أضاف: أبو حمزة، هو محمّد بن ميمون، وكان شيخاً صالحاً، وإنّما قال هذا في حياته عندنا.[١]

أقول: فيما ذكره تأمل واضح.

أوّلاً: إنّ سليمان بن سفيان المدني قد عرّفه الذهبي قائلاً: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال مرّة: ليس بثقة، وكذا قال النسائي.

وقال أبو حاتم، والدار قطني: ضعيف، وليس له في السنن والمسانيد غير حديثين.[٢]

ثانياً: كيف يفسر الأُمّة بأهل الفقه والعلم والحديث، مع أنّ الأُمّة تشمل جميع من آمن برسالة الرسول ﷺ ؟!

وأعجب منه تفسير عبد الله بن المبارك بالخليفتين أبي بكر وعمر، ثمّ تفسيره بفلان وفلان، ولم يعلم أنّه ماذا أراد منهما؟ وأشدّ عجباً تطبيقه علىٰ أبي حمزة السكري، وهل هذا إلاّ الغلو؟!

وقد صار الحديث ذريعة لتصويب خلافة الخلفاء.

٣. سنن أبي داود

روى أبو داود(٢٠٢ـ٢٧٥هـ) قال: حدثنا محمد بن عوف الطائي، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، قال ابن عوف: وقرأت في أصل إسماعيل، قال حدثني ضمضم عن شريح، عن أبي مالك ـ يعني الأشعري ـ قال: قال

١. الترمذي:السنن:٤/ ٤٦٦ برقم٢١٦٧، كتاب الفتن.

٢. ميزان الاعتدال:٢/ ٢٠٩، الحديث ٣٤٦٩.

رسول الله ﷺ: «إنّ الله أجاركم من ثلاث خلال: أن لا يدعوا عليكم نبيكم فتهلكوا جميعاً، وأن لا يظهر أهل الباطل علىٰ أهل الحقّ، وأن لا تجتمعوا على ضلالة».[١]

وفي السند محمد بن عوف الطائي، ذكره الذهبي، قال: محمد بن عوف، عن سليمان بن عثمان، مجهول الحال.[٢]

وأيضاً فيه ضمضم، ذكره الذهبي، وقال: ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد. وثّقه يحيى بن معين، وضعّفه أبو حاتم، روىٰ عنه جماعة.[٣]

وقد اتّفقت السنن الثلاث علىٰ لفظ «ضلالة» دون لفظ خطأ.

٤. مسند أحمد بن حنبل

روى أحمد بن حنبل (١٦٤ـ٢٤١هـ) في مسنده، قال: حدثنا أبو اليمان، حدثنا ابن عياش، عن البختري بن عبيد بن سليمان، عن أبيه، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ أنّه قال: «اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة، فإنّ الله عزّ وجلّ لن يجمع أُمّتي إلاّ علىٰ هدى».[٤]

وفي السند ابن عياش الحميري، قال عنه الذهبي: مجهول.[٥]

وفي السند أيضاً البختري، وهو البختري بن عبيد، ذكره الذهبي، وقال: ضعّفه أبو حاتم، وغيره تركه، فأمّا أبو حاتم فأنصف فيه، وأمّا أبو نعيم الحافظ

---

١. سنن أبي داود: ٤/ ٩٨ برقم ٤٢٥٣.

٢. ميزان الاعتدال: ٣/ ٦٧٦ برقم ٨٠٣٠.

٣. ميزان الاعتدال: ٢/ ٣٣١ برقم ٣٩٦٠.

٤. مسند أحمد بن حنبل: ٥/ ١٤٥.

٥. ميزان الاعتدال: ٤/ ٥٩٤ برقم ١٠٨٢١.

فقال: روىٰ عن أبيه موضوعات.

وقال ابـن عدي: روىٰ عن أبيـه قدر عشرين حديثاً عامّتها منـاكير، منها: اشربوا أعينكم الماء، ومنها: الأُذنان من الرأس، ثمّ قال: وله عند ابن ماجة حديث عن أبيه عن أبي هريرة: صلوا على أولادكم.[1]

ولعلّ الـرواية منقولة بـالمعنى، وقد عـرفت اتّفاق السنن الثـلاث علىٰ لفظ «الضلالة» وعبّر عنها بـ: لن يجمع أُمّتي إلاّ علىٰ هدىً.

٥. مستدرك الحاكم

روى الحاكـم النيسابوري(٣٢١ـ٤٠٥هــ)، في مستدركـه على الصحيحين هذا الحديث، بمسانيد تشترك في المعتمر بن سليمان قال:

فيما احتجّ به العلماء على أنّ الإجماع حجّـة، حديث مختلفٌ فيـه على المعتمر ابن سليمان قال: حدثنـا أبو الحسين محمد بن أحمد بن تميم الأصـم ببغداد، حدثنا جعفر بن محمد بن شاكر، حدثنا خالد بن يزيد القرني، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجمع الله هذه الأُمّة على الضلالـة أبداً، وقال: يد الله على الجماعة، فاتّبعـوا السواد الأعظم، فانّه مَن شذّ شذَّ في النار».[2]

قال الحاكم ـ بعد نقله للحديث بأسانيده السبعةـ : فقد استقر الخلاف في إسناد هـذا الحديث على المعتمر بن سليمان، وهـو أحد أركان الحديث مـن سبعة أوجه، لا يسعنا أن نحكـم انّ كلّها محمولة على الخطأ بحكم الصـواب، لقول من

١. ميزان الاعتدال: ١/ ٢٩٩ برقم ١١٣٣.

٢. المستدرك:١/ ١١٥.

قال عن المعتمر عن سليمان بن سفيان المدني، عن عبد الله بن دينار، ونحن إذا قلنا هذا القول، نسبنا الراوي إلى الجهالة فوهن به الحديث، ولكنّا نقول: إنّ المعتمر بن سليمان، أحد أئمّة الحديث، وقد روي عنه هذا الحديث بأسانيد يصحّ بمثلها الحديث، فلابدّ من أن يكون له أصل بأحد هذه الأسانيد، ثمّ وجدنا للحديث شواهد من غير حديث المعتمر لا ادّعي صحتها ولا أحكم بتوهينها، بل يلزمني ذكرها لإجماع أهل السنّة علىٰ هذه القاعدة من قواعد الإسلام.

فمن روي عنه هذا الحديث من الصحابة: عبد الله بن عباس، ثمّ ذكر حديث ابن عباس.

وأمّا معتمر الذي وقع في سند الحديث، ذكره الذهبي، وقال: معتمر بن سليمان التيمي البصري أحد الثقات الأعلام.

قال ابن خراش: صدوق يخطئ من حفظه، وإذا حدّث من كتابه فهو ثقة.

قلت: هو ثقة مطلقاً. ونقل ابن دحية، عن ابن معين: ليس بحجّة.[1]

هذا ما لدى أهل السنّة إذا اقتصرنا من الحديث علىٰ صورة المسند منه، وأمّا نقله مرسلاً فقد تضافر نقله في كتبهم وأرسلوه إرسالاً مسلماً.

١. رواه الغزالي (٤٥٠ـ ٥٠٥هـ) في «المستصفىٰ»، قال: تضافرت الرواية عن رسول الله بألفاظ مختلفة مع اتّفاق المعنىٰ في عصمة هذه الأُمّة من الخطأ.[2]

٢. وقال في «المنخول»: وممّا تمسّك به الأُصوليون، قوله ﷺ: «لا تجتمع أُمّتي على ضلالة» وروي «علىٰ خطأ» ولا طريق إلى ردّه بكونه من أخبار الآحاد، فانّ القواعد القطعية يجوز إثباتها بها، وإن كانت مظنونة.

---

١. ميزان الاعتدال: ٤/ ١٤٣ برقم ٨٦٤٨.

٢. المستصفى: ١/ ١١١.

فإن قيل: فما المختار عندكم في إثبات الإجماع؟

قلنا: لا مطمع في مسلك عقلي إذ ليس فيه ما يدل عليه، ولم يشهد له من جهة السمع خبر متواتر ولا نص كتاب، وإثبات الإجماع بالإجماع تهافت، والقياس المظنون لا مجال له في القطعيات.[1]

يلاحظ على ما ذكره:

أوّلاً: أنّ الوارد في السنن والمسانيد هو لفظ «ضلالة» و لم نقف علىٰ لفظ «علىٰ خطأ» وعلىٰ ذلك فالرواية ترجع إلى الأُصول والعقائد التي تدور عليها الهداية والضلالة، لا المسائل الفقهية التي لا يعدّ المخالف للحكم الواقعي ضالاً، فالتمسك به في إثبات حجّية الإجماع كما ترى.

وثانياً: وجود التناقض في كلامه حيث قال: «إنّ القواعد القطعية يجوز إثباتها بأخبار الآحاد وإن كانت مظنونة» وهذا ينافي ما قاله أخيراً: «القياس المظنون لا مجال له في القطعيات».

وجه التناقض أنّ الخبر الواحد والقياس من حيث إفادة الظن سيّان، فكيف تثبت القواعد القطعية بالظن مستنداً إلىٰ خبر الواحد، ولا يثبت بالقياس؟!

وأعجب منه ثبوت القواعد القطعية بالظن، مع أنّ النتيجة تابعة لأخس المقدمتين.

٣. وقال تاج الدين السبكي عبد الوهاب بن علي (المتوفّى ٧٧١هـ) في كتابه «رفع الحاجب عن ابن الحاجب»، فانّه بعد ذكر طرق الحديث ورواته قال:

---

١. المنخول: ٣٠٥ـ٣٠٦، طبع دار الفكر.

أمّا الحديث فلا أشك انّه اليوم غير متواتـر، بل لا يصحّ، أعني لم يصح منه طريق على السبيل الذي يرتضيه جهابذة الحفاظ، ولكني اعتقد صحّة القدر المشترك من كلّ طرقـه، والأغلب على الظن أنّه «عـدم اجتماعها على الخطأ».وأقول: مـع ذلك جاز أن يكون متواتراً في سالف الزمان ثمّ انقلب آحاداً.[1]

***

الحديث في كتب الشيعة

أمّا الشيعة فلم تنقلـه مسنداً، إلاّ الصدوق في خصاله، ومنه أخـذ صاحب الاحتجاج ونقله فيه.

وروي أيضاً في رسالة الإمام الهادي عليه السلام التي كتبها في الـرد علىٰ أهل الجبر والتفويـض، نقلها ابن شعبة الحراني في «تحف العقـول»، مرسلاً لا مسنـداً؛ ونقله أيضـاً الأُصـوليـون مـن الشيعة عنـد البحـث في الإجماع، وإليـك مـا وقفنـا على نصوصهم بصدد هذا الحديث:

خصال الصدوق

روى الصدوق(٣٠٦ـ٣٨١هـ) في «الخصال» قال: حـدثنا أحمد بن الحسن القطان قال: حدثنا عبد الرحمٰن بن محمد الحسني، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن حفص الخثعمـي، قال: حـدثنا الحسـن بن عبد الـواحد، قـال حدثنـي أحمد بن التغلبي [2]، قال: حدثني أحمد بـن عبد الحميد، قال: حدثني حفـص بن منصور العطار، قال: حـدثنا أبو سعيد الورّاق، عـن أبيه، عن جعفر بن محمـد، عن أبيه،

---

١ . رفع الحاجب عن ابن الحاجب، ورقة ١٧٦ ب المخطوط في الأزهر.

٢ . هو أحمد بن عبد الله بن ميمون التغلبي، قال ابن حجر: ثقة زاهد.

عن جدّه، قال: «لمّا كان من أمر أبي بكر و بيعة الناس له، وفعلهم بعليّ بن أبي طالب عليه السلام لم يزل أبو بكر يظهر له الانبساط، ويرىٰ منه انقباضاً، فكبر ذلك علىٰ أبي بكر، فأحب لقاءه واستخراج ما عنده و المعذرة إليه لما اجتمع الناس عليه وتقليدهم إياه أمر الأُمّة ، وقلة رغبته وزهده فيه.

أتاه في وقت غفلة، وطلب منه الخلوة ـ ثمّ نقل بعض ما دار بينهما من الكلام ـ إلىٰ أن قال: فقال له علي عليه السلام :«فما حملك عليه إذا لم ترغب فيه، ولا حرصت عليه، ولا وثقت بنفسك في القيام به، وبما يحتاج منك فيه؟».

فقال أبو بكر: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله لا يجمع أُمتي علىٰ ضلال» و لما رأيت اجتماعهم اتبعت حديث النبي صلى الله عليه وآله وأحلت أن يكون اجتماعهم علىٰ خلاف الهدىٰ وأعطيتهم قود الإجابة، ولو علمت أنّ أحداً يتخلّف لامتنعت.

فقال علي عليه السلام : «أمّا ما ذكرت من حديث النبي صلى الله عليه وآله:«إنّ الله لا يجمع أُمّتي علىٰ ضلال» أفكنت من الأُمّة أو لم أكن؟» قال: بلىٰ، قال:«وكذلك العصابة الممتنعة عليك من سلمان وعمار وأبي ذر و المقداد وابن عبادة ومن معه من الأنصار؟» قال: كلّ من الأُمّة.

فقال علي عليه السلام : «فكيف تحتج بحديث النبي صلى الله عليه وآله وأمثال هؤلاء قد تخلّفوا عنك، وليس للأُمّة فيهم طعن، ولا في صحبة الرسول صلى الله عليه وآله ونصيحته منهم تقصير؟!».[1]

يلاحظ عليه: أنّ السند مشتمل علىٰ رجال مجهولين، أو مهملين، فلا يمكن الاحتجاج بهذا الحديث على صحّة ما ورد فيه.

أضف إلى ذلك أنّه من المحتمل أن يكون قبول الإمام للحديث من باب

١. الخصال: ٢/ ٥٤٨ـ٥٤٩، أبواب الأربعين، الحديث ٣٠.

الجدل والرد على الخليفة من الطريق الذي سلكه.

٢. تحف العقول لابن شعبة الحراني

إنّ الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني من أعلام الشيعة في القرن الرابع الهجري، يروي عن أبي علي محمد بن همام، (المتوفى سنة ٣٣٦هـ) المعاصر للصدوق (المتوفّى ٣٨١هـ)، أُستاذ الشيخ المفيد (٣٣٦ـ ٤١٣هـ) قد روى في كتابه القيّم «تحف العقول» رسالة الإمام الهادي إلى الأهوازيين في الردّ على أهل الجبر والتفويض، وجاء فيه ما نصّه: وقد اجتمعت الأُمّة قاطبة لا اختلاف بينهم أنّ القرآن حقّ لا ريب فيه عند جميع أهل الفرق، وفي حال اجتماعهم مقرون بتصديق الكتاب وتحقيقه، مصيبون، مهتدون، وذلك بقول رسول الله ﷺ: «لا تجتمع أُمّتي علىٰ ضلالة» فأخبر أنّ جميع ما اجتمعت عليه الأُمّة كلّها حق، هذا إذا لم يخالف بعضها بعضاً.[1]

والرسالة مرسلة لم نجد لها سنداً، ونقلها الشيخ الطبرسي في «الاحتجاج»[2] بلا اسناد أيضاً، كما رواها المجلسي في «البحار» مرسلاً.[3]

هذا ما يرجع إلى تلك الرواية في كتب الشيعة الحديثية، وقد عرفت أنّ السند في «الخصال» مشتمل على مجاهيل ومهملين، والمرسل منها لا ينفع مالم يحرز ثبوت الرسالة إلى الإمام.

وأمّا غير الكتب الحديثية فقد نقلها غير واحد منهم في كتبه، منهم:

أ. الشيخ الطوسي (٣٨٥ـ٤٦٠هـ) فقد نقل الحديث عند البحث عن حجّية الإجماع في نظر أهل السنّة، فقال: واستدلوا أيضاً على صحّة الإجماع بما

---

١. تحف العقول: ٤٥٨، باب ما روي عن الإمام الهادي عليه السلام.

٢. الاحتجاج: ٢/ ٤٧٨ برقم ٣٢٨.

٣. البحار: ٤/ ١٥.

روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «لا تجتمع أُمّتي علىٰ خطأ» وبلفظ آخر: «لم يكن الله ليجمع أُمّتي على الخطأ» و بقوله: «كونوا مع الجماعة» وبقوله: «يد الله على الجماعة» وما أشبه ذلك من الألفاظ.

ثمّ أجاب عن الاستدلال بهذه الأحاديث وقال:

وهذه الأخبار لا يصحّ التعلّق بها لأنّها كلّها أخبار آحاد لا توجب علماً، وهذه مسألة طريقها العلم.

وليس لهم أن يقولوا إنّ الأُمّة قد تلقّتها بالقبول وعملت بها.

لأنّا أوّلاً: لا نسلّم أنّ الأُمّة كلّها تلقّتها بالقبول.

ولو سلمنا ذلك لم يكن أيضاً فيها حجّة، لأنّ كلامنا في صحّة الإجماع الذي لا يثبت إلاّ بعد ثبوت الخبر، والخبر لا يصحّ حتى يثبت أنّهم لا يجمعون على خطأ.

إلى أن قال: ولو سلم من جميع ذلك، لجاز أن يحمل علىٰ طائفة من الأُمّة، وهم الأئمة من آل محمد ﷺ، لأنّ لفظ الأُمّة لا يفيد الاستغراق على ما مضى القول فيه، وذلك أولىٰ من حيث دلّت الدلالة على عصمتهم من القبائح.

وإن قالوا: يجب حمله علىٰ جميع الأُمّة لفقد الدلالة علىٰ أنّ المراد بعض الأُمّة.

كان لغيرهم أن يقولوا: أنا أحمل الخبر على جميع الأُمّة من لدن النبي إلى أن تقوم الساعة، حيث إنّ لفظ الأُمّة يشملهم ويتناولهم، فأين هو من أنّ إجماع كلّ عصر حجّة؟

وأمّا الخبر الثاني من قوله: «لم يكن الله ليجمع أُمّتي على خطأ» فصحيح ولا يجيء من ذلك أنّه لا يجمعون علىٰ خطأ.

وليس لهم أن يقولوا: إنّ هذا لا اختصاص فيه لأُمّتنا بذلك دون سائر

الأُمم، لأنّ الله تعالىٰ لا يجمع سائر الأُمم على الخطأ.

وذلك أنّه و إن كـان الأمر على ما قالـوه، فلا يمتنع أن يخص هؤلاء بـالذكر ومن عـداهم يعلم أنّ حـالهم كحالهم بدليل آخـر، ولذلك نظـائر كثيرة في القرآن والأخبار.

على أنّ هذا هو القول بدليل الخطاب الذي لا يعتمده أكثر من خالفنا.[١]

وقـد عدّ العـلاّمـة في فصل خصـائص النبي مـن كتـاب النكاح، أنّ مـن خصائصه أنّ أُمّته لا تجتمع على الضلالة.[٢]

وقـد نقل المحقّـق التستري أنّ العلاّمـة نقل الحديـث في كتابيـه «الألفين» و«المنتهىٰ».

أقول: أمّا كتاب الألفين فقد ذكر أنّ من فـوائد الإمام عصمة الأُمة، قال ما نصه: امتناع الخطأ والإمامة[٣] مع تمكن الإمام من المكلف... إلى آخر ما ذكره.[٤]

فهو يعدّ الأُمّة معصومة لأجل وجود الإمام من دون إشارة إلى الحديث.

وأمّا «المنتهىٰ» فلم نعثر فيه على الحديث.

وقال المحقّق التستري: وأقوىٰ ما ينبغي أن يُعتمـد عليه من النقل حديث: «لا تجتمع أُمّتي على الخطأ» وما في معناه لاشتهـاره وقوّة دلالته. وتعويل معظمهم ولا سيما أوائلهم عليه، وتلقّيهم له بالقبول لفظـاً ومعنى وادعاء جماعة منهم تواتره معنى...، إلى أن قال: حكىٰ بعض المحدّثين من التحف مرسلاً عنه ﷺ انّه قال أيضاً: «إنّ الله قد احتج على العبـاد بأُمور ثلاثة: الكتاب، والسنّـة، وما أجمع عليه

---

١. الطوسي: العدّة:٢/ ٦٢٥ـ٦٢٦، نقلناه بتلخيص، طبع عام ١٤١٧هـ.

٢. التذكرة:٢/ ٥٦٨، رقم الخصيصة ١٧.

٣. كذا في النسخة المطبوعة في مؤسسة دار الهجرة، ولعلّ الصحيح: (على الأُمّة).

٤. الألفين: ٢١١.

المسلمون»، وقد روي في هذا الباب أخبار أُخر من طرقنا تقتضي حجّية الإجماع الواقع على الحكم بنفسه، ووجوب العمل بخبر أجمع على العمل به أو على روايته مع قبوله كما تقتضي إمكان وقوع الإجماع والعلم به وهي أخبار شتىٰ، إلى أن قال: مؤيدة بما ورد في المنع من فراق الجماعة وغيره، ولتطلب جميعاً من كتاب المناهج، وفّق الله سبحانه لإتمامه.[1]

هذا ما وقفنا عليه في كتب أصحابنا إلىٰ أواخر القرن الثالث عشر.

نعم جاء ذكر هذا الحديث في الكتب الأُصولية الاستدلالية لكلا الفريقين، ولا داعي للإطالة بالنقل عنها.

حصيلة البحث:

إنّ للقارئ أن يستنتج من هذا البحث الضافي حول الرواية الأُمور التالية:

الأوّل: أنّ الرواية من أخبار الآحاد، لم تنقل بسند صحيح في كتب الفريقين، وقدعرفت وجه الضعف عند نقلها عن كتب الصحاح والمسانيد.

الثاني: أنّ المنقول مسنداً هو لفظ «الضلالة» لا لفظ «الخطأ»، أو «علىٰ غير هدى» كما في مسند الإمام أحمد، وإنّما جاء الخطأ في غير الكتب الحديثية.

الثالث: أنّ الحديث علىٰ فرض ثبوته يرجع إلى المسائل العقائدية التي عليها مدار الهداية والضلالة، أو ما يرجع إلى صلاح الأُمّة من وحدة الكلمة والاجتناب عن التشتّت فيما يمسّ وحدة المسلمين.

وأمّا المسائل الفقهية فلا يوصف المصيب والمخطئ فيها بالهداية والضلالة، كما لا يكون مصير الشاذ فيها مصير النار، أو نصيب الشيطان.

---

١. كشف القناع: ٦ـ ٧، طبع عام ١٣١٦هـ.

وعلى ذلك فالاستدلال به على حجية الإجماع في المسائل الفقهية غير تام.

الرابع: لو سلّمنا سعة دلالة الحديث فالمصون من الضلالة هو الأُمّة بما هي أُمة، لا الفقهاء فقط، ولا أهل العلم، ولا أهل الحل والعقد، وعلى ذلك ينحصر مفاد الحديث بما اتفقت عليه جميع الأُمّة في العقائد والأُصول.

الخامس: أنّ مصونية الأُمّة كما يمكن أن يكون لكمال عقلها، يمكن أن يكون لوجود معصوم فيهم، والرواية ساكتة عنه فلا يمكن أن يستدل بالرواية على أنّ الأُمّة مع قطع النظر عن المعصوم مصونة عن الخطأ، بل لما ثبت في محلّه أنّ الزمان لا يخلو عن إمام معصوم تكون عصمة الأُمّة بعصمة الإمام.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اللّهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة إمّا ظاهراً مشهوراً، و إمّا خائفاً مغموراً لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته».[١]

روى الكشّي باسناده إلى إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين، وتحريف الغالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكير[٢] خبث الحديد.[٣]

تمّت الرسالة بيد الفقير إلىٰ رحمة الله جعفر السبحاني ابن الفقيه

محمد حسين الخياباني التبريزي، غفر الله له ولوالديه

حرّرت في ١٣ رجب المرجب ميلاد وليد الكعبة

علي عليه الصلاة والسلام

من شهور عام ١٤١٨هـ

١. نهج البلاغة: قسم الحكم برقم ١٤٧.

٢. الكير: جلد غليظ ذو حافات ينفخ فيه الحداد.

٣. الكشي: الرجال: ١٠ برقم ٥، فصل فضل الرواية والحديث.

٨

أبو بصير

شخصيّته و ثقافته

السُّنّـة الشريفة هـي الحجّة الثـانية التـي استأثـرت باهتمام المسلمين بعـد الكتاب العـزيز، وهي وحي بمعنـاها لا بلفظها، خـلافاً للقرآن فهو وحـي بلفظه ومعناه، وقد أمر سبحانه الأخـذ بكلّ ما أمر الرسول صلى الله عليه وآله أو نهىٰ عنه، وقـال: ﴿**وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾.[1]

السنَّـة هـي الحدّ المائز بين الحقّ والبـاطـل، والمصبـاح المنير لـرواد الحقّ والحقيقة لا يعادلها شيء بعد القرآن الكريم.

السنّةُ هي المرجـع لبيان مجملات الكتاب والموضحـة لعموماته ومطلقـاته، فلو تُركـت السُّنّةُ وأُهملت على الإطلاق أو اقتصرت على السُّنَّة المتواتـرة لاندثرت الشريعة ومُحيت أحكامها.

السنّة هي فصل الخطاب والحجّة القاطعة في مقام التشريع والقضاء، وتبيين شروط العبادات وموانعها، فلا غنى لمسلم عن السُّنّة، كما لا غنىٰ له عن الكتاب.

وهناك كلمات مأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام تكشف بوضوح عن المقام

---

١. الحشر: ٧.

السامي الذي حازته السُّنّة نقتطف منها ما يلي:

١. قال الإمام الباقر عليه السلام: «كلّ من تعدّى السُّنّة رد إلى السُّنّة».

٢. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من شيء إلاّ فيه كتاب أو سنّة».

٣. وقال عليه السلام أيضاً في شأن السُّنّة: «فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضية إلاّ فيها حتى أرش الخدش».

فقد دوّن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بإملاء منه صلى الله عليه وآله وسلم وقد سمعها من فِلق فمه. وهي المسمّاة بـ«الجامعة».

ارتحل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولبّىٰ دعوة ربّه و خلّف بين الأُمّة كنزين ثمينين، وقال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي» فالعترة هم حفّاظ السُّنّة ومبيِّنيها عبر القرون والأجيال، وقد تلقّاها منهم الأمثل فالأمثل من تلاميذهم وخريجي مدرستهم ما لا يحصيه إلاّ الله سبحانه، وقد ذكر الحسن بن الوشّاء انّه أدرك في مسجد الكوفة تسعمائة شيخ، كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد.[1]

وممّن تخرّج على يدي الإمامين الهمامين الباقر والصادق عليهما السلام هو الراوية المعروف بـ«أبي بصير» وقد وقع في أسناد كثير من الروايات تناهز ٢٢٧٥ مورداً أو أكثر، وهو يروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام وأبي عبد الله الصادق عليه السلام و أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام.

فإذا كانت هذه مكانة الرجل ومنزلته، فيجب أن نقف على أحواله من خلال كلمات الرجاليين والروايات المأثورة عنه.

فنقول: ادُّعي أنّ أبا بصير كنية مشتركة بين رجال خمسة:

١. يحيى بن أبي القاسم الأسدي.

---

١. رجال النجاشي: ١/ ١٣٩ برقم ٧٩.

٢. ليث بن البختري المرادي الكوفي.

٣. يوسف بن الحارث.

٤. عبد الله بن محمد الأسدي.

٥. حمّاد بن عبد الله بن أسيد الهروي.

فلو صحّ اشتراك لفظ «أبي بصير» بين هؤلاء لصار مشتركاً بين الثقة وغيره، وعندئذ تسقط أكثر الروايات المرويّة عنه بلفظة «أبي بصير» من دون أن يقترن بلقب يميّزه عن غيره. فإنّ الأوّلين ثقتان بلا كلام دون الثلاثة الأخيرة، فلم تحرز وثاقتهم غير انّ بعض المحقّقين ذهب إلى انصراف لفظة «أبي بصير» عند إطلاقه إلى الأوّلين فحسب، وعلى هذا كلّما أُطلق أبو بصير، فإن تبيّن المراد فهو، و إلاّ فالأمر يتردّد بين يحيى بن أبي القاسم الثقة، وليث بن البختري المرادي الثقة، فلا أثر للتردّد.[1]

ولأجل تحقيق هذا الكلام، نستعرض كلمات الرجاليّين في هذا الصدد.

١. أبو بصير يوسف بن الحارث

لقد عدّ الشيخ الطوسي يوسف بن الحارث من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام وكنّاه بأبي بصير، وقال: يوسف بن الحارث، بتري يكنّىٰ أبا بصير.[2]

وقد تبعه العلاّمة في «الخلاصة»[3]، وابن داود في رجاله[4]، والميرزا الاسترابادي في «منهج المقال».[5]

---

١. معجم رجال الحديث: ٢١/ ٤٧ برقم ١٣٩٥٩.

٢. رجال الشيخ: ١٥٠، أصحاب الباقر عليه السلام، باب الياء برقم ١٧.

٣. الخلاصة: ٢٦٥ برقم ١.

٤. رجال ابن داود: ٢٨٥ برقم ٥٥٧.

٥. منهج المقال: ٣٨٤، قسم الكنى.

والظاهر انّ مصدر الشيخ هو رجال الكشي، فانّه ذكره في عداد البتريّين، وقال: و قيس بن الربيع بتري، كانت له محبة، فامّا مسعدة بن صدقة بتري - إلى أن قال: و أبو نصر بن يوسف بن الحارث بتري.

وعلى هذا فقد تطرق التحريف إلى كلام الشيخ من وجهين:

أ: تصحيف «أبي نصر» بـ«أبي بصير».

ب:اسقاط لفظة «ابن» على وجه صار «أبو بصير» كنية يوسف، مع أنّه في كلام الكشي كنية ابن يوسف.

وأوّل من تنبّه إلى ذلك هو المحقّق القهبائي، و اعتذر عن وقوع التحريف في كلام الشيخ بأنّ عجلته الدينيّة صارت سبباً لهذا التحريف، ثمّ قال: و على هذا التحريف اشتهر عند الطائفة ضعف حديث أبي بصير، لاعتقادهم أنّ أبا بصير مشترك بين أربعة، منهم هذاالبتري، فاشترك الحديث بينه و بين غيره.[1]

وقال أيضاً في ترجمة محمد بن إسحاق بن يسار المدني الذي جاء في ترجمته ذكر أبو نصر بن يوسف بن الحارث البتري: « هكذا في نسخ هذا الكتاب (رجال الكشي) وهي متعددة عندنا، واشتبه على الشيخ ﷺ في أصحاب الباقر ﷺ وتبعه غيره، مثل العلاّمة في الخلاصة، وابن داود في رجاله، وغيرهما، فقرأوا هكذا: أبو بصير يوسف بن الحارث بتري، فصار حينئذٍ أبو بصير في مرتبة من يروي عن الإمام الصادق ﷺ ، وهذا خلاف الواقع».[2]

واحتمال تطرّق الاشتباه إلى نسخة الكشي بعيد جداً،وقد قام بتصحيحه المحقّق الشيخ حسن المصطفوي بعرضهاعلى سبع نسخ مصححة وغير مصححة

١. مجمع الرجال: ٦/ ٢٧٩، قسم التعليقة.

٢. مجمع الرجال:٥/ ١٤٩، قسم التعليقة بتصرّف يسير.

و التي يرجع تاريخ كتابة بعضها إلى سنة ٥٧٧هـ.[١]

وبذلك تبيّن انّ ما يظهر من الشيخ وغيره من كون يوسف بن الحارث من المكنّين بأبي بصير، ممّا لاوجه له.

٢. أبو بصير عبد الله بن محمد الأسدي

وممّن كُنّي بأبي بصير من الرواة هو عبد الله بن محمد الأسدي، وهذا ما نراه في عنوان رجال الكشي، بهذه الصورة: **في أبي بصير عبد الله بن محمد الأسدي**.

طاهر بن عيسى، قال: حدثني جعفر بن أحمد الشجاعي،عن محمد بن الحسين،عن أحمد بن الحسن الميثمي، عن عبد الله بن وضاح، عن أبي بصير، سألت أبا عبد الله عليه السلام عن مسألة في القرآن...[٢]

هذا و لكنّ في صحته نظراً.

أوّلاً: أنّ من المحتمل كون العنوان راجعاً إلى النُّسّاخ لا إلى المؤلف أي الكشّي.

ثانياً:لو كان العنوان من المؤلف نفسه، فقد اشتبه الأمر على الكشّي، لأنّ المراد من أبي بصير في السند هو يحيى بن أبي القاسم، لا عبد الله بن محمد الأسدي، و ذلك لأنّ عبد الله بن وضاح ممّن يروي عن يحيى بن أبي القاسم كثيراً، بشهادة قول النجاشي: عبد الله بن وضاح، أبو محمد، كوفي، ثقة، من الموالي صاحَبَ أبا بصير يحيى بن القاسم كثيراً و عرف به، له كتب يعرف منها: كتاب الصلاة، أكثره عن أبي بصير.[٣]

١. رجال الكشي: ص ٢٠، قسم التعليقة.
٢. رجال الكشي: ١٧٤ برقم ٢٩٩.
٣. رجال النجاشي: ٢/ ١٠ برقم ٥٥٨.

فالعنوان لا ينطبق على السند الذي نقل بعده.

ويؤيد ذلك ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره في آخر سورة الكهف عن جماعة، منهم: الحسين بن أبي العلاء، و عبد الله بن وضاح، وشعيب العقرقوفي، جميعاً عن أبي بصير، عن مولانا أبي عبد الله عليه السلام.[١]

فإنّ شعيباً العقرقوفي ابن أُخت أبي بصير يحيى بن أبي القاسم، كما ذكره النجاشي.[٢]

و يؤيده أيضاً كون الحسين بن أبي العلاء في تلك الجماعة، فإنّ الشيخ يروي مناسك الحجّ لأبي بصير عن طريقه.

قال في الفهرست: يحيى بن القاسم يكنّى أبا بصير، له مناسك الحجّ، رواه علي بن أبي حمزة، والحسين بن أبي العلاء.[٣]

وعلى هذا فلم نجد دليلاً على إطلاق أبي بصير على عبد الله بن محمد الأسدي غير وجود لفظ «أبي بصير» في العنوان فقط.

نعم كنّاه الشيخ الطوسي بأبي بصير، وقال: «عبد الله بن محمد الأسدي» كوفي، يكنّى أبا بصير.[٤]

ولعلّ الشيخ تبع ما وجده من العنوان في رجال الكشي، فكنّاه به.

ثمّ إنّ عبد الله بن محمد الأسدي غير عبد الله بن محمد الحجّال الذي يصفه النجاشي، بقوله: عبد الله بن محمد الأسدي، مولاهم، كوفي، الحجّال، المزخرف «أبو محمد»، و قيل: إنّه من موالي بني تيم، ثقة ثقة، ثبت، له كتاب يرويه عدّة من

١. تفسير القمي: ٢/ ٤٧.

٢. رجال النجاشي: ١/ ٤٣٥ برقم ٥١٨.

٣. الفهرست:١٧٨ برقم ٧٧٦.

٤. رجال الشيخ١٢٩ ، أصحاب الإمام الباقر عليه السلام برقم ٢٦.

أصحابنا.[١]

وعدّه البرقي من أصحاب الرضا عليه السلام، قائلاً: عبد الله بن محمد الحجّال أخو عبد الله، ومن ولده أحمد بن عبد الله الكرخي.[٢]

كما عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، وقال: عبد الله بن محمد الحجّال، مولى «بني تيم الله» ثقة.[٣]

فأين الحجّال من الأسديّ الذي هو من أصحاب الباقرين عليهما السلام.

وبذلك ظهر أمران:

الأوّل: عدم صحّة تكنية عبد الله بن محمد الأسدي بأبي بصير.

الثاني: عدم ثبوت وثاقة عبد الله بن محمد الأسدي، وأمّا الموثّق في كلام النجاشي و الشيخ، فهو الحجّال من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام.

٣. أبو بصير حماد بن عبيد الله[٤] بن أسيد الهروي

و الأصل في وصفه بـ «أبي بصير» ما نقله الكشي في ترجمة يونس بن عبد الرحمن، قال: روى عن أبي بصير حماد بن عبيد الله بن أسيد الهروي، عن داود بن القاسم، أنّ أبا جعفر الجعفري، قال: أدخلت كتاب يوم و ليلة الذي ألّفه يونس ابن عبد الرحمن على أبي الحسن العسكري عليه السلام فنظر فيه وتصفّحه كلّه ثمّ قال: «هذا ديني ودين آبائي وهو الحقّ كلّه».[٥]

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٣٠ برقم ٥٩٣.
٢. رجال البرقي: ٥٥.
٣. رجال الشيخ: باب أصحاب الرضا، باب العين، برقم ١٨. وقد جاءت لفظة: «مولى بني تيم الله» في رجال البرقي في موارد لاحظ ص ٥٤.
٤. من النسخة المصحّحة المحقّقة في النسخة القديمة «عبد الله».
٥. رجال الكشي: ٤٨٤ برقم ٩١٥.

والظاهر تطرّق التصحيف إلى العبارة، فانّ هذه الفقرة من متمّمات الجمل السابقة، و إليك نصها:

«سمعت الفضل يقول: ما نشأ في الإسلام رجل من سائر الناس كان أفقه من سلمان الفارسي ولا نشأ رجل بعده أفقه من يونس بن عبد الرحمن ﷺ [روى عن أبي بصير]. و أمّا ما بعده، أعني: حماد بن عبيد الله بن أسيد الهروي، عن داود بن القاسم إلى أبي جعفر الجعفري، قال: أدخلت كتاب يوم و ليلة... » فهو جملة مستقلة لا صلة لها بما سبق، و إنّما تطرق الخطأ من قبل النسّاخ حيث جعلوا قوله: «روى أبو بصير» مقطوعاً عمّا قبله وراجعاً إلى ما بعده.

مضافاً إلى أنّ في بعض النسخ« أبو نصر» مكان أبو بصير، و على فرض الصحة فهو من مشايخ الكشي، الذي كان من علماء النصف الأوّل من القرن الرابع، ولا صلة له بمن يروي عن الإمامين مباشرة وبلا واسطة.

إلى هنا تبيّن انّه لم يثبت كون أبي بصير كنية أحد من الرواة غير: يحيى بن أبي القاسم، و ليث البختري، و بما انّ الرجاليين اتفقوا على توثيقهما، فإذا صح السند إليه يحكم عليه بالصحّة سواء علمنا انّ المراد من هو أم لم نعلم.

***

إنّ الكتاب الماثل بين يديك هو مسند أبي بصير المشترك بين شخصين ثقتين، فيلزم علينا تسليط المزيد من الأضواء على ترجمتهما و بيان شيء من أقوال الرجاليين في حقّهما، والإشارة إلى من تخرّج عليهما في الحديث.

١ .أبو بصير: يحيى بن أبي القاسم الأسدي

عرّفه الرجاليون بالوثاقة تماماً، قال النجاشي: يحيى بن القاسم أبو بصير

الأسدي، وقيل: أبو محمد، ثقة، وجيه، روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، وقيل: يحيى بن أبي القاسم، و اسم أبي القاسم إسحاق، وروى عن أبي الحسن موسى عليه السلام ، له كتاب يوم وليلة، أخبرنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا أحمد بن محمد ابن سعيد، قال: حدثنا يحيى بن زكريا بن شيبان، قال: حدثنا الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير بكتابه، ومات أبو بصير سنة خمسين ومائة.(١)

وعدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قائلاً: يحيى بن القاسم أبو محمد، يعرف بأبي بصير الأسدي مولاهم، كوفي، تابعي، مات سنة خمسين ومائة بعد أبي عبد الله عليه السلام .(٢)

وقال في الفهرست: يحيى بن القاسم، يُكنّى أبا بصير، له كتاب مناسك الحجّ، رواه علي بن أبي حمزة، والحسين بن أبي العلاء، عنه.(٣)

وقال العقيقي: يحيى بن القاسم الأسدي، مولاهم، ولد مكفوفاً رأى الدنيا مرتين، مسح أبو عبد الله عليه السلام على عينيه، وقال أُنظر ما ترى، قال: أرى كوّة في البيت وقد أرانيها أبوك من قبلك.(٤)

وعدّه الكشي من أصحاب الإجماع، و قال: اجتمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأوّلين من أصحاب أبي جعفر عليه السلام وأصحاب أبي عبد الله عليه السلام ، و انقادوا لهم بالفقه، فقالوا: أفقه الأوّلين ستة: زرارة، ومعروف بن خرّبوذ، وبريد، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي، قالوا: أفقه الستة زرارة، وقال بعضهم: مكان أبي بصير الأسدي: أبو بصير المرادي، وهو ليث بن

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٤١١، برقم ١١٨٨.

٢. رجال الطوسي: ٣٣٣، أصحاب الصادق عليه السلام ، باب الياء، برقم ٩.

٣. الفهرست: ٢٦٢ برقم ٧٨٧.

٤. الخلاصة: ٢٦٤، القسم الثاني برقم ١٦٨٧.

البختري.[١]

فقد تبيّن من ذلك منزلة الرجل ومكانته وهو ممّن اتفقت العصابة على تصديقه.

غير انّ هناك إبهامات تحوم حول شخصيته، وهي:

الأوّل: هل اسم والده : القاسم أو أبو القاسم؟

قد وقفت على أنّ الشيخ في الرجال والفهرست وهكذا العقيقي، عبّروا عنه بالقاسم، وهكذا النجاشي، غير انّه نقل قولاً بأنّ كنية أبيه أبو القاسم واسمه إسحاق. والظاهر هو صحة الثاني، لوجوه:

١. انّ الشيخ سمّاه بأبي القاسم عند ذكره في أصحاب الإمام الباقر عليه السلام قال: يحيى بن أبي القاسم، يكنّى أبا بصير، مكفوف، واسم أبي القاسم: إسحاق.

٢. وعدّه الشيخ المفيد من أصحاب أبي جعفر عليه السلام قائلاً: وأبو بصير يحيى ابن أبي القاسم، مكفوف، مولى لبني أسد، واسم أبي القاسم إسحاق، و أبوبصير كان يكنّى بأبي محمد.[٢]

٣. وقال الكشي في ترجمة ليث بن البختري: محمد بن مسعود(العياشي) قال: سألت علي بن الحسن بن فضال عن أبي بصير، قال: كان اسمه يحيى بن أبي القاسم فقال: أبو بصير، كان يكنّى أبا محمد، وكان مولى لبني أسد.[٣]

٤. وقد ورد في اسناد الفقيه يحيى بن أبي القاسم، روى الصدوق بسنده

---

١. رجال الكشي:٢٠٦.

٢. الاختصاص: ٨٣.

٣. رجال الكشي: ١٧٣ برقم ٢٩٦.

الصحيح، عن أبان الأحمري، عن أبي بصير يحيى بن أبي القاسم الأسدي، عن أبي جعفر عليه السلام.[١]

٥. و روى بسنده الصحيح عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه، عن يحيى بن أبي القاسم، عن جعفر بن محمد عليه السلام.[٢]

وهذه الوجوه تثبت انّ اسم أبيه إسحاق، وكنيته أبو القاسم، فهو يحيى بن أبي القاسم لا يحيى بن القاسم.

٦. وقد عبر عنه البرقي في رجاله، بقوله: أبو بصير يحيى بن أبي القاسم الأسدي.[٣]

الثاني: هل يحيى بن أبي القاسم هو يحيى الحذّاء أو غيره؟

قد وقفت على منزلة أبي بصير عند الأصحاب وأئمّة الحديث، وربما يحكم على حديثه بالضعف بتصور أنّه هو يحيى بن أبي القاسم الحذّاء الذي عدّه الشيخ من أصحاب الكاظم، وقال: يحيى بن القاسم الحذاء واقفي.[٤]

وقال الكشي: حمدويه ذكر عن بعض أشياخه يحيى بن القاسم الحذاء الأزدي، واقفي.

ولأجل ذلك نرى أنّ الشهيد الثاني يذكر بأنّ أبا بصير الذي روى عن

١. الفقيه: ٤، باب ما يجب من إحياء القصاص، الحديث ٢٢١.

٢. الفقيه: ٤، باب الوصية من لدن آدم، الحديث ٤٥٧.

٣. رجال البرقي: ١١. نعم ورد بعد الجملة التي أشرنا إليها قوله: واسم أبي القاسم: يحيى بن القاسم، ولعلّه من تصحيف النساخ، ولعلّ الصحيح اسم أبي القاسم إسحاق ثمّ ابتدأ بترجمة شخص آخر، وهو يحيى بن القاسم، ولا صلة له بأبي بصير المتقدم عليه.

٤. رجال الشيخ: ٣٤٦، أصحاب الكاظم عليه السلام، باب الياء، برقم ١٦.

الصادق عليه السلام مشترك بين اثنين: ليث بن البختري المرادي، وهو المشهور بالثقة، و ليث بن القاسم الأسدي وهو واقفي، ضعيف، مخلط.[١]

ولكن الحقّ تعدّدهما، وذلك للوجوه التالية:

الأوّل:ما يظهر من عبارة الكشي انّهما متعدّدان حيث قال في عنوان بحثه.

(في يحيى بن أبي القاسم أبي بصير و يحيى بن القاسم الحذّاء) ثمّ ذكر الأحاديث.[٢]

فإنّ مقتضى سياق الكلام تعدّد المعنون، لظهور العطف في المغايرة أوّلاً، وتكنية الأوّل بأبي بصير دون الآخر ثانياً، وتخصيص الرواية التي نقلها عن حمدويه بالحذاء، حيث قال: حمدويه ذكره عن بعض أشياخه: يحيى بن القاسم الحذاء الأزدي، واقفي ثالثاً، وتقييد الثاني بالحذاء دون الأوّل رابعاً.

كلّ ذلك يشعر بتعدّد المعنونين.

الثاني: كلام الشيخ في رجاله، فقد جاء فيه:

يحيى بن القاسم الحذاء، واقفي.

يوسف بن يعقوب، واقفي.

يحيى بن أبي القاسم، يكنّى أبا بصير.[٣]

فانّ الفصل بينهما بأجنبي، أي يوسف بن يعقوب دليل التعدّد، مضافاً إلى تكنية الثاني بأبي بصير دون الأوّل.

الثالث: انّ أبا بصير مات سنة خمسين ومائة، والوقف إنّما حصل بعد زمان

---

١. المسالك:٢/ ٤١٣.

٢. رجال الكشي: ٤٧٤، برقم ٩٠١.

٣. رجال الشيخ: ٣٤٦ أصحاب الكاظم عليه السلام، برقم ١٦، ١٧، ١٨.

وفاة الإمام موسى الكاظم عليه السلام وقد استشهد عليه السلام سنة ١٨٣هـ فعلى ذلك فلا يمكن أن يوصف من مات على رأس خمسين بعد المائة بالوقف.

كلّ ذلك يدعم بأنّ أبا بصير الأسدي غير يحيى بن القاسم الحذّاء.

الرابع: قد عرفت أنّ النجاشي عنون أبا بصير الأسدي ووصفه بأنّه ثقة وجيه، ولكن الشيخ وصف يحيى بن القاسم الحذّاء بالوقف، ومن طبيعة الحال انّ النجاشي كان واقفاً على حكم الشيخ بالوقف على الحذّاء، فلو كان المعنونان متحدين كان على النجاشي أن يشير إلى نظر الشيخ، مع أنّه سكت عن ذلك.

هذه الوجوه وغيرها ممّا ذكرها المحقّق الكلباسي (المتوفّى ١٣٥٦هـ) في كتابه يثبت تعدد المعنونين وانّ هذا لا يوجب الشك في صحة رواية أبي بصير الأسدي.

وهناك وجه آخر وهو انّ أبا بصير أدرك عصر أبي جعفر الباقر عليه السلام الذي توفّي عام ١١٤هـ وأدرك عصر الإمام الصادق عليه السلام وبعده بسنتين، وتوفّي سنة ١٥٠هـ.ق.

فلو كان يحيى بن القاسم الحذّاء هو نفسَ أبي بصير الأسدي كان على الشيخ أن يذكره في عداد أصحاب الإمام أبي جعفر الباقر والصادق عليهما السلام ، ولا يخصّه بأصحاب الإمام الكاظم عليه السلام.

نعم ذكر في أصحاب الإمام الباقر يحيى بن القاسم الحذّاء، ولكنّه لم يصفه بالوقف، وهو يعرب انّ الحذّاء المطلق غير الحذّاء الموصوف بالوقف.

وقد حقّق الموضوع غاية التحقيق الشيخ الكلباسي (المتوفّى عام ١٣٥٦هـ) في كتابه[1] حيث أثبت تعدّد المعنونين و انّ هذا لا يوجب الشك في صحة رواية أبي بصير الأسدي. وقد صدرنا في هذا البحث عن تحقيقاته الشافية «قدّس الله

---

١. سماء المقال: ١/ ٣١٧ـ ٣٣٠.

سرّه»، مع المراجعة إلى المصادر والمدارك.

***

۲. أبو بصير ليث بن البختري

ليث بن البختري المرادي، أحد الثقات المخبتين.

قال الكشي بعد عنوانه بالنحو التالي:

في أبي بصير ليث بن البختري المرادي.[۱]

ثمّ نقل عن جميل بن دراج، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «بشّر المخبتين بالجنة: بريد بن معاوية العجلي، و أبا بصير ليث بن البختري، ومحمد بن مسلم، و زرارة؛ أربعة نجباء، أُمناء الله على حلاله وحرامه، لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندرست».[۲]

وقال النجاشي: ليث بن البختري المرادي(أبو محمد) و قيل أبو بصير الأصغر، يروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام . له كتاب، يرويه جماعة منهم: أبو جميلة المفضل بن صالح.[۳]

وقال الشيخ في الفهرست : ليث المرادي، يكنّى أبا بصير، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن موسى عليهما السلام له كتاب.[٤]

وقال في أصحاب الإمام الباقر عليه السلام : ليث بن البختري المرادي، يكنّىٰ أبا

---

۱. انّ العنوان وإن كان خاصاً بليث بن البختري ولكن الروايات التي أوردها تحت ذلك العنوان تعمّه و أبا بصير الأسدي، و هذا يدلّ على سقوط الأسدي من العنوان .

۲.رجال الكشي: ۱٦۹ ، برقم ۲۸٥ـ ۲۸٦.

۳. رجال النجاشي: ۲/ ۱۹۳ برقم ۸۷٤.

٤. الفهرست: ۱۳۰ برقم ٥۷٤.

بصير، كوفي .

وقال في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام : ليث بن البختري المرادي، أبو يحيى، ويكنّى أبا بصير، أسند عنه.

وذكر في أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام : ليث، يكنّى أبا بصير.

وقد ذكر الكشي روايات في مدحه منها ما عرفت، ومنها ما سنذكر.

قال: روى عن سليمان بن خالد الأقطع، قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ما أحد أحيا ذَكرنا وأحاديث أبي عليه السلام، إلاّ زرارة، و أبوبصير ليث المرادي، و محمد بن مسلم، و بريد بن معاوية العجلي، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا، هؤلاء حفاظ الدين وأُمناء أبي عليه السلام على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة.[1]

مميزات المحدِّثَيْن: الأسدي و المرادي

قد عرفت أنّ أبا بصير المذكور في الأسانيد كنية مشتركة بين يحيى الأسدي و ليث المرادي ولا يتجاوز عنهما، وانّ كلاً منهما ثقة بلا كلام، ولذلك لا فائدة مهمة تنطوي على تميز أحدهما عن الآخر. ولكن ثمة قرائن يُستشفّ منها تعيين المراد منه فيما إذا أطلق لفظة أبي بصير.

فيما يميز به الأسدي عن المرادي

إنّ الطريق الواضح لتعيين المراد من أبي بصير عند الإطلاق هو التعرف

١. رجال الكشي: ١٣٦ برقم ٢١٩.

على الذي ينقل عنه الرواية، فانّ طائفـة من الرواة تخرّجوا على يدي يحيى الأسدي، وأُخرى على يدي ليث المرادي. وها نحن نذكر أسماء من تخرّج على الأسدي:

١ . علي بن حمزة البطائني

إنّ علي بن حمزة البطائنـي كان قائد أبي بصير، وقد أكثر الروايـة عنه مصرّحاً باسمه.

يقول النجاشي: علي بن أبي حمزة «واسم أبي حمزة سالم البطائني» كوفي، وكان قائدَ أبي بصير يحيى بن القاسم، وله أخ يسمّى جعفر بن أبي حمزة.[١]

وقـد روى الصدوق في «كمال الـديـن» روايـات أبي حمزة عن يحيـى بـن أبي القاسم[٢]، كما صرح باسمه فيما رواه الصدوق عن ابن أبي حمزة في الخصال.[٣]

٢ . شعيب العقرقوفي

إنّ شعيباً العقـرقـوفي ابـن أُخت أبي بصير يحيـى بـن أبي القـاسـم، قـال النجاشي: شعيب العقـرقوفي، أبو يعقوب ابـن أُخت أبي بصير يحيى بن القـاسم، روى عن أبي عبد الله عليه السلام وأبي الحسن عليه السلام ، ثقة، عين.[٤]

٣ . الحسين بن أبي العلاء

ذكـر الشيخ في تـرجمة يحيى بـن القاسـم، قـال: يكنّى أبـا بصير، له كتـاب

١ . رجال النجاشي: ٢/ ٦٩، برقم ٦٥٤.

٢ . لاحظ كمال الدين: ١/ ٢٥٩، الحديث ٤؛ وج ٢/ ٣٤٠، الحديث ٢٠.

٣ . الخصال: ٢/ ٤٤٣، الحديث ٣٦.

٤ . رجال النجاشي: ١/ ٤٣٥، برقم ٥١٨.

مناسك الحجّ، رواه علي بن أبي حمزة والحسين بن أبي العلاء عنه.[١]

٤. الحسن بن علي بن أبي حمزة

ذكر النجاشي انّه يروي عن أبي بصير عن طريق الحسن بن علي بن أبي حمزة، قال في بيان طريقه إلى يحيى بن القاسم الأسدي: أخبرنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، قال: حدثنا يحيى بن زكريا بن شيبان، قال: حدثنا الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير بكتابه.[٢]

٥. المعلّى بن عثمان

روى الكليني في الكافي في باب «الثوب يصيبه الدم» بسند ينتهي إلى المعلّى ابن عثمان عن أبي بصير، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام و هو يصلّي، فقال قائدي: إنّ في ثوبه دماً، فلمّا انصرف، قلت له: إنّ قائدي أخبرني أنّ بثوبك دماً، فقال لي: إنّ لي دماميل ولست أغسل ثوبي حتى تبرأ. فإنّ الظاهر أنّه الأسدي، لأنّه المحتاج إلى القائد فتأمّل.[٣]

فيما يميّز به المرادي عن الأسدي

ليس هناك قرينة خاصة يميّز بها المرادي عن الأسدي سوى ذكر الراوي اسم أبي بصير بعد كنيته، وها نحن نذكر كلّ من روى عن أبي بصير المرادي

---

١. الفهرست: ٢٠٧ برقم ٧٩٧.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٤١١ برقم ١١٨٨.

٣. سماء المقال: ١/ ٣٨٤.

مصرحاً باسمه و إليك قائمة بأسمائهم:

الأوّل: عبد الله بن مسكان

روى عبد الله بن مسكان عن أبي بصير ٢١ حديثاً مصرحاً باسمه وهي مبثوثة في أبواب كثيرة :

١. عن عبد الله بن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام .

الكافي: ٢/ ٦٠، باب الرضا بالقضاء من كتاب الإيمان، الحديث ٢.

٢. عن ابن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام .

بحار الأنوار:٧٢/ ٣٣٣، باب ذم الشكاية من الله تعالى من أبواب الإيمان والكفر، ح١٩.

٣. عن عبد الله بن مسكان عن أبي بصير يعني ليث بن البختري المرادي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام .

الوسائل: ١/ ٢٦، الباب ٢ من أبواب مقدمات العبادات، ح٢٠ نقله عن المحاسن.

٤. عن عبد الله بن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام .

الوسائل: ٢/ ٨٩٩، الباب ٧٥ من أبواب الدفن، ح٣، نقله عن الكافي.

٥. عن ابن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام .

التهذيب: ١/ ٢٠٩، باب صفة التيمم، ح١١.

٦. عن عبد الله بن مسكان عن ليث المرادي ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام .

التهذيب:١/ ٢٥٨، باب تطهير الثياب، ح٣٧.

٧. عن عبد الله بن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

التهذيب:١/ ٢٠٩، باب التيمم، ح١١.

٨. عن ابن مسكان، عن ليث عن أبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل:٣/ ١٣٨، باب ١٨ من أبواب المواقيت، ح٩، نقله عن علل الشرائع.

٩. عن عبد الله بن مسكان عن ليث المرادي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ٣/ ١٨١، الباب ٤٤ من أبواب المواقيت، ح١.

١٠. عن ابن مسكان عن ليث، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

التهذيب:٢/ ١٦٨، باب تفسير ما تقدم ذكره في الصلاة من المفروض والمسنون، ح١٢٥.

١١. عن عبد الله بن مسكان عن ليث المرادي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام.

الكافي:٦/ ٤٦٨، باب الخواتيم من كتاب الزي والتجمل، ح٦.

١٢. عن ابن مسكان عن ليث المرادي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ٤/ ٩٠٩، الباب ٧ من أبواب السجود، ح٦ نقله عن علل الشرائع.

١٣. عن عبد الله بن مسكان عن أبي بصير المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ٥/ ١١٩، الباب ١٨ من أبواب صلاة العيد، ح١، نقله عن كتاب الإقبال.

١٤. عن ابن مسكان عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٤/ ١١٠، باب الصائم يسعط ويصيب في أُذنه الدخن أو يحتقن، ح٤.

١٥. عن عبد الله بن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٤/ ١٢٨، باب من صام في السفر بجهالة، ح٣.

١٦. عن ابن مسكان عن أبي بصير يعني المرادي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام.

الفقيه: ٢/ ٣٠٠، باب الحلق والتقصير، ح١.

١٧. عن ابن مسكان عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

التهذيب: ٥/ ٤٩٠، باب الزيادات في فقه الحج، ح٤٠١.

١٨. عن ابن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

التهذيب: ٧/ ٤٧، باب البيع بالنقد والنسيئة، ح٩.

١٩. عن ابن مسكان عن أبي بصير يعني المرادي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام.

الفقيه: ٤/ ٢٠٧، باب ميراث الأجداد والجدات، ح٢٠.

٢٠. عن ابن مسكان عن ليث المرادي، و عبد الأعلى بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام.

التهذيب: ١٠/ ١٨٧، باب القود بين الرجال والنساء من كتاب الديات، ح١.

٢١. عن عبد الله بن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٢/ ٦٠، باب الرضا بالقضاء، ح٢.

الثاني: المفضل بن صالح(أبو جميلة)

روى أبو جميلة المفضل بن صالـح عن أبي بصير المرادي ١٦ حديثاً مصرحاً باسمه وهي مبثوثة في أبواب مختلفة:

١. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

التهذيب: ١/ ٣٤٩، باب الأحداث الموجبة للطهارة، ح٢٢.

٢. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ١/ ٢٥١، الباب ٣٥ من أبواب أحكام الخلوة، ح١.

٣. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ٢/ ٦١١، الباب ٢ من أبواب النفاس، ح١.

٤. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ٤/ ٩٧٦، الباب ٢٠ من أبواب السجود، ح٣.

٥. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٣/ ٤٦٠، باب صلاة العيدين والخطبة، ح٤.

٦. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٤/ ٣٤٢، باب ما يلبس المحرم من الثيـاب و ما يكره له لباسه من كتاب الحج، ح١٦.

٧. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

التهذيب: ٥/ ٣٣٩، باب الكفارة من خطأ المحرم من كتاب الحج، ح٨٨.

٨. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٦/ ٢٠٨، باب صيد البزاة والصقور من كتاب الصيد، ح١٠.

٩. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

التهذيب: ١٠/ ٢٥٢، باب ديات الأعضاء والجوارح والقصاص فيها من كتاب الديات، ح٣١.

١٠. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الكافي:٦/ ١٦٨، كتاب الطلاق، باب العبد إذا تزوج بإذن مولاه، ح٢.

١١. عن المفضل بن صالح عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ١٩/ ١٨٩، باب ١٦ من أبواب موجبات الضمان، ح٢.

١٢. عن أبي جميلة عن ليث المرادي، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام.

البحار:٢٢/ ١٢٩، تاريخ نبينا صلى الله عليه وآله وسلم باب ما جرى بينه و بين أهل الكتاب، ح١٠٥ نقله عن الكافي.

١٣.عن أبي جميلة عن ليث المرادي، عن أبي عبد الله عليه السلام.

البحار: ٧٢، باب الكبر من كتاب الإيمان والكفر، ح٥، نقله عن الكافي.

١٤.عن أبي جميلة عن ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

التهذيب:١/ ١٦٥، باب حكم الحيض والاستحاضة والنفاس والطهارة، ح٤٥.

١٥. عن أبي جميلة عن ليث المرادي، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٦/ ٤٠٣، باب لبس الحرير والديباج من كتاب الزي والتجمّل، ح٢.

١٦. عن أبي جميلة عن ليث المرادي، عن أبي عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٢/ ٣٠٩، باب الكبر من كتاب الإيمان والكفر، ح٥.

الثالث: عاصم بن حميد

روى عاصم بن حميد روايات مختلفة عن أبي بصير المرادي مصرحاً باسمه:

١. عن عاصم بن حميد عن أبي بصير يعني المرادي عن أبي جعفر عليه السلام.

الوسائل: ١٥/ ٥٦٩، الباب ١٥ من أبواب الكفارات، ح٤، نقله عن فقه الرضا عليه السلام.

٢. عن عاصم بن حميد عن أبي بصير يعني المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ١٨/ ٤١، الباب ٧ من أبواب صفات القاضي، ح١٠.

٣. عن عاصم بن حميد عن أبي بصير يعني المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

البحار: ٦٤/ ٣١١، باب الذباب والبق والزنبور من كتاب السماء والعالم، ح٣ نقله عن التهذيب.

٤. عن عاصم بن حميد عن أبي بصير ليث المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

التهذيب: ٤/ ١٨٥، باب علاقة وقت فرض الصيام وأيّام الشهر، ح٣.

٥.عن عاصم بن حميد عن أبي بصير يعني ليث المرادي عن أبي جعفر عليه السلام.

الو سائل: ٦/ ٥٥، الباب ١ من أبواب من تجب عليه الزكاة و من لا تجب

عليه، ح٦.

٦. عن عاصم بن حميد عن أبي بصير يعني المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ٩/ ١٢٩، الباب ٤٧ من أبواب تروك الإحرام، ح٦، نقله عن علل الشرائع.

٧. عن عاصم بن حميد عن أبي بصير يعني المرادي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ١٣/ ١٨٥، الباب ٢ من أحكام المضاربة، ح١، نقله عن الفقيه.

هؤلاء هم الذين أكثروا النقل عن أبي بصير المرادي مصرحين باسمه، وهناك من نقل رواية أو روايتين مصرحين باسمه.

الرابع: حميد بن المثنىٰ العجلي المعروف بأبي المعزا

١. عن أبي المعزا حميد بن المثنىٰ عن أبي بصير يعني المرادي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ٣/ ١٤، الباب ٥ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ح٢، نقله عن معاني الأخبار.

٢. عن أبي المعزا عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ٨/ ١٧٣، الباب ٣ من أبواب أقسام الحجّ، ح٧.

الخامس: أبان بن عثمان

عن أبان عن ليث المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام.

الوسائل: ١/ ٦٦٩، الباب ٤٠ من أبواب الاحتضار، ح ٤.

السادس: رفاعة بن موسى الأسدي النخاس

عن رفاعة بن موسى عن ليث المرادي عن أبي بصير[1]، قال سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ.

المحاسن: ٣٧، ثواب ما جاء في التسبيح، ح ٤٠.

السابع: أبو أيّوب الخزاز و عبد الله بن بكير

أبو أيّوب الخزاز وعبد الله بن بكير عن ليث المرادي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام.

الكافي: ٧/ ٣١٠، باب المسلم يقتل الذمي أويجرحه والذمي يقتل المسلم أو يجرحه من كتاب الديات، ح ١١.

التهذيب: ١٠/ ١٨٦، باب القود بين الرجال والنساء من كتاب الديات، ح ٢٧.

ونستخلص ممّا سبق أمرين:

الأوّل: هؤلاء هم الذين رووا عن أبي بصير مصرّحين باسمه في بعض الأحيان، وليكن هذا قرينة على أنّ المراد هو ليث البختري عند الإطلاق فيما إذا انتهت سلسلة السند إليهم.

الثاني: انّ السبر في المسانيد المنتهية إلى أبي بصير يكشف عن حقيقة، وهي

---

١. هكذا في النسخة و لعلّ لفظة «عن» زائدة أو مصحف يعني.

أنّهم يطلقون أبا بصير ولا يصرحون باسمه إلاّ إذا كان المراد منه هو ليث المرادي.

ولعلّ هذا قرينة على أنّ المطلق ينصرف إلى الأسدي، وكأنّه غني عن التصريح بالاسم لشهرته بين الرواة، دون المرادي فهو بحاجة إلى ذكر الاسم، ويؤيد ذلك تسمية الأسدي بأبي بصير الكبير والمرادي بأبي بصير الصغير، ولعلّ ملاكهما هو كبر السن وصغره أو كثرة نقل الروايات أو قلّتها. والله العالم.

***

ولما كان أبو بصير ممن أكثر الرواية عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام و يعد راوية كبيرة وقد أُثيرت حوله إبهامات قام غير واحد من المحقّقين بتأليف رسائل أو تدوين بحوث نفيسة حوله، وإليك بعض أسماء تلك الرسائل والبحوث:

١. **عديمة النظير في ترجمة أبي بصير:** للعلاّمة السيد مهدي الخوانساري (المتوفّى عام ١٢٤٦هـ) ألّفه عام ١٢٣٠ هـ.[١] طبعت في آخر الجوامع الفقهية.

٢. **رسالة في المكنّين بأبي بصير** :تأليف المحقّق الخبير الشيخ محمد تقي التستري(١٣٢٠ـ١٤١٦هـ).

٣. **سماء المقال في علم الرجال:** تأليف المحقّق أبو الهدى الكلباسي (المتوفّى سنة ١٣٥٦هـ)، و قد أفاض بالبحث في الجزء الأوّل من كتابه.[٢]

٤. **معجم رجال الحديث:** تأليف المرجع الأعلى السيد أبو القاسم الخوئي (١٣١٧ـ١٤١٣هـ) فقد عالج في موسوعته الروايات الواردة في حقّ أبي بصير المشعرة بالذم والمدح.[٣]

---

١. الذريعة:٤/ ١٤٨.

٢. لاحظ سماء المقال:١/ ٢٩٨ـ٣٩٢.

٣. لاحظ معجم رجال الحديث: ١٤/ ١٤٠ـ١٥١.

كما أكمل بحوثه في أجزاء أُخر.[١]

ولأجل ذلك لم نستعرض حال الأحاديث التي وردت في حقّ أبي بصير التي نقلها الكشي في ترجمته.

ويشبه أن تكون هذه الروايات مثل ما ورد في حقّ زرارة من الذم صوناً لنفسه ونفيسه، أو من وضع الوضّاعين الحاقدين على شيعة أهل البيت.

وفي الختام نتقدم بالشكر إلى الفاضل الجليل ولدنا الخبير بالحديث الشيخ بشير المحمدي المازندراني الذي شمَّر عن ساعد الجد بإحياء المسانيد المأثورة عن أصحاب الأئمّة عليهم السلام شكر الله سعيه و أجزل أجره. وهو حفظه الله دؤوب في عمله، مقبل على شأنه، وقد أتحف المكتبة الإسلامية بمسند يضم في طياته قرابة (٣٠٠٠) حديث من أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

وهذا العدد الهائل من الروايات الذي هو ضعف ما روي عن زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم، فإنّما هو لأجل أنّ المسند جمع أحاديث محدّثَين كبيرَين، هما: يحيى بن أبي القاسم الأسدي، وليث بن البختري المرادي رضوان الله عليهما.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

في ظهيرة ٢٧ من شعبان المعظم عام ١٤٢٠هـ

٩

العلاّمة المجلسي رحمه الله

مجدّد المذهب في القرن الحادي عشر

الحمد لله والصلاة والسلام على خير رسله، وأفضل بريّته، محمّد وآله الذيـن هم حفظة سننه، وعيبة علمه، صلاة دائمة مادامت السماوات والأرض.

أمّا بعد،

فهذه كلمـة موجزة في تـرجمة الإمام العلاّمة شيـخ الإسلام المولىٰ محمد بـاقر المجلسي رحمه الله (١٠٣٧ـ ١١١٠هـ).

ولا تعني الكلمة بترجمة سيرته وآثاره العلمية التـي تركها، فانّ ذلك يحوجنا إلى تأليف مفرد، بل تعني بتسليط الأضواء على جـانب خاص من جوانب حياته كما يتّضح فيما بعد.

وقـد قام غير واحـد من أعـلام الطائفـة بتـأليف كتـاب أو مقال أو تـرجمة مفصّلة حول حياته.

فقد ألّف شيخنا العلاّمة النوري (١٢٥٤ـ ١٣٢٠هـ) كتاباً باسم «الفيض القـدسي في تـرجمة العلاّمـة المجلسي» ألّفـه عـام ١٣٠٢هــ، ذكـر فيها تـرجمتـه وتصانيفه، كما ذكـر ترجمة مشايخه وتلاميـذه وجملة من أقربـائه، وقد طبع في الجزء

الأوّل من أجزاء البحار ذي الطبعة القديمة.

كما قام زميلنا الشيخ عبد الرحيم الرّبّاني الشيرازي بترجمته ترجمة وافية، وطبع مع الجزء الأوّل من البحار ذي الطبعة الحديثة.

وقد كفانا هذان التأليفان،مضافاً إلى ما ذكره أصحاب المعاجم والتراجم في حقّه.

ولذلك فقد كرّسنا البحث على جانب خاص بقي مغمور الذكر عند معظم أصحاب التراجم وإن أشاروا إليه على وجه الإجمال في ثنايا كلامهم. ألا و هو الجانب الإبداعي والابتكاري من شخصية العلاّمة المجلسي قدّس الله نفسه الزكيّة.

وقبل استعراض هذا الجانب، لابدّ من الإشارة إلى نكتة وهي: انّ العبقري هو من تمتّع بذكاء مفرط وحدّة في الذهن جعله متفوّقاً على الآخرين بكماله وحذقه وبراعته،ويعلم ذلك من خلال منجزاته العلمية.

فلو كان هذا هو الملاك لوصف المرء بالعبقرية، فشيخنا المجلسي يعدُّ في طليعتهم، فقد نال إعجاب العلماء بموسوعته الكبيرة المسمّاة بـ«بحار الأنوار» وفاق الآخرين بآثاره التي قلّما يوجد لها نظير.

وناهيك عن ذلك فانّ الإبداعات والابتكارات العلمية التي قام بها والتي خلّدته في التاريخ جعلته من النوادر الذين يُشار إليهم بالبنان ، ها ونحن نشير إلى أهمّها:

١ . ابتكار دائرة معارف شيعيّة

إنّ كتاب البحار دائرة معارف إسلامية بصبغة شيعية جمع فيها و لأوّل مرّة

ما يرجع إلى الكتاب والسنّة من فنون الفقه والتفسير والحديث والرجال و أُصول العقائد و الكلام وأُصول الفقه والتاريخ إلى غير ذلك من فنون رائجة بين المسلمين إلى عصره.

لقد ظهر هذا النمط من تدوين العلوم وضمّها في دوائر المعارف عند اليونانيين، ثمّ أعقبهم المسلمون حيث قاموا بتأليف دوائر معارف مختلفة ضمّوا فيها جميع العِلوم الرائجة، ونذكر منها ما يلي:

١. رسائل إخوان الصفا :وهي مجموعة تشتمل على إحدى وخمسين رسالة في علوم مختلفة ألّفتها جمعيّة إخوان الصفا أواسط القرن الرابع.

٢. إحصاء العلوم للمعلم الثاني أبو نصر محمد بن طارخان الفارابي (المتوفّى عام ٣٣٩هـ).

٣. «شمس العلوم» لنشوان بن سعيد بن نشوان الحميري (المتوفّى ٥٧٣هـ) في ١٨ مجلداً.

٤. «نفائس الفنون في عرائس العيون» لمحمد بن محمود الآملي (المتوفّى ٧٥٣هـ).

٥. «لسان الخواص» لآقا رضي القزويني محمد بن الحسن(المتوفى ١٠٩٦هـ) في عدّة أجزاء.[١]

إلى غير ذلك من موسوعات كبيرة بين ما يختص بقسم من العلوم كالفلسفة والآداب وبين ما يعم أغلب العلوم.

غير انّ جميع دوائر المعارف تلك تتمحور حول العلوم والأفكار البشرية التي لها قيمتها الخاصة، إلاّ انّ شيخنا المجلسي اتخذ طريقاً آخر، وهو جمع ما ورد

١. لاحظ الذريعة:٨/ ٣ـ١٥ حيث ذكر فيها لمحة تاريخية عن دوائر المعارف.

في دائرة الوحي من الآيات والروايات، والتحقيق حولها وبسط الكلام في مضامينها ومعضلاتها .

وعلى كلّ تقدير فالموسوعة صورة ناطقة عن عبقريّة مؤلّفها وطول باعه وقوة تفكيره وعلوّ همته،وقد استسهل في سبيل تأليفها كل المشاقّ والمصاعب.

فها هو شيخنا المؤلف يصف جهوده المبذولة في ترصيف هذا الأثر يقول: فطفقت أسأل عنها ــ عن الكتب ـ في شرق البلاد و غربها حيناً، وألحّ في الطلب لدى كلّ من أظن عنده شيئاً من ذلك، و إن كان به ضنينا، وقد ساعدني على ذلك جماعة من الإخوان، ضربوا في البلاد لتحصيلها، وطلبوها في الأصقاع والأقطار طلباً حثيثاً حتى اجتمع عندي بفضل ربّي كثير من الأُصول المعتبرة التي كان عليها معوّل العلماء في الأعصار الماضية، و إليها رجوع الأفاضل في القرون الخالية، فألفيتها مشتملة على فوائد جمة خلت عنها الكتب المشهورة المتداولة، واطّلعت فيها على مدارك كثير من الأحكام، اعترف الأكثرون بخلو كلّ منها عما يصلح أن يكون مأخذاً له، فبذلت غاية جهدي في ترويجها وتصحيحها وتنسيقها وتنقيحها.[١]

٢. ابتكاره للتفسير الموضوعي

كان التفسير الرائج بين المفسرين هو تفسير القرآن الكريم حسبَ ترتيب السور، فيبادر المفسر إلى تفسير سورة الحمد ثمّ سورة البقرة وهكذا. فمنهم من يحالفه النجاح و ينهي تفسيره إلى نهاية القرآن الكريم، ومنهم من يَخفق في إتمام هذه المهمة.

١. بحار الأنوار: ١/ ٤.

وعلى كلّ حال فقد كان هذا هو التفسير المتداول بين معظم المفسرين إلى عصر المجلسي. إلاّ أنّ المجلسي ابتكر أُسلوباً جديداً في التفسير، وهو تفسير القرآن حسب الموضوعات التي يطرحها من خلال جمع آيات كلّ موضوع في محل واحد، ثمّ تفسيرها دفعة واحدة، وحلّ إبهام الآيات بعضها ببعض.

وهذا النمط من التفسير له مزيّته الخاصة كما أنّ للتفسير الترتيبي مزية، غير انّ الوقوف على الهدف المنشود من الآيات التي تحوم حول موضوع واحد إنّما يتبيّن من خلال التفسير الموضوعي، حيث يقف المفسِّر على ما هو المقصود دفعة واحدة، بعرض الآيات بعضها على بعض والخروج بحصيلة معينة.

هذا هو الذي قام به شيخنا المجلسي على وجه موجز حيث صنف الآيات القرآنية حسب الموضوعات وبثّها في أبواب بحار الأنوار، وفسرها على وجه الإيجاز حسب ما سمح به الوقت، وقد اعتمد في ذلك على تفسير «مجمع البيان» للطبرسي (المتوفّى ٥٤٨هـ) وتفسير «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوي (المتوفّى ٦٨٥هـ) وغيرهما من التفاسير.

نعم التفسير الموضوعي في إطار ضيّق قد سبقه إليه الفقهاء في تفسير خصوص آيات الأحكام، فقد ألّف جمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري الحلي (المتوفّى ٨٢٦هـ) كتاب «كنز العرفان في فقه القرآن» فهو يتعرض لآيات الأحكام فقط، ولا يفسر الآيات سورة فسورة على حسب ترتيب المصحف ذاكراً ما لكلّ سورة من آيات الأحكام، كما فعل الجصاص وابن العربي، بل طريقته في تفسيره انّه يعقد أبواباً كأبواب الفقه، ويدرج في كلّ باب منها الآيات التي تدخل تحت موضوع واحد، فمثلاً يقول: باب الطهارة ثمّ يذكر ما ورد في الطهارة من الآيات القرآنية، شارحاً كلّ آية منها على حدة، مبيّناً ما فيها من الأحكام، على

حسب ما تذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية في فروعهم مع تعرضه للمذاهب الأُخرى، وردّه على من يخالف ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية.[١]

وجاء بعده المحقّق الأردبيلي فألّف «زبدة البيان في أحكام القرآن» على غرار «كنز العرفان».

وعلى كلّ حال فهذا النمط من التفسير الموضوعي كان في إطار خاص، كما قام بعض علماء الأخلاق بهذا النوع في التفسير الموضوعي، لكن في إطار الموضوعات الأخلاقية، كما فعله الغزالي (المتوفّى ٥٠٥هـ) في «إحياء العلوم».

وأمّا المنهج الذي سلكه الشيخ المجلسي فقد استوعب جميع الموضوعات الواردة في القرآن الكريم، حسب نظره وحسب ما ورد فيه الروايات، فصدر كلّ باب بآياته وتفسيره ثمّ نقل رواياتهم، فهذا النوع ابتكار منه في هذا المضمار، ولو قام باحث بإخراج ما في بحار الأنوار من التفسير الموضوعي لجاء بموسوعة كبيرة وإن كان تفسيره على وجه الإيجاز.

٣. ابتكار العمل الجَماعيّ في التأليف

إنّ الرائج بين العلماء في التأليف و التصنيف هو العمل الفردي، فيتصدّىٰ كلّ واحد منهم بهمة قعساء لتأليف موسوعة كبيرة وربما ينجح فيها بعض النجاح،ولكن العمل الفردي مهما كابد فيه المؤلف لا يخلو من نقص.

وأمّا إذا أشرف على هذا العمل فريق من المحقّقين ذوي اختصاصات مختلفة فربما يكون أقلّ نقصاً وأكثر فائدة، وقد تقدم انّ جماعة إخوان الصفا شاركوا في تأليف موسوعة فلسفية كبيرة، و تسربت تلك الفكرة إلى الغرب وراجت بينهم

١. التفسير والمفسرون: ٢/ ٤٦٥.

المشاركة في تـأليف الموسوعات كما في دوائر المعارف، وقـد جسّد شيخنا المجلسي تلك الفكرة في موسوعته «بحار الأنوار»، فاستعان بلفيف من تلامذته الذين ناهز عددهم المائتين بين مجتهد، ومحدث، ومفسر، ولغوي، ومؤرخ، وناسخ، ومصحح، إلى غير ذلك، وانفرد هو بتفسير معضلات الأحاديث ومشكلاتها،ولذلك نرى في النسـخ الأصلية انّ الحديـث كتب بخـط، وشرحـه بخط آخـر هو خـطّ المجلسي نفسه، و هذا يعرب عن وجود بـرنامج منسّق للتأليف يبين فيه مسؤولية كلّ واحد في ترصيف هذه الموسوعة الإسلامية الكبيرة.

٤. إبداع التأليف باللغة الفارسية

لا شكّ انّ اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي وحديث الأئمّة الطاهرين عليهم السلام ، وهي أحدى الأواصر التي تجمـع المسلمين،ولذلك انبرىٰ علماء الإسلام على اختـلاف ألسنتهم على التـأليف بلغـة الضاد، وهيمنـت اللغةُ العربية على معظم مصنّفاتهم وتآليفهم.

وهناك من لم يقتصر على التأليـف باللغة العربية فحسب، بـل صنف بلغة أبنـاء جلدتـه غير العرب، لماّ أحـسَّ من أنّ كثيراً مـن المسلمين لا يجيدون اللغـة العربيـة وهم بحاجـة ماسّة إلى فهم مقـاصد الشريعة وتعـاليمها، ولذلـك عادوا يؤلّفون كتباً كثيرة بلغة قومهم خدمة لهم.

وشيخنا المجلسي أحـد من شـارك في هذا المضمار، فقد ألـف كتباً بـاللغة الفارسية ينـاهز عددها ٥٣ بين كتـاب ورسالة منها «عين الحيـاة» و«حقّ اليقين» و«حليـة المتقين» و«حياة القلـوب» و«جـلاء العيـون» إلى غير ذلك مـن الكتـب و الرسائل التي ذكرت في ترجمته.[1]

١. مقدمة بحار الأنوار: ١/ ١٣ـ ١٤.

٥. الاهتمام بشرح الأحاديث

إنّ مقاصد الشريعة تتجلّى في القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد قام المسلمون بتفسير القرآن الكريم، وجمع الحديث، ولكن لم يكن اهتمامهم بتفسير الحديث كاهتمامهم بتفسير القرآن الكريم.

نعم قام غير واحد من أهل السنة بتبيين غوامض أحاديث البخاري، منهم أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) حيث قام بشرح صحيح البخاري أسماه «فتح الباري»، وقد طبع في عشرة أجزاء.

كما قام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ) بشرح صحيح مسلم.

إلى غير ذلك من الشروح على الصحاح والسنن التي يطول ذكرها.

وأمّا الشيعة الإمامية فقد كان الرائج في أوساطهم هو تدوين الحديث دون شرحه، وقد راج تفسير الحديث وشرحه بصورة موسوعات كبيرة في القرن العاشر الذي نشطت فيه الحركة الاخبارية، فقد قام والد الشيخ المجلسي محمد تقي بن مقصود علي المجلسي (١٠٠٣ـ ١٠٧٠هـ) بشرح «من لا يحضره الفقيه» وأسماه «روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه» في ١٢ جزءاً.

كما قام نجله محمد باقر المجلسي بشرح أُصول الكافي أسماه «مرآة العقول» في ٢٦ جزءاً، كما شرح «تهذيب الأحكام» للشيخ الطوسي واسماه «ملاذ الأخيار في شرح تهذيب الأخبار» وقد طبع في عشرة أجزاء.

كما وسار على نفس المنهج أيضاً في موسوعته «بحار الأنوار» وبذلك أسدى للشيعة خدمة كبيرة في حلّ معضلات الأخبار ومشاكلها، وتمييز صحيحها عن سقيمها خصوصاً في كتاب «مرآة العقول».

فمن راجع ذلك الكتاب الذي طبع في ٢٦ جـزءاً يرى أنّه تحمل عبئاً ثقيلاً في تفسير لغات الأحاديث وتبيين غوامضها إلى غير ذلـك من المباحث الهامة التي يزخر بها الكتاب الذي يعد من أنفس ما تركه المجلسي في حقل الحديث.

نعم، كتابـه الآخر، أعني: «ملاذ الأخيار في شرح تهذيـب الأخبار» دون هذا الكتاب في الشرح والبسط، والتوضيح والتحقيق وإن كان له قيمته الخاصة.

وقـد سبـق العـلاّمـة المجلسي والـده كما أشرنـا إليـه، والمحـدث الفيـض الكاشاني(١٠٠٧ـ ١٠٩١هـ) في كتـابـه «الوافي» حيـث جمع أحـاديث الكتـب الأربعـة، فكـان لا يمرّ بحـديـث إذا كـان فيـه إعضال إلاّوقـد أحلّـه، ولا إبهام إلاّ رفعه.

وهذا النهج الذي سلكـه هؤلاء الأعلام الثلاثة لو اختطّـه من أعقبهم من المحدثين واستمروا على ضوئه ،لاتّضح كثير من المعضلات والمشاكل التي تواجه الأحاديث،ولزاد التراث الحديثي غنى.

٦. إحياء التراث الحديثي

كان مطلـع القرن الحادي عشر مسرحـاً للتيارات الفكـرية المختلفـة، فمن مكب على العلـوم الطبيعية كـالنجوم والريـاضيات والطـب، إلى آخر متـوغّل في الحكمة والعرفـان والمعارف العقلية التي لا تدرك إلاّ بقسطاس العقـل، إلى ثالث مقبل على علم الشريعة من خلال نافذة العقل مع يسير من النقل.

هذا وذاك صار سببـاً إلى ظهور الحركة الاخباريـة التي كانت تعـارض هذه العلوم ومبادءها، وبالرغم مـن ذلك كان لها دور مهم في تفعيل النشاط الحديثي، وقد ربّت تلك الحركـة محدّثين كبار، أمثال: الفيض الكاشاني ، الشيـخ محمد تقي

المجلسي، الشيخ الحرّ العاملي، السيد هاشم البحراني. وفي مطلع الأكمة شيخنا المجلسي ﵀، فقد أحيا التراث الديني بمنجزاته الحديثيةوراج سوق الحديث ومدارسته وكتابته، حتى ألّف بعض تلاميذه، أعني: الشيخ عبد الله بن نور الدين البحراني موسوعة «عوالم العلوم» الّتي تبلغ مائة مجلد،وقد سلك منهج أُستاذه في البحار، إلاّ أنّ هذه الموسوعة لم تر النور إلاّ بعض أجزائها عسى أن يقيض الله سبحانه ذوي الهمم العالية بإخراجها بحلة قشيبة.

لم يقتصر العلاّمة المجلسي على التأليف والتصنيف فحسب بل أكبَّ على التدريس وتربية جيل من رواد العلم، والإجازات الموجودة تكشف عن أنّه كان مدرساً معروفاً سنة (١٠٧٠هـ) أي قبل أربعين سنة من وفاته، وبقي مكبّاً على الدرس والتدريس حتى أيّامه الأخيرة على الرغم من كثرة مسؤولياته بسبب زعامته الدينية التي غطت دنيا الشيعة في ذلك العصر، فلم تمنعه الشواغل الأجتماعية عن تربية جيل ممتاز من العلماء والمحدّثين ناهز عددهم حسب ما ذكره المحدّث النوري في كتابه المعروف «الفيض القدسي»٢٩ تلميذاً وسرد أسماءهم وترجم لهم.

وأعقبه شيخنا المجيز الطهراني في كتابه «طبقات أعلام الشيعة» فذكر ما كتبه النوري، وأضاف عليه ما وجده من المعلومات في المصادر المتوفرة لديه.

وكان السيد مصلح الدين الاصبهاني أكثر استيعاباً في كتابه الفارسي «**زندگينامۀعلاّمۀ مجلسى**» فانّه ترجم لمائة وواحد وثمانين تلميذاً بالإضافة إلى عدد ممن احتمل أنّهم من تلامذته.

كما قام السيد أحمد الحسيني الأشكوري بترجمة مائتين و أحد عشر تلميذاً في كتابه «تلامذة العلاّمة المجلسي والمجازون منه».

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّه بذل جهوداً جبّارة في تنشيط الحركة

العلمية الحديثية فتركت بصمات واضحة على التراث الشيعي برّمته.

كلمة ختامية

وقبل أن نختم البحث نود الإشارة إلى أمرين:

الأوّل: ربما يثار سؤال حول كتاب بحار الأنوار وسائر كتبه وهو انّ كتاب البحار يضمّ في طيّاته أخباراً ضعافاً مخالفة لأكثر الموازين العلمية، فلِمَ نقلها الشيخ المجلسي في كتابه؟

والإجابة عن هذا السؤال واضح، وهي انّ المؤلف قبل كلّ شيء كان بصدد الجمع والنظم وصيانة التراث الشيعي من الضياع، ولم يكن بصدد النقد، وقد جمع مكتبات كثيرة في موسوعة كبيرة،وترك التحقيق للأجيال التي تعقبه.

مضافاً إلى أنّه لم يترك التعرض إلى ضعف الخبر أو نقده كلّما سمح له الوقت، ولذلك ترى أنّ منهج بحثه في «البحار» غير منهجه في «مرآة العقول»، فقد صار في الكتاب الأخير بصدد التحقيق والنقد فلا يمرَ بحديث إلاّ ويوضح سنده ومتنه ومدى اعتباره ومقدار دلالته وموافقته أو مخالفته للموازين العلمية.

فعلى القارئ الكريم أن ينشد الغرض المتوخّى من تأليف الكتاب، فالغرض من تأليف البحار غالباً هو النضد والجمع، ولكن الهدف من تأليف مرآة العقول هو النقد والتحقيق.

الثاني: انّ بعض المستشرقين كـ «ادوارد برون» مؤلف تاريخ «أدبيات إيران» والكتّاب الجُددَ الذين لا يروق لهم نشر مآثر أهل البيت عليهم السلام استهدفوا المجلسي بسهام النقد، ولم يكن في كنانتهم إلاّ رميه بسباب مقذع، بعيداً عن روح النقد الموضوعي، وما هذا إلاّ لأنّهم لم يجدوا ثغرة ينفذون من خلالها إلى شخصية

المجلسي، فعادوا يقرعونه بالترهـات والسفاسف دون جدوىٰ، و كلّ ذلك لا يحطّ من منزلة شيخ الإسلام المجلسي فقد قيل: «من ألّف فقد استهدف».

ولو كان شيخنا المؤلـف بصدد جلب رضا هؤلاء لكان عليـه أن يعزف عن كلّ جهوده،ولكن لم يكن رائده في هذا السبيل إلاّ رضـا الله سبحانه ورسوله ورضا الأئمّة المعصومين ﷺ، ولسان حاله:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي — فلا زال غضبـاناً عليّ لئامها

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق ﷺ

٢٨ شهر رمضان المبارك

من شهور عام ١٤٢٠هـ

١٠

زيارة النساء للقبور في الشريعة الإسلامية

لقد أسعفني الحظ هذا العام (١٤٢١هـ) بزيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة المفردة، والتشرّف بزيارة النبيّ ﷺ وأئمّة البقيع عليهم السلام وبقية المشاهد المباركة، وقد استرعىٰ انتباهي عند زيارتي البقيع منع النساء من دخولها من قبل السلطات السعودية، و ذلك بفتوىٰ بعض فقهاء الحنابلة مع أنّ الأدلة الشرعية على خلافها، وهي تدلّ على كون الرجال والنساء في ذلك سواسية، ومن حسن الحظ فقد التقيت بأحد الآمرين بالمعروف في البقيع ودار حوار بيني وبينه حول زيارة النساء للقبور، وقد تبادلنا فيه بعض الرسائل، ولذلك عزمت علىٰ كتابة رسالة مفصلة في هذا الموضوع استعرض فيها أدلّة الموافق والمخالف على وجه لا يبقىٰ لمشكّك شك، ولا لمرتاب ريب.

هذه هي الرسالة التي أُقدّمها لطلاّب الفقه في الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة عسى أن تنال رضاهم.

المؤلف

زيارة القبور في الشريعة الإسلامية

اتّفق المسلمون على استحباب زيارة القبور تأسّياً بالنّبي الأكرمﷺ في قوله وفعله.

«قال النووي تبعاً للعبدري والحازمي وغيرهما: اتّفقوا على أنّ زيارة القبور للرجال جائزة.

نعم حكي عن ابن أبي شيبة وابن سيرين وإبراهيم النخعي والشّعبي،الكراهة، حتّى قال الشعبي: لولا نهي النبيﷺ لزرت قبر ابنتي... وكأنّ هؤلاء لم يبلغهم الناسخ».[1]

وسيوافيك تضافر الأدلّة على استحبابها لما فيها من الأمر والبعث والأثر البنّاء، أعني تذكّر الآخرة، والزهد في الدنيا. وما أبعد هذا القول عما حكي عن ابن حزم أنّ زيارة القبور واجبة ولو مرّة واحدة، لورود الأمر بها، وبما أنّ استحبابها للرجال أمر متّفق عليه إلاّ من شذّ من الذين لم يبلغهم قول النبيﷺ وفعله، فلا نطيل الكلام فيها.

إنّما الكلام في استحبابها أو جوازها للنساء، فأكثر أهل السنّة على الاستحباب.

قال ابن حجر: واختلف في النساء، فقيل دُخلن في عموم الإذن، وهو قول

---

١. ابن حجر، فتح الباري: ٣/ ١٤٨.

الأكثر، وقيل الإذن خاص بالرجال، ولا يجوز للنساء زيارة القبور، وبه قال الشيخ أبو إسحاق في المهذب.[١]

وقال السندي في شرحه على سنن النسائي عند شرح قوله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». فيه جمع بين الناسخ والمنسوخ، والإذن بقوله «فزوروها»، قيل: يعمّ الرجال والنساء، وقيل: مخصوص بالرجال، كما هو ظاهر الخطاب، لكن عموم علّة التذكير الواردة في الأحاديث قد يؤيد عموم الحكم، إلاّ أن يمنع شمول قوله «وتذكر الآخرة» للنساء لكثرة غفلتهن.[٢]

ونقل النووي في شرحه على «صحيح مسلم» أقوالاً ثلاثة:

أ. الحرمة ، ب. الكراهة،ج. الجواز.[٣]

هذه الكلمات تعرب عن اختلاف الآراء وإن كان الأكثر على الجواز، وهو الحقّ المتعيّن للأدلة التالية:

١ . حديث عائشة

أخرج النسائي في سننه عن عائشة، انّها قالت: ألا أُحدِّثكم عنّي و عن النبي ﷺ؟ قلنا: بلى، قالت: لما كانت ليلتي التي هو عندي ـ تعني النبيﷺ ـ انقلب فوضع نعليه عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فلم يلبث إلاّ ريثما ظن قد رقدتُ، ثمّ انتعل رويداً، وأخذ رداءه رويداً، ثمّ فتح الباب رويداً، وخرج رويداً، وجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري، وانطلقت في أثره،

---

١. ابن حجر، فتح الباري: ٣/ ١٤٨.

٢. النسائي، السنن، بشرح السيوطي والسندي: ٤/ ٨٩.

٣. النووي، شرح صحيح مسلم:٧/ ٤٩.

حتّى جاء البقيع، فرفع يديه ثلاث مرات فأطال، ثمّ انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرولَ فهرولتُ، فأحضرَ فأحضرتُ، وسبقته فدخلتُ فليس إلاّ أن اضطجعتُ، فدخل فقال :ما لك يا عائشة حشيا رابية؟.

قالت: لا، قال:لتُخْبِرَنِّي أو ليُخْبِرَنِّي اللطيف الخبير، قلت يا رسول الله: بأبي أنت وأُمّي فأخبرته الخبر، قال: فأنتِ السواد الذي رأيت إمامي، قالت: نعم. فلهزني في صدري لهزة أوجعتني، ثمّ قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله، قلت: مهما يكتم الناس فقد علمه الله.

قال : فانّ جبرئيل أتاني حين رأيت ولم يدخل عليَّ، وقد وضعت ثيابك فناداني فأخفى منك، فأجبته فأخفيته منك، فظننت ان قد رقدتِ وكرهتُ أن أُوقظك وخشيتُ أن تستوحشي، فأمرني أن آتي البقيع فأستغفر لهم، قلت: كيف أقول يا رسول الله؟

قال: قولي: السّلام على أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون.[١]

وجه الدلالة: انّ تعليم الزيارة آية جوازالعمل بها.

مضافاً إلى أنّ قوله: «وكرهت أن أُوقظك» مشيراً إلى أنّه ﷺ كره إيقاظها لتشاركه في زيارة البقيع.

نعم ليس في الرواية ما يدلّ على دخولها البقيع، وإنّما خرجت من بيتها للاطلاع على حال الرسول، وانّه إلى أين ذهب، لكن الاستدلال ليس منصبّاً على دخولها البقيع وزيارتها مع النبي، بل هو منصبّ على أنّه ﷺ علّمها الزيارة،

١. سنن النسائي: ٤/ ٩١، الأمر بالاستغفار للمؤمنين؛ صحيح مسلم: ٣/ ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها. واللفظ في المتن للنسائي، وبين النقلين اختلاف طفيف. قوله «حَشْيا»: مرتفعة النفس.

وعندئذٍ لا يخلو الحال من صورتين:

الصورة الأُولى: علّمها وكانت الزيارة للنساء مستحبة أو جائزة.

الصورة الثانية: علّمها وكانت الزيارة لهنّ محرمة.

فعلى الأُولى يثبت المطلوب، وعلى الثانية يلزم اللغوية كما هو واضح، لأنّه ﷺ كيف يعلمها الزيارة المحرمة، وهذا أشبه بتعليم الحرام؟!

وربما يتصور: انّما تعلّمت لتزور البقيع من بعيد، ولكن هذا التصوّر من السخافة بمكان، لأنّ الزيارة عبارة عن حضور الزائر لدى المزور، فما معنى الزيارة من بعيد؟! ولو كانت الغاية من التعليم هو ذاك النوع من الزيارة كان عليه ﷺ أن ينبهها ويأمرها بذلك.

على أنّ معنى قولها: «كيف أقول؟» أي: كيف أقول عند زيارتي البقيع كزيارتك إيّاه؟ فعلّمها الرسول نفس ما كان يقوله عند زيارته.

٢. حديث بريدة

أخرج مسلم في صحيحه، عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: نهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها.[١]

وأخرجه النسائي في سننه عنه مثل ذلك، وزاد: فمن أراد فليزر ولا تقولوا هجراً.[٢]

٣. حديث أبي هريرة

وأخرج ابن ماجة في سننه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «زوروا

---

١. صحيح مسلم: ٣/ ٦٥، باب استئذان النبي ربّه في زيارة قبر أُمّه.

٢. سنن النسائي: ٤/ ٨٩، باب زيارة القبور.

القبور فانّها تذكّركُم الآخرة».

وفي نقل آخر: فزوروا القبور فإنّها تذكّركم الموت.[١]

٤ . حديث ابن مسعود

أخرج ابن ماجة في سننه، عن ابن مسعود، انّ رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانّها تُزهّد في الدّنيا وتذكّر الآخرة».[٢]

قال ابن حجر: وقد أخرج مسلم حديث بريدة، وفيه نسخ النهي عن ذلك، ولفظة :«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» وزاد أبو داود والنسائي في حديث أنس: «فانّها تذكر الآخرة»، وللحاكم من حديث فيه: «وترقّ القلب وتدمع العين، فلا تقولوا هجراً» أي كلاماً فاحشاً.

وله من حديث ابن مسعود: «فانّها تزهد في الدّنيا»، ولمسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «زوروا القبور فانّها تذكّر الموت».[٣]

وجه الاستدلال هو عموم الخطاب للرجال والنساء ولا يضرّ تذكير الضمير، لما ثبت في محلّه من أنّ خطابات القرآن والسنّة تعمّ الصنفين إلاّ ما خرج بالدليل، وقوله سبحانه: **﴿وَ أَقيمُوا الصَّلاة وآتُوا الزَّكاة﴾**[٤]؛ **﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوّكُمْ أَولياء﴾**[٥]؛ **﴿أَنْ لا تشركُوا بِهِ شَيئاً﴾**[٦] إلى عشرات الأمثال، يعم الصنفين بلا ريب ومنه هذا الحديث.

---

١. سنن ابن ماجة: ١/ ٥٠١، حديث ١٥٧٢.

٢. سنن ابن ماجة: ١/ ٥٠١، حديث ١٥٧١.

٣. فتح الباري: ٣/ ١٤٨.

٤. البقرة: ١١٠.

٥. الممتحنة: ١.

٦. الأنعام: ١٥١.

أضف إلى ذلك انّ التعليل في الحديث آية الشمول، لأنّ قوله: «فإنّها تذكّركم الآخرة» لا يقبل التخصيص، وقد قرر في علم الأُصول انّ العلّة تعمم وتخصّص، وهل يصحّ في منطق العقل الصريح، اختصاص ما يذكّر الآخرة بالرجال وحرمان النساء منه؟!

٥. حديث أنس بن مالك

أخرج البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك، قال: مرَّ النبي بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري، قالت: إليك عنّي فانّك لم تُصب بمصيبتي ولم تعرفه.

فقيل لها: إنّه النبيّ ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنّما الصبر عند الصدمة الأُولى.[١]

قال ابن حجر في تفسيره: قوله :الصدمة الأُولى:«وفي رواية الأحكام عند أوّل صدمة» ونحوه لمسلم، والمعنى إذا وقع الثبات أوّل شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع، فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر، وأصل الصدم ضرب الشيء الصلب بمثله، فاستعير للمصيبة الواردة على القلب.[٢]

وجه الدلالة: انّ النبي ﷺ أوصاها بالتقوى والصبر، وكأنّها قالت في كلامها شيئاً يخالف التقوى.

قال القرطبي: الظاهر انّه كان في بكائها قدر زائد من نوح أو غيره، ولهذا

---

١. صحيح البخاري: ٢/ ٧٩، باب زيارة القبور

٢. فتح الباري: ٣/ ١٤٩، باب زيارة القبور.

أمرها بالتقوى.

قال ابـن حجر: ويؤيـده انّ في مرسل يحيى بـن كثير: «سمع منها مـا يكره فوقف عليها» فلو كان وقوفها على القبر وزيارتها له أمراً محرماً كان عليه أن يردعها عنه، مع أنّه ﷺ أمرها في كلا اللقاءين بالصبر.

٦ . زيارة عائشة قبر أخيها

أخرج الترمذي في سننـه، عن عبد الله بن أبي مليكة، قال: تـوفّي عبد الرحمن ابن أبي بكـر بـ«حبشىٰ»، قال: فحمـل إلى مكة فدفن فيهـا ، فلمّا قدمتْ عـائشة، أتت قبر عبدالرحمن بن أبي بكر، فقالت:

وكنّا كندمــاني جذيمـة حِقْبـةً ... من الدهر حتى قيل : لن يتصدعا
فلمـا تفـرقنــا كـأنـي و مالكـا ... لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلـة معـا

ثـمّ قالـت: والله لوحضرتـك مـا دفنت إلاّ حيـث مـتَ، ولو شهـدتك مـا زرتك.[1]

والمتبادر مـن العبارة انّها لما قدمـت مكة ذهبت إلى زيـارة قبر أخيها لا انّها مرّت عليه عفواً في طريقها إلى مكة.

وأمّا قولها: «ولو شهدتـك لما زرتك» فهو بمعنىٰ انّي بها ان لم أؤدّي حقّك في حال حياتك، فلـذلك أزورك بعد مماتك ولو كنت مؤديـة لحقّك لما تحملت عبء زيارتك.

۷. زيارة السيدة فاطمة عليها السلام قبر حمزة

أخرج الحاكم في مستدركه، عن علي بن الحسين، عن أبيه: انّ فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت تزور قبر عمّها حمزة كلّ جمعة وتبكي عنده.

قال الحاكم بعد نقل هذا الحديث: «رواته عن آخرهم ثقات».[۱]

هذه الروايات العديدة الصحيحة تدل بوضوح على جواز الزيارة للنساء، ومن أمعن النظر فيها يقف على أنّ المسألة من الوضوح بمكان غير انّه إكمالاً للبحث نذكر دليل المخالف، وهي ليست إلاّ شبهاً طارئة.

دليل من لم يجوّز زيارة القبور للنساء

احتجّ المخالف بوجوه:

الأوّل: بما أخرجه الترمذي، عن أبي هريرة انّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن زوّارات القبور.[۲]

وأخرجه ابن ماجة عن حسّان بن ثابت، وعن ابن عباس واللفظ في الجميع واحد.

قال الترمذي صاحب السنن: وقد رأى بعض أهل العلم انّ هذا كان قبل أن يرخّص النبي في زيارة القبور، فلمّا رخّص دخل في رخصته الرجال والنساء.

وقال بعضهم: إنّما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهنّ وكثرة جزعهنّ.[۳]

---

۱. الحاكم: المستدرك: ۱/ ۳۷۷، كتاب الجنائز.

۲. سنن الترمذي: ۳/ ۳۷۱، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء من كتاب الجنائز، حديث ۱۰٥٦.

۳. المصدر نفسه.

وقال القرطبي: لم يلعـن النبي كلّ امرأة تزور القبور بـل لعن المرأة التي تزور القبور دوماً، والدليل على ذلك قوله ﷺ: زوّارات القبور، وكلمة «زوار» هي صيغة المبالغة وتدلّ على الكثرة والتكرار.

أقول: إنّ أمر هذا الحديث دائر بين كونه منسـوخاً أو مخصصاً، فلو ورد قبل الترخيص كان عمـوم الترخيص «فزوروا» ناسخاً والحديث منسـوخاً وإن ورد بعد الترخيص يكون مخصصاً، فإذا دار أمره بين كونه متروكاً أو معمولاً به فلا يحتج به.

الثاني: مـا أخـرجه ابـن مـاجـة عـن إبـن الحنفية، عـن علي، قـال: خـرج رسول الله ﷺ فإذا نسوة جلوس، فقال: ما يجلسكنَّ؟ قلنَ: ننتظر الجنازة.

قال: هل تغسلن؟ قلن: لا، قال: هل تحملن؟ قلن: لا.

قال: هل تدلين فيمن يدلي؟ قلن: لا.

قال: فأرجعنَ مأزورات غير مأجورات.[١]

إنّ الحديث قاصر سنداً ودلالة.

أمّا السند ففيه دينار بن عمر (أبوعمر).

قال أبـو حاتـم في حقّه : إنّـه ليس بـا لمشهور، وقـال الأزدي: متروك، وقال الخليل في الإرشاد: كذّاب، وقال ابن حبان: يخطئ.

فهل يمكن أن يستدل بحديث كهذا.

وأمّا الدلالة ففيها **أوّلاً**: أنّ النبـيّ ﷺ يـذم النسوة اللـواتي لم يكن لهنّ أيّـة مسؤولية في تجهيز الميّت، وإنّما جلسنَ للنظـر والمشاهدة، وإلاّ فلو كان لهنّ مهمة

---

١. سنن ابن ماجة: ١ / ٥٠٢، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، الحديث ١٥٧٨.

معينة فتنعكس القضية، ويكنّ مأجورات لا مأزورات، ولذلك سألهن النبي ﷺ عن وجه جلوسهن فلمّاعلم حالهنّ ندد بهنّ.

وثانياً: أنّ غاية ما يمكن حمل الرواية عليها هو النهي عن اتّباع النساء الجنائز، وقد نقله الترمذي أيضاً تحت هذا العنوان وهو أمر مكروه بالاتّفاق، ويدلّ عليه حديث أُمّ عطية حيث قالت: «نهينا عن اتّباع الجنائز، ولم يعزم علينا».[١]

قوله: «ولم يُعزم علينا» أي ولم يوجب علينا، والمراد انّه لم يقطع علينا بالنهي ليكون حراماً فهو مكروه تنزيهاً.[٢]

وأين هذا ممّا نحن فيه من زيارة القبور للنساء حيناً بعد حين؟!

وختاماً نلفت نظر القارئ إلى نكتة، وهي: انّ الإسلام دين الفطرة، والشريعة السهلة السمحة.

قال ﷺ: «إنّ هذا الدين لمتين فأوغلوا فيه برفق».

فمنع المرأة المؤمنة الصالحة التي دفنت فلذة كبدها تحت ركام من التراب عن زيارة قبر ولدها على طرف النقيض من الشريعة السهلة السمحة، التي لا تجبر أحداً على كبت أحاسيسه وعواطفه في قلبه دون إظهارها.

الآن حصحص الحقّ وبان بأجلى مظاهره وتبين انّ القول بالجواز هو القول الحقّ المتعيّن.

أرجو من الله سبحانه أن يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويجمع شمل المسلمين، ويرزقهم توحيد الكلمة كما رزقهم كلمة التوحيد، والمسلمون ــ مع تفرّقهم في الفروع والأحكام ـ تجمعهم مشتركات عديدة.

---

١ و ٢. سنن ابن ماجة: ١/ ٥٠٢، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، الحديث ١٥٧٨.

ولنعم ما قال شاعر الأهرام:

إنّـا لتجمعنـا العقيـدة أُمّـة ويضمّنـا ديـن الهدى اتبـاعـا

ويـؤلّـف الإسلام بين قلـوبنـا مهما ذهبنـا في الهوى أشيـاعـا

وفي الختـام نعكس رأي الإمـامية في مسـألـة زيارة القبـور للنساء ونكتفـي بكلمة العلاّمة الحلي في كتاب «منتهى المطلب» الذي ألّفه في الفقه المقارن، قال:

الرابع: يجوز للنساء زيارة القبور، وعن أحمد روايتان: إحداهما: الكراهة.

لنا: ما رواه الجمهور عن النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» وهو بعمومه يتناول النساء.

وعن ابن أبي مليكة انّـه قال لعائشة: يا أُمّ المؤمنين من أيـن أقبلت؟ قالت: مـن قبر أخي عبـد الـرحمن، فقلـت لها: قد نهى رسـول الله ﷺ عن زيـارة القبور؟ قالت: نعم، قد نهى ثمّ أمر بزيارتها.[1]

ومن طريق الخاصة: ما رواه الشيـخ عن يونس، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنّ فاطمة عليها السلام كانت تأتي قبور الشهداء في كـلّ غداة سبت، فتأتي قبر حمزة و تترحم عليه وتستغفر له[2].[3]

١. المستدرك: للحاكم: ١/ ٣٧٦؛ سنن البيهقي: ٤/ ٧٨.

٢. مرّ مصدر الرواية ولاحظ التهذيب للشيخ الطوسي: ١/ ٤٦٥ برقم ١٥٢٣.

٣. منتهى المطلب: ٧/ ٤٣٠.

١١

معجم المصطلحات

لكلّ علـم مصطلحاتٌ خاصّة يستعين بها الأُستـاذ والمدرّس عندما يـريد أداء المعنـى الكثير بـاللفـظ القليـل ... وهـذا هـو في الحقيقـة دور «الإصطـلاح والمصطَلَـح» في جميـع المعـارف والعلـوم، ولأجـل ذلـك لا تــرى علماً إلاّ وفيـه مصطلحات خـاصة لمفـاهيم معيّنة قـام بوضعها البـارعون في ذلـك العلم بهدف التسهيل والتيسير في مقام الإفادة والتعليم.

ومن هنـا ينبغي أن يقـوم المعلّم والمدّرس بتبيين المصطلحـات المهمة قبـل تدريـس المادّة العلمية، ليكـون ذلك وسيلـةً فعّالـةً وناجعـةً لفهم مـا سيمرّ على المتعلّم في أثناء الدرس بسهولة ويسر.

من هذا المنطلق نَهضَ ثلّةٌ من العلماء بجمع ونضد المصطلحات الموضوعة في العلوم خدمة لهذا الهدف العظيم.

غير أنّ بين المؤلّفين من جمع مصطلحـات العلوم الدارجة في كتـاب واحد، وهناك من اقتصر على تبيين مصطلحات علم أو علمين بينهما صلة.

وممّا أُلِّف في المجال الأوّل:

١ـ «**كشّاف اصطلاحات الفنون**» تأليف: محمد أعلى بن علي التهانوي، من

منشورات الخيام، وقد طبع بالأُوفست على طبعة كلكتا عام ١٨٦٢ م.

٢ـ **«مصباح السعادة ومفتاح السيادة»** تأليف: طاش كبرى زاده (المتوفّى ٩٦٢م).

٣ـ **«جامع العلوم والحِكم»** المعروف بـ **«دستور العلماء»** تأليف: أحمد نگرى بك.

٤ـ **«التعريفات»** تأليف: السيد شريف الجرجاني (المتوفّى ٨١٦هـ).

وممّا أُلّف في المجال الثاني:

١ـ **«رسالة الحدود والحقائق»** تأليف: الشريف المرتضى، وهي مطبوعة ضمن رسائل الشريف نفسه.

٢ـ **«المقدمة للألفاظ المتداولة بين المتكلّمين»** تأليف الشيخ الطوسي ـ رحمه الله ـ (المتوفّى ٤٦٠ هـ).

٣ـ **«الحدود والحقائق في شرح الألفاظ المصطلحة بين متكلّمي الإمامية»** تأليف القاضي أشرف الدين صاعد البريدي الآبي، ذكره الشيخ منتجب الدين في الفهرست، وقال عنه: «فاضل متبحّر، له تصانيف»[١].

وقد طبع بتحقيق الدكتور حسين علي محفوظ ببغداد مطبعة المعارف عام ١٩٧٠م.

٤ـ **«الحدود»** تأليف الشيخ معين الدين، أُستاذ الشيخ رشيد الدين عبد الجليل الرازي الذي هو من مشايخ الشيخ منتجب الدين الذي كان حيّاً في سنة ٥٨٥هـ وتوفّي بعد ذلك بقليل فيكون المؤلّف من مشايخ أُواخر القرن الخامس[٢].

---

١. منتجب الدين: الفهرست، ص ١٠٠ برقم ٢٠٢.

٢. المصدر نفسه: ص ١٥ برقم ١٥.

٥ ـ «**الحدود**» تأليف: الشيخ زين الدين أبي الحسن علي بن عبد الجليل البيّاضي، المتكلّم، نزيل دار الرقابة في الريّ، ذكره الشيخ منتجب الدين في فهرسته[٢].

٦ ـ «**الحدود**» تأليف النقيب أبي طالب الاسترأبادي ترجمه ابن شهر آشوب في «معالم العلماء» وذكر من تصانيفه: المقدمة، والحدود، والأبواب، والفصول لذوي الألباب والعقول [٣].

٧ ـ «**اصطلاحات الصوفيّة**» تأليف: الشيخ كمال الدين أبي الغنائم عبد الرزاق بن جمال الدين الكاشي (المتوفّى سنة ٧٣٠ هـ) [٤].

٨ ـ «**الحدود**» تأليف: الشيخ الإمام قطب الدين المقري النيسابوري من مشايخ السيد ضياء الدين أبي الرضا فضل الله الراوندي (المتوفّى حدود ٥٤٧ هـ) ذكره الشيخ منتجب الدين في فهرسته [٥].

وهذا هو الكتاب الذي يزفّه الطبع الآن إلى القرّاء الكرام.

وقد كاد هذا الكتاب أن تعصف به عواصف الزمان وتؤدي به طوارق الحدثان لولا أنّ شيخنا المحقّق الدكتور محمود «يزدي فاضل» دام علاه، شمّر عن ساعد الجد، فقام ـ بعد العثور على نسخة فريدة في بابها منه ـ بتحقيقه والتعليق عليه وتصحيحه بعناية فائقة، جديرة بالتقدير، وسيقف القارئ بنفسه على خصوصيّة تلك النسخة وميزاتها في مقدمته كما يقف على ترجمة المصنّف فيها على

---

١. المصدر نفسه: ص ١١٤ برقم ٢٣٦.
٢. معالم العلماء: ١٣٦ برقم ٩٣٢.
٣. الچلبي: كشف الظنون ١/ ١١.
٤. الفهرست: ١٥٧ برقم ٣٦٣.

حد ما وقف عليه المحقّق في المعاجم.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذه الكتب وأمثالها المؤلفة في مختلف المجالات كانت النواة الأُولى لتأليف دائرة المعارف الرائجة في هذه العصور.

فإنّ مؤلّفي دائرة المعارف استمدّوا ويستمدّون من تلك الكتب والمصنّفات في تبيين مصطلحات العلوم من دون عناء وبذل جهد كبير.

وفي الختام نتقدم بالشكر للأُستاذ الفاضل المحقّق إذ سدّ فراغاً موجوداً في المكتبة الكلامية بتحقيق ونشر هذا الكتاب، فإنّ بعض ما أُلّف في هذا المجال قد عفا عليه الدهر، ولم يبق منه إلاّ الاسم في معاجم الكتب والمؤلّفين، بل إنّ قسماً منها لم يدخل حتى في هذه المعاجم، فللّهِ درّ المؤلف، حيث قد أوضح في كتابه القيّم هذا (٤٤٤) مصطلحاً كلامياً مبثوثاً في كتب المنطق والكلام والفلسفة.

فسلام الله على المؤلّف، والمحقق ولهما منّا جميعاً الشكر الجزيل والتقدير الصادق الخالص.

جعفر السبحاني

٢٨ / محرم الحرام / ١٤١٤ هـ

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ

١٢

المدرّس الخياباني
رائد العلم و الأدب

الحمـد للّـه ربّ العـالمين،والصلاة والسـلام على خير خلقـه محمـد و آلـه الطاهرين ، الغرّ الميامين

أمّا بعد، فانّـه سبحانه ـ بمقتضى حكمته ـ لم يخلـق الإنسان سدىً، و هو القائل: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنّما خَلَقْنـاكُمْ عَبَثاً**﴾[1] و ﴿**ما خَلَقْـتُ الجنّ وَالإنْـس إلاّ لِيَعْبُدُون**﴾.[2]

ثمّ إنّـه سبحانـه عزّز تحقيـق تلك الغايـة الساميـة ببعث أنبيـائه ورسله، و إنزال الكتب معهم ليُري معالم الحق ومزالق الباطل عبر القرون والأجيال، إلى أن بعث الله سبحانه محمداً ـ نذيراً و بشيراً بالحق ـ لإنجاز عدته و إتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبّه لله بخلقه، أو ملحد في أسمائه، أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجلالة.

بعثه سبحانه بـدلائل ساطعة، ومعاجز باهـرة، يحتج بها على الناس، و من معـاجـزه الخالـدة شريعتـه المتبلـورة في الـواجبـات والمنـدوبـات والمكـروهـات

---

١. المؤمنون: ١١٥.   ٢ . الذاريات: ٥٦.

والمحرمات على مختلف الأصعدة.

إنّ شريعة كشريعة الإسلام والتي تلبّي كافة متطلبات الإنسان في ماضيه وحاضره ومستقبله لا يمكن أن تصدر عن إنسان مهما بلغ من الفكر والتعقّل مالم تدعمه السماء، و يتجلّى ذلك بوضوح في شموليتها للأحكام الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها من جوانب حياة الإنسان.

لا شكّ انّ القرآن هو معجزة النبي ﷺ الخالدة بيد انّ هناك معاجز أُخرى غير القرآن ومن أبرزها تشريعات الإسلام وأحكامه الواردة في الكتاب والسنّة لا سيما المروية عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، فإنّ تلك الثمار اليانعة التي تتجاوب مع فطرة الإنسان ولا تختلف عنها قيد شعرة، لدليل واضح على أنّها ليست ثمرة تؤتي أُكلها في حين دون حين، بل هي ثمرة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ثمّ إنّ الفقهاء على مرّ العصور تداولوا أمر هذه الشريعة بالبحث والدراسة والتحليل حتى خرجوا بنتائج باهرة في مجال الفقه والأحكام فكتبوا موسوعات وكتباً ورسائل لغايات شتىٰ.

فالموسوعة لمن رام خوض غمار الفقه واقتحام لُجَّته، والكتب الفقهية للمتوسطين في هذا الفن، وأمّا الرسائل والمتون الفقهية فقد وضعوها للمبتدئين.

ومن حسن الحظ انّ مؤلفنا الكبير ـ الذي نحن بصدد تسليط الأضواء على جانب من سيرته ـ أعني: الإمام جمال الدين أبا منصور الحسن بن يوسف بن المطهر المعروف بالعلاّمة الحلّي (٦٤٨ـ٧٢٦هـ) قد برع في هذا الفن براعة لا يدانيه أحد، فألف موسوعات فقهية ذات مجلدات ضخمة كـ«تذكرة الفقهاء»، و«منتهى المطلب» وغيرها.

كما ألف كتباً متوسطة في الفقه بين الاختصار والاستيعاب كـ«قواعد

الأحكام في معرفة الحلال والحرام»، و «تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الإمامية»، و «نهاية الاحكام في معرفة الأحكام».

كما قام بتأليف متون مختصرة للمبتدئين كـ«إرشاد الأذهان إلى أحكام الإسلام» و «تبصرة المتعلمين».

وهذا الكتاب الأخير الذي نحن بصدد التقديم لشرح من شروحه قد استأثر باهتمام واسع حيث أكبّ عليه العلماء بالدراسة والتعليقة والشرح حتى تجاوزت الشروح والتعاليق عليه ٣٠ شرحاً، أورد أسماء طائفة كبيرة منها الشيخ الطهراني في ذريعته [١]، كما تجد أسماء ٣١ شرحاً في مقدمة محقق كتاب شرح التبصرة للشيخ ضياء الدين العراقي.[٢]

كما ذكر قسماً منها زميلنا المغفور له السيد عبد العزيز الطباطبائي[٣].

وهذا الإقبال الواسع من قبل العلماء والفقهاء دليل على أنّ الكتاب قد حاز شهرة واسعة في الأوساط العلمية.

هذا ويعرفه مؤلّفه العلاّمة الحلي بقوله: هذا الكتاب الموسوم بتبصرة المتعلمين في أحكام الدين وضعناه لإرشاد المبتدئين و إفادة الطالبين مستمدين من الله المعونة والتوفيق فانّه أكرم المعطين.[٤]

تزامن الجمود والازدهار في عصر واحد

انتاب الفقه في البيئات الشيعية في القرن السادس والسابع موجة من

١. الذريعة: ٣/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

٢. شرح التبصرة: للشيخ ضياء الدين العراقي : ١/ ١١، قسم المقدمة.

٣. مكتبة العلامة الحلي: ٧٦.

٤. تبصرة المتعلمين: خطبة الكتاب.

الازدهار والنضوج على يد فقهاء كبار.

كالشيخ نجيب الدين محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما المشتهر بابن نما (المتوفّى عام ٦٤٥هـ).

وجعفر بن حسن بن عيسى المشتهر بالمحقّق الحلي(٦٠٢ـ ٦٧٦هـ) صاحب كتاب الشرائع وهو غني عن الإطراء والتعريف.

و نجيب الدين يحيى بن سعيد الهذليّ(٦٠١ـ ٦٩٠هـ).

إلى غير ذلك من مشايخ الفقه والاجتهاد.

وقد تربىٰ العلامة على يد الأخيرين من مشايخه في الحلة التي بلغ عدد الفقهاء فيها يومذاك ما يربو على ٤٤٠ فقيهاً.[١] فكان عصره عصر الازدهار الفقهي حيث تم فيه تخريج حجم هائل من الفروع على وجه لا نجد له مثيلاً من بين سائر العصور.

وهذا كتابه «تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الإمامية» مشحون بتخريج الفروع واستنباط الأحكام من الأُصول .

في حين انّ الفقه السنّي في ذينك القرنين دخل مرحلة الخمود والجمود و ضمور الإبداع، يقول مصطفى أحمد الزرقاء في معرض حديثه عن القرن السابع: وفي هذا الدور أخذ الفقه بالانحطاط، فقد بدأ في أوائله بالركود وانتهى في أواخره إلى الجمود، وقد ساد في هذا العصر الفكر التقليدي المغلق، وانصرفت الأفكار عن تلمس العلل والمقاصد الشرعية في فقه الأحكام إلى الحفظ الجاف، والاكتفاء بتقبل كلّ ما في الكتب المذهبية دون مناقشة، وطفق يتضاءل ويغيب ذلك النشاط الذي كان لحركة التخريج والترجيح والتنظيم في فقه المذاهب، وأصبح مريد الفقه

١. رياض العلماء: ١/ ٣٦١.

يدرس كتاب فقيه معين من رجال مذهبه فلا ينظر إلى الشريعة وفقهها إلاّ من خلال سطوره، بعد أن كان مريد الفقه قبلاً يدرس القرآن والسنة، وأُصول الشرع ومقاصده.

وقد أصبحت المؤلفات الفقهية ـ إلاّ القليل ـ أواخر هذا العصر اختصاراً لما وجد من المؤلفات السابقة أو شرحاً له، فانحصر العمل الفقهي في ترديد ما سبق، ودراسة الألفاظ وحفظها، وفي أواخر هذاالدور حلّ الفكر العامي محل الفكر العلمي لدى كثير من متأخري رجال المذاهب الفقهية.[1]

المصنف في سطور

إنّ العلاّمة الحلّي غني عن الإطراء والتعريف، فقد ذكره غير واحد من كبار علماء الفريقين.

فهذا هو الصفدي يعرفه بقوله: الإمام العلاّمة ذو الفنون،عالم الشيعة وفقيههم، صاحب التصانيف التي اشتهرت في حياته، إلى أن قال: و كان إماماً في الكلام والمعقولات.[2]

وعرّفه ابن حجر في لسان الميزان بقوله:عالم الشيعة و إمامهم، ومصنفهم، وكان آية في الذكاء، وكان مشتهر الذكر، حسن الأخلاق.[3]

لقد كان العلاّمة الحلي ملماً بشتى العلوم الإسلامية المعروفة آنذاك دراسة وتدريساً وتأليفاً وكان أثره واضحاً على جميع من تلمذ عنده، أمثال:

١. فخر المحقّقين(٦٨٢ــ ٧٧١هـ)، وكفى في جلالة قدره وطول باعه ما

---

١. المدخل الفقهي العام: ١/ ١٨٦ـ١٨٧، ط دارالفكر.

٢. الوافي بالوفيات:١٣/ ٨٥، برقم ٧٩.

٣. لسان الميزان:٢/ ٣١٧.

ذكره الفيروز آبادى (٧٢٩ـ ٨١٧هـ) صاحب «القاموس المحيط» في حقه، حيث قال: ...عن شيخي و مولاي،علاّمة الدنيا، بحر العلوم،وطود العلى، فخر الدين، أبي طالب، محمد بن الشيخ الإمام الأعظم، برهان علماء الأُمم، جمال الدين أبي منصور، الحسن بن يوسف بن المطهر الحلّي.[١]

٢. مجد الدين أبو الفوارس محمد بن علي بن الأعرج الحسيني، يعرفه ابن الفوطي بقوله:اجتمعت به عند النقيب علي بن موسى بن طاووس، و قال: رأيته جميل السمة، وقوراً، ديّناً، عالماً بالفقه.[٢]

ورثاه صفي الدين الحلي بقصيدة مطلعها:

صروف الليالي لا يدوم لها عهد وأيد المنايا لا يطاق لها ردّ[٣]

٣. ولد أبي الفوارس عميد الدين بن عبد المطلب(٦٨١ـ ٧٥٤هـ).

٤. نجله الآخر ضياء الدين بن عبد المطلب (كان حياً ٧٤٠هـ).

٥. مهنّا بن سنان بن عبد الوهاب الحسيني المدني (المتوفّى عام ٧٥٤هـ).

وقد ألّف كتاباً أجاب فيه على عدّة مسائل، أسماه «المسائل المهنائية».

إلى غير ذلك من الشخصيات اللامعة في سماء الفقه والأُصول والكلام.

لا شكّ انّ العلاّمة الحلّي قد خلّف تراثاً علمياً ضخماً أغنى المكتبة الشيعية، تمثل في مؤلفاته وتصانيفه فقد خاض في أكثر العلوم الإسلامية من فقه وكلام وأُصول ورجال وتفسير وفلسفة ومنطق إلى غير ذلك.

وكفى انّه ألّف في حقل المعقول والكلام ما يربو على ٢٠ كتاباً ورسالة، كما

١. الجاسوس على القاموس، تأليف أحمد فارسي أفندى: ١٣٠.

٢. مجمع الآداب في معجم الألقاب: ٤/ ٥١٩.

٣. ديوان صفي الدين الحلي: ٣٧١.

أنّه ألّف في حقّل الفقه عدة دورات بين موسوعة وكتاب ومختصر.

فآثاره المتنوعة تنم عن نبوغه ونظره الثاقب واستيعابه كافة العلوم.

وقد سردنا أسماء مصنفاته في المعقول عند تقديمنا لكتاب «نهاية المرام في علم الكلام» كما ذكرنا أسماء مصنفاته في الفقه في كتابنا «تذكرة الأعيان».[1]

و من آثاره الفقهية المختصرة كتاب «تبصرة المتعلمين في أحكام الدين». والكتاب بوجازته وسلاسة ألفاظه صار موضع اهتمام الفقهاء منذ عصر مؤلفه إلى يومنا هذا فتولوه بالشرح والتعليق، والذي منها شرح أُستاذنا الكبير، العلاّمة المحقّق الشيخ محمد علي بن محمد طاهر الخياباني التبريزي المشهور بالمدرس(١٢٩٦ـ ١٣٧٣هـ).

وبما انّ الشارح أحد أساتذتي الكبار و كان قدوة لي، و إرشاده معيناً لي على شقّ طريقي الحافل بالأشواك، فيسرني أن أكتب شيئاً عن سيرته وترجمته وما عاناه من الظروف الحالكة التي مرّت به، و زادت عليه انّه بقي مغمور الذكر، مجهول القدر رغم تضلّعه وبراعته في أغلب العلوم الإسلامية.

ترجمة الشارح وسيرته الذاتية

ولد ﴿﴾ في مدينة تبريز عام ١٢٩٦هـ ،فقرأ الأدب الفارسي والعربي في مسقط رأسه على مشايخ عصره، فبلغ في الأدب العربي مقاماً شامخاً حيث درس المعلّقات السبع والمقامات الحريرية وغيرها من كتب الأدب، و من فرط شغفه بها انّه راح يحفظ عن ظهر قلب كلّ ما وقع عليه بصره، من المتون ، كتهذيب المنطق،

---

١. تذكرة الأعيان:٢٥١ـ ٢٦٢.

وألفية بن مالك وغيرهما.

وفي ظل اختماره بـالأدب العربي ألّف كتاب «غـاية المنىٰ في تحقيـق الكنى» فقد جمع في ذلك الكنى الرائجة في لغة العرب المستعملة في غير الإنسان.

كما قام بجمع ما آثر من الأشعـار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وجمعها في ١٢ باباً على عدد الأئمة الاثني عشر، فشرح لغاتها المشكلة.

والحق انّه كان أُستاذاً بارعاً في الأدب العربي با لمعنى الرائج في ذلك الزمان، ولم يكتف بذلـك بل انّه راح يتردد على إندية دروس الفقـه والأُصول لمراجع عصره وفطاحل دهره، أمثال:

١. المرجع الـديني الفقيـه السيد أبـو الحسن المعـروف بالأنگجي(١٢٨٢ـ ١٣٥٧هـ).

٢. المرجـع الـدينـي المحقّـق الآغـا ميرزا صـادق التبريـزي(١٢٧٤ـ ١٣٥١هـ).

فقد طـوى عليهما من عمره الشريف أعـواماً لا يستهان بها فـألف في مجال الفقـه طيلـة تتلمـذه على العلمين الجليلين كتـاب «حيـاض الـزلائل في ريـاض المسائل» تعليقة على الشرح الكبير المعروف بـ«رياض المسائل»، ألفه عام ١٣٢٤ وقد ناهز من العمر ٢٨ عاماً .

إنّ شيخنا الأُستاذ مع أنّه كان فقيهاً أُصـولياً ولكن شغفه بتعلّم ما راج من العلـوم دفع بـه إلى الحضور في دروس المعقـول والكـلام على يد الشيـخ ميرزا علي اللنكراني الذي كـان من تلاميذ الفيلسوف الكبير المعـروف بـ«جلوة»، كما برع في الريـاضيات والهيئة على يـد الأُستاذ ميرزا علي المعـروف بـ«المنجم» وقد بلـغ ولعه بالعلـوم الإسلامية بمكـان انّه قام بمفـرده بكتابـة دائرة معارف أسماها «قـاموس

المعارف» و سيوافيك شرحها.

كلمات العلماء في حقّه

١. يعرّفه معاصره المؤرّخ الحاج ميرزا علي الواعظ الخياباني بقوله:

عالم، محقق، نحرير، وفاضل مضطلع خبير، حبر أديب أعلم، وبحر زاخر عيلم، جامع فنون الفضائل والكمالات، حائز قصب السبق في مضامير السعادات، عالم، بارع، جامع، ما من علم من العلوم إلاّ قد حلّ في أعماقه، وما من فن من الفنون إلاّ وقد شرب من عذبه وزعافه، كانت له في اقتناء العلم والأدب همة تزاحم الأفلاك وتزاعم بعلوّ قدرها الأملاك.[١]

٢. ويعرّفه أيضاً سيدنا الجليل السيد محمد الحجة في إجازته له بقوله: لقد استجاز منّي في الرواية ونقل أحاديث أهل بيت العصمة العالم العامل، والفاضل الكامل أبو الفواضل والفضائل، قرة عين الفضل والكمال، وقرة جبين العلم والإفضال، صاحب المقامات العلمية والعملية وحاوي المكارم الصورية والمعنوية.[٢]

٣. كما يعرّفه العلاّمة الحجة السيد هبة الدين الشهرستاني بقوله: شيخنا الأجل الأفضل انموزج عصابتنا البحّاثة في العصر الأوّل، حضرة العالم الفاضل والمحدث المحقّق الكامل، صفوة المؤلفين الأماثل، وليّنا الصفي الروحاني، المولى محمد علي التبريزي الخياباني(حياه الله وحباه بنيل الرغائب والأماني).[٣]

١. العلماء المعاصرون: ٤٠٥.
٢. ريحانة الأدب: مقدمة الجزء الثامن.
٣. المصدر نفسه.

مشايخ روايته

لقد استجازه من مشايخ عصره فأجازوا له الرواية بأسانيدهم المذكورة في إجازاتهم، منهم:

١. العلاّمة الحجّة السيد محمد الحجّة الكوهكمري (١٣٠١ـ ١٣٧٢هـ) فقد أجازه وصرّح بكونه ممّن ارتقى من حضيرة التقليد إلى أوج الاجتهاد.

٢. السيد السند آية الله السيد صدر الدين الموسوي العاملي(١٢٩٩ ـ ١٣٧٣هـ)، فقد أجازه أن يروي عنه كما صرح في اجتهاده.

٣. المرجع الديني السيد محسن الحكيم (١٣٠٦ـ ١٣٨٩هـ) فقد أجاز له أن يروى عنه كلّما صحت روايته عنه.

٤. الشيخ والمصلح الكبير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (١٢٩٤ـ ١٣٧٣هـ) فقد أجازه أن يروي عنه.

٥. العلاّمة الحجّة الشيخ عبد الحسين الرشتي.

إلى غير ذلك من مشايخ إجازته الذين أجازوا للمؤلف وأطروه و قدروا جهوده و ثمّنوا كتبه.

وقد طبعت صور الإجازات في مقدمة الجزء الثامن من كتابه ريحانة الأدب.

آثاره العلمية

لقد كان شيخنا الفقيد يضنُّ بوقته الثمين منذ أوان شبابه إلى أن وافته المنيّة. فلم يكن يهتم إلاّ بالتدريس والمطالعة والكتابة، وقلما تجده يغادر داره إلاّ لحاجات ضرورية، وبلغ به الأمر انّه كان يعقد أندية دروسه في داره، ولأجل ذلك

خلَّف آثاراً جليلة في مختلف العلوم، وكان بعض تآليفه بمفرده يستوعب عمر كاتب، و إليك الإشارة إلى تلك الآثار وفقاً لتسلسلها الزمني:

١. «حياض الزلائل في رياض المسائل» تعليقة على قسم الطهارة من رياض المسائل، الذي كان كتاباً دراسياً في أكثر الجامعات الإسلامية نظراً لعمقه ودقته. وهو مشحون بالأمر بالتأمّل في أكثر مسائله، وقد فرغ شيخنا الأُستاذ من تعليقته عام ١٣٢٤ هـ، و يقع في ٤٢٨ صفحة من القطع الوزيري، و هو بعدُ لم ير النور.

٢. «غاية المنىٰ في تحقيق الكنى» والكتاب لبيان الكنىٰ العربية المستعملة في غير الإنسان، فرغ منه عام ١٣٣١هـ.

٣. «قاموس المعارف» وهو بيت القصيد في تآليفه، ويعد دائرة معارف باللغة الفارسية يحتوي على ٤٥٠٠٠ عنوان دارجاً في اللغة الفارسية سواء أكان أصيلاً أم دخيلاً ، فقد قام بشرح ما يرجع إلى الكلام والفلسفة، والملل والنحل،والنجوم، والرياضيات،والعروض، والتاريخ، والأدب وغير ذلك، و فرغ منه عام ١٣٤٥هـ.

وقد سمعت منه ﷺ انّه استغرق تأليفه ١٧ عاماًو اشتملت مقدمتُه على قواعد اللغة الفارسية، وهي جديرة بطبعها على حدة، والكتاب يقع في ستة مجلدات ضخام، يبلغ عدد صفحاتها ٤٠٠٧ صفحات. والكتاب لم ير النور عسى أن يقيِّض الله له الهمم العالية لنشره وتحقيقه.

وهو ﷺ يصف الظروف الصعبة التي قام بتأليف هذا الكتاب فيها بقوله:

«وشرعت بعد الاستمداد من العناية الإلهية في تأليف كتاب «قاموس المعارف» الذي يحكي لفظه عن معناه واسمه عن مسمّاه حتى انتهت

أيّام حياتي إلى سنة ست وثلاثين من هجرة سيد البشر(١٣٣٦هـ) التي وقائعها انموذج من وقائع المحشر، فابتليت بحوادث جمَّة وفجائع عمة، واختلت الأحوال بحيث صار الفؤاد في غشاء من نبال، وذلك لتلاطم أمواج الفتن، وتراكم سحائب المحن في كافة بلاد إيران ولا سيما اذربايجان و خصوصاً الأهل والاخوان، فلقد جرّد الدهر عليهم سيف العدوان، فطرحت الأوراق في زوايا الهجران متلهفاً على فراق الأحبة، ومتأسفاً على مفارقة الأعزّة.

مضافاً إلى القحط الشديد والغلاء الأكيد مع شيوع مرض الحصبة فهلك جمع كثير وجم غفير بين الوباء والجوع، فبقيت على تلك الحال غريقاً في لجج الملال، بحيث لا أعرف اليمين من اليسار، ولا الليل من النهار.

ثمّ يذكر انّه عاد إليه شغفه وشوقه بالدراسة والكتابة، فرجع إلى ما جمع وأكمل الكتاب بفضل من الله سبحانه.[1]

ويشير شيخنا الأُستاذ إلى الظروف الصعبة التي مرّ بها، وتتلخص في النقاط التالية:

١. نشوب الحرب العالمية الأُولى وتطاير شررها من الغرب إلى الشرق حتى وصلت إيران، فأصبحت ميداناً تجول فيه القوات الغازية كالقوات العثمانية والتزارية والانكليزية في ظروف مختلفة.

٢. تفشّي الوباء والجوع في المنطقة.

٣. نشوب الفتن والحروب الداخلية بين مؤيدي ثورة الدستور ومخالفيهم، وكان لاذربايجان السهم الأوفر من هذه الفتن والمحن حيث دارت الحروب الأهلية في مدينة تبريز شهوراً بل أعواماً على قدم وساق.

---

١. ترجمة المؤلف في آخر التحفة المهدوية بقلمه: ١١٤.

ففي خضمٍّ هذه الأوضاع الصعبة للغاية قام المؤلف بتأليف «قاموس المعارف» بعد نكسة ألمّت به إبّان تأليفه، ممّا ينم عن شغفه بالعلم، وتفانيه في التأليف.

٤. «فرهنگ نوبهار» معجم باللغة الفارسية يحتوي على ١٩ ألف كلمة، طبع عام ١٣٤٨ هـ في تبريز في جزءين.

٥. «فرهنگ بهارستان» جمع فيه الكلمات المترادفة في اللغة الفارسية على غرار «سرّ الأدب» للثعالبي في اللغة العربية، فرغ منه عام ١٣٤٨ هـ.

٦. «الدر الثمين أو ديوان المعصومين» جمع فيه الأشعار المنسوبة إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام وبيّن لغاتها وأوضح معانيها، والكتاب بديع في بابه وهو ينمّ عن تضلّعه بالأدب العربي، و قد طبع الجزء الثاني منه تحت عنوان «التحفة المهدوية» عام ١٣٥٤ هـ دون الجزء الأوّل.

٧. «نثر اللآلي في شرح نظم اللآلي» والمتن للسيد أبي القاسم المقرئ المعروف في عهد شاه عباس الثاني، فرغ من تأليفه ١٣٦٣ هـ و قد طبع على الحجر بخط الكاتب طاهر خوشنويس، و قد قرأت المتن على يد شيخنا الأُستاذ و كان يبيّض في ذلك الحين شرحه.

٨. «فرهنگ نگارستان» معجم كبير باللغة الفارسية في ٥ مجلدات كبار من القطع الوزيري يحتوي على ٥٥ ألف لغة بين مفرد و مركب، و قد بلغ عدد صفحاته ٣٣١٥ صفحة، فرغ منه عام ١٣٥٩ هـ والكتاب نفيس في بابه لم ير النور.

٩. «الأمثال والحكم» الدارجة في اللغة التركية الآذرية، يقع في ٣٠٧ صفحات أورد فيه الأمثال والحكم الشائعة بين الآذريين جمعها من الكتب وأفواه

الرجال.

١٠. «ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية أو اللقب»، و الكتاب يحتوي على تراجم العلماء والفقهاء والفلاسفة والحكماء، والعرفاء والأطباء والشعراء والأُدباء والمحدثين وأصحاب أئمّة أهل البيت الذين اشتهروا بالكنية أو اللقب، والكتاب باللغة الفارسية فريد في بابه، طبع عدة مرات .

وهو من أهم المصادر في التراجم اعتمد عليه ـ منذ نشر ـ العديد من المحقّقين والكتّاب، يقع في ثمانية أجزاء من القطع الوزيري، فرغ من تأليفه عام ١٣٦٤هـ، و مع ذلك فكان يملأ ما تخلله من نقص بإضافات هامة.

والناظر في الكتاب يقف على مدى ما كابد و عانى في سبيل تأليف هذا الكتاب وجمع شوارده، وقد ضمَّ إلى ترجمته ما وقف علىٰ صور المترجمين وخطوطهم وقدكان هذا النوع من التأليف جديداً في بابه يوم ذاك، و كان يتمثل في التعريف بهذا الكتاب بقول القائل:

وقد اهديت ريحاناً ظريفاً   به حاجيت مستمعي مقالي
وريحان النبات يعيش يوماً   وليس يموت ريحان المقال

١١. «كفاية المحصلين في تبصرة أحكام الدين» وهو شرح مزجي لتبصرة العلاّمة الحلّي في جزءين فرغ من تأليفه عام ١٣٤٩هـ.

وهو ﷺ يبيّن ملامح شرحه لهذا الكتاب، ويقول:

إنّي رأيت كتاب «تبصرة المتعلمين في أحكام الدين» للعالم البارع، والنور الساطع، حافظ ناموس الهداية، و كاسر ناقوس الغواية، مكسّر شوكة المخالفين جمال الملة والدين آية الله في العالمين، العلاّمة على الإطلاق المشتهر في الآفاق

أبي منصور حسن بن الشيخ صدر الدين يوسف بن علي بن مطهر الحلي قدس سره مع إيجازه محتوياً على رؤوس الأحكام الدينية وأُمّهاتها، مع اختصاره مشتملاً على جلّ الفروعات الفقهيّة ومهمّاتها،ولم يكن له شرح يكشف الحجاب عن معضلاته،ويرفع النقاب عن مشكلاته، فحداني ذلك إلى كتابة وجيزة فاتحة لمغلقه، ومقيّدة لمطلقه. فاستعنت الله وتوكلت عليه، و أضفت هذه الفوائد إليه، مراعياً فيه شريطة الاختصار، ومتجافياً عن وصمة الإطالة والإكثار، فإنّ الإيجاز قد يُخلّ، والإطناب قد يُملّ، ولم أعتمد في الأغلب إلاّ على تنقيح مقاصده ومبانيه، وتوضيح ألفاظه ومعانيه، فانّ التفسير غير الرد،والتقرير غير النقد.[١]

وقد طبع الجزء الأوّل منه عام ١٣٥٤هـ بالطبعة الحجرية، ومنذ ذاك الحين تداولته الأيدي با لمطالعة والدراسة، وبقي الجزء الثاني مغموراً، محفوظاً في مكتبته قدس سره كسائر آثاره التي لم تر النور.

ولما كان لهذا الكتاب عناية خاصة بتبيين مقاصد الماتن على وجه يزيل كلّ إبهام و غموض، وذلك بجعل الشرح ممزوجاً في المتن كأنّهما صدرا من كاتب واحد، طلب غير واحد من أساتذة الجامعات الإسلامية من نجله الفاضل الأُستاذ علي أصغر مدرس طبع الجزءين بصورة تتلاءم مع روح العصر. وقد أوكل ـ حفظه الله ـ هذه المهمة إليّ فبعث بالكتاب مع الجزء المخطوط، وبقي عندي إلى أن اقترحت على زميلنا العزيز الدكتور مهدي محقق أُستاذ جامعة طهران، و رئيس قسم صيانة الآثار الوطنية، أن يقوم بنشر هذا الكتاب لما للمؤلف من حقوق على العلم وأهله عامة، وعليه خاصة. وقد استجاب لطلبي مشكوراً على أن يطبع الكتاب تحت إشرافي بحلة قشيبة.

---

١ .مقدمة كفاية المحصلين في تبصرة أحكام الدين.

فقامت لجنة التحقيق في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام بتحقيق الكتاب وتشكيل ما أُبهم من الكلم، و فصل المتون عن الشرح بأقواس خاصة مع تخريج مصادره، وجعل عناوين في الكتاب للمسائل الهامة إلى غير ذلك من المهام الرائجة في تحقيق الآثار الخطية.

ومؤسسة الإمام الصادق عليه السلام تقدم باقة الزهور هذه لروّاد الفقه في الجامعة الإسلامية على أمل أن تعطِّر مشامّهم برياحينها شاكرة للأُستاذ الدكتور مهدي محقق مساهمته في سبيل نشر الكتاب على وجه لولاه لبقي الكتاب رهين الرفوف كسائر آثار المؤلف المخطوطة.

ملامح من سيرته

كان لشيخنا الفقيد ملامح خاصة في حياته، تعد من أبرز سمات خُلقه وسلوكه، ونحن نشير إلى ما لمسناه منه طيلة مصاحبتنا وتتلمذنا عليه.

١. كان قدس سره مولعاً بالعلم، مشغوفاً بالمطالعة والكتابة، وكان يثمِّن وقته ولا يضيعه ولا يصرفه إلاّ فيما هو ضروري، وقد لازمته عدة سنين فما رأيته إلاّ بين مطالع وكاتب وحافظ للمتون والأسفار، أو محاضر يلقي محاضراته على تلامذته، ويكفي في شغفه بالعلم انّه إذا وقف على نكتة علمية أو كشف مجهولاً يلتذُّ به أكثر مما يلتذّ به الملوك عند فتح البلدان والاستحواذ على كنوزها، وكان لسان حاله في تلك اللحظات السعيدة، قول القائل: أين الملوك وأبناء الملوك.

٢. شارك قدس سره في أكثر العلوم الرائجة المتداولة في ذلك الزمان فكان متضلِّعاً في بعضها ومشاركاً في البعض الآخر، فهو في الأدب العربيّ أديب ماهر، و في الفقه فقيه بارع، وفي الرياضيات والنجوم أُستاذ محنَّك، وفي التاريخ أُستاذ بلا منازع ،

وفي الأدب الفارسي ذا باع طويل قلّما يدانيه أحد.

إلى غير ذلك من العلوم والفنون التي حازها وحفظ نكاتها واستجلى غوامضها، فكنت أتعجب من إحاطته بشوارد العلوم وغوامضها.

ومن الجميل أن نتمثل في حقه بقول شاعر المعرّة حينما زار بغداد و عاد إلى موطنه وسُئل عن الشريف المرتضى بعد عودته فقال:

يا سائلي عنه فيما جئت تسأله	ألا هو الرجل العاري من العار
لو جئته لرأيت الناس في رجل	والدهر في ساعة و الأرض في دار

٣. غادر المترجَم ﷺ موطنه عام ١٣٦٤هـ ونزل العاصمة «طهران» وسكن في إحدى المدارس القديمة بغية طبع كتابه «ريحانة الأدب» ، وقد قارب عمره السبعين فكان لا يعرف الغربة ولا العزلة ولا الحرمان من الطعام والشراب ولامفارقة الأهل والعيال، وقد تحمل العناء المُضني في سبيل نشر كتابه وقام بمفرده بتقديم ملازم الكتاب إلى المطبعة وتصحيح أخطائه مرة بعد أُخرى، وتنظيمه وترتيبه إلى أن خرج آخر جزء منه من المطبعة، وقد استغرق من عمره سنين.

وفي الوقت نفسه كان يلقي محاضرات لطلاب المدرسة كي يستحلّ بذلك السكن فيها.

وقلّما نجد إنساناً طاعناً في السن يترك الأهل والعيال ويغادر موطنه ويعيش غريباً وحيداً في زاوية من زوايا المدرسة لغاية علميّة إلاّ الأمثل فالأمثل من الرجال الذين لهم همم عالية تسمو على هذه العلائق والرغبات،وتُقدم الأُمنية على الراحة، وكان شيخنا الأُستاذ من أبرز هؤلاء.

٤.كان ﷺ مثالاً بارزاً لإباء النفس، و إظهار الغنىٰ ، و كان ذلك سبباً

لقضاء معظم حياته بالفقر من دون أن يطّلع عليه أحد من جيرانه ولا أقربائه.

وكان يتموّل بما يرجع إليه الناس في تحرير ما يحتاجون إليه في مجال الزواج والنكاح والأقارير والوصايا إلى غير ذلك ممّا كان دارجاً في عصره، وكان المرجع في ذلك عالم البلد من دون أن يكون هناك مؤسسة خاصة تتبنّى هذه الأعمال.

ولم يكن يستفد من ذلك إلاّ الشيء القليل الذي يسدُّ به رمقه وحياته، لأنّه كان يرى ذلك سبباً لتضييع الوقت.

٥. انّه تمتَّع بذهنية منفتحة، وكان يرحِّب بالوسائل والأساليب الجديدة في عالم التعليم والتربية أو سائر مظاهر الحياة، إذا لم يكن مخالفاً للدين، ويرى الرغبة عنها جهلاً بالمصالح، وقد لاقىٰ في ذلك ﷺ من المحن والكوارث ما لا يروقني ذكرها.

٦. كان ﷺ يتمتع بذاكرة وقّادة لا ينسى ما حفظ ، ولأجل ذلك يقرأ عن ظهر قلب كلّ ما حفظه أوان شبابه وكهولته وشيخوخته من دون أن ينسى كلمة أو يقرأ آية أو شعراً خطأ، و بذلك كنّا نسمع منه غرائب الأمثال وعجائب الحكايات و بدائع الأشعار في جميع الأبواب.

٧. بما انّ شخصيته كانت ذائبة في العلم والعرفان والكتابة والتدريس فكانت سائر الأُمور عنده أمراً هامشياً، لذلك كان زاهداً في لباسه ومسكنه ومأكله فلا يظهر الرغبة في شيء من زخارف الدنيا إلاّ إذا كان سبباً لنيل بغيته.

ومن عجيب الأمر انّ المترجم عاش في بيئة زخرت بالعلم والعلماء ومراجع التقليد، وعلى الرغم من ذلك فقد شاءت الأقدار أن يغمر ذكر العديد منهم و يجهل قدرهم دون أن يعلم بهم الناس، أمثال:

أ: العلاّمة الأوحد الشيخ موسى بن جعفر بن أحمد التبريزي من تلاميذ

شيخنـا الأنصـاري والمرجع الكبير السيـد حسين الكـوهكمـري مؤلـف «أوثـق الوسائل في شرح الرسائل» فقد كان بحراً عيلماً في الفقه والأُصول، ومع ذلك كان مغمور الذكر إلاّ شيئاً لا يذكر .

ب: السيـد الجليـل ميرزا محمـود بـن شيـخ الإسـلام ميرزا علي أصغـر الطبـاطبـائي (المتـوفّى ١٣١٠هـ) أحـد الأوحـديين في الأدب والتفسير والفقـه، المعروف بشيـخ الإسلام، وقـد رأيت له كتـاباً في اللغة على غـرار «النهايـة» لابن الأثير في جـزءين كبيريـن قـدّمه أحـد أحفـاده إلى السيـد الجليل السيـد حسين البروجردي ﵀ ليقـوم بطبعه، ولكـن حـالت الأقـدار بينه و بين مـا يـرمي إليـه، وكان ﵀ كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

تبريـز دار لأهـل الجهــل مُكْـرِمـة ... ولذي الفضائل دار الضنك والضيق

قـد عشت فيهـا كئيبـاً خائبـاً خسراً ... كأنّـي مصحف في بيـت زنديـق[1]

ج: الشيخ العـلاّمة علي بـن عبد الله العلياري(١٢٣٦ـ ١٣٢٧هـ) أحـد تلاميذ شيخنا الأنصاري كان فقيهاً، أُصولياً، متكلماً، رياضياً، طبيباً، ماهراً جامعاً للمعقول والمنقول مؤلف «إيضاح الغوامـض في تقسيم الفرائض»الذي طبع عام ١٣١٨هـ.

وكتابه الكبير في الرجال، أعني: «بهجة الآمال في شرح زبدة المقال» يعرب عن تضلّعـه في علم الـرجال إلى غير ذلـك من الآثـار التي خلّفهـا.والمذكورة في مقدمة كتابه «بهجة الآمال».

---

١. ريحانة الأدب:٣/ ٢٩٧.

وهو ﷺ يصف موطنه وما لاقى فيه من المصائب والمتاعب، بقوله:

فسكنت في أقصاه حتى لا أرى أحداً ولا أحد لذا يلقاني
ضاقت عليّ الأرض بعد رحبها فغدت كسَمّ الابرة أوطاني

والمصرع الأخير يعرب عن أنّ البلد مع سعته قد ضاق عليه كسَمٍّ الابرة.

د: الفقيه البارع الشيخ محمد إسماعيل المعروف بـ«الفقيه» صاحب الآثار الجليلة في الفقه والهيئة والنجوم(١٢٩٤ـ ١٣٦٠هـ) كان أحد أقطاب العلم في تبريز و على الرغم من ذلك فقد جُهل قدره كسائر أقرانه.

والعجب انّه أيضاً كتب شرحاً للتبصرة أسماه «التكملة في شرح التبصرة» وقال في مقدمته: «ولم يكن له شرح يكشف حجابه» [١] و قد ذكر تلك الجملة شيخنا المدرس في مقدمة شرحه مما يعرب عن عدم اطّلاعه على ما كتبه الآخر من الشرح بالرغم من معاصرته له و إقامتهما في نفس البلدة، و قد طبع الجزء الأوّل من شرح الفقيه عام ١٣٣٨هـ.

إلى غير ذلك من علماء فطاحل أهملهم الناس، ولكنّهم على مضض الزمان كانوا بين التأليف والتدريس والتحقيق ولم يكن بخس الناس حقّهم مانعاً عن أداء الواجب ودفعهم عجلة العلم نحو الأمام.

هذا نزر يسير من أسماء هذه الطبقة الذين جاد بهم الزمان وأنكرت العامة فضلهم وحقوقهم، فعاشوا في زوايا الخمول دون أن يقدّر جهودهم ولعلّها سيرة سائدة في أكثر البلاد، ولذلك نرى أنّ أكثر العلماء يشتكون في كتبهم من مواطنهم

---

١. التكملة الصفحة الأُولى.

و مواطينهم، ونعم ما قال الشاعر:

لو كان للمرء مـن عزّ ومكرمة   في داره لم يهاجر سيد الرسـل

أُسرته

لقـد أعقـب شيخنـا المدرس ولـدين بـارّيـن كـالكـوكبين في سماء العلـم والأخلاق، أحدهما صديقنا الأُستاذ علي أصغر (١٣٣١ـ ...) أحد خريجي جامعة طهران قسم الحقوق والعلوم السياسية وله آثار، منها:

١. الأحوال الاجتماعية للعرب قبل الإسلام.

٢. تاريخ القضاء في إيران من العهد القديم إلى عهد الدولة القاجارية.

٣. تاريخ اليابان.

٤. التعاليم الإسلامية.

٥. الحق والقانون.

وهو بعدُ كاتب قدير ومحاضر يجذب القلوب، وله في الأدب العربي يد غير قصيرة، وقـد سـألته مـرّة عنـد مـا زار قـم المشرفـة في الحرم الشريف عـن شعـر الزمخشري، فقلت: ماذا يعني صاحب الكشاف من هذا البيت.

ومذ أفلح الجهال أيقنت انّني   أنا الميم والأيام أفلح أعلم[1]

فقال ما هذا مثاله:

إنّ الزمخشري يشتكي زمـانه، و يقول: فمن زمن بعيد تصـدّر الجهّال منصَّة الأُمور، أيقنت انّ مثلي والأيام كمثل الميم والأفلح والأعلم.

---

١. الكشاف:٣/ ٣٧٦.

والأفلح من شُقَّت شفته العليا، والأعلم من شُقَّت شفته السفلى، فمن كان كذلك فلا يتمكن من التفوّه بالميم لأنّها من الحروف الشفوية، فبينهما مضادة، فهكذا الحال بيني و بين الأيام.

والأُستاذ بعد حي يُرزق مدّ الله في عمره.

والنجل الآخر الحاج محمد الشاعر البارع باللغتين الفارسية والتركية.

ومن نماذج شعره ما رثىٰ به والده ﷺ.

سحرگاه تیری پرید از کمانی
تنی زو تبه شد، رها گشت جانی
تنی تا نگردد تبه، طایر جان
کجا می‌تواند شدن آسمانی
به فصل بهاران که دیده است یا رب؟
وزد در چمن‌زار، باد خزانی
اگر چند او رفت و از درد وارست
رها شد ز شور و شر دار فانی
ولکن ز بار غم هجر رویش
دو تا شد خدنگ قدم چون کمانی
گلی بود بشکفت و روزی بیفسرد
و یا بین این جمع بُد میهمانی
بهر حال هر آنچه بُد، رفت ولیکن
بدل ماند این حسرتم جاودانی
که در طیّ دوران عمرش نکردم
بدان سان که باشد ره میزبانی
از ین حسرت افسرده بودم که ناگه
به گوشم چنین گفت هاتف نهانی

«مـدرس نمـرده اسـت هـرگـز» نميـرد
«كـه مـانـدسـت آثـار وى جـاودانـى»[١]

هكذا كـانت أيّـام شيخنا المدرس و هكـذا مضت وهكـذا طُويـت أوراق عمره فقد عاش سعيـداً ومات سعيداً، وقد اختطفته المنية عـام ١٣٧٣هـ و دفن في أحد مقابر تبريـز ثمّ نُقل إلى قم المشرفة فدفـن في مقبرة «شيخان» و قد حك على صخرة قبره، هاتان البيتان:

إنّ الـذي صنـع الجميـل مخلّـد
لا سيما في العلـم والعـرفـان
وإذا انقضـت أيّـام مـدّة عمـره
فجميـل صنـع المرء عمـر ثـان

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١٥ ربيع الثاني من شهور عام ١٤٢١هـ

١٣

التعدّدية الدينية

نقد وتحليل[١]

التعدّدية الدينية Religious Pluralism من المسائل الكلامية حديثة الظهور، وقد جرت مؤخراً على الألسن، وصدرت حولها كتب ومقالات مختلفة في بيانها أو نقدها. يتكون عنوان (البيلوراليزم الديني) من كلمتين، هما: «بيلوراليزم» و «ديني» والمفهوم الثاني واضح نوعاً ما، إلاّ انّ المفهوم الأوّل يحتاج إلى بيان.

تستخدم كلمةPLURAL اسماً أو صفة، وكذلك تأتي بمعنى «الجمع أو الكثرة»[٢] والحقيقة انّ الكلمة المذكورة تشير إلى «الكثرة» و«التعدد». وتكملتهاism تعني تياراً، من هنا استخدمت في مجالات مختلفة أعمّ من الدين، الفلسفة، الأخلاق، الحقوق والسياسة. فمثلاً: (البيلوراليزم السياسي) نوع من التعددية السياسية. كما تشير إلى تعدّد الأحزاب والتشكيلات. والمقصود من «التعدّدية الدينية» ما يقابل الوحدانية والتفرد، أو ما يصطلح عليه«الانحصارية في الدين» في مقابل «الشمولية».

من الضروري قبل تناول المصطلح الإشارة إلى جملة قضايا تعتبر مقدمات

---

١. كان هذا المقال باللّغة الفارسيّة و نقلته إلى العربيّة مجلة «التوحيد» و نشر في العدد ١٠٥، السنة التاسعة عشرة، خريف ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢. لغتنامه دهخدا.

للموضوع:

١. ولادة التعددية ومراحلها التاريخية.

٢. تفسير مصطلحي الدين والشريعة.

٣. الهدف من إثارة الموضوع.

٤. استعراض الموضوع في ضوء خطابات الأنبياء.

المسار التاريخي للتعدّدية

علينا أوّلاً أن نحدّد مكان ولادة التعدّدية، وهل المتكلّمون الغربيون هم أوّل من أثاروا الموضوع ثمّ دخل دائرة علم الكلام، أو أنّ للمسألة جذوراً في الفلسفة أو الكلام الإسلامي أيضاً، أو كلاهما أثار المسألة دون أن يقتبس أحدهما من الآخر، ومن غير «توارد خواطر»؟

هناك قراءات وتفاسير متعددة «للبيلوراليزم الديني»، فلا يمكن أن يكون جميعها ذا جذر في الكلام أو الفلسفة الإسلاميّين. و قد نُقشت البيلوراليزم تحت عناوين أُخرى وبنفس المواصفات. وهناك من يتصوّر انّ المسألة قد تناولتها الأوساط العلمية في الشرق، وقد ذكر أسماء من نُسب إليهم الموضوع كما يلي:

١. كان يوحنا الدمشقي مبتكر هذه المسألة، وقد كتب رسالة فيها. ويوحنا الدمشقي ـ كما تجدر الإشارة ـ كان من المسيحيين المقربين للخلفاء العباسيين، مثل المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وقد استرعى اهتمام الخلفاء به معلوماته الباهرة في الطب، وهو الذي أثار فتنة «قدم القرآن» و«عدم حدوث كلام الله»، لكي يثبت بـ«قِدم كلام الله» قِدم المسيح «كلمة الله»، وقد توفّي الرجل في سامراء

عام ٢٤٨هـ.[١]

ولما كانت رسالته مفقودة فلا يمكننا محاكمتها، ومع فرض صحّة نسبتها له. فربما كان يهدف منها الدعوة إلى حياة مسالمة، ليعيش المسيحيون الساكنون في البلاد الإسلامية في ظلها بعزة وكرامة. ومن الممكن أن يكون هدفه مشابهاً لهدفه في مسألة «خلق القرآن» إذ أراد من خلال قوله :(إنّ اتباع جميع الأديان موجب للسعادة) أراد أن يخفّف من حدة تعصّب المسلمين، وأن يجعل أتباع الأديان الأُخرى في مستوى المسلمين.

هكذا قيل، وكلّه مجرد حدس، ولا يعلم الواقع إلاّ الله تعالى.

٢. تعرض إخوان الصفا في رسائلهم إلى مسألة التعددية الدينية، إذ قالوا: الحقّ موجود في كلّ دين، والحقّ يجري على كلّ لسان، ومن الممكن أن تعرض الشبهة على كلّ إنسان.

أخي: انّ بيان الحقّ لصاحب الدين والمذهب، أو من هو متعلّق به وإزالة الشبهة العارضة على ذهنه، مشروط بأن تكون قادراً على هذا العمل، وإلاّ فتخلّ عنه، ولا تدّعي القدرة عليه، وإذا احتملت وجود دين أفضل ممّا أنت عليه عليه فلا تقتنع، والأفضل لك أن تبحث، فمتى وجدته فلا تصرّ على الدين المفضول وعليك أن تدين بالدين الأفضل وتحبه، ولا تنشغل بعيوب الناس، بل انظر إلى دينك بعيداً عن العيوب.

انّ العبارة الأساسية التي تفيد وجود نوع من الحقّ لجميع الأديان هي قولهم: ليس الحقّ منحصراً بدين واحد من بين جميع الأديان، وليست الأديان الأُخرى لا

---

١. الأعلام:٨/ ٢١١؛ ابن زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية: ٢/ ٣٩٤؛ لغتنامه دهخدا:١٤١/ ٢١١١٢.

تمتلك نصيباً من الحقّ، و إنّما هناك قدر مشترك بين جميع الأديان السماوية. وهذا الكلام ليس جديداً و إنّما نادى به الإسلام. إذ دعا القرآن أهل الكتاب إلى القدر المشترك،وهو «التوحيد في العبادة».

ثمّ إنّ كلامهم اللاحق يفرض على كلّ إنسان اتّباع القانون الأفضل، والسعي للتعرف عليه، وهذا الكلام يؤكد انّ هؤلاء من دعاة الانحصارية في الدين وليس التعدّدية الدينية.

٣. ذكر الغزالي في بعض كتبه انّ جميع الفرق الإسلامية ناجية ماعدا واحدة.واعتبر القراءتين اللّتين وردتا في ذيل حديث (ثلاث وسبعين فرقة) صحيحتين. قال في ذيل حديث: «ستفترق أُمّتي إلى ثلاث وسبعين فرقة»: وهنا عبارتان كلاهما صحيح:

أ. الناجية منها واحدة.

ب. الهالكة منها واحدة.

والجملة الأُولى تحصر الحقّ في فرقة واحدة، بينما الثانية تعتبر الجميع على حقّ، والهالكة واحدة.[1]

يتضح انّ الغزالي يؤمن بنوع معين من «التعدّدية المذهبية» بخصوص (٧٢) فرقة إسلامية. لكن في كلامه ما يدلّ على أنّه يعتبر إحدى الفرق على الحقّ، وهي الفرقة التي ستدخل الجنة من غير حاجة إلى شفاعة أو عذاب مؤقت في النار. وأمّا الفرق الأُخرى فانّها ستطرد لقصور في عقيدتها، ولا تدخل الجنّة إلاّ في ظل شفاعة الشفعاء، أو بعد أن تعذب في النار بشكل مؤقت وتتطهر من الرجس.[2]

هذا الكلام ليس جديداً وليس له علاقة بالتعدّدية الدينية، لأنّه لا يُخلّد

١. فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: ١٠٦.
٢. المصدر نفسه: ١٠٧.

في النار، من وجهة نظر الكلام الإسلامي، إلاّ الكافر، وغير الكافر ـ على اختلافه ـ سيخرج من النار ويدخل الجنة.

يقول الغزالي في كتاب: «المنقذ من الضلال»: انّ اختلاف الناس على الأرض في الدين، أو اختلاف الأُمّة الإسلامية في المذهب، مع كثرتها تشبه بحراً عميقاً يغرق فيه أكثر الناس، ولا ينجو منه إلاّ القليل، وكلّ فرقة تتصوّر انّها الناجية منه، وكلّ حزب فرح بما عنده.[١]

وهذا الكلام ينافي التعدّدية الدينية، لأنّ أكثر الناس، في رأي الغزالي، سيغرقون في بحر الضلالة، ولا تنجو إلاّ مجاميع صغيرة جدّاً.

ولم نشاهد قبل عام ١٩٥٠م أي إشارة لهذه القضية في صحف بلادنا، ممّا يؤكّد انّ البيلوراليزم فكرة غربية بشكل كامل، ثمّ تسللت إلى الفكر الشرقي. كما أنّ تعدد التفاسير وكثرة القراءات أبعد القضية عن الأصالة الإسلامية، وإلاّ لو كانت ذات جذر إسلامي لتناولها المسلمون خلال ١٤ قرناً ولكانت أكثر وضوحاً.

إنّ أوّل من أثار التعددية الدينية في إيران هو الدكتور ميمندي نجاد في النصف الثاني من القرن العشرين. واستدل بالآية الآتية على نجاة جميع أتباع الديانات السماوية، وكانت الآية أهمّ دليل لديه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارىٰ وَالصّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوم الآخر وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون﴾.[٢]

والاستدلال بالآية ليس من ابتكاراته، بل أشار إليه المفسرون المسلمون خلال تفسيرهم للآية، التي جاء مضمونها أيضاً في سور أُخرى[٣]، كما أشاروا

---

١. المنقذ من الضلال: ١٧ـ ١٨، مكتبة طه.

٢. البقرة: ٦٢.

٣. المائدة: ١٦٩؛ الحج: ١٧.

تصريحاً أو تلميحاً انّ هـذا الفهم هو فهـم خاطئ لـلآية، حتى وصفـه أبو الأعلى المودودي بأنّـه أكبر افتراء على القرآن.[١] كما أنّ كاتب هـذه السطور قد تحدّث في كتابه «مفـاهيم القرآن»[٢] عن العـالم وخاتميـة الشريعة المحمـدية، وجـاء بالآيـة كدليل للمخالفين، ثمّ حللها وناقشها.

لقد افتتـح في طهران في عـام ١٩٦٦ (مركز التـوحيد العـالمي)، الذي أداره شخص كـان صاحـب امتياز لإحـدى المجلات الـدينية ثـمّ انقلب على عقبه. وكانت المؤسسة ذات طـابع سياسي، وهدفها تضعيف عقـائد الشباب الثوريين، الذين كانوا في حرب مع النظام. أمّا اليوم فهناك كتابان سادا وسطنا الفكري هما:

١. فلسفة الدين لـ(جون هيك) وهو مسيحي من مواليد عام ١٩٢٢، وقد طرح المسألة في كتـابه كفهم جديد للكتب السماوية الموحـاة، ثمّ سعى إلى إثبات كلامه بقوة.

٢. صراطهاى مستقيم «السرط المستقيمة جمع صراط». تأليف الدكتور عبد الكريـم سروش، الذي تبنـى رأي جون هيـك و أعاد صيـاغة أفكـاره على شكل حكايات وتمثيلات.

وهذا الكتـاب لو تجاوزنا محتـواه فانّ عنوانه يتعـارض مع القرآن الكـريم الـذي حصر النجاة والسعـادة بطريـق واحـد. يقول تعـالى: ﴿**وَأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُـوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَـنْ سَبيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّاكُـمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.[٣]

وكان مـن الأفضل للمؤلّف المحترم أن لا يسمّـي كتابه بهذا الاسـم كي لا يقع في تعارض صريح مع القرآن الكريم.

---

١. الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة: ١٩٠ـ٢٠٦.

٢. مفاهيم القرآن:٣/ ٢٠٠ـ٢١٤.

٣. الأنعام:١٥٣.

هذان الكتابـان إضافة إلى الكتب الكـلامية المترجمة وصيرورة الثقافة ثقـافة عالميـة، كلّ ذلك كـان وراء انتشار هذه القضية، وكـان السبب أيضاً وراء كتـابة رسائل ومقالات مختلفة حول الموضوع نفسه.

الدين والشريعة

من المصطلحات التي ينبغي تحديد معانيها أوّلاً: (الدين) و (الشريعة) وما لم يتضح مفهـومهما الواقعي لا نستطيـع أن نقرر شيئاً بشـأن «وحدانية الـدين» أو تعـدّده. فمن تحدث عـن «التعدّديـة الدينيـة» لم يفرّق بين الـدين والشريعـة، ولم يوضح بأيّهما يختص الحديث حول الوحدة والكثرة.

لقد اعتبر القرآن الكريم، وهو أوثق وثيقة لتفسير هذين المصطلحين، اعتبر الدين واحداً والشريعة متعددة، وأكد(أي القرآن) انّ جوهر الدين واحد في جميع العصور، وقد أمر جميع الأنبياء بتبليغه، ولم يحدث مجيء الأنبياء ـ واحداً بعد الآخر ـ أي تغيير أو اختلاف فيه، وظل شامخاً وثـابتاً ومحكماً على مدى العصور ولا يطاله النسخ، لهذا لم يرد لفظ الدين في القرآن إلاّ بصيغة المفرد،ولم يرد قط بصيغة الجمع. فالـدين واحـد ولا يقبل الكثرة وحقيقتـه: «التسليم لله تعـالى» صاحـب السلطة والحاكمية والخلق والربـوبية، وكلّ أُمّة قد دعيت لهذه الحقيقـة، كلّ حسب قدرتها واستعدادهـا. ويمكننا التـأكد مـن ذلك من خـلال الإمعان بـالآيات الكـريمة، ونحن سنشير لها فيها بعد بإيجاز.

التوحيد: الدين القيم

وصفت بعض الآيات التوحيد بالدين القيم، أي الدين الذي لا يتزلزل ولا

يتخلخل. فمثلاً يقول يوسف عليه السلام إلى رفيقيه في السجن: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ للهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاه**﴾ ثمّ يقول: ﴿**ذٰلِكَ الدِّينُ القَيِّم**﴾ .[١]

فإذا كـان التسليم للحـقّ تعالى ونفـي التسليم لغيره هـو الديـن القيم، إذاً فيجب أن يبقى بالقوّة نفسها في جميع العصور.

ويعتبر القرآن التوحيد في آيـة أُخرى أمراً فطرياً فطره خـالق البشر وأودعه فيهم ﴿**فِطْـرة الله الَّتـي فَطَرَ النّـاس عَلَيهـا**﴾ ثـمّ أردفها بقـولـه: ﴿**ذٰلِكَ الدِّينُ القَيِّم**﴾.[٢] ويتلخّص الدين القيّم الثابت بالتوحيد في العبادة.

الدِّين دين الإسلام فقط

حصرت بعض الآيات الديـن بالإسلام ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلام**﴾. [٣]
والآية ليست ناظـرة إلى عصر الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله فقط، بل هـي حقيقة مستمرة في جميـع العصور، وإذا كـان الـدين واحـداً والشرائع والمذاهـب السماوية، متعـددة فسيكون معنى الـدين ـ إذاً ـ هو العقـائد التوحيدية أو المعارف الإلهيـة التي دعي جميـع الأنبياء، إلى تبليغهـا، وسيكـون محورها التسليـم لله تعـالى، وعدم عبـادة أو إطاعة غيره.

وجاء في آية أُخرى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [٤]، وهذا الحكم لا يقتصر على عصر الـرسول صلى الله عليه وآله وإنّما يسري إلى جميع العصـور، لذا أكـد القرآن انّ إبراهيم عليه السلام كان شخصاً مسلماً ولم يكن يهودياً أو نصرانياً ولا مشركاً.[٥]

---

١. يوسف: ٤٠.
٢. الروم: ٣٠.
٣. آل عمران: ١٩.
٤. آل عمران: ٨٥.
٥. آل عمران: ٦٧.

فإذا كان الدين واحداً، والشرائع متعددة فسيكون معنى الدين هو الاعتقاد بالتوحيد والتسليم لله تعالى، على أن تشكّل طاعته وعبادته البنية التحتية لجميع الشرائع. وجميع الأنبياء مكلّفون بالدعوة لذلك: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾.[١]

الدين الحقّ هو دين التوحيد

فسّرت بعض الآيات الدين الحقّ بالتوحيد، وذكرت انّ هدف إرسال النبي الخاتم ﷺ هو تغليب دين التوحيد على الشرك، وأكدت الآيات انّ هذا الأمر جزمي وإن كره المشركون.[٢]

وربما نزل هذا النوع من الآيات لبيان معنى الدين، ولتأكيد انّ الدين نمط من التعاليم العقيدية يقع التوحيد في مقدّمتها. وبما انّ النصوص العقائدية والمعرفية تعكس واقعيتها، فلا يمكن أن تكون مختلفة، وإنّما هي ثابتة وواحدة.

ما هي الشريعة؟

«الشريعة» و«الشرعة» يقال للطريق الموصل إلى الماء. والقرآن الكريم بعدما يؤكد وحدة الدين يشير إلى تعدّد الشرائع ووجود الشرعات والمناهج، والمراد بها: التعاليم العملية والأخلاقية التي تنظم علاقات الإنسان الفردية والاجتماعية وتحدد مسؤوليته أمام الله والناس. والسبب في اختلاف الشرائع هو الاختلاف في الاستعدادات والقدرات والظروف المختلفة الحاكمة فيهم، لهذا نجد الشيء حراماً في هذه الشريعة وحلالاً في الشريعة الأُخرى. وعلى هذا الأساس تنسخ الشرائع،

---

١. النحل:٣٦.

٢. النور:١١.

لكن النسخ لا يطال جميع التعاليم العملية والأخلاقية للشريعة، وإنّما ينسخ القسم الملازم لتطور الزمان و الإمكانيات واختلاف الظروف.

وقد صرح القرآن الكريم باختلاف الشرائع : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾[١]، ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلىٰ شَريعةٍ مِنَ الأَمْرِ فاتَّبِعها﴾.[٢]

ممّا تقدم نخلص إلى أنّ الدين المتعلّق بعقيدة الإنسان حول الله وصفاته وأفعاله واحد، لا يقبل الاختلاف، وقد أرسل جميع الأنبياء لتبليغه.

بينما الشريعة، التي هي تعاليم عملية، مختلفة رغم وجود المشتركات بين جميعها. ولا يطال النسخ جميع أحكامها وإنّما ينسخ القسم الملازم لمقتضيات الزمان وتفاوت القدرات الفكرية والعقلية للأُمم.

أهداف إثارة موضوع التعدّدية

ليس الهدف من إثارة مسألة التعدّدية الدينية، مع تعدّد تفسيراتها، واحداً بل يحتمل أن يكون لكلّ قراءة أو تفسير هدف خاص، وهنا سنشير إلى بعضها:

١. هدف علم الاجتماع

كلّما فُسّرت التعدّدية الدينية تفسيراً سلوكياً(أي أن يعيش أتباع الديانات المختلفة بعضهم مع بعض حياة مسالمة، ويتحمل بعضهم الآخر) فسيكون هدفها من زاوية علم الاجتماع، هو تحجيم التعصب الديني لدى اتباع الديانات المختلفة.

---

١. المائدة: ٤٨.

٢. الجاثية: ١٨.

والشاهد على ذلك تحركات البابا من أجل استئصال التعصّب الديني، إذ سعى البابا إلى تبرئة ساحة اليهود من قتل عيسى عليه السلام، وقد جاء في بيان شورى الفاتيكان الثاني الصادر سنة ١٩٦٣م بشأن التعايش السلمي بين المسيحيين والمسلمين:

«تطلب هذه الشورى المقدسة من كلا الطرفين نسيان الماضي، وعلى المسيحيين والمسلمين أن يسعوا من الآن إلى إقرار صيغ للتفاهم، والتعاون على تحمّل مسؤولية المحافظة على مصالح جميع الأفراد في طريق العدالة الاجتماعية والأخلاق، والصلح والحرية».[١]

بعد ان اتسعت العلاقات بين المجتمعات ـ ولا سيما بعد الحروب الدينية القاسية، أعمّ من الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين،والحروب التي وقعت بين المذاهب المسيحية وما زالت مشتعلة بين الكاثوليك والبروتستانت بالأخص في الآونة الأخيرة في ايرلندة، وما خلّفته تلك الحروب ـ تبلورت فكرة مفادها الاعتراف بالأديان الأُخرى والتصالح معها، لأنّ من صالح المجتمع أن تعيش جميع الأديان والمذاهب بعضها مع بعض. فكانت الحروب هي السبب وراء قبول التصالح بين الأديان من أجل تحجيم الأرضية المؤجّجة لها.[٢]

٢. توجيه ما جاء في الكتاب المقدس

انّ إحدى أزمات المتكلّمين المسيحيين هي تعاليم الكتاب المقدس

١. برخورد آراى مسلمانان و مسيحيان: ٢٥١. وقد نقل «جون هيك» هذا البيان بصيغة أُخرى. انظر: فلسفة الدين: ٢٤٢ـ٢٤٣.

٢. كتاب نقد(٤) المقالة الأُولى.

المخالفة للعقل، فهي تعاليم تستعصي على التوجيه بأي معيار، بالأخص ما يتعلّق بصفات وأفعال الله تعالى، وقد استخدم معـارضو الكنيسة من العلمانيين وغيرهم هذا السلاح ضد الدين الكنسي، واعتبروا الكتـاب المقدس مجموعة من الأساطير والخرافات.

وعندما أثارت التعدّدية الدينية مسألة جوهر الدين وصدف الدين، لم تعتبر الاختلافات شيئاً مهماً، لأنّ المسؤول عن التحول في شخصية الإنسان هـو جوهر الديـن وتبقى النصوص الـدينية أحكامـاً لإثبات صـدقيته من أجـل الحفاظ على جوهره،لأنّ أهميـة الدين في جوهره، لا في صـدفه. لذا ينبغي الكفّ عـن مراجعة ونقد التعاليم الدينية، وعدم اعتبارها نظريات علمية، وقطع التحدّث عن صدقها وكذبها، ويجب أن تحظى هذه التعاليم بالاحترام مادامت تؤثر فينا.

يقول مؤلّف كتاب (العقل والاعتقاد الديني) حول بيان التعدّدية من وجهة نظر هيـك: «يعتقد هيـك انّ التعاليم لا تمثـل جوهر الـدين، المسؤول عن إيجاد التحوّل في شخصية الإنسان، ويؤكد انّنا لا نتجـاوز الحدود عند مراجعة التعاليم الدينية مثل (التجسيد)، لأنّها ليست كالنظـريات العلمية إمّا أن تكون صادقة أو كاذبة. ومادام لـلإنسان أسئلة حول الحياة والأوامر الإلهيـة، فعلى العقيدة الدينية الإجابة عن هذه الأسئلة. ومادامت هـذه العقائد والتعاليم تؤثر في رؤيتنا للحياة فهي صادقة.

وبعبارة أُخـرى، اعتقد انّ هيك قـد ارتكز إلى الأبعـاد الوجوديـة والتحوّل الـذاتي للديـن قبل الاعتماد على الحقـائق الكلاميـة (المبينة على شكـل قضايـا). وتكمن أهميته انّه استبدل الحياة التي محورها الإنسان بحياة محورها الله.

وعلى هذا فليس المهم عقائد الإنسان فقط، لأنّ عقيدة كلّ فرد هي خلاصة تجاربه وثقافته ومقولاته المصاغة بشكل أُسطوري والمكتسبة من الواقع، وعلى هذا

فالـدعوة إلى دين واحـد والتزام الناس بـدين واحد لا معنـى له، وما هـو مهم أن يتأثّر واقعنا لكي يتغيّر.[١]

فالخلاصة انّ المهم هو جوهـر الدين وتحول شخصية الإنسان إلى شخصية محورها الله، وأمّـا تعاليـم ونصوص الكتـاب المقدّسـة في مجال العقيدة والأحكـام العملية والأخلاقية فجميعها هدف للدين، وإنّما هي مهمة بالنسبة لنا لأنّها تحافظ على جوهـر الدين، وأمّـا كونها صادقـة أو كاذبـة، ضدّ أو نقيض، فليسـت مهمة بالنسبة لنا.

٣. مبرِّرات التعدّدية الدينية

ليس هدف هـذه المسألة هو إثبـات ما هو الحقّ أو الباطـل أو بيان ضلال ونجاة الإنسـان، وإنّما هدف المسألة هـو إيجاد طريق لتصحيح تعـدّد الأديان أو الشرائع، لأنّ مصدر الديـن واحد، وشهوده «أمر مطلـق» ويتعالى على التعبير عنه بـ«التجربة الدينية»، لكن فهم هذا الشهـود متعدد ومختلف، وسببه انّه كلما كانت التجربـة الدينيـة قادرة على التعبير عـن نفسها بصيغـة معبرة فهي لابـدّ أن تتأثـر بـالظروف التـاريخيـة واللغويـة والاجتماعيـة والجسمانيـة، لهذا تختلف النصـوص الدينية، فبعضها يدعو إلى التوحيد وبعضها يدعو إلى التثليث.

وهذه الفكـرة قد اعتمدت على مبـدأ «كانت» المعـروف(انّ الشيء في نفسه يغايـر ما هو مـوجود لدينـا). والأشياء التي تـرد الذهن عـن طريق الحس تتـأثر بالقوالب الذهنية السابقة، وسيكون هناك اختلاف بين الواقع وما ندركه منه.

يقول جون هيك في إحـدى مقالاته: انّ التعددية، من زاويـة علم الظواهر،

---

١. عقل واعتقاد ديني: ٤٠٨ـ٤٠٩.

هي الـواقع الذي يعبر عنـه تاريخ الأديـان بتعدّد المذاهـب وكثرة ما يترشّـح عن كلّ واحـد منها. وهـذا المصطلح ناظـر، من زاوية فلسفيـة، إلى قسم خـاص من العلاقة بين المذاهب وما تدّعيه ونقائضها.

وهذا المصطلـح يعكس النظريـة التي تقـول إنّ للأديان العـالمية تفسيرات مختلفة حول الحقائق الإلهية الخافية.[١]

ويقول: الأديان المختلفـة عبارة عن تيارات مختلفـة للتجربة الدينيـة، وكلّ واحد منها قد بـدأ في إحدى مراحل التاريخ البشري، وتفتّـح وعيه العقلي داخل فضائه الثقافي.[٢]

لكـن هيـك لم يستطـع في نقده إلاّ أن يفسّر اختـلاف الأديـان في قضـايـا العقيـدة فقط، دون التعـاليم العمليـة والأخلاقيـة، لأنّ الاختلاف في الأحكـام لا يمكن أن يكـون معلولاً للعـوامل الأربعـة التي تـؤثر في التعبير عـن شهود الأمـر المطلق.

التعاليم الدينية وأقوال الأنبياء

حاولـت التعدديـة الدينيـة أن تناقـش قضية الـرسل ورسـالاتهم في مجال العقيـدة والعمـل واعتبرت (شهـود الحقيقة المطلقـة) مصـدر الـديـن، واعتبرت رسالات الأنبياء انعكاساً للفهم المختلف مـن الحقيقة الغائية، الإلهية الخافية. كلّ ذلك من دون الرجوع إلى الرسل ومحاورتهم والاستماع إلى أحاديثهم وأقوالهم.

التعدديـة ليست مسألـة فلسفية خالصة يمكـن دراستها ونقدهـا في غرف

١. دين پژوهی، ترجمة بهاء الدين خرمشاهي: ٣٠١.

٢. جون هيك: فلسفة الدين: ٢٣٨.

مغلقة دون الرجوع إلى أقوال الرسل وحفّاظها، وإنّما ينبغي الاستماع إلى أقوالهم بدقة، ومن ثمّ نجلس للقضاء.

إنّ ما يقوله التعدّديون في تحليلاتهم لا يعدو كونه قضايا حدسية، لا تدعمها أي وثائق تاريخية.

واليوم قد استبدلوا البرهان والدليل بالحدس والظن وفسّروا حركة الأنبياء وكتبهم وتعاليمهم بالتجربة الدينية (شهود الموجود المطلق)، واعتبروا تعاليمهم انعكاساً لما يفهمونه من الحقيقة، وليس لها علاقة بذات الموجود المطلق، بينما يقول الأنبياء: انّ ما نقوله ليس له علاقة بنا، ومهمتنا فقط نقل الأوامر والخطابات، وشعارنا: **﴿إِن أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحَى إِلَيَّ﴾** [1] و **﴿اتَّبع ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاإِلهَ إِلاّ هُو﴾**.[2] وعندما طلب إلى الرسول ﷺ أن يبدل أوامر الله أجاب : **﴿ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي﴾**.[3]

إلى هنا انتهينا من بيان المقدسات ونبدأ بمعالجة موضوع التعدّدية والقراءات المتعدّدة لها:

القراءة الأُولى للتعدّدية الدينية

ذكرنا سابقاً انّ نظرية التعدّدية الدينية «البيلوراليزم» تحمل تفسيرات وقراءات متعددة، وما لم نتناولها واحدة واحدة لا يمكننا أن نحكم لها أو ضدّها.

انّ أوّل تفسير لها هو التعددية السلوكية، وتعني انّ جميع أتباع الأديان (حسب تعبير المنظّرين) أو الشرائع(في ضوء تعبيرنا)، قادرون على العيش

---

١. يونس:١٥. ٢. الأنعام:١٠٦.
٣. يونس:١٥.

بعضهم إلى البعض الآخر على أساس ما لديهم من مشتركات، وأن يتحمل أحدهم الآخر، أو باصطلاح السياسيين إيجاد حياة مسالمة، وقد يندفعون أكثر فيعتبرون العلمانيين نوعاً من أصحاب الديانات المتوهمة، ولهم أن يعيشوا مع الآخرين عيشة مسالمة.

ونحن لا ننكر وجود المشتركات بين الشرائع، وبتعبير الآخرين بين الأديان، وكما قال «وليم ألنسون» هناك تقارب واضح بين الأديان، إلاّ أنّه يكون أكثر وضوحاً بين الأديان التوحيدية الكبرى، أي اليهودية والمسيحية والإسلام، كما هناك اختلافات بينها، ولا سيما في نظرتها إلى فعل الله في التاريخ. لكن الاختلاف لا يقتضي التضاد بشكل كامل أو انّ أحدها ينفي الآخر. بل هناك اشتراك أيضاً بين أديان الشرق الأقصى التي تختلف فيما بينها، و بينها و بين الأديان التوحيدية. فالتأكيد أكثر من القدر اللازم على الفوارق بين الأديان سيفضي إلى تجاهل المشتركات التي يمكن للأديان الاتّفاق عليها. وجميع هؤلاء يرفضون الفكر الطبيعي الذي يقول: «لا توجد حقيقة ممتدة في أبعاد الزمان والمكان».[١]

إنّ التعددية بهذه القراءة يقبلها العقل والدين والشريعة، وقد دعا القرآن أهل الكتاب إلى حياة مسالمة تحت خيمة التوحيد، لأنّه أصل مشترك بين جميع الشرائع السماوية، يقول: **﴿قُلْ يا أَهْلَ الكِتاب تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ﴾**.[٢]

وقد اعترف الفقه الإسلامي، الذي يرتكز إلى الكتاب والحديث، بأهل

---

١. مجلة كيان، العدد: ٥٠، ص ٧.

٢. آل عمران: ٦٤.

الكتاب ودعا إلى احترام حقوقهم، بما لا مزيد عليه، ففي كتب الفقه فصل خاص عن أهل الذمة وشروطهم، يعكس مدى تعاطف الإسلام مع هذه الشرائح الاجتماعية.

عندما كان الإمام علي عليه السلام يتجول في شوارع المدينة رأى رجلاً أعمى يستعطي الناس، فسأل: ما هذا؟ فقيل: رجل نصراني، فأجاب الإمام: «عجباً، استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه! اصرفوا عليه من بيت الله لتصونوا وجهه».[١]

انّ الحياة المسالمة لا تختص بأهل الكتاب بل جوّز القرآن ذلك للمشركين أيضاً، شريطة عدم اشتراكهم في حرب ضدّ المسلمين، وعدم خروجهم من بيوتهم، وحينها يجب معاملتهم بالحسنى والعدل والقسط، لأنّ الله يحبّ المقسطين.[٢]

وهذا السلوك لا ينطوي على شيء من النفاق، وإنّما هو من صميم الدين الإسلامي، بل كان هذا أحد الأسباب المشجعة على اعتناق الإسلام. وليس أجمل من كلام الإمام علي وهو يخاطب واليه على مصر، إذ يقول: «واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكون عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فانّهم صنفان:

أ. إمّا أخ لك في الدين.

ب. أو نظير لك في الخلق».[٣]

١. وسائل الشيعة، ج١١، باب ١٩، من أبواب الجهاد، ص ٤٩، الحديث١.

٢. الممتحنة:٨.

٣. نهج البلاغة، تنظيم صبحي الصالح، قم، دار الأُسوة، الكتاب ٥٣، ص ٥٩٠.

لكن بعض دعاة البيلوراليزم يرفضون هذه القراءة،ويعتبرونها خارجة عن الموضوع، ويقولون: ليست المسألة أن نجد حلاً يساعد على وجود الأديان المختلفة جنباً إلى جنب. وإذا أردنا أن نصل إلى حلّ عملي من أجل حياة مشتركة مسالمة، فعلينا أن نرتكز إلى مبدأ التسامح (Tolerance)، وهو مغاير للبيلوراليزم. ففي التسامح يحترم الإنسان والحرية وحقوق الآخرين، ورغم انّ الجميع يعتقد انّ الحقيقة معه.[1] ولكن لا يمكن للواقعين فرض تفسير آخر للتعدّدية ولا سيما بالنسبة إلى المؤمنين بمبادئهم الدينية إيماناً كاملاً، سواء سُمّي المفهوم بالتساهل أو التعددية.

والمهم انّ التساهل أو الحياة المسالمة، أو الاعتراف بحقوق أهل الكتاب لا يعني الجزم بفوزهم ونجاتهم، لأنّ مسألة التساهل والتغاضي ومواجهة الخلافات قضية مرتبطة بالحياة الدنيا من أجل الحفاظ على كرامة الإنسانية، أما كيف يكون مستقبل الإنسانية فليس له علاقة بهذه المسألة.

وهنا أُضيف شيئاً إلى هذا التفسير: على الرغم من حرص زعماء الشرائع السماوية وعلماء الدين على توفير حياة مسالمة إلاّ أنّهم تناولوا الأُصول المختلف عليها، ارتكازاً إلى المبادئ المسلمة والمنطق الصحيح، وفصلوا بعيداً عن التعصب بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح. وجاء في القرآن الكريم بعد أن دعانا إلى التعددية: ﴿فَبَشِّر عِباد* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه﴾ [2]. وهذا هو فقط منطق حوار الحضارات والأديان والشرائع.

---

١. مجلة كيان، العدد٢، ص ١١ـ١٢.

٢. الزمر:١٧ـ١٨.

القراءة الثانية للتعدّدية الدينية

التفسير الثـاني للتعدديـة «البيلوراليـزم»، هـي التعدديـة المخلّصة، وفيهـا أُثيرت مسـألة الخلاص والسعـادة التي تـوفـرها جميـع الشرائع في جميع العصـور، فيقولون يكفي في سعادة الإنسان أن يؤمن بالله، وأن يلتزم في حياته بإحدى تعاليم الشرائع ـ أو كما يعبرون الأديان ـ والظاهر انّ الشهيد مطهري يفهم التعدّدية ـ كما جاء في بعض خطبه ـ بهذا الشكل.

يقول بعض المثقفين: إنّ جميع الأديان السماوية واحدة في جميع الأوقاف من حيث اعتبارها، ومفاد ذلك هناك عدد من الأديان الحقّة في كلّ زمان، و يستطيع الإنسان في أيّ زمان أن يدين بأيّ دين يريد.

و يقـولون في كـلام آخر: يكفـي لـلإنسان أن يعبـد الله، وأن ينتسب لأحـد الأديان السماوية النازلة منه تعالى، وأن يعمل بـأوامرها، أمّا شكل هذه الأوامر فلا أهمية لها، ويتبنّى هذه الفكرة كل من جورج جرداق صاحب كتاب الإمام علي عليه السلام ، وجبران خليل جبران الكاتب اللبناني المسيحي المعروف، وآخرون.

وهذا الادّعاء الكبير، لا انّـه عار فقط من الـدليل، بل هناك شـواهد كثيرة على ضعفه، نشير لها:

أوّلاً: هل انّ أصحـاب الشرائع يعترفون بوجـود حدود معينـة لشرائعهم، أم يقولون انّها شرائع عالمية وتوفّر السعادة للإنسان في جميع العصور؟

إنّ جوابهم سيضع حـداً للنزاع. لكن الغريب انّ التعـدديين يقررون أشياء لشرائع الأنبياء وينسبون لهم أُخرى دون الرجوع إليهم!

ثانياً: هنـاك خمسة محاور يذكرهـا تاريخ الشرائع، يقع على رأس كـلّ واحد منهـا رسول صـاحب شريعـة، يرافقـه حتى ظهـور المحور الثـاني عدد كبير مـن

الأنبياء، تنحصر مهمتهم بـالتبليغ، وليس لهم أحكام جديـدة. والمحاور الخمسة هم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمدﷺ. وكلّ واحد منهم صاحب شريعة. وبدأ نـزول الكتب والشرائع منـذ نوح، وختمـت ببعثة نبـي الإسلام، وقـد تعرض القرآن لهذه القضية بشكل واضح، يقول: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوحَيْنـا إِلَيْكَ وَمـا وَصَّيْنا بِـهِ إِبراهِيمَ وَمُـوسىٰ وعِيسىٰ أَنْ أَقِيمُوا الـدِّين وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيه...**﴾.[١]

فـالآيـة ذكـرت محاور تـاريخ النبـوّات الخمـس،ولم تـذكـر أسماء الأنبيـاء الآخـرين، لأنّهم ليسـوا أصحاب شرائع ولا محاور أسـاسية، و تنحصر وظيفتهـم بالتبليغ.

إنّ اختلاف الاستعـدادات والقابليات هو السبـب وراء تعدّد الشرائع. ولم يبعث الله الكامل المطلق في يوم ما شريعة ناقصة، بل كلّ دين هو في غاية الكمال بالنسبـة إلى أتباعـه، حتى ينتهي الفيـض المعنوي بـالحلقة الأخيرة، لكـي تتمكن الشريعة المرسلـة أن تدير المجتمع الإنسـاني إلى يوم البعث، وأن تجيـب على جميع الحاجات المادية والمعنوية، ومن هنا اختتم باب النبوة وانقطع الوحي.

في ضوء هـذا التفسير، ومن خـلال المسار التـاريخي للنبوات، نستطيـع أن نشير إلى أخطاء هذه النظرية.(أي نظرية التعددية بالتفسير الثاني).

١. انّ القـول بخلود واستمـرار كلّ شريعـة يفضي إلى إلغـاء فائدة تشريـع الشرائع المتعدّدة وإرسال الرسل المحوريين،وسوف لا نجني من ذلك شيئاً سوى التشويش وبث الفرقة.

٢. إذا قلنا يكفي في تحقيق السعادة اتّباع أية شريعة، فلماذا تحدد مسؤولية

---

١. الشورى:١٣.

كلّ نبي بمجيء النبي الآخر بل والتبشير به.

٣. إذا كانت كل الشرائع خالدة فلا موجب لنسخ الأحكام، ولو بشكل إجمالي، ولما قال المسيح :﴿ولأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُم﴾ .[١]

٤. إذا كانت شريعة عيسى صالحة ومعترفاً بها رسمياً حين نزول الشريعة اللاحقة فلا وجه لدعوة اليهود والنصارى لاتّباع دين محمّد ﷺ مع أنّ القرآن يصرّح بكفر أهل الكتاب ما لم يؤمنوا بالدين الجديد: ﴿فَإِنْ آمنوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ .[٢]

٥. عندما نراجع نصوص الكتاب المقدّس والقرآن الكريم وأقوال ورسائل النبي ﷺ نجد انّ هذه النظرية من الهشاشة إلى درجة لا يصدقها إلاّ من يطلق الأحكام جزافاً ثمّ يبحث عن الدليل ويتشبّث من أجل نجاته بكلّ غث فيؤمن بهذه النظرية.

٦. تتوقّف حياة الإنسان في الآخرة على عقيدة صحيحة وعمل صالح، وتحقّقهما موجب للثواب. وهنا نسأل: كيف يمكن للتضاد في العقيدة أو العمل بحكمين متضادين أن يضمن الحياة المعنوية للإنسان؟ وكيف يُسعد الإنسان في الدارين بتبني التوحيد على جميع الأصعدة مع الإيمان بالتثليث وبتثليث الرب، أو تجنّب الشراب والربا مع الإدمان وأكل الربا؟

٧. لو أعرضنا عن هذا، فانّ واقعية السعادة التي ستوفرها هذه الأديان ستكون مشروطة بعدم تحريفها، فهل هذا الشرط صادق في الأديان السابقة؟ مع أنّ الإنجيل سجل لتاريخ حياة المسيح وليس الإنجيل الحالي كتابه أو خطاباته، وقد

---

١. آل عمران: ٥٠.

٢. البقرة: ١٣٧.

كتبه بعض تلامـذته، فكلّ واحد من الأناجيل الأربعة ضبـط حياة المسيح بشكل خاص،وذكر صلبه ودفنه وعروجه إلى السماء.

فهل يمكن لـلإنجيل الذي خطّته يد البشر أن يسعد جميـع الإنسانية على وجه الأرض؟ والتوراة أيضاً حامت حول مستقبل الإنجيل، فالتوراة الحالية قُرئت وكتبـت على يد أحـد حفّـاظ التوراة في زمـان نبوخـذ نصر بعـد اختفاء النسخـة الأصلية، وهذه النسخة تعرضت بعد مرور سبعين سنة للتحريف، واشتملت على أحكام ونصوص تخالـف العقل، وقد انتقدها القـرآن باعتبارها عاجـزة عن توفير السعادة والهداية.

٨. ولو أعرضنـا عن كلّ ما تقـدم نقول: «إنّ الأديان التاريخيـة الكبيرة هي بمنزلة مجموعة معـرفية تتشكل من منظومة عقيدية واحـدة» إلاّ أنّنا متى شخصنا الأكمل مـن بينها فعلينـا بحكم العقـل اتّباعهـا، وهذه الحقيقـة صرّح بها بعض أنصار البيلـوراليزم. يقول «ويليـم الستون»: أنـا لا اعتقد انّ جميع الأديـان التي امتدت على طول التـاريخ ستستمر حتى اليوم، وهـي متساوية بذلـك من منظار معرفي.

ويقول: ومـن الممكن أن نـرجّح ملاحظـات الآخريـن على قسم مـن هذه المنظومة على البعض الآخر.[1]

سؤال وجواب

إنّ البعض ينبهـر بالواقعية ويحاول أن يجد دليـلاً مؤيداً لما يدّعيـه، فيطرح قضايـا، بمعزل عن أدلّـة الآخرين، ليـؤثر في النـاس البسطاء، ومن هـذا المنطق

١. كيان، العدد: ٥٠، ص ٧.

يتشبث دعاة السعادة الشمولية ببعض الآيات ليتأثر بها الآخرون، منها:

١. يتساوى المؤمنون واليهود والنصارى أمام الله تعالى:

اعتبر القرآن (المؤمن واليهودي والنصراني والصابئي) متساوين أمام الله تعالى، وجعل نجاة الجميع متوقفة على الإيمان بالله والعمل الصالح: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى والصّابئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوم الآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون﴾**.[1]

إذاً يكفي شيئان في تحقّق السعادة: الإيمان بالله والعمل الصالح، وكلا الأمرين ثابت في جميع الشرائع. لكن ينبغي الانتباه، انّ الآية المذكورة تهدف إلى شيء لا علاقة له بالتعدّدية، وعندما نراجع الآيات الواردة في النصارى واليهود نضع أيدينا على هدف هذه الآية:

أوّلاً: ادّعى اليهود والنصارى انّهم أبناء وأحباء الله: **﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصارىٰ نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبّاؤه﴾**.[2]

ثانياً: ادّعوا انّ النار لا تمسّ المجرمين منهم إلاّ أيّاماً قلائل:

﴿وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنا النّارُ إِلاّ أَيّاماً مَعْدُودَة﴾.[3]

ثالثاً: حصروا الهداية بالنصارى واليهود، وقالوا يكفي فيها الانتساب إلى إحدى الفرقتين، كما نسبوا إبراهيم عليه السلام إلى إحداهما: **﴿وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ تَهْتَدُوا﴾**.[4]

وهنا يؤكد الباري عزّ وجلّ أمام هذه الدعاوي الأنانية، انّ السعادة ليست

---

١. البقرة: ٦٢.
٢. المائدة:١٨.
٣. البقرة:٨٠.
٤. البقرة:١٣٥.

منحصرة بها، وليس اليهود ولا النصارى أبناء الله وأحباءه، والهداية لا تحوم حول اليهودية والنصرانية، وإنّما تتوقف على الإيمان بالله والعمل الصالح، لا على شروطهم وتمنّياتهم: ﴿**تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرهانكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين* بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون**﴾.[١]

فهدف الآية ليس الاعتراف ببعض هذه الأديان، بل هدفها تأكيد شرطي السعادة في جميع الشرائع، بالإيمان والعمل الصالح، وليس الانتساب إلى اليهودية والنصرانية أو أي فصيل آخر، لأنّ الإيمان لا يجدي نفعاً ما لم يكن مصحوباً بالعمل الصالح.

بل انّ اليهود المتكبّرين يعتقدون انّهم الشعب المختار وأحباء الله، وعليهم أن يستعبدوا الآخرين. وتصوّر النصارى، في ضوء عقيدتهم ـ بأنّ المسيح فدى نفسه لتفادي الذنوب، وقضية العشاء الرباني وصكوك الغفران التي يمنحها القساوسة ـ انّهم مصانون. والنتيجة انّ كلا الفريقين قد جانب التعاليم الإلهية من الناحية العملية، لذا حذّر القرآن من هذا النمط من الفكر الذي يعيق التغيير في الروح الإنسانية، وأكّد انّ ما تقدّم ليس ملاكاً في النجاة وإنّما النجاة مشروطة بالإيمان والعمل الصالح.

فليس للآية الكريمة أدنى ارتباط بالاعتراف بهذه الشرائع على مدى الازمان، بل تريد الآية أن تؤكد أصلاً واحداً معتبراً في جميع الشرائع، وهو انّ الأسماء والألقاب والأنساب ليست دواعي للنجاة، بل على الجميع أن يتسلّحوا بالإيمان والعمل الصالح، والآية ليست بصدد بيان خصائص الشريعة التي يجب أن نتبعها في حياتنا ولا خصوصيات العمل الصالح، وما هو مصدره من بين الشرائع.

---

١. البقرة:١١١ـ١١٢.

٢. التوراة والإنجيل هدىً ونور:

إنّ أحد أوهام هذا الفريق قوله إنّ القرآن قد اعتبر التوراة والإنجيل هدىً ونوراً، يقول تعالى: **﴿إِنّا أَنْزلنا التَّوراةَ فِيها هُدىً ونُور﴾**.[1] **﴿آتَيْناهُ الإنْجيل فيِهِ هدىً وَنُور﴾**.[2] فكلا الآيتين تشير إلى أنّ كلا الكتابين لم يتجرّدا، في عصر الرسول، من النور والهداية، ومازالا إلى يومنا هذا. وهذا نمط استدلال في مقابل استدلال اليهود والنصارى الذين رفعوا في حياتهم شعار: نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض» وقالوا«نؤمن بموسى و نكفر بعيسى و محمد».[3] وهذا الفريق (دعاة التعدّدية) لم يعتنوا بالآيات الواردة في هذا الموضوع وتعلّقوا باشعار ضعيف فيها، سيزول سريعاً لو راجعنا سياق الآيات وأسباب النزول.

هناك مجموعة من الآيات في القرآن الكريم تبدأ من الآية (٤١) من سورة المائدة وتنتهي في الآية (٥٠)، وكلّها تنتقد سلوك اليهود الذين غيّروا الأحكام الإلهية وأخفوها. فمثلاً بدّلوا حكم الزانية المحصنة، التي حكمت التوراة برجمها، بدّلوه بتسويد الوجه، وكانت الدية عندهم على شكلين، فإذا قتل شخص من (بني النضير) أخذوا دية كاملة، وإذا قتل شخص من (بني قريظة) أخذوا نصف دية، لأنّ القبيلة الأُولى قوية والثانية ضعيفة، بينما دية الإنسان في التوراة واحدة للجميع. ففي عصر الرسول وقع رجل في زنى امرأة محصنة منهم، فجاءوا إلى الرسول ليحاكمها في ضوء التوراة، فسألهم الرسول ما حكم التوراة في هذا الموضوع؟ قالوا: «تسويد الوجه» فقال: كذبتم، بل حكمكم الرجم. فقال أتوني بالتوراة، فجاءوا بها فقرأها رجل اسمه (ابن صوريا)، فلما وصل إلى حكم الزنا

---

١. المائدة:٤٤.
٢. المائدة:٤٦.
٣. تفسير المنار:٦/ ٨.

وضع يده عليـه، وبعد الإصرار رفع يده فأقـر الجميع انّ حكم الزنـا في التوراة هو الرجم، لكنّهم أخفوه،وقد أمر الله تعالى نبيّه أن ينفذ حكم الله بينهم.

بهذا الشكل يكون القرآن والتوراة والإنجيل سبباً للهداية. يقول تعالى: **﴿إِنّا أَنْزَلْنا التَّوراة هُدىً وَنُور يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذينَ أَسْلَمُوا للَّذِينَ هادُوا﴾** . فهذه الآية ونظائرها ناظرة إلى الآيات التـي لم تحرّف في هذين الكتابين، وقد اعترف بها شريعة الإسلام، وليس كلّ ما هو موجـود في ذلك اليوم أو هذا اليوم. والملاحظ انّ القرآن يفـرّق بين هذيـن الكتابين بـاعتبارهما محرّفين، و بين القـرآن، فيقول في خصـوص التوراة والإنجيل: «فيها هدىً ونور» أو «فيه هدى ونور» وليس جميعه هدىً و نوراً. بينما يعبر عن نفسه **﴿وَأَنْزَلْنا إليكُمْ نُوراً﴾** .[1]

وهنا نخلـص إلى أنّ التوراة والإنجيـل ينطويان على حقـائق نورانيـة رغم تحريفهما، وقد انتقل قسم منهما إلى الشريعة الإسلاميـة، وتسمّى با لمشتركات وهي تشكـل جزءاً يسيراً مـن أحكام الكتـابين، لكن هـذا لا يعني الاعتراف بـالشرائع السابقة أو انّها غير محرفة.

وهناك سـؤال آخري يقـول: إذا كانـت الهداية منحصرة بـالشريعة الأخيرة فيلزم أن يعاقب ويعذب أغلب الناس يـوم القيامة، وسيحرمون من رحمة الله، بينما رحمته أوسع من أن يلقي جميع الناس في العذاب.

والجواب: إذا كـانت الـرسـالة الخاتمة تعترف للشرائع السـابقـة بالهدايـة، وتلبـس الأديان السـابقـة لبـاس الحقّ، فكيف يقـول: تـؤمنـون ببعض الكتـاب وتكفرون ببعض؟

لكن القرآن يصرّح بوضوح: **﴿وَما أَكْثرُ النّاسِ ولو حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين﴾** [2]،

---

١. النساء:١٧٤.

٢. يوسف:١٠٣.

وبيّن جزاء الكـافر والمؤمـن المعانـد، فلم يبـق إلاّ أن نجرد الشريعـة من الحقّ، أو نسلم لهؤلاء.

وقد أجـاب القرآن عن هذا السـؤال بوضوح، لأنّ العذاب للكـافر المقصر، الـذي يعرف الحقيقـة لكنه يستسلـم للهوى ولا يـأتمر بأوامـر الله. وأمّا الإنسـان القاصر، الذي لا يحتمـل وجود حق آخر، أو ليس لـديه ما يساعده للـوصول إليه، فلا شكّ انّه مستثنى من عذاب الله.

وقد أشار القرآن والأحاديث إلى «المستضعفين»، ودرس الباحثون المسلمون هذا الموضوع بالتفصيل، فهؤلاء الذين يشكل الكافرون أغلبيتهم مستثنون. وطالما استثناهم القرآن خـلال تأكيده دخول الكافريـن النار، فيقول: **﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْـدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾**[1]، وفي آية أُخرى انّهم مرجـون لرحمة الله: **﴿وَآخَرُونَ مُرْجَـوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّـا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**.[2]

فالمستضعفون إذاً على أقسام:

١. لا يوجـد في الأرض التي بصر بها العـالم ما يـؤهّله للتعـرّف على الديـن الصحيح.

٢. لا يمكن أن يقوم بوظيفته لعدم وجود فقيه عالم في بلاده يهديه.

٣. يعتقد بسبـب أجوائه التربـوية انّ شريعتـه محكمة إلى درجـة لا يتسرب إليها الشكّ، كما في بعض مناطق شرق آسيـا، حيث لا يحتملون انّ الشريعة الحقّة خارجة عن دائرتهم.

---

١. النساء:٩٨.

٢. التوبة:١٠٦.

٤. وكذلك من المستضعفين من لا تسعفه قواه العقلية على التفكير.[١]

القراءة الثالثة للتعدّدية

القـراءة الثالثـة للتعـدديـة في المجال المعـرفي، والتـي سيكـون الديـن، في ضوئها،واحداً واقعاً. ويعود السبب في تعدّده إلى الفهم المختلف للأنبياء الإلهيّين.

وهذا التفسير هو آخر قراءة للتعدّدية «البيلـوراليزم»، والظاهر انّه المقصود من قبـل مؤسسي هذه النظـرية، التي ارتكـزت إلى مبدأ الفيلسوف الألماني كـانت (١٧٢٤ـ ١٨٠٤هـ) الذي يقول: «إنّ الشيء في نفســه غير الشيء عندنا»، لذا لا يمكن أن نصـل إلى الحقائق التي لم تقع بـأيدينا و إنّما نعي مـا ندركه وفق قـوالب ذهنية سابقة، لهذا لا يمكن للإنسان أن يصيب الحقيقة.

وهذا الحكم يسري إلى الأنبياء، لأنّهم سيتأثرون خلال بيانهم لما يتلقونه من شهود الوجود المطلق، سيتـأثر بعوامل أربعة، وبالتالي سيكون فهـم أحدهما يغاير فهـم الآخر. مـن هنـا تتعدد الأديـان، ولا يمكن إلبـاس أحـدهم لبـاس الحقّ أو الباطل، لأنّ كلّ واحد يطرح ما يفهمه وفق تجربته الدينية.

يقول «جون هيك» هنا: لقد استطـاع كانت (و إن لم يقصد ذلك) أن يطور الفلسفة، لأنّها اتّسعـت وتكاملـت في ضوء هـذه الفرضيـة، وهو يفـرّق بين العالم الموجود في نفسه (ويسمّيـه العالم المعقول) وبين العالم الذي يتجلّى لـوعي وشعور الإنسان (ويسمّيه العالم الظاهر).[٢]

وقبل أن نبدأ بنقد هذه النظرية سنتناول أوّلاً الأساس الذي ترتكز إليه هذه

---

١. للمزيد راجع: بحار الأنوار:٦٩، الباب ١٦٢ من أبواب المستضعفين.

٢. جون هيك: فلسفة الدين: ٢٤٥.

القراءة ثمّ نعود لأصل القراءة.

إنّ نظرية «كانت» التي تعدّ إحـدى مفاخر هذا الفيلسوف الألماني لا تعدو كونها جزءاً من التشكيك. ورغم انّ «كانـت» شخص واقعي إلاّ انّه وضع مبدأ لا ينتج إلاّ الشـك، لأنّه يقول: «الشيء في الخارج غير الشيء في إدراكنا». فـإذا كان هذا المبدأ صحيحاً فكيف ندعي انّ الحقائق في العالم الخارجي موجودة، ثمّ نقول إنّ معرفتنا بها نسبية؟ و إذا كنّـا نعي جميع إدراكاتنا بواسطة قـوالب ذهنية، مسبقة فكيف نقول: ما هو عندنا ـ ولو بشكل نسبي ـ هو نفسه الذي في الخارج؟

لقد أحيـا «كانـت» بنظريتـه شك «بيرهـون»، فعلى الرغـم من أنّـه لم ينفِ الوجـود الخارجي إلاّ أنّه يقول مـن الممكن أن تكون الأشياء في الخارج شيئـاً و ما ندركه شيئاً آخر. وبيرهون كان متردداً في طرحـه، بينما طرح «كانت» نظريته بشكل نهائي وجزمي.

لا شكّ انّ فلسفة «كانت» عجزت عـن إثبات الشيء في نفسه، فانسحبت إلى المثاليـة، وقد أشكل عليـه من جاء بعـده من المثاليين، كـ«نيتشه» و«هيجل»، وقالـوا: إنّ فلسفة «كانـت» فلسفة مثاليـة وليست واقعيـة. و«كانت» كـان يعتقد بالشيء في نفسه، ويحكم بوجوده، لكنّه يقول: إنّـه غير قابل للمعرفة، وهذه قضية متناقضة لأنّ الحكم بوجود الشيء في نفسه نوع من معرفةالشيء في نفسه.

كانت و كوبرنيك

يشبّه «كانت»، منهجه بمنهج« كوبرنيك»، ويقول: إنّ كلانا استطاع بقلب الفـرضيات السـابقة أن ينجـح في إزالة مشـاكل كثيرة. لكـن ينبغي أن يعلـم أنّ «كوبرنيك» استطاع بنظريته الجديدة أن يقصي ما سببه علماء الفلك السابقين من

إشكالات، بينما واجـه «كانت» بنظـريته سيلاً من الإشكـالات، التي كان ينـزعج منها لكنّه وجّهها بشكل منطقي.

- من المؤسف انّ فلسفـة الغرب اليوم، التي تشكل البحوث المعـرفية أغلب موضـوعاتها ـ و قد انتقلـت إلى الشرق كهديـة فكريـة ـ لا تفضي إلاّ إلى الشـكّ والتزوير. ولو أُتيح للغربيين أن يطّلعـوا على بحوث الفلاسفة المسلمين في موضوع الوجود الذهني، لحصلت ثورة كوبرنيكية أُخرى في فلسفتهم.[1]

وأمّا حول نقد نظـرية «كانت» فنقول: هناك نوع مـن المعارف الإنسانية، لم تؤخذ من الخارج، ولو فرض انّها أخذت من الخارج، فلـم تتأثر بأيّ قالب فكري سابق، مثل:

١. امتناع اجتماع النقيضين.

٢. امتناع اجتماع الضدّين.

٣. بطلان الدور والتسلسل.

٤. احتياج كلّ ممكن إلى علّة.

فهذا النوع من المعارف في الحكمة النظريـة لم يُصَغْ وفق قوالب ذهنية، لذا هي قضايا مطلقة وصادقة في كلّ زمان.

وهنا نسأل «كانت»: قيل هناك اختلاف بين (نومن) و (فنومن)، ولا يمكن للأشياء الخارجية أن ترد إحساسنا دون أن تتغير، فهـل القانون يشمل هذه النظرية أم لا؟ لأنّه يـؤكد في نظـريته الواقـع الخارجي، الذي لا شـكّ انّه يـرد الحسّ عن طريق الجهاز الفكري، فيكون حينئذٍ محكوماً لقانون (نومن) و (فنومن)، وفي هذه الصورة سوف لا يكون هـذا الفكر واقعياً، فإذا كان نسبياً، فـلا يمكن أن نقول إنّ

---

١. المعرفة في الفلسفة الإسلامية: ١٠٥ـ ١١١.

باقي إدراكـات الإنسان نسبية، إذ لو كـان هذا الفكر مطلقاً لاستطعنـا أن نحكم بنسبية الكل، لكنّه ليس فكراً مطلقاً بل نسبيّ فحينئذٍ لا يتضرّر إطلاق النظريات الأُخرى.[١]

أمّا بـالنسبة إلى القراءة الثـالثة لهذه النظريـة، فخلاصتها انّ هنـاك حقيقة اسمهـا الإشراق والاتصال بـالوجـود المطلق، وشهـود و إدراك الله بدون واسطـة. ويعبرون عن هـذه العملية بالتجربـة الدينية، غير انّ التعـدّدية الدينية لها عـلاقة بفهم الأنبياء، وهناك أربعة عوامل لوجود الاختلاف في الفهم بينهم.

وبعبـارة أُخـرى: «انّ اتصـال الأنبياء بهذا الموجـود المجهـول، أو الشعـور بالارتكاز مطلقاً إلى موجود متعال حقيقـة واحدة ولا تستبطن الكثرة، لكن يحصل الاختلاف عندما يراد التعبير عن هذه الحقيقة وصبها في قالب لغوي». يقول جون هيك (وهو أكثر المهتمين بهذا الموضوع):

١. التعدّدية الـدينية، من زاوية معرفيـة، هي هذه الحقيقة، وهـي انّ تاريخ الأديان هو استعـراض لتعدّد المذاهب وكثرة ما بها من تشعّبـات، وهذا الإصلاح ناظـر، من زاويـة فلسفية، إلى نظريـة خاصـة في العلاقة بين المذاهـب وما تـدّعيه ونقائضهـا. وهو يعادل النظريـة التي تدّعـي انّ مقوّم الأديان العالميـة الكبيرة هو الفهم المختلف للحقيقة الغائية، الإلهية المجهولة.[٢]

٢. الأديان المختلفة تيارات متباينة للتجربة الدينية، وقد بدأ كلّ واحد منها في مرحلـة معينة مـن التاريـخ البشرى، والوعـي العقلي لها يتفتح داخـل فضائهـا الثقافي.[٣]

---

١. نقدنا هذه النظرية بشكل واضح في كتاب المعرفة، فيمكن مراجعته.

٢. تعدد الأديان عند جون هيك: ٣٠١.

٣. فلسفة الدين: ٣٣٨.

٣. وهذا يعني انّنا واقعاً لانستطيع أن نتحدث عن صحّة أو خطأ أحد الأديان، فكيف نتحدث عن صحّة وخطأ إحدى الحضارات، لأنّ الأديان، كتيارات دينية ثقافية متمايزة في تاريخ البشرية، تعكس تنوع البشرية وطبائع الأفكار، وهذا الاختلاف الذي يتجلىّ بين الذهنية الشرقية والغربية في الصور العقلية و اللغوية والاجتماعية والسياسية والفنية المختلفة، يحتمل أن يكون نابعاً من الاختلاف بين الدين الشرقي والغربي.[1]

٤. هناك تفاوت بين المذاهب الدينية الكبرى، ولا سيما بين التيارات العرفانية، حول فهم الحقيقة المحضة أو الغاية المطلقة أو هيكل الربوبية، تلك الحقيقة التي جرّبها أفراد البشر.

والاحتمال القوي انّ الحقيقة الغائية لا متناهية ومن هنا فهي أسمى من إدراك وتفكير ولغة البشر.

ولو فرضنا انّ الحقيقة المطلقة واحدة، إلاّ أنّ إدراكنا وتصوّرنا لهذه الحقيقة متعدّد ومختلف، فهذا يقوّي الفرضية التي تقول إنّ التيارات المختلفة للتجربة الدينية تؤكد انّ الاختلاف في إدراكنا للحقيقة المتعالية اللا محدودة هو انعكاس لما يدركه الإنسان منها في ضوء التاريخ الثقافي المختلف، الذي يتأثر به ويؤثر فيه.[2]

نقد وتحليل للقراءة الثالثة

١. إذا لم يتمكّن أحد من الوصول إلى الحقيقة، وكلّ شخص ينظر إليها بمنظار خاص، فيجب أن نقول: إنّ جميع الشرائع أو الأديان ستكون (طرقاً) غير

---

١. المصدر نفسه: ٢٣٤.

٢. المصدر نفسه: ٢٤٣ـ ٢٤٥.

مستقيمة ومعـارف غير ثابتـة وتفاسير قلقـة من شهـود الحقيقة المطلقـة، ولم يعثر الإنســان على الحقيقة منـذ ولادته، وهـو يتخبط دائماً في بحـر الجهل، وسيبقـى في ضلاله إلى يوم يبعثون.

وإذا كـانت جميـع الشرائع أو الأديـان في صف واحـد، وجميـع الرسـالات مختلفة بسبـب العوامل، فينبغـي أن نقول: لا فـرق حينئذٍ بين اليهوديـة والمسيحية والإسلام والأديـان الأُخرى مثل البـوذية والهندوسيـة، بل حتى المذاهـب الإلحادية مثل المادية والواقعيـة الحديثة، لأنّ الجميع يشتركون في رسم صورة خطـأ للوجود، وعليه سيكـون الإنسان مخيراً في اختيار تثليث المسيحيـة وتوحيد الإسلام وإلـوهية براهما وبوذا. وهذا التفسير يعكس وجود أزمة فكرية لدى صاحب هذه النظرية.

٢. لو فـرضنا صحّـة هذه النظـرية، فـانّ التعدّديـة ستختص في التعـاليم العقيديـة كالتوحيـد والتثليث، والجبر والاختيـار، والتنزيه والتجسيـم، ولا تشمل الأحكـام العملية والأخـلاقيـة، لأنّ من الممكـن أن يستـوحي الإشراق والارتبـاط بالوجود المطلق، إيحاءات مختلفة من العـلاقة بهذا الوجود المطلق. أي من الممكن أن يكـون إدراك كلّ واحـد من هـؤلاء المرسلين (كما يعبر هيـك) لذات وصفـات وأفعال الحقيقة المتعالية اللا محدودة يختلف بشكل كامل، لكنّهم لم يختلفوا في فهم الأحكام العملية المتعلّقة بشؤون المجتمع وإصلاح أخلاق الإنسان.

وبتعبير آخر انّ النصوص العقـائدية تشتمل على جنبة خبريـة، وتقول: الله واحـد، أو الله ثلاثـة، وهكـذا القضايـا الأُخـرى في العقيدة، إلاّ أنّ النصـوص في التعاليم العملية والأخلاقية إنشائية، وبلا فاصلة يقول الأنبياء: افعل أو لا تفعل. مثلاً: صـلّ، صم، اعـط الزكـاة، لا تظلم، لا تـراء، لا تغتب. فكيـف يمكن لهذه النصوص المختلفـة أن ترتبط بالتجـربة الدينية، ويكـون ارتباط الأنبياء بالـوجود المطلق؟ وهل يمكـن للّغة أو الثقافة أن تـؤثرا في هذه التعاليـم؟ وإذ كنا لا نفهم

شيئاً من هـذه النصـوص (حتى يصبـح انّ الشيء في نفسـه غير الشيء عندنـا) فكيف يطالب المجتمع بأشياء؟

٣. لـو افترضنـا انّ القضايـا العقـائديـة انعكـاس لما يفهمه الأنبيـاء مـن التجربة الدينية، فكيف يكون للإشراق والعلاقـة بالوجود المطلق نتائج متناقضة، أحد الأنبياء يدعو إلى التوحيد والآخر إلى التثليث؟

إنّ أحد دعاة التعدّدية ينسب التضاد إلى الله ويقول: «إنّ أوّل من بذر بذور التعدّدية في العـالم هو الله، والله هو الذي أرسل أنبيـاء مختلفين، فتجلى لكلّ واحد بشكل، وأرسل كـلّ واحد إلى مجتمع، وجعل على كلّ لسان وذهـن تفسيراً خاصاً، وبهذا الشكل أجّج بودقة التعدّدية».[١]

ولازم هـذا الكلام انّ الله أوحـى إلى أحـدهم التـوحيـد وأوحى إلى الآخـر الشرك، بينما نجد جميع الأنبياء قـد عبّأوا أنفسهم لدعوة التوحيـد، فهل يمكن أن ننسب هذا الكلام إلى فاعل هادف؟

إنّ إحدى مشكـلات البيلوراليزم هي وجـود التناقض في دعـوات الأنبياء (لأنّهم يعتقدون أنّ المسيح دعا إلى التثليث)، وطالما أخفقوا في حل هذه الأزمة.

يقول «ويليم الستون» في حوار أجرته معه مجلة كيان الإيرانية رداً على سؤال أثاره مراسل المجلة عن وجود التناقض بين الدعوة إلى التوحيد في الإسلام، ودعوة التثليث في المسيحية، يقـول: إذا كان هناك نصان متناقضـان فيما بينهما فلا يمكن أن يكون كلاهما صادقـاً بشكل كامل، وهذا الحد الأدنى الـذي نفهمه من مفهوم الصدق، أمّا المثال الذي ذكرته فانّه مهـم، إذ طالعت أخيراً كتاباً يتكون من خمسة أجزاء لأحـد الباحثين البريطانيين، وهو كتـاب ذو أجزاء كبيرة، فالجزء الثـاني من

---

١. د. عبدالكريم سروش: صراطهاي مستقيم:١٨، طهران، مؤسسة فرهنگ صراط.

الكتاب جاء تحت عنوان (المسيح المقدّس والفتح الإلهي)، حيث استدلّ المؤلف بقوة، وهو باحث انجليزي، انّ المسيح قد عرّف نفسه لمعاصريه باعتباره رسول الله ومن سلسلة أنبياء بني إسرائيل. وقد عرض رسالة بديعة ومختلفة بالقياس إلى أسلافه، ولما قدّم نفسه رسولاً من قبل الله تعامل معه مخاطبوه في ذلك الزمان على هذا الأساس. وهذا الكلام كان قبل الصلب وما تعلّق به من قضايا.

بناء على هذا ليس خطأ أن نعبر بـ(المسيح النبي). وأنا لا أقول إنّ هذه النظرية مقبولة من قبل جميع المسيحيّين، لكن لو قلنا ذلك من زاوية تاريخية فلا يعد بدعة، وليس خطأ أن نقول عنه رسول الله. فالنظرة التاريخية، طبقاً لعقائد المسيحيّين في الوقت الحاضر، لا تحكي تمام الحقيقة حول المسيح. وإذا ادّعى أحد انّ الرسالة قد انتهت فانّه سيعارض بذلك تعاليم المسيحية.[1]

والهدف من نقل هذا الكلام هو التأكيد انّ دعاة التعدّدية قلقون أيضاً من قضية التضاد والتناقض.

وأمّا قولهم: «إنّ الرؤية التاريخية لا تعكس تمام الحقيقة حول المسيح...» فهي محاولة فاشلة لإثبات انّ المسيح، بنظر الإنسان ومن زاوية أُخرى، هو نفس الله. بينما المسيح لا يعدو كونه حقيقة تاريخية، ولا يمكن للشيء الموجود في ظرف الزمان والمكان أن ينسلخ عن حقيقته وينتقل إلى مقام الألوهية.

٤. تقول البيلوراليزم: «الحقيقة الدينية واحدة في مقام الشهود والشعور بالارتكاز المطلق إلى الموجود المتعال، لكنّها تتأثر بالثقافة السائدة أثناء التعبير عنها» بينما نحن نلاحظ خلاف ذلك بالنسبة لاثنين من الأنبياء:

أ. رسول الإسلام ﷺ: إذ بعث الرسول في قوم كان دينهم وثنية وشركاً، لكنّه

١. مجلة كيان، العدد: ٥٠، ص ٧.

دعاهم إلى التوحيد على خلاف الثقافة السائدة في المجتمع.

ب. المسيح عليه السلام: الذي عاش وسط بني إسرائيل الموحدين، لكنّه (حسب عقيدة البيلوراليزم) دعاهم إلى تثليث الله. فكلا النبيين، أحدهم بنظر الجميع والآخر بنظر هؤلاء، دعا قومه إلى خلاف الثقافة السائدة.

٥. إذا اعتبرنا فهم كلا النبيّين في مقام الإشراق واحداً، لكن العوامل الأربعة: (الثقافة، اللغة، التاريخ، الوضع الجسمي) هي التي تسبب الاختلاف حينما تؤثر خلال التعبير عن الموجود، إذا اعتبرنا ذلك فيجب أن تكون مذاهب الأنبياء السابقين في خصوص العقائد مختلفة، بينما نجد جميع الأنبياء، ماعدا المسيح (كما يدّعي بعض أتباعه) قد حاربوا عبادة الأصنام، وكان هدفهم التوحيد، ولم يكن للعوامل الأربعة أي مدخلية في دعواهم.

٦. لازم هذا الكلام أن لا يوجد أي أصل قطعي وجزمي في أي دين، وهذا ناتج عن العوامل الأربعة، بينما ينطوي الدين الإسلامي على سلسلة من القضايا الجزمية التي لا يمكن أن تكون قلقة أو متأثرة بالعوامل الأربعة، وهي:

وجود الله، صفاته الجمالية والجلالية، إرسال الأنبياء، الدعوة إلى التوحيد، الدعوة إلى حياة أُخرى بعد الموت، محاربة الظلم، الدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن المنكرات، الواجبات الفردية والاجتماعية، النواهي الفردية والاجتماعية، خاتمية الشريعة الإسلامية، وعشرات التعاليم الأُخرى.

فهل صحيح أن نقول: إنّ هذه الأحكام والتعاليم هي انعكاسات لتنوّع الإنسان والطبائع والصور الفكرية المختلفة؟ أو نقول: وعي مختلف للحقيقة اللا محدودة والمتعالية، فتدركها أذهان البشر بأشكال متفاوتة، وتتأثر بالتواريخ المختلفة والثقافات المختلفة ثمّ تردنا على هيئة نصوص؟

إنّ جون هيـك اعتبر الأديان واحـدة لبعده عـن تعاليـم الإسلام وقطعيـاته ومتواتـراته، فكلامـه يمكن أن يصدق على الكنيسـة أو أحد الأديان الشـائعة في الشرق، مثل البراهماتية والبوذية والهندوسية، لكنّه لا يمكن أن يصدق على الإسلام الذي هـو مجموعـة تعاليم مقسّمـة إلى قطعيات وظنيات، والتـاريخ لا يـؤثر على القطعيات أبداً.

٧. من الغريب انّ هذا الباحث المسيحي، الذي ابتعد عن المسيحية أيضاً، قـد جلس في غـرفة مغلقـة وأخذ يتحـدّث عن الأديـان السماوية دون أن يعـرض نظريته على كلامهم، أو يقرأها لهم ليتأكد من موافقتهم على آرائه.

انّ الأنبياء ينسبون تعاليمهم في جميع المجالات إلى الوحي، وليس للعوامل، بما فيها إرادة النبي، أي تأثير. فعندما ذهب رسول الإسلام إلى دكان أحد الحدادين الروم وجلـس هناك قليلاً، اتهّمـه مشركو قريش بـأخذ الوحـي منه، فنزل الـوحي ودفع الشبهة وقال: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ انّهُمْ يَقُولُونَ إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إليهِ أَعْجَمِيٌّ وَهٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين﴾**.[١]

فكيف يمكن مع هذه الأدلة الجازمة أن نحكم على كتب الأنبياء ونقول إنّها مخلوقة للعوامل السائدة في حياتهم؟

دراسة تمثيلين

استعان دعاة البيلوراليزم بتمثيلين هما:

١. التمثيـل الذي ورد في الـ«مثنوي» ونقله «جـون هيك» بتصرف يقـول: جيئ بفيـل إلى مجموعة من المكفـوفين لم يرو الفيل قـط فأحدهم لمس رجـل الفيل

١. النحل:١٠٣.

وقال: الفيل عمود كبير وحي.

والآخر لمس خرطوم الحيوان، فقال: الفيل أفعى عظيمة الجسم. والثالث لمس عاج الفيل، فقال: الفيل يشبه شفرة المحراث، وإلى آخره. وبالطبع انّ جميع هؤلاء على حقّ، لكن كلّ واحد أشار إلى جزء الحقيقة، وأراد أن يعبّر عنها بتشبيه ناقص.[١] لكن الواقع ليس مع أحد منهم.

وهنا قد افترض «جون هيك» هؤلاء الأفراد مكفوفين وافترض الغرفة مضيئة، لكن الـ«مثنوي» افترضهم مبصرين وافترض الغرفة مظلمة.[٢]

ويضيف «هيك»، بعد نقله القصة، نحن لا نستطيع أن نقول أي الآراء صحيحة، لعدم وجود رأي نهائي يمكننا أن نستنتجه من الرجال المكفوفين والفيل. والحقيقة انّنا جميعاً مكفوفون وواقعون تحت سلطة مجموعة مفاهيم شخصيةوثقافية.[٣]

إذاً فواقع جميع الأنبياء وأتباعهم هو واقع لمس هؤلاء الرجال للفيل، فكلّ زاوية من زواياه لا تمثل الواقع.

نقول يمكننا، إذا كنا أشخاصاً واقعيين أن نخلص إلى نتيجة أُخرى من هذا التمثيل وهي: انّ كلّ شيء يدرك بأداة حسٍ خاصة به، فلا يمكننا مثلاً أن نميزالرائحة الطيبة عن الكريهة أو نميز الشيء الجميل عن الشيء القبيح بالحس، لأنّ الحاسة الحقيقية لهما هي حاسة الشم والبصر، وإلاّ سوف لا نضع أيدينا على الحقيقة إلى يوم يبعثون.

---

١. عقل واعتقاد: ٤٠٧.

٢. مثنوي:٣:٣٢.

٣. مجلة كيان، مصدر سابق، العدد:٢٨، ص ٢٨.

فإدراك الفيل لا يتحقّق إلاّ باستخدام البصر وفي فضاء منير، بينما هؤلاء كانوا إمّا يفتقرون لحاسة البصر أو عدم تحقّق شرط الانارة، لأنّهم إمّا مكفوفون أو كان الفضاء مظلماً.

كما أنّ هناك حاسة خاصة لإدراك المعارف الإلهية وصفات الله الجلالية والجمالية، وبشكل عام إدراك القضايا الماورائية وهي العقل والبرهان، ولا يمكن الابتعاد عن العقل والاعتماد على الحس في إدراكها. فالنتيجة التي خلصنا لها من هذا المثال هي النتيجة نفسها التي أكدها الشاعر مولوي، إذ قال: إنّ جهل هؤلاء بحقيقة الفيل يعود إلى فقدان شرط الإدراك الحسي وهو الشمعة والنور، وإلاّ فمع تحقّق الشرط المذكور سنكشف الواقع لهم، وباستخدام العقل والمنطق سيتمكن المتدينون أيضاً من تمييز الحقّ عن الباطل والصحيح من الفاسد.

يقول العلاّمة محمد تقي جعفري في بيان مراد جلال الدين: الرؤيا هي الحاسة الطبيعية للحكم على الأشياء المتجسمة التي لا تعرف حقيقتها إلاّ باللمس، ولا تستطيع العين أن تثبت وجود حقيقة شيء آخر. فالعين التي تبصر البحر تختلف عن العين التي تبصر رغوة الماء. فأنت الذي خطوت خطوة للتعرف على الحقيقة اترك الثانية واستخدم الأُولى، فما تراه من رغو على سطح بحر الحقيقة يستمد حركته من البحر.[1]

إذاً فما يقولونه: «لا نعلم أي الرؤى صحيحة، لعدم وجود رؤية نهائية، يستطيع من خلالها الرجل المكفوف أن يتعرف على الفيل» صحيح، لأنّهم استخدموا القوة اللامسة، وهي أداة للأشياء الناعمة والملموسة وليست للتعرف على الحقيقة.

---

١. تفسير و نقد و تحليل مولوي: ٢/ ١٤١.

فهؤلاء يريـدون أيضاً أن يدركوا مـا وراء الطبيعة بالحس والتجربـة، مع أنّ الأداة الخاصة لمعرفة الله وصفـاته الجمالية والجلالية هي العقل والبرهـان والدليل، وبها فقـط نستطيع أن نـرفع الغطـاء عن وجـه الحقيقة. فتشبيـه الإنسان المجهـز بالمنطق والدليل، بالإنسان الذي يفتقر إلى الأدوات العلمية، قياس مع الفارق.

وهناك من يطرح تشبيهاً آخر مستفاداً أيضاً من بيت شعر لمولوي، يقول:

مـــن المنظـار يـــا عقـــل الوجـــود اختلاف المؤمن والمجوس واليهود[1]

يقول مـولوي ــ كما قيل ــ إنّ الاختلاف بين الثـلاثة: (المؤمـن، المجوسي، واليهـودي) ليس اختـلافاً بين الحقّ والبـاطـل، وإنّما الاختلاف في الـرؤية، وهـي ليست رؤية اتباع الأديان وإنّما رؤية أنبيائهم إلى الحقيقة، فثلاثة أنبياء نظروا إليها من ثلاث زوايا، أو انّها تجلّـت للأنبياء الثلاثة من ثلاث زوايا، لهذا عـرضوا ثلاثة أديان، فاختلاف الأديـان ـ إذاً ـ ليس نابعاً فقط مـن اختلاف الظروف الاجتماعية أو تحريـف الديـن أو مجيء ديـن آخر يحل محلـه، وإنّما اختـلاف منظار الله تعـالى للعالم، فكما جعل الطبيعة متنوعة فكذلك جعل الشريعة متنوعة».[2]

انّ تشبيه عمـل الأنبياء بشيء ينظر إليه مـن ثلاثة زوايا، سيكـون صحيحاً عندما تشكل كلّ نظرة جزءاً من الحقيقـة، بحيث لو جمعنا جميع تلك النظرات في نقطة دائرية لتوفرنا على معرفة كاملة بالشيء، فمثلاً عندما ينظر إنسان إلى آخر من منظار فكري ويعرّفه بأنّه إنسان مفكّر، يقول إنّما حكمت عليه من منظار فكري. وإذا كان مـن علماء الأخلاق ونظـر إليه مـن منظار غريـزي ويعرّفـه بأنّـه إنسان

١. مثنوي، الدفتر الثالث، البيت: ١٢٥٨.

٢. صراطهاى مستقيم: ١٤.

غريـزي ومرهـف الحس، سيقول إنّما حكمـت عليه مـن منظار غـريزي. فعنـدما تجتمع هذه الصفات في دائرة واحدة ستكمّل إحداهما الأُخرى.

بينما هذا الشرط غير موجود في نظرة الأنبياء، كما ذكر شارح البيت الشعري، فواحـد يقول انّ الله واحد أحـد، والآخر يقول واحد بسيـط، وثالث يقـول متعدّد ومركب. فلا شكّ انّ أحد هذه الآراء باطـل وغير قابل للجمع. وهذا الكلام جار في التعاليـم العملية، فـواحد يقـول هذا العمـل حرام في شريعتـه، والآخر يقـول حلال، فلا يمكـن أن نوعز هذا الاختـلاف إلى تباين الرؤيـة، لأنّ اختلاف الرؤى يكمل أحدهما الآخر، لا أن تتباين.

ثمّ إنّ هذا التفسير لشعر مـولوي لا ينسجم مع الأبيات السابقـة واللاحقة للبيت. ففي الأبيـات الأُولى يقول مولوي إنّ هنـاك من ينظر إلى زجاجـة المصباح والآخر ينظر إلى النور نفسه، فمن ينظر إلى الـزجاجة يتصوّر انّ النور ينبعث منها، فيكون ضـالاً، أمّا من ينظـر إلى النور نفسه فسيسلـك طريق الحقيقـة ويدرك عين النور. فالاختـلاف في الرؤية يعني عـدم الاستفادة من الأداة الصحيحة، كـالعقل الذي يهدي إلى الحقيقـة، ولا يعني تصـويب كـلّ الرؤى التـي بمجموعهـا يكمل بعضها الآخر.

يقول العلاّمة محمد تقي جعفري في شرح هذا البيت: ما نشاهده من خزف وفتائل مختلفـة موجـب للتعدّد والكثـرة، ولكن النـور الموجود في الخزف والفتـائل كإشعـاعات لأبـدان الإنسان هو مـن ماوراء الطبيعة، وهـو حقيقة، فـلا تنظر إلى الزجاجات الحجرية الملونة التي هي منشأ التعدد-والتنوّع، لأنّك سوف تضل.[1]

---

١. تفسير و نقد وتحليل مولوي: ٢/ ١١٨.

من هنا انّا ندعو إلى التأنّي في ولوج هذا اللغز المحيّر، لأنّ التفسير الثالث للبيلوراليزم يقضي إلى إنكار الوحي الذي يشكل مثلث الشرائع السماوية: العقائد، الأحكام، والأخلاق، فهم يقولون: إنّ رسالات الأنبياء هي نتاج جهازهم الإدراكي، وهم يتأثّرون بالعوامل التاريخية واللغوية والاجتماعية والجسمانية، ولا علاقة لهم بمقام الربوبية. و إذا أنكرنا الوحي سينتفي الدين والشريعة.

المباني الفلسفية للبيلوراليزم

هناك عدة قضايا تشكل أساس هذه النظرية، التي جرى الحديث عنها في موضوع فلسفة الدين، والتي يشكّل الكلام المسيحي أُسس بعضها وهي:

١. «انّ الجهاز المعرفي لا يستطيع إيصال الحقيقة إلى أيّ شخص كما هي بحيث تكون مطابقة للواقع، وحتى الأنبياء لا يستطيعون الوصول إلى الحقيقة المطلقة، لأنّهم مشمولون بهذا القانون، فإذا سلّمنا بذلك ستتهيّأ الأرضية اللازمة للبيلوراليزم،وسوف لا يبقى فرق بين الكليم والمسيح ومحمد ﷺ في أي عصر من العصور، لأنّ ما يمنع تحقّق البيلوراليزم هو الاعتقاد بأنّ المعرفة مطلقة».[1]

٢. اللغة الدينية لغة رمزية، والنصوص الدينية لا تنظر إلى الواقع ولا تعكس الخارج، ولا يمكننا أبداً أن نتعامل معها وكأنّها إخبارات، لذا ليس هناك فرق بين الأديان، والاعتراف بهذا الأمر سيهيّئ المقدّمات اللازمة لقبول البيلوراليزم بشكل تلقائي.

إنّ قضية اللغة الدينية من القضايا الحساسة جدّاً، و إذا لم تفسر بشكل

---

١. مؤسس هذه النظرية هو الفيلسوف الالماني «كانت».

صحيح سوف لا تكون المعرفة الدينية جزمية، وستفقد المقولات الدينية معانيها، وتغمرها الحالة الشاعرية. وكان لنا حديث سابقاً عن هذا الموضوع.

٣. «الوحي تجربة دينية، وتستخلص حقيقتها من شهود و إدراك الله مباشرة وتجلّيه لأنبيائه، وليس ضرورياً أن يصاحب ذلك تلقي رسالة أو أوامر. وتعاليم الأنبياء، أعمّ من التعاليم الخبرية كالعقائد، أو الإنشائية كالأحكام، هي انعكاس لما يفهمونه منها، وحتى لو فرضنا انّ محتوى الرسالات نازل من الله لكن ألفاظها ليست منه، وعليه سيسكب الأنبياء ما يتلقّونه في قوالب لفظية طبقاً لذهنياتهم، وحينئذٍ سيكون من السهل أن يتأثروا في مقام التعبير بظروفهم الخاصة، وسوف لا يكون هناك ما يضمن صحّة فهمهم، إذاً فهؤلاء بشر، ويتأثرون كغيرهم بالظروف السائدة.

إنّ اقتصار الوحي على شهود و إدراك الله من غير واسطة إنكار للوحي الذي هو أساس الشرائع السماوية، وكلّما اقتصر الوحي في الشهود فيكون حقيقة قائمة في شخص الرسول، فلا يمكنه أن يكون أُسوة وقدوة، و إنّما نصل إلى الفوز والسعادة من خلال النصوص التي تتجلى للأنبياء على هيئة تعاليم دينية. وكلّما اشتملت هذه التعاليم على أبعاد بشرية، بما فيها نتاج الرسول، فستأخذ صيغة بشرية وستنخفض قيمتها، ولا يبقى ما يوجب الالتزام بها. وهذا النمط من التفسير للوحي مخالف للكتاب، يقول تعالى: ﴿**وَالّذي أَوحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الكِتابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾[1]. وهذه الآية تأكّد بوضوح انّ القرآن ـ المحتوى واللفظ ـ وحي إلهي وليس نتاجاً لذهنية الرسول.

١. فاطر:٣١.

ويقول في سورة الإسراء بعـد بيان مجموعة من المعارف والأحكـام ابتداء من الآية ٢١ إلى آخر الآيات: ﴿ذٰلِكَ مِمّا أَوحىٰ إِلَيْكَ رَبُّك مِنَ الحِكْمَة﴾ .[١] وعندما ذهب موسى عليه السلام إلى طور ليتلقى رسالـة ربّه أقام هناك أربعين يوماً تمكـن بعدها من الحصول على الرسائل التـي كتبت على الألواح، يقول: ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوعِظَةً﴾ .[٢] وهذه الآيـة تنسب بـوضوح تلـك الرسـائل إلى الله وليس إلى ذهنية موسى عليه السلام .

ويقـول في آيـة أُخـرى: إنّ جميع رسـالات الأنبيـاء صحيحـة، وإذا نسـب الرسول شيئاً إلى الله كـذباً فسنؤاخذه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقـاوِيلِ * لأَخَذْنا مِنْه بِاليَمين * ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الوَتين﴾ .[٣]

عندما ندقّق في الكتب السماوية والقرآن الكريم سيتضح انّ للوحي معنى واسعاً، وهو مـا يتلقّاه الأنبياء من رسائل مسمـوعة أو مكتوبة في ظـروف خاصة، فتصرّف أذهان الأنبياء إذاً يتنـافى مع عصمتهم، بل ربما يستأصـل جذر العصمة عندهم. والعصمة في تلقـي الوحي وحفظه وتبليغه من الأُمـور المتّفق عليها بين المسلمين، وقد أكدّها القـرآن الكريم : ﴿عالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِـرُ عَلى غَيبِهِ أَحداً * إِلاّ مَنْ اُرْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾.[٤]

والآية تؤكد انّ الله قـد سخّر ملائكته لصيانة الوحـي من كلّ تغيير، ابتداء من مرحلة التلقي إلى مرحلة الإبـلاغ، وذلك من أجل الحيلولة دون أي تصرّف في

---

١. الإسراء: ٣٩.

٢. الأعراف: ١٤٥.

٣. الحاقة: ٤٤ـ٤٦.

٤. الجن: ٢٦ـ٢٧.

الوحي.

٤. من مباني البيلوراليزم فصل الدين عن الشريعة، فالدين بنظر البيلوراليزم أمر إيمائي، بينما الشريعة (تعاليم الأنبياء) في مثلث العقيدة، الأخلاق، والأحكام العملية فهي نتاج ذهن الأنبياء، وحينما تطبق البيلوراليزم سيكون المحور هو الإيمان وليس الشريعة، وإذا كان الإيمان أساس العمل فسيصان من كلّ اختلاف، أمّا إذا كان الأساس هو الشريعة، فلا شكّ سنواجه تعاليم متضادة ستكون نواة للتشدّد والصراع والتنافس.

الإيمان يعني ارتباط النظام العالمي، مهما كانت قيمته عالية بعالم آخر هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ الإنسان لا يلتزم بتعاليم الأنبياء ما لم تؤثر به. والكمال المعنوي يتحقّق عن طريق العقيدة والعمل، فمن يقول: «محورية الإيمان نواة للوحدة والتوحد، ومحورية الشريعة سبب للتفرقة والانقسام» كمن يعيّن المدّعى مسبقاً في كلامه، ثمّ يسعى لإثباته. فتجريد الدين من الشريعة إنهاء للدين وإنهاء للحياة الدينية، وما لم يترافق الإيمان بالله والعمل الصالح فلا يؤثر الإيمان شيئاً في تحقيق سعادة الإنسان.

إلى هنا استعرضنا المباني الفلسفية للبيلوراليزم، لكن بعض دعاة هذه الفكرة في بلادنا يحاولون التشبّث ببعض الأفكار القرآنية لدعم التعدّدية الدينية، فلابدّ أن نشير إلى بعضها:

أ. «يعتقد المسلمون انّ الله تعالى هو الهادي، فإذا كانت هذه الدعوى صادقة فهو يهدي جميع أو أغلب البشرية، وإذا كان القسم الأعظم من البشرية ضالين فهذا يتنافي مع كونه هادياً، و ربما يعني هذا غلبة الشيطان على الرحمن وخذلان أنبياء الله، فكون الله هادياً لا يصدق إلاّ أن تكون أكثرية بني آدم على

الحقّ وصواب الفكر».

لقد اختار المستدلّ التفسير الثاني للبيلوراليزم (فوز أتباع جميع الشرائع)، لكنّه لم يفرّق بين الهداية التكوينية والهداية التشريعية، واعتبر الاثنين واحدة رغم انّ الله هادي الاثنين معاً.

الهداية التكوينية الجبرية التي تشمل العالم تعني انّ الله يهدي كلّ موجود يخلقه ويهبه الحياة، فتناول الطفل لحليب الأُمّ يحتاج إلى هداية وهكذا، يقول: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.[1] و هذه الهداية التكوينية خارجة عن إرادة المخلوقات، وسواء أراد المخلوق أم لا فهو يتمتع بهذه الهداية، ولا فرق فيها بين المسلم والكافر والمسلم والمسيحي.

وفي مقابل هذه الهداية هناك الهداية التشريعية التي لا تتحقّق إلاّ بإرسال الأنبياء والأئمّة وأمثالهم، ويكون الإنسان في هذه الهداية مختاراً ومريداً، بل يفتخر انّه قد اهتدى بهذه الهداية بمحض حريته. لكن كون الله تعالى هادياً لا يلزم منه أن يستثمر الإنسان هذه الهداية جزماً ويكون مهتدياً، وإنّما يكفي أن يعرض الله هدايته ويضعها بين يديه، سواء استفاد منها الإنسان أم لا. ونحن لم نر ولم نسمع باستثمار البشرية للهداية التشريعية بشكل كامل بل يقول تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.[2]

ب: «يعتقد المسلمون انّ التوحيد فطري، لكن هذا الادّعاء لم يثبت لا بالدليل العقلي ولا بالدليل التجريبي رغم انّ المتدينين يعتقدون به، وعلى أساس

---

١. طه:٥٠.

٢. يوسف:١٠٣.

اعتقادهـم يجب أن نلتزم انّ أكثريـة أو جميع البشرية، في أي ديـن أو عقيدة، على الحقّ مادامت لهم فطرة».

وللجواب عن هذا الاستدلال نقول:

أوّلاً: عندما نقول الدين أمر فطري فالمقصود هو الجذور الأساسية للدين، وليس جميع تعـاليم الأنبياء، وهدايـة الجميع في العمل إلى جميع التعـاليم أو قسم منها. ولو فرضنا انّ جميع من على الأرض يعتقدون بالله، ويمارسون ما هو محبب من الأعمال الفطريـة ويتركون ما تـرفضه الفطـرة، فهذا الاتجاه لا يحقّق سـوى نصف السعادة، لكنّها لا تقتصر على الاعتقاد بالله أو على مجموعة من المبادئ الأخلاقية، لأنّ الإسـلام بحر عظيـم من الحقـوق والفقه والعقـائد لابدّ أن نتعلمهـا من نبـي الإسلام، ولا يمكننا الاكتفاء بالفطرة.

ثانياً: الفطرة اتجاه بـاطني يحث الإنسـان على عمل الخير، لكنّهـا سرعان مـا تتحطم في ظل ظـروف خاصة. فكثير ما يـرجّح الناس الظلم على العـدل رغم انّ الفطرة تحكم بقبـح الظلم، وعليه فليس جميع أو أغلب أفـراد المجتمع على المسار الصحيح.

ج: المقوم الأساسي للخاتمية انّ البشرية قد وصلت إلى مرحلة التكامل التي يكون الدين فيها محفوظاً بشكـل طبيعي. أي انّ البشرية سوف لن تخالف دين الله ولا تريد هـدمه حتى تحتاج إلى رقيـب إلهي أعلى. المسلمون وغيرهم هم بـأنفسهم دعاة حقّ، والجميع متساوون في هذا الشيء المعادل للفردية.

لكن الفهم المتقدم للخاتمية ليس صحيحاً، لأنّ الخاتمية ـ خلافاً لهم ـ تعني انّ البشرية مادامت حية فهي تحتاج إلى الشريعة وما ورد فيها.

والشريعة الإلهية الأخيرة، الجامعة المانعة إنّما أرسلت نوراً. وأمّا كون البشرية على طريق الصلاح والفلاح فلا علاقة له بالخاتمية. والشيء الوحيد الذي له علاقة بها هو أن تصل البشرية إلى مرحلة، من حيث الاستعداد والإدراك، تستوجب نزول الشريعة الخاتمة، ولا تدلّ الخاتمية على أنّ جميع البشرية متأثرون بهذا الشعور.

١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الإمام البخاري في صحيحه

صحيح البخاري أحد الصحاح الذي حاز على منزلة كبيرة لدىٰ أهل السنّة، وقد نقلوا عن البخاري انّه قال: لم أخرج في هذا الكتاب إلاّ صحيحاً وما تركت من الصحيح أكثر. [١]

وقال ابن حجر الهيتمي بأنّ صحيح البخاري وصحيح مسلم هما أصحّ الكتب بعد كتاب الله وإجماع من يعتد به. [٢]

إلى غير ذلك من كلمات الإطراء المبثوثة في المعاجم وكتب التراجم، ولسنا الآن في مقام البحث والنقاش في مدىٰ صحّة هذه الكلمات، وكفانا في ذلك الكتاب الماثل بين يديك الذي يوقفك على حقيقة الأمر، غير انّ ثمة أُموراً نقف عندها قليلاً:

الأوّل: يوجد في صحيح البخاري روايات التجسيم والتشبيه بوفرة وإن حاول شُرّاح الصحيح تأويلها غير انّها فشلت جميعاً، لأنّ ظهورها بمكان يحد

---

١. ابن حجر العسقلاني: هدى الساري: ص ٧؛ مقدمة صحيح البخاري: ١/ ١٠.

٢. الصواعق المحرقة: ١٨.

من تأويلها والتلاعب بها، والسبب وراء هذه الكثرة من روايات التجسيم يعود إلى أنّ البخاري عاش في عصر المتوكل العباسي الذي استخدم طبقة من المحدّثين ومنحهم الجوائز في نقل الأحاديث التي تؤيد موقف المحدّثين أمام أهل التنزيه من العدلية والمعتزلة.

يقول الذهبي: إنّ المتوكّل أشخص الفقهاء والمحدّثين؛ وكان فيهم: مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله وعثمان ابني محمد بن أبي شيبة؛ فقسّمت بينهم الجوائز، وأُجريت عليهم الأرزاق، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس ويُحدِّثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدّثوا بالأحاديث في الرؤية.

فجلس عثمان بن محمد بن أبي شيبة في مدينة أبي جعفر المنصور، ووُضِع له منبر واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألف من الناس؛ وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة، وكان أشدّ تقدّماً من أخيه عثمان، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألف.[1]

ولذلك فلا تعجب من كثرة روايات التجسيم والتشبيه في الصحيح، لأنّ بعض هؤلاء من رجال صحيح البخاري.

الثاني: انّ البخاري و إن ذكر شيئاً من فضائل علي وأهل بيته إلاّ أنّ قلمه يرتعش عندما يصل إلى فضائلهم فيعبث بالحديث مهما أمكن، وإليك نموذجاً:

إنّ حديث الولاية يعني قول النبي ﷺ في حقّ علي عليه السلام: «علي منّي وأنا من علي، وهو وليّكم من بعدي» من الأحاديث المتضافرة الذي أخرجه غير واحد من

---

١. تاريخ الإسلام، وفيات عام ٢٣٠ـ ٢٤٠؛ تاريخ بغداد: ١٠/ ٦٦.

أئمّة الصحاح والسنن وحفّاظ الحديث، وقد نقله جمّ غفير من كبار أئمّة الحديث في كتبهم، ربما يبلغ عددهم حسب ما استخرجه المحقّق المتتبع السيد حامد حسين اللكهنوي(المتوفّى١٣٠٦هـ) في كتابه «عبقات الأنوار» إلى ٦٥، وعلى رأسهم:

١. سليمان بن داود الطيالسي(المتوفّى٢٠٤هـ).

٢. أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة(المتوفّى٢٣٩هـ).

٣. أحمد بن حنبل(المتوفّى٢٤١هـ).

٤. محمد بن عيسى الترمذي(المتوفّى٢٧٩هـ).

٥. أحمد بن شعيب النسائي (المتوفّى٣٠٣هـ)

إلى غير ذلك من أئمّة الحفّاظ والمحدّثين[1]، وإليك نصّ الحديث:

١. أخرج النسائي في سننه قائلاً: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، عن ابن فضيل، عن الأعرج، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى اليمن مع خالد بن الوليد وبعث علياً علىٰ آخر، وقال: إن التقيتما فعليٌّ على الناس، وإن تفرّقتما فكلّ واحدٍ منكما علىٰ جنده، فلقينا بني زبيد من أهل اليمن، وظفر المسلمون على المشركين، فقاتلنا المقاتلة وسبينا الذرية، فاصطفى علي جاريةً لنفسه من السبي، فكتب بذلك خالد بن الوليد إلى النبيّ ﷺ وأمرني أن أنال منه. قال: فدفعت الكتاب إليه ونلت من عليّ، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ فقلت: هذا مكان العائذ، بعثتني مع رجلٍ وألزمتني بطاعته فبلّغت ما أُرسلت به. فقال رسول الله ﷺ لي: «لا تقعنَّ يا بريدة في عليّ، فإنّ عليّاً منّي وأنا منه وهو وليّكم

١. لاحظ نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار:١٥/ ٥١ـ٥٤.

بعدي». [١]

٢. وأخرج أحمد في مسنده عن ابن عباس، عن بريدة، قال: غزوت مع عليّ اليمن فرأيت منه جفوة، فلمّا قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرت عليّاً فتنقصته فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغيّر، فقال: «يا بريدة ألست أولى با لمؤمنين من أنفسهم»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه». [٢]

وما جاء في الحديث الذي أخرجه النسائي من قوله ﷺ: «عليّ منّي وأنا من علي وهو وليكم بعدي» لا ينافي المنقول في مسند أحمد ولعلّ الرسول جمع بين الكلمتين، أو انّ الراوي نقل با لمعنى فقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه.

وعلى كلّ حال فالحديث كان مذيّلاً بما يدلّ على ولايته بعد رحيل الرسول ﷺ.

ويؤيد ذلك انّ الإمام أحمد أخرج الحديث عن عمران بن حصين بالشكل التالي:

٣.قال: بعث رسول الله سرية وأمرّ عليهم علي بن أبي طالب (رض) فتعاقد أربعة من أصحاب محمد أن يذكروا أمره لرسول الله، قال عمران: وكنّا إذا قدمنا من سفرنا بدأنا برسول الله، فسلّمنا عليه، قال: فدخلوا عليه، فقام رجل منهم، فقال يا رسول الله: إنّ عليّاً فعل كذا وكذا فأعرض عنه.

ثمّ نقل قيام الثلاثة الباقين وتكرارهم ذلك القول وإعراض الرسول عنهم، حتى انتهى إلى قوله: فأقبل رسول الله على الرابع وقد تغيّر وجهه، فقال: «دعوا عليّاً، إنّ عليّاً مني وأنا منه، وهووليّ كلّ مؤمن بعدي». [٣]

---

١. خصائص علي بن أبي طالب:٧٥.

٢. مسند أحمد بن حنبل: ٥/ ٣٤٧.

٣.مسند أحمد:٤/ ٤٣٨.

٤. وأخرج الترمذي عن عمران بن حصين ونقل الحديث مثل ما نقل أحمد ابن حنبل إلى أن قال: فقام الرابع، فقال مثل ما قالوا، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ـ و الغضب يُعرف في وجهه ـ فقال: «ما تريدون من عليّ! ما تريدون من عليّ! ما تريدون من عليّ! إنّ علياً مني وأنا منه وهو ولي كلّ مؤمن بعدي».[١]

ترى أنّ الرواية تنص على الولاية الدالّة على أنّه الإمام بعد رحيل الرسول لكن البخاري كعادته أخرج الحديث عن بريدة، فذكر شيئاً من الحديث وحذف بيت القصيد منه، فأخرج الحديث عن عبد الله بن بريدة عن أبيه بالنحو التالي:

قال: بعث النبي ﷺ علياً إلى خالد ليقبض الخمس وكنت أبغض علياً، وقد اغتسل، فقلت لخالد: ألا ترى إلى هذا، فلما قدمنا على النبيّ ﷺ ذكرت ذلك له.

فقال: يا بريدة أتبغض عليّاً، فقلت: نعم، قال: «لا تبغضه فإنّ له في الخمس أكثر من ذلك».[٢]

ترى أنّه حذف الفقرة الأخيرة من الحديث التي هي بمنزلة بيت القصيد منه وهي: «انّ علياً منّي وأنا منه، وهو وليّكم بعدي».

هذان الأمران اللّذين نوّهنا إليهما يعربان عن موقف البخاري حيال روايات التجسيم والتشبيه، كما يعربان عن مدى بخسه لأحاديث أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم. كيف لا وهو لم يرو حديث الغدير بتاتاً، كما لم يرو عن الإمام الصادق عليه السلام حديثاً واحداً مع أنّه نقل عن الخوارج والمجبّرة والمشبّهة؟!!

فهذا الكتاب الذي يعد أصح الكتب عند أهل السنّة بعد كتاب الله

---

١. سنن الترمذي: ٥/ ٦٣٢.

٢. صحيح البخاري: ٥/ ١٦٣، باب بعث علي بن أبي طالب و خالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع.

بحاجة إلى تنقيب وبحث ودراسة رجاله ودراسة مضمون الأحاديث الواردة فيه. وقد قام بهذا الأمر المهم غير واحد من أعلام الفريقين.

فمن أهل السنّة الحافظ ابن الجوزي (٥١٠ــ٥٩٧هـ) حيث ألّف كتاب باسم «مشكل الحديثين أو مشكل الصحاح» ولم يزل مخطوطاً في أربعة أجزاء.

وأمّا من الشيعة، فقد قام فقيه الطائفة والمتتبع المتضلّع الشيخ فتح الله النمازي الاصفهاني المشهور بـ«شيخ الشريعة»(١٢٦٦ـ ١٣٣٩هـ) بدراسة صحيح البخاري في كتاب هو ماثل بين يديك وقد ألفه ﵀ ولم يسمّه باسم، غير انّ تلميذه المتتبّع الشيخ آقا بزرك الطهراني(١٢٩٣ـ ١٣٨٩هـ) استكتبه لنفسه وأسماه بـ«القول الصراح في نقد الصحاح»، وقد كانت النسخة منحصرة بما استكتب، فاستدعيت من صديقنا العزيز المجاهد في سبيل الله آية الله الشهيد ميرزا علي الغروي ﵀ مؤلف الموسوعة الفقهية باسم «التنقيح في شرح العروة الوثقى» أن يرسل لي صورة من نسخة الشيخ آقا بزرك الطهراني المتوفرة في مكتبته، وقد لبّى ﵀ طلبي هذا.

وقد قام بتحقيق الكتاب والتعليق عليه وإخراج مصادره الباحث المحقّق الشيخ حسين غيب غلامي السهرساوي، فعلق عليه تعاليق ثمينة، شكر الله مساعيه الجميلة ، وهو ممّن قد خاض في عبارات هذه المباحث في غير واحد من تآليفه.

ولعلّ هناك من يعيب على هذا النوع من التأليف بأنّه يثير حفيظة البعض، لأنّ كثيراً من أهل السنّة تلقّوا صحيح البخاري كتاباً صحيحاً برمّته يسمو عن البحث والنقد، ولكن الحقّ انّ كلّ كتاب غير كتاب الله خاضع للبحث والنقاش.

إنّ السنّة النبويـة تراث خالد للأُمّـة الإسلامية تعد المصـدر الثاني للشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم في مجالي العقيدة والشريعة.

فالسنّة المحكية أي قول النبي ﷺ وفعله وتقريره من الحجج القطعية التي لا تخضع للتمحيص، كيف لا وهو كلام النبي ﷺ.

وإنّما الخاضع للتحقيق والتنقيب هو السنّة الحاكية عن رسول الله ﷺ، فلا عتب على بـاحث أن يقوم بـدراسة الحديث دراسـة موضـوعية قائمـة على أُسس علمية وبلغة هادئة.

فهـذا النمـط من البحـث لجديـر بـالاهتمام والعنـايـة من قبـل البـاحثين والمحقّقين لما فيه من تقرير للسنّة النبوية، وتمحيصها عمّا ليس منها.

وهانحن بحمد الله لم نختلف فيما جاء به النبي ﷺ ولو كان هناك اختلاف فإنّما هو في ما روي عنه، وهذا هو الذي أرشدنا إليه الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، عندما قال له بعض اليهود:

ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه!!

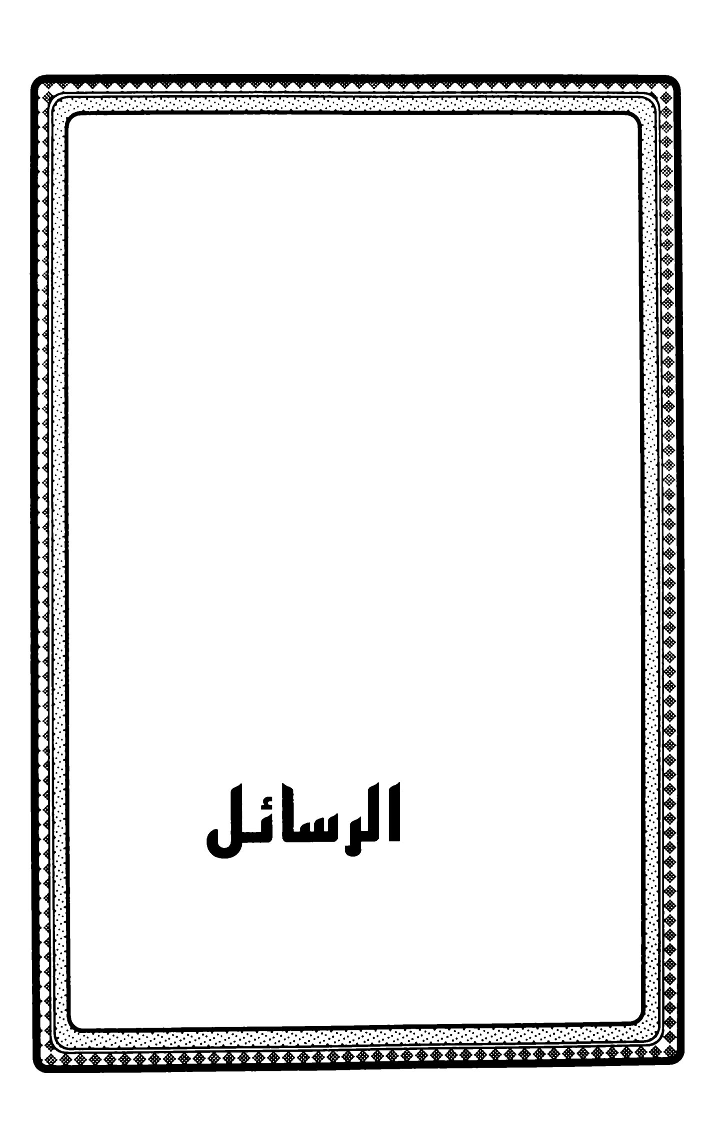
فقال عليه السلام لـه: إنّما اختلفنا عنـه، لا فيه، ولكنّكـم ما جفّـت أرجلكم مـن البحر حتـى قلتم لنبيّكـم: «اجعـل لنا إلهـاً كمـا لهم آلهـة، فقـال: إنّكم قـوم تجهلون». [١]

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢٢ رجب المرجب ١٤٢١ هـ

١. نهج البلاغة، قصار الكلمات، برقم ٣١٧.



الرسائل

١



السيد الدكتور محمد الكايد
رئيس تحرير صحيفة الرأي المحترم

السلام عليكم و رحمة الله وبركاته

أمّا بعد، فقد طالعنا علىٰ صفحات الرأي مقالاً يحمل عنوان «إشكالية الاعتقاد و التاريخ لدى الشيعة» بقلم ذياب شقيرات بتاريخ ٢٠/ ٢/ ٢٠٠٠م، وهو يحاول في مقاله هذا أن يعطي انطباعاً بأنّ عقائد الشيعة ليست متأصلة بل مستحدثة صنعها التاريخ ولم تكن موجودة من ذي قبل. وقد ساق شواهد على مدّعاه هذا، و هي كالتالي:

١. معتقد التقية ٢. معتقد عصمة الأئمّة

٣. معتقد الإمامة ٤. معتقد الرجعة

وقام بتحليلها حتى خرج بحصيلة انّ هذه المعتقدات لم تكن من عقائد الشيعة الإمامية، وإنّما دفعتهم الظروف الحرجة إلى الاعتقاد بها عبر التاريخ، و بما انّ القرّاء الكرام لصحيفة الرأي قد طالعوا هذه المقالة، فنحن نرى أنفسنا في غنى عن إعادة ما ذكره بنصه، ونكتفي بتحليل هذه المعتقدات الأربعة كي يتضح انّها من صميم عقائد الشيعة الإمامية من دون أن يستحدثها التاريخ.

وقبل أن ندخل في صلب الموضوع نودّ أن نشير إلى أمرين:

١. انّ صحيفة الرأي صحيفة سياسية والطابع العام الذي يسودها هو الطابع السياسي، فما هو الحافز لطرح هذه البحوث الكلامية أو التاريخية في هذه الصحيفة ...يا ترىٰ؟

٢. انّ الكاتب يرمي من مقاله تحليل عقائد طائفة كبيرة أطلّت على العالم بتاريخها وحضارتها وعلمائها ومشاهيرها، وخدمت الحضارة الإنسانية خدمة جليلة، وهو لم يذكر في مجموع ما كتب أيّ مصدر لما ينقل عنه أو يرميهم به، وهذا يحطّ بطبيعة الحال من القيمة العلمية للمقال المذكور.

إنّ المذهب الإمامي كسائر المذاهب أُقيمت دعائمه علىٰ أمرين:

الأوّل: العقائد والمعارف الإلهية وهي ثوابت لا تمسّ كرامتها الأحداث والمستجدّات، لأنّها نتاج الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، والسنة النبوية والبراهين العقلية وبذلك لا يمكن أن يتطرق إلى معتقد قد صيغ على هذه الأسس الثلاثة أيُّ تغيّر و تبدّل.

الثاني: الأحكام الشرعية العملية وهي بين ثوابت لا تتغير عبر التاريخ، ومقررات موضوعة حسب الحاجات، والأحكام الثابتة هي رمز خلود الإسلام و خاتمية الشريعة المحمدية والمقررات المتغيرة هي رمز تفاعلها مع مستجدات الأحداث ومتطوراتها، و قد فصّلنا الكلام في ذلك في موسوعتنا القرآنية المنتشرة باسم «مفاهيم القرآن» فليرجع إلى الجزء الرابع.

هذه هي عقيدة الشيعة الإمامية في الثوابت والمتغيّرات ، فلو كان هنا معتقد فإنّما هو نتاج الدليل القطعي لا نتاج التاريخ والأحداث المريرة التي مرّت بها هذه الطائفة، و من أراد أن يقف على عقائد الشيعة الإمامية في القرنين الأوّلين

فليرجع إلى كتبهم.

وبعد ان فرغنا من هذه المقدمة الموجزة، فلنتناول الشواهد التي سردها الكاتب تأييداً لمدّعاه، وهي أربعة:

١. معتقد التقية

شرِّعت التقية بنص القرآن الكريم حيث وردت في جملة من الآيات، أعني: قوله سبحانه: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْره وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيمان**﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿**لا يَتَّخِذ المُؤْمِنُونَ الكافِرِينَ أَولياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شيءٍ إلاّ أن تتَّقوا منهم تُقاة**﴾[٢]. وقوله سبحانه: ﴿**وَ قالَ رَجلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَون يَكْتُمُ إِيمانَه**﴾[٣].

وهذا ممّا لا خلاف فيه بين المسلمين ولكن الكاتب رأى أنّ الشيعة تمارس هذا الأصل في مقابل أهل السنّة، مع أنّ مورد الآيات هم الكفّار، ويقول: «لم يستخدم الشيعة هذا المعتقد ويمارسوه إلاّ مع أهل السنّة والجماعة».

وممّا يؤخذ عليه انّ مورد الآيات وإن كان هم الكفّار، ولكن المورد ليس بمخصص، وقد قال بالتعميم لفيف من محقّقي أهل السنّة، و هذا هو الرازي يقول:

ظاهر الآية: ﴿**إلاّ أن تتَّقُوا مِنهُمْ تُقاة**﴾ على أنّ التقية إنّما تحلّ مع الكفّار إلاّ انّ مذهب الشافعي «رضي الله عنه» انّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين

١. النحل: ١٠٦. ٢. آل عمران: ٢٨.

٣. غافر: ٤٥.

المسلمين والكافرين حلّت التقية محاماة عن النفس[١].

وبما انّ التقية سلاح الضعيف أمام القوي فلا فرق بين قوي كافر وبين مسلم ظالم متسلط.

الشيعة لم تمارس هذا الأصل مع إخوانهم أهل السنّة، بل مارسته مع الخلفاء الجائرين من الأمويين والعباسيين الذين قتلوا الشيعة تحت كل حجر ومدر، ويكفيك شاهداً على ما نقول ذلك البيان الذي أصدره معاوية بن أبي سفيان في حقّ شيعة علي:

انظروا من قامت عليه البينة انّه يحب عليّاً وأهل بيته، فأمحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه و رزقه ثمّ شفع ذلك البيان ببيان آخر وهو من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكِّلوا به وأهدموا داره...[٢]

ثمّ إنّ الكاتب أضاف قائلاً: فإخواننا الشيعة يبررون قبول علي بن أبي طالب عليه السلام بخلافة الثلاثة الذين سبقوه بأنّها على سبيل التقية. وفي هذا طعن مزدوج بعلي نفسه و بالخلفاء الثلاثة...

لكن فات الكاتب انّ عليّاً لم يبايع الخلفاء طيلة عمره لما كان يرى نفسه أحقّ بهذا الأمر من غيره بتنصيص من الرسول في غير موقف من المواقف سواء أكان في بدء الدعوة، عند نزول قوله سبحانه: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبين**﴾[٣] أم في غزوة تبوك عندما خاطبه، بقوله: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لانبيّ بعدي»[٤]

---

١. الرازي: مفاتيح الغيب: ٢/ ١٣ في تفسير الآية؛ وعلى ذلك جرى جمال الدين القاسمي في محاسن التأويل: ٤/ ١٠٨، والمراغي في تفسيره: ٣/ ١٣٦.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١١/ ٤٠ـ٤٤٦.

٣. الشعراء: ٢١٤.

٤. صحيح مسلم: ٧/ ١٢٠، باب من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام.

أم في محتشد عظيم عند منصرف النبي الأعظم ﷺ من حجّة الوداع حيث أدلى بخطابه إلى عامة المسلمين، وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»(حديث متواتر رواه من الصحابة ما يربو على ١٢٠ صحابيّاً) إلى غير ذلك من المواقف، ولكنّه لما رأى أنّ الأمر قد تم للآخرين و رأى أنّ الشر قد أحاط بالإسلام والمسلمين، من جانب أهل الردة وغيرهم رأىٰ أنّ المصلحة تكمن في معاضدة القوم، وها هو يصرح بذلك في كتابه إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولّاه إمارتها، حيث قال: «فوالله ما كان يُلْقىٰ في روعي، ولا يخطر ببالي انّ العرب تُزعِج هذا الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا أنّهم مُنَحُّوهُ عني من بعده، فما راعني إلاّ انثيال الناس علىٰ فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد ،فخشيت ان لم أنصر الإسلام وأهله ان أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاعُ أيام قلائل» إلى أن يقول: فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأنّ الدِّين و تنهنه».[1]

وهذا هو موقف علي من البيعة لا ما نسبه الكاتب إلى عليّ عليه السلام و إن كان في شكّ ممّا نقلناه فليقرأ ما رواه ابن قُتيبة في تاريخ الخلفاء ، حيث يقول:

إنّ علياً كرم الله وجهه أُتي به إلى أبي بكر، وهو يقول: أنا عبد الله أخو رسول الله، فقيل له: بايع، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايع وأنتم أولى بالبيعة لي...إلى أن يقول: فقال له عمر: أنت لست متروكاً حتى تبايع، فقال له علي: احلب حلباً لك شطره، وشُدّ له اليوم يرده عليك غداً، ثمّ قال: والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه، فقال له أبو بكر: فإن لم تبايع فلا أكرهك[2].

١. نهج البلاغة، قسم الرسائل:٦٢.
٢. تاريخ الخلفاء الراشدين، لابن قتيبة:١/ ١١.

نعم اشتهر بين أهل السنّة انّ الإمام بايع الخلفاء بعد وفاة بضعة المصطفى فاطمة الزهراء عليها السلام. ولكن هذه الشهرة من الوهن بمكان وأقل ما يمكن أن يقال فيها انّ فيها طعناً مزدوجاً بعلي نفسه و بالخلفاء الثلاثة.

أمّا بعلي نفسه فلأنّه إذا تمت الخلافة لواحد من الصحابة وكانت خلافة شرعية، فلماذا تخلّف علي، وأمّا بالخلفاء فهو غني عن البيان.

ولعمري انّ الخوض في هذه المباحث يجرح العواطف ويشتّت الصفوف، فهي أحداث شرب عليها الدهر وأكل، ولولا أنّ الكاتب نبش هذه القضايا لم نكن نستعرض هذه الأحداث التاريخية المريرة.

ثمّ قال صاحب المقالة: «إنّ التقية مبدأ فرضه التاريخ على جملة المبادئ و الثوابت لتفسير وتبرير صحة تسلسل الأئمة وتعارض آرائهم في بعض القضايا المتشابهة».

وملخص كلامه انّ الشيعة اتخذت التقية ذريعة لأمرين:

١. صحّة تسلسل الأئمّة.

٢. تعارض آرائهم في بعض القضايا المتشابهة.

أمّا الأمر الأوّل فقد أجمل فيه الكلام و لم يبيّن ماهي الصلة بين التقية وصحة تسلسل الأئمة، وكان عليه أن يوضح ذلك غير انّ تسلسل الأئمة إلى اثني عشر خليفة منصوص في صحاح السنة.

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن عددهم وتسلسلهم إلىٰ اثني عشر خليفة فيما أخرجه مسلم عن جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة، ثمّ قال كلمة لم أفهمها، قال: قلت لأبي، ما قال؟ قال: كلّهم من قريش[1].

---

١. صحيح مسلم: ٦/ ٣، باب الناس تبع لقريش.

وقد أخرج مسلم هذه الرواية بأسانيد مختلفة، وللقارئ الكريم أن يتدبر في معنى الحديث حتى يظهر له المراد من هؤلاء الخلفاء الاثني عشر الذين أُنيطت بهم عزة الإسلام، وقد جاءوا واحداً تلو الآخر عبر الزمان، وهو لا ينطبق إلاّ على الأئمّة الاثني عشر، أوّلهم علي بن أبي طالب عليه السلام و آخرهم القائم المهدي عليه السلام.

فهل يتصور الكاتب أنّ هؤلاء هم الأمويون أو العباسيون الذين ضرّجوا الأرض بدماء الأولياء والصلحاء، و هل يزيد بن معاويةأحد من انيط به عزّ الإسلام وهو الذي يشرب الخمر و يرفع عقيرته، ويقول:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلنا ميل بدرٍ فاعتدل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثمّ قالوا: يا يزيد لا تشل

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء و لا وحي نزل

وأمّا الأمر الثاني أي تعارض آراء الأئمّة عليهم السلام، فنقول: نعم كان للتقية دور في الإفتاء وفق هوى الجهاز الحاكم صيانة لأنفسهم وأنفس شيعتهم، حيث إنّ الجهاز الحاكم قد مارس ضغوطاً على الأئمّة عليهم السلام وشيعتهم للحد من نشاطهم، وقد أعمل فيهم السيف بغية صهر هويتهم، و في مثل هذه الظروف العصيبة والقاسية يبيح العقل والنقل الإفتاء على وجه التقية، وقد كان الضغط على أئمّة أهل البيت عليهم السلام بمكان يفرض عليهم بعض الأحيان الانصياع لحكم الحاكم في يوم الشكّ من شوال، فقد أفطر الإمام الصادق عليه السلام وهو يعلم أنّه يوم من شهر رمضان، فسئل عن إفطاره، فقال: «إفطاري يوماً وقضاؤه، أيسر عليّ من أن تضرب عنقي» [1].

---

١. الوسائل:٧/ ٩٥.

٢. معتقد عصمة الأئمّة عليهم السلام

هذا هو الشاهد الثاني الذي زعم الكاتب انّ التاريخ فرضه على الشيعة ولم يكن من صلب عقائدهم.

إنّ الاعتقاد بعصمة الإمام وعدم عصمته، نابع من اختلاف التفكير في ماهية الإمامة والخلافة، فذهبت السنّة إلى أنّ الإمام كرئيس دولة ينتخبه الشعب أونواب الأُمّة أو يتسلّط على رقابهم بانقلاب عسكري، فالإمام وفق هذه النظرية لا يشترط فيه سوى الكفاءة الاجتماعية، ولذلك لا ينخلع بفسقه وظلمه وغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود ولا يجب عليه الخروج[1].

فالإمام عند أهل السنة كرئيس الدولة،والذي يصفه التفتازاني، بقوله: ولا ينعزل الإمام بالفسق أو بالخروج عن طاعة الله، والظلم على عباد الله، لأنّه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمة، والسلف كانوا ينقادون لهم ويقيمون الجمعة والأعياد بإذنه ولا يرون الخروج عليه[2].

وفي هذه النظرة لا يشترط في الإمام العصمة ولا العدالة ولا العلم ولا سائر المواصفات إلاّ الكفاءة على إدارة البلد وعمرانه و توزيع الأرزاق والذب عن الحدود.

وأمّا الإمامة عند الشيعة فهي استمرار لوظائف الرسالة (لا نفس الرسالة) التي كانت على عاتق النبي صلى الله عليه وآله من تفسير القرآن الكريم، والإجابة على المستجدات، والدفاع عن حياض العقائد، مضافاً إلى الكفّاءة على إدارة البلد،

---

١. التمهيد للقاضي أبي بكر الباقلاني: ١٠٨.

٢. شرح العقائد النسفية:١٨٥.

فالإمام في هذه النظرة بحكم انّـه يقوم بوظائف النبي ﷺ يجب أن يكون معصوماً كنفس النبي ﷺ.

دلت الآيات على عصمة الإمام، كآية الابتلاء في قوله سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلىٰ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلماتٍ فَأَتَمَهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتي قالَ لا يَنالُ عَهدِي الظالِمين﴾[1].

و أمّا دلالتها على عصمة الإمام، فإليك بيانها موجزاً.

إنّ الناس بالنسبة إلى الظلم على طوائف أربع:

١. من كان طيلة عمره ظالماً.

٢. من كان طاهراً ونقياً طيلة عمره.

٣. من كان ظالماً في بداية عمره وتائباً في آخره.

٤. من كان طاهراً في بداية عمره وظالماً في آخره.

عند ذلك يجب أن نقف على أنّ إبراهيم عليه السلام الذي سأل الإمامة لبعض ذريته، أي طائفة منها أراد.

حاشا إبراهيم أن يسأل الإمامة للطائفة الأُولى أو الرابعة من ذريته، لوضوح أنّ الغارق في الظلم من بداية عمره إلى آخره أو الموصوف به أيّام تصدّيه للإمامة لا يصلح لأن يؤتمن عليها.

فبقيت الطائفتان الثانية والثالثة، وقد نص سبحانه على أنّه لا ينال عهده الظالم، و الظالم في هذه العبارة لا ينطبق إلاّ على الطائفة الثالثة، أعني من كان ظالماً في بداية عمره وكان تائباً حين التصدي.

---

١. البقرة: ١٢٤.

فإذا خرجت هذه الطائفة بقيت الطائفة الثانية وهي من كان نقي الصحيفة طيلة عمره لم يـر منه لا قبل التصدي لمنصـب الإمامة ولا بعده أي انحـراف عن جادة الحقّ ومجاوزة للصراط السوي وهو يلازم العصمة.

إنّ الدليل على عصمة الإمام لا ينحصر بالآية، بل آية التطهير أوضح دليل على عصمة أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم من الدنس، قال سبحـانه: ﴿**إِنَّما يُـريدُ اللهُ لِيُـذهِبَ عَنكُـمُ الرِّجـسَ أَهلَ البَيـتِ وَيُطَهِّركُـمْ تَطْهِيراً**﴾[1].

والآية بحكم تذكير الضمائر لا صلة لها بنساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي راجعة إلى الذين عيّنهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه المتواتر بـالكساء حيث ألقى الكساء على علي وفاطمـة والحسن والحسين عليهم السلام وقال: اللّهـمّ لكلّ نبـي أهل بيـت، وهؤلاء أهـل بيتي[2] والمراد من الرجس، هـو الذنب كما لا يخفى. وإذهاب الرجـس كناية عن عصمتهم، و إرادته سبحانه في الآية تكوينية خاصة بأهل البيت لا تشريعية عامة لجميع الناس.

على أنّ حديـث الثقلين المتواتر عـن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل العترة أعـدال القرآن وقرنـاءه، وقال: «إنّي تـارك فيكم الثقلين كتـاب الله وعترتي ما إن تمسكتـم بهما لن تضلوا بعدي» كاف في إثبات عصمتهم.

لأنّه إذا كانت العترة عدل القرآن، والقرآن معصوم من الزلل، فالعترة مثله، وإلاّ لم تكن جديرة بأن تصبح عدل القرآن وتكون هادية بعده إلى يوم القيامة.

ومنه يتضـح انّ الذي فرض العصمـة على الإمام هو القـرآن أوّلاً والحديث

---

١. الأحزاب: ٣٣.

٢. تفسير الطبري: ٢٢/ ٥ـ٧، الدر المنثور: ٥/ ١٩٨ـ١٩٩

النبوي ثانياً، لا التاريخ، كما زعم الكاتب .

والظاهر انّ الكاتب تأثر إلى حد بعيد بالأفكار التي بثّها بعض المستشرقين أمثال «دونالدسن» الذي احتمل أن تكون فكرة العصمة قد ظهرت في عصر الصادق عليه السلام [١].

٣. معتقد الإمامة

إنّ الإمامة عند الشيعة الإمامية ليست وراثية، سواء أُريد منها وراثة الابن عن الأب، أو الأخ الأصغر عن أخيه الأكبر، وإنّما هي بالتنصيص من الله سبحانه عن طريق نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم فملاك الإمامة هو المؤهلات الذاتية؟

فإمامة الحسن عليه السلام ليست وراثة عن أبيه ،وإنّما هو بتنصيص النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما أنّ إمامة الحسين عليه السلام ليست وراثة عن أخيه، وإنّما هو تنصيص لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: الحسن والحسين ابناي إمامان سواء قعدا أو قاما، وهكذا إمامة سائر الأئمّة عليهم السلام .

نعم تعلّقت إرادته سبحانه بتسلسل الإمامة في عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على النحو المألوف.

وعلى أيّة حال فقد بدت محاولة الكاتب عقيمة لما سرد الحالات في تسلسل الإمامة التي خرجت عن المألوف كي يخرج بحصيلة انّ الإمامة معتقد استحدثه التاريخ فقال:

«انتقاض التسلسل في إمامة الحسين بعد أخيه الحسن رغم انّ إمامة الحسن جاءت بعد إمامة أبيه و كان مقتضى الضابطة تسلسل الإمامة في أعقاب الحسن عليه السلام ولكنّها تحوّلت إلى أخيه الحسين عليه السلام ».

والإشكال نابع عن فكر مسبق وهو انّ الإمامة أمر وراثي كخلافة الأمويين

---

١ .عقيدة الشيعة، دونالدسن:٣٢٨.

والعباسيين فكيف انتقلت الخلافة من الحسن إلى أخيه دون أعقاب الأوّل؟!

و منه يظهر خلل آخر في كلامه لما قال:

«إمامة الإمام موسى الكاظم عليه السلام بعد أبيه رغم انّ الإمامة كانت لأخيه عبد الله الأفطح، وقيل لأخيه إسماعيل ولكن وفاة عبد الله الأفطح في حياة أبيه خلقت إشكالية في سلسلة الأئمّة».

«فالإمام بعد الإمام الصادق عليه السلام ـ حسب وجهةنظر الكاتب ـ هو ابنه الأكبر عبد الله الأفطح أو ابنه إسماعيل و مع ذلك تولى الإمامة نجله الأصغر الإمام موسى الكاظم عليه السلام ».

والحقيقة انّ النص كان من الإمام الصادق عليه السلام على شخص معين، و هو موسى الكاظم عليه السلام دون أيّ شخص آخر وكانت بطانته عارفة بذلك، و إنّما اشتبه الأمر على السُّذّج من الناس واجتمعوا حول عبد الله الأفطح، إلاّ أنّه سرعان ما تبيّن الحق فرجع أكثر القائلين بإمامة الأفطح إلى إمامة موسى الكاظم عليه السلام.

ونود أن نشير إلى خطأ وقع فيه الكاتب، وهو قوله: «إنّ عبد الله الأفطح مات في حياة أبيه الصادق عليه السلام » مع أنّ الذي مات في حياة أبيه هو إسماعيل بن جعفر لا عبد الله الأفطح، فإنّه مات بعد أبيه بمضي ٧٠ يوماً باتّفاق المؤرّخين وأصحاب المقالات.

ثمّ إنّ الكاتب رأى غيبة الإمام الثاني عشر عند الشيعة أمراً لا ينسجم مع الإمامة، و نحن نكشف الستر عن وجه الحقيقة بوجه موجز ونقول:

إنّ الإمام المهدي عليه السلام قضية إسلامية اتّفقت الشيعة والسنّة على خروجه في آخر الزمان، و ليس لأحد إنكارها بعد ورود روايات متواترة من الفريقين، و إنّما الكلام في الأُمور التالية:

الأوّل: هل ولد الإمام المهدي عليه السلام و هو اليوم ممّن يرزق بـأمر الله سبحانه كما عليه الشيعة الإمامية ولفيف من محقّقي السنّة أو هو لم يولد؟

وهذه قضيـة تاريخية لا يسع المجـال لطرحها واستقصـاء دلائل الولادة إلاّ انّنا نحيل الكاتب إلى الكتب التي أُلّفت في هذا المضمار.

وأقول بـاختصار: إنّ هناك ١٤٠ عالماً سنّيـاً نص على ولادته في بيـت الإمام العسكري عليه السلام ، فلـو حاول الكـاتب أن يقـف على نصـوصهم وكلماتهم، فعليـه الرجوع إلى كتاب «موسوعة الإمام المهدي»، فقد جاء مؤلفه بنفس النصوص معيناً اسم الكتاب والمؤلف و رقم الصفحة.

الثاني: زعم الكـاتب انّ القـول بحياة الإمـام الثاني عشر يشكـل إشكاليـة يستحيل تفسيرها، فهل أراد الله للعالم أن يمكث ردحاً من الزمان دون إمام ولماذا؟ وهل ينسجم هذا مع كون الإسلام خاتـم الأديان والرسالة الخالدة إلى جميع البشر ولماذا؟

حاصل كلامه يرجع إلى أمرين:

الأوّل: انّ الغيبة لا تنسجم مع الإمامة

والجواب انّ لله سبحانه أوليـاء فهـم بين ظاهر في أوساط النـاس يقومون بما خوّل إليهم من أمر الهداية، وغائب عن الأنظار بمعنى انّ الناس لا يعرفوه ولكنّه يقوم بما خول إليه حسب الإمكان.

و هذا كمصاحب موسى فقد كان ولياً من أوليائه سبحانه رُزق من العلم ما لم يرزقه موسى الكليم عليه السلام فأراد أن ينهـل من نمير علم مصاحبـه ، فقال: **﴿هَلْ أَتّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾**[1] .

---

١. الكهف: ٦٦.

فصاحَبَه فترة فعرف انّه ولي مستور، ولكنّه يقوم بوظائفه بأحسن ما يرام. وقد ذكر القرآن الكريم من أعماله ما يحير العقول، والإمام الثاني عشر كهذا الولي المستور فهو إمام بين الأُمّة وقد فوّضت إليه وظائف يقوم بها في أوساط الناس دون أن يعلموا به.

والكاتب لبعده عن عقائد الشيعة وكتبهم، تصور انّ الإمام الغائب يعيش بعيداً عن الناس أو في عالم آخر غير عالمنا لا يمت إلينا بصلة، فقال: هل أراد الله للعالم أن يمكث ردحاً من الزمان دون إمام و لما ذا؟!

فنقول: ما أراد الله ذلك، بل أراد أن يكون للأُمة إمام يمكث معهم ويقوم بما فوض إليه من وظائف الإمامة من دون أن يعرفه الناس.

وليس الاختفاء عن الناس أمراً بديعاً في أوليائه سبحانه، فقد اختفى موسى عن أعين الأُمّة نازلاً في ميقاته أربعين ليلة فكان هو نبياً رسولاً ، قال سبحانه: **﴿وَواعَدْنا مُوسىٰ ثَلاثينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْر فَتَمَّ ميقاتُ رَبِّهِ أرْبعينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسىٰ لأخيهِ هارُونَ اخْلُفني في قَومي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبيلَ المُفْسِدِين﴾**[1].

الثاني: انّ القول بغيبة الإمام الثاني عشر لا ينسجم مع كون الإسلام خاتم الأديان والرسالة الخالدة إلى جميع البشر.

لا شكّ انّ الكلام المذكور يكتنفه كثير من الغموض، لأنّه لم يبين وجه الملازمة بين غيبة الإمام الثاني عشر وعدم كون الإسلام خاتم الأديان والرسالة الخالدة إلى جميع البشر، فأي صلة بين الأمرين، فلا شكّ انّ الإسلام خاتم الشرائع وانّ النبي ﷺ خاتم الأنبياء، وانّ القرآن خاتم الكتب، فأيّ ملازمة بين القول بذلك و كون الإمام ظاهراً بين الناس وقائماً بينهم، فليس الإمام الثاني عشر رسولاً

---

١. الأعراف: ١٤٢.

ولا نبياً، وإنّما هو خليفة رسول الله بعد أحد عشر خليفة، ولم تكن البيئة آنذاك مستعدة لظهوره بين الناس وكان الجهاز العباسي الحاكم يتحين الفرص للانقضاض عليه وقتله، فاقتضت المصلحة الإلهية أن تخفيه عن الأنظار رغم وجوده بينهم.

وبذلك يعلم انّ الاعتقاد بإمامة الإمام الثاني عشر أمر موافق للقرآن الكريم والسنن الإلهية في الأُمم السابقة وليس هذا أمراً استحدثه التاريخ بل كانت أئمّة أهل البيت عليهم السلام متنبئين بولادته ثمّ غيبته ثمّ ظهوره قبل أن يولد الإمام بسنين كثيرة وهذا مذكور في العديد من الكتب التي أُلّفت حول الإمام المهدي عليه السلام.

٤. معتقد الرجعة

قام الكاتب بتفسير الرجعة بالنحو التالي: وهو الإيمان بعودة الأئمّة عليهم السلام في آخر الزمان ليتمكنوا من تولي السلطة والخلافة التي حرموا منها.

إنّ القول بالرجعة أي رجوع طائفة من الناس بعد موتهم إلى الدنيا قبل يوم القيامة ممّا نصّ به القرآن الكريم، يقول سبحانه: **﴿وَيَومَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمّة فَوجاً مِمَّنْ يُكَذِّب بآياتنا فهُم يُوزَعُون﴾**[1] فهذا الحشر غير الحشر يوم القيامة، فانّ الحشر الثاني يعم الناس جميعاً: **﴿ويومَ يحشُرهُمْ جمِيعاً﴾**[2]

غير انّ الوارد في هذه الآية هو حشر خصوص المكذبين، والوارد في الروايات هوحشر قليل من المؤمنين، وفي طليعتهم بعض أئمّة أهل البيت عليهم السلام كالحسين عليه السلام، هذا هو واقع الرجعة عند الشيعة وليس أمراً بديعاً، فقد جرت

---

١. النمل: ٨٣.
٢. الأنعام: ١٢٨.

سنّته سبحانه على إعادة لفيف من الناس إلى الدنيا قبل يوم القيامة، يقول سبحانه: **﴿أَوْ كَالَّذي مَرَّ علىٰ قَرية وَهِيَ خاوية عَلى عُروشِها قالَ أَنّىٰ يُحيي هذهِ اللهُ بَعْدَ مَوتِها فَأَماتَهُ اللهُ مِائةَ عام ثُمَّ بعثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يوماً أَوْ بَعْضَ يَوم قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عام فَانْظُرْ إِلىٰ طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّه وَانْظُر إلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَة لِلنّاسِ وَانْظُر إِلىٰ العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكسُوها لَحْماً فَلَمّا تَبيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدير﴾**[۱]

وقال سبحانه: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوتِ فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحياهُمْ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلى النّاسِ وَلكنَّ أَكْثَر النّاسِ لا يَشْكُرُون﴾**[۲]

والعجب انّ الكاتب يسخّف فكرة الرجعة مع أنّ الخليفة الثاني هو أوّل من طرح فكرة الرجعة بعد رحيل الرسول ﷺ.

روى ابن هشام و غيره لما توفّي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون انّ رسول الله ﷺ قد توفي، و إنّ رسول الله ﷺ ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثمّ رجع إليهم بعد ان قيل قد مات، و والله ليرجعنّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا انّ رسول الله ﷺ مات[۳].

ولا يسعني في هذا المختصر سرد أسماء المصادر التاريخية والكلامية التي تتناول تاريخ تلك المعتقدات بالتفصيل إلاّ أنّني على استعداد للدخول في مناظرة

۱. البقرة: ۲۵۹.

۲. البقرة: ۲٤۳.

۳. السيرة النبويّة: ٤/ ٦٥٥.

مع الكاتب في أي قـاعة يرغب بها من قاعـات الأُردن الكبيرة و أمام محتشد غفير من النـاس لكي أنقل له مـا ذكرناه في هـذه المقالة بـالتفصيل من مصادرهـا وقد ألقيت محاضرتين حول عقـائد الشيعة في سالف الـزمان في مؤسسة «عبـدالحميد شومان».

ثمّ إنّ الكاتب قد نحا نفس المنحىٰ في مقال آخر له تحت عنوان «الشيعة والتجـديد» وخـرج منه بنفـس النتيجة التـي خرج بها في هـذا المقال، وانّ هنـاك معتقدات للشيعة استحدثها التاريخ تلبية للمستجدات والتطورات. تظهر الحال فيه ممّا ذكرناه في المقام. كلّ ذلك يعرب عن قصور باع الكاتب في الإحاطة بعقائد الشيعة من مصادرها، ودلائلها وعذره انّه لم يتعرّف على دخائل الشيعة ولم يجالس علماءهم ولم يستبطن ثقافتهم. وفي الختام، تقبلوا منّا خالص التحية والثناء.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٦ ذي الحجة الحرام ١٤٢٠هـ

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة الأعزّاء المشاركين
في هذا المهرجان الأدبي

السلام عليكم و رحمة الله وبركاته

لقد وافتنا رسالة تدعونا للمشاركة في المهرجان الأدبي الذي يقام في اليومين الأوّل والثاني من شهر جمادى الأُولى ١٤٠٩ هـ في دمشق تحت عنوان «أهل البيت في الشعر العربي والعالمي».

ويتناول بشكل خاص صدور «ملحمة أهل البيت الكبرى» للشاعر الكبير الشيخ عبد المنعم الفرطوسي رحمه الله.

وجاء في نصّ الرسالة انّ المركز يتولّى طبع جميع النتاجات التي تلقى في المهرجان أو التي تقدّم له على شكل بحوث ودراسات مستقلة.

ونحن نقدّر هذه الخطوة المباركة التي فيها إحياء لذكرى أهل البيت عليهم السلام وذكرى محبّيهم في أقطار العالم. ويؤسفنا انّ الموسم الدراسي في جامعة قم حال بيننا و بين الحضور في المهرجان غير انّا نشارك الإخوة الكرام ببعث هذه الرسالة مرفقة بقصيدةَ في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم من البحر الكامل من البحور العروضية. لأحد

الأفذاذ من علماء إيران ألا و هو الشيخ عبد الصمد التبريزي «الخامنئي» المتوفى عام ١٣١١هـ. ق، وله ديوان فيه قصائد كثيرة في مدح أهل البيت عليهم السلام وذكر مصائبهم و ما ألمّ بهم من كوارث و محن.

واقتبسنا من ذلك الديوان لاميته المعروفة بـ «لامية الترك»، لأنّ الشاعر تركي اللسان وُلد ونشأ في آذربيجان إحدى محافظات إيران الغربية. قرأ الأوليات من العلوم في مسقط رأسه وبعد ما وصل إلى مرتبةمن العلم والفضل هاجر إلى النجف الأشرف وأخذ يتردد على أندية دروس أساتذتها العظام. وقد اتصل في تلك البلدة الزاخرة بالعلم والأدب بأدبائها وشعرائها المعروفين في القرن الثالث عشر، فانقدح بذلك كامن شعوره وتفجرت قريحته وطاقاته الأدبية، فأخذ ينظم قصائده الباهرة ويجاري أُدباءها وشعراءها. حتى أنّه ما نسي تلك المعاهد بعد ما هبط موطنه وعاد يتشوق لها ويقول مخاطباً صاحب البلدة.

يا سَيّداً فاقَ أربابَ النُّهى شَرفاً
وسادَ أهلَ المعالي الغُرِّ والشُّرَفا

لم أنسَ عَهدَكَ بالوادي المقدَّسِ يا
لَهفي على العَهدِ والوادي وما سَلفا

قَدْ فاضَ جَفناي حتى جفَّ دمعُهما
بعدَ النوى عن صُحَيبٍ أُسكنوا النَّجفا

يا راكبيْ ناقةٍ وجناءَ ناشطة
عرجا بأرضِ غريٍّ ساعة وقِفا

عليكَ منّي سلامي ما حييتُ فها
وادي السلام يباهي مروةً وصفا

فها أنا ذا أبعث إليكم قصيدته اللامية في مدح النبي الأكرم ﷺ يجاري فيها اللاميتين المعروفتين بين الأدباء والشعراء.

لامية العرب للشنفري ابن الآوس اليماني (المتوفّى عام ٥١٠ م) و مطلعها:

أقيموا بني أُمي صدور مطيكم ... فإنّي إلى قوم سواكم لأميل

وقد شرحها الزمخشري و أسماه: اعجب العجب في شرح لامية العرب.[١]

وقد روي في المجامع الأدبية عن النبي ﷺ انّه قال: «علّموا أولادكم لامية العرب فإنّها تعلّمهم مكارم الأخلاق».

ولامية العجم لمؤيد الدين الاصفهاني المعروف بالطغرائي: يقول ابن خلّكان: كان غزير الفضل، لطيف الطبع، فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر. قتل عام ٥١٥هـ.ق، و من محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم، وقد عملها ببغداد يشكو زمانه وهي التي أوّلها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل
وحلية الفضل زانتني لدى العطل
مجدي أخيراً و مجدي أولا شرع
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل[٢]

وجاء بعض الحكم في هذه القصيدة:

١. حب السلامة يثني هم صاحبه
عن المعالي ويغرى المرء بالكسل

---

١. كشف الظنون: ٢/ ٣٤٩.

٢. وفيات الأعيان: ٣/ ١٨٥ رقم الترجمة ١٩٧.

فـــإن جنحـــت إليـــه فـــاتخذ نفقـــاً
في الأرض أو سلماً في الجوّ واعتـــــــــزل

ودع غمار العـــــلا للمقـــــــدمين على
ركـــوبها واقتنـــع منهـــن بـــالبلـــل

٢. لـــو انّ في شرف المأوى بلـــوغ مُنـــىً
لم تبرح الشمـــس يـــومـــاً دارة الحمـــل

٣. وشـأن صـــدقـك عنـــد النـاس كـذبهم
وهـــل يطـــابـــق معـــوج بمعتـــدل

٤. ملـــك القنـــاعـــة لا يخشـــى عليـــه ولا
يحتـــاج فيـــه إلى الأنصـــار والخول

٥. تـــرجـــوا البقـــاء، بـــدار لا ثبـــات لها
فهـــل سمعـــت بظـــل غير منتقـــل[1]

---

١. وفيات الأعيان:٢/ ١٨٥ رقم الترجمة١٩٧.

وأمّا لامية شاعرنا المترجم، فإليـك نقلها من ديوانه المخطوط المحفوظ بين أُسرة الشاعر. [1] نقدمها للمحتفلين الكرام حتى تكـون انموذجاً واضحاً لازدهار الأدب العربي في تلك البلـدة منذ أواخر القرن الثـالث عشر وبداية الـرابع عشر، والقصيدة من بحر الكامل:

١. طبع هـذا الديوان و نشر من قبـل مؤسسة الإمـام الصادق عليه السلام سنة ١٤١٤هـ ق تحـت عنوان «مقتطفـات من ديـوان أديـب العلماء الشيـخ عبـدالصمـد الخامنئي و مختـارات من أشعـار معاصريه».

في مدح النبي الأعظم ﷺ

[بحر الكامل]

أمَـروا بِسُلـواني غَـداةَ تَـرحَّلـوا هَـبْ أنّهم أمَـروا فَمـنْ ذا يَفعـلُ؟

لا القلبُ يَسلو عَـنْ هَواهُ ولا الهوى عَـنْ ساحـةِ القَلبِ المتيَّـمِ يَـرحـل

مـا هُنيتي بعـدَ النَّـوى [1] إلاّ العَنـا يـا مـوتُ زُرْني إنّنـي لـكَ أمْيَـل

مـا الصَبرُ بعدَ البُعـدِ يحلـو كاسِمِـهِ كَـلاّ وهـلْ صَبرٌ حَلى أو حَنظَـل

والعينُ تَهمـي مِـنْ مـآقيهـا دَمـاً أسفـاً ونيرانُ الجوانِـحِ تُشعـلُ

سَـلْ مَـن أراقَ دمي بصـارمِ جَفنِـهِ هَـلاّ يَـرقُّ وقـدْ بَكتنـي العُـذَّل

ظبـيٌ يَصيـدُ بـدَلِّـهِ أُسـدَ الشرىٰ [2] بـدرٌ بطَلعتـهِ الكـواكـبُ تَخجـل [3]

فـالـوجـهُ منـهُ رواهُ صبـحٌ مُسفـرٌ والصدغُ [4] منـهُ حكـاهُ ليـلٌ ألْيَـل

إنْ رامَ قتلي في الغَـرامِ فـأنّ لي بغـرامِـهِ قسماً يَطيـبُ المقتـلُ

يـا مُخجِـلاً بَـدرَ التّمامِ بحُسنِـهِ مـا لي أراكَ مِـنَ النَّـواظِر تَخجَـلُ

---

١ . النوى: البعد.

٢ . الشرى: محل للأُسود في جانب الفرات، يضرب به المثل في قوة أُسوده.

٣ . و في نسخة على الهامش بدل الشطرالأخير يقول: (يحيي القلوب بمقلتيه و يقتل).

٤ . الصدغ: ما بين العين و أصل الأُذن. و الشعرالمتدلي على هذاالمحل يسمّى صدغاً.

ومِـنَ العَجـائبِ أنّنـي لـكَ بـاذِلٌ ... نفسي وأنـتَ بـرَشفِ ثغـرِكَ تَبخَـلُ

جُـدْ لي بـوصـلِ هُنَيهـةٍ أفـلا تـرى ... قَلبـي لـوصـلِ هُنَيهـةٍ يَتغلغـلُ

ويـلٌ لمن شربَ المُدامَ محرمـاً ... ومـدامُ فيـكَ لشـاربيـهِ مُحلّـلُ

يـا بـابليَّ الطـرفِ هـل بـكَ علّـةٌ ... أمْ طـرفـكَ الفتّـانُ لي يتعلّـلُ

كـم علّلَتنـي فيـكَ أحـلامُ الكَـرى ... فـإلى مَ بـالأحـلامِ فيـكَ أُعلَّـلُ

أحرِقْ بنـارِ الشوقِ كـلَّ جوارحـي ... إلاّ الفـوآدَ فـإنّـهُ لـكَ منـزلُ

تسري كبـدرِ التـمِّ سبحـانَ الـذي ... أسرى ببـدرٍ في سنـاهُ يضلـلُ

صيَّـرتَ لي طيـبَ الـرقـادِ مُحرمـاً ... ودمـي تُبيـحُ لقـاتلي وتحلِّـلُ

يـا أيُّها الحادي رويـدكَ راجـلاً ... يَسعـى وراءَ حبيبـهِ ويُهرولُ

قـد شابَ في شرخِ الهوى لمْ يـدّخـرْ ... زاداً ليـومِ غـدٍ عَلَيـهِ يُعـوِّلُ

إلاّ مـديـحَ محمـدٍ خيرِ الـورى ... نِعـمَ المزادُ وخيرُ زادٍ يُحمـلُ

أنشـأتُـهُ مُستجـديـاً أرجـو بـهِ ... في النشـأتينِ جَـوائزاً وأؤمِّـلُ

إنْ كنـتُ أعجـمَ في اللسـانِ فـإنّما ... لقـريحتـي قـسٌّ يَـديـنُ وجـرولُ [1]

فالطبـعُ يُعربُ عـن فصاحـةِ كلمةٍ ... عـربيـةٍ لا في التحـاورِ مقـول

يـا لابسـاً ثـوبَ الحداد محرّمـاً ... انـزعْ فقـدْ وافى الـربيـعُ الأوّل

شهـرٌ تـولّـدَ فيـه مَـنْ كُسرَتْ بـه ... إيـوانُ كسرى والملـوكُ تـذلّلـوا

---

١. جرول: اسم الحطيئة الشاعر المعروف.

وانكبَّ أصنامٌ وغاضَتْ ساوةٌ وسماوةٌ فاضتْ وريعَ المُشْعِل

مَنْ كانَ محموداً حقيقتهُ وما كانتْ حقائقُ ما سواهُ تُبجَّل

ليثٌ إذا ما احمرَّ أطرافُ القَنا غيثٌ إذا ما اغبرَّ عامٌ مُمحل

اللهُ كلَّلهُ بتشريفٍ ولا فلكٌ بإكليلٍ هناكَ مُكلَّل

للهِ سرٌّ في طويةِ كنهِهِ بابٌ لهُ للشارحينَ مقفَّلُ

لولاهُ لم تُقبلْ لآدمَ توبةٌ وبهِ ندامةُ كلِّ عاصٍ تُقبل

هو كعبةُ الأملاكِ والملأُ الذي طوعاً بكعبتهِ يطوفُ ويرملُ [1]

بأبي نبيٌّ لا يفوقُ مقامَهُ مَلَكٌ مقرّبُ أو نبيٌّ مرسل

لولاهُ ما خُلِقَ الثُّريا والثَّرى حاشا ولا ماضي ولا مستقبل

يا مَن بيُمنِ قدومهِ وجهُ الثَرى متكرِّمٌ. مُتمجّدٌ. متهلّل

ظلّت بكَ الأبصارُ خاشعةً كما كلَّ [2] النجاشي منطقاً أو هرقل

فالعرشُ حيثُ رأى الثّرى لكَ موطأ يا ليتَ شِعري كيفَ لا يتهبلُ [3]

فأمرْ بما شئتَ الزمانَ فإنّهُ عبدٌ يطيعُ لما تَشاءُ ويفعل

أنتَ الذي جُبتَ السماواتِ العُلى في ليلةِ الأسرا كبدرٍ يكمل

---

١. رَمَل هنا من رَمَلَ رَمَلاً رَمَلاناً: هَرْوَلَ في مَشْيِهِ.

٢. كلَّ: عجز.

٣. يتهبل: يفقد مشاعره من الإعجاب.

هـذا الهلالُ مثـالُ نَعلـكَ في السما ... في عـالمِ الملكـوتِ بـاتَ يُمثـل

لـولاكَ مـا أحـدٌ تـدثَّـرَ بـالتُّقى ... يـا أيُّها المدَّثّـر المتـزمّـل

هلَّلـتَ حيـث لا خـلاءُ ولا مـلا ... علَّمـتَ سكـانَ السماءِ فهلّلـوا

تُـؤتـىٰ غـداً بلـواءِ حمدٍ لم تـزلْ ... رسـلُ الإلٰـهِ بظلّـهِ تَتظلّـل

أنـتَ المدينـةُ للعلـومِ وبـابها ... المأتيُّ منـهُ ... المرتضى والمدخـل

هـو شـافعٌ يـومَ الحسابِ مشفَّـعٌ ... هـو مـوئلٌ للخـاطئينَ مُعـوَّلُ

يـا مَخْزَنَ الأسرارِ والحِكـمِ التـي ... معشـارهـا بعقـولنـا لا يُعقـلُ

قَدْ غـالني صَـرفُ الزمـانِ وليس لي ... غـوثٌ يُسـاعـدني عليـهِ ومَعقِـلُ

مـا لي إليـكَ وسيلـةٌ تُجدى بها ... فـإليـكَ لا أدري بماذا أسـألُ

والمزنُ دونَ نـداكَ تـؤتـى نعمـةً ... والبحـرُ عنـدَ نـوالِ كفِّـكَ جـدولُ

مـا مِـدحَتـي إلاّ كـرِجـلِ جَـرادةٍ ... قـدراً وحـاشـا أن تليقـكَ أرجـلُ

لكنّهـا منّـي إليـكَ هـديّـةٌ ... وأراكَ مِـنْ مثلي الهدايـا تَقبـلُ

صَلّـى عليـكَ وآلِـكَ الـرحمٰنُ مـا ... لاحَ الثُّـريـا والسِّماكُ الأعـزلُ

٣



إلى فضيلة الأُستاذ قيس ظبيان المحترم
مدير تحرير مجلّة الشريعة الغرّاء

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد، فلقد وصلني العدد ٣٣٩ من مجلة الشريعة، فتصفّحت مواضيعها، واسترعىٰ انتباهي ما أجاب به فضيلة الشيخ عبد الله بن منيع عضو هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، حينما وجهت إليه مجموعة من الأسئلة، إلاّ أنّني لا أُشاطره الرأي في جواب السؤال التاسع والحادي عشر، وإليك نصّ كلامه:

السؤال التاسع: لماذا سمّيت حجّته بحجّة الوداع؟

فأجاب بأنّه ﷺ تُوفي بعد أربعة أشهر من هذا الحجّ فكانت وداعاً منه ﷺ لأُمّته.

أقول: الصحيح أن يقول ثلاثة أشهر لا أربعة أشهر، لأنّه ﷺ توفيّ في الثاني عشر من ربيع الأوّل حسب رأي أهل السنّة، والفترة بين الثاني عشر من ذي الحجّة الذي تنتهي فيه أعمال الحجّ، إلى الثاني عشر من ربيع الأوّل، لا تتجاوز عن ثلاثة أشهر.

السؤال الحادي عشر: هل زيارة المسجد النبوي الشريف من مكمِّلات الحجّ؟

فأجاب (حفظه الله): بأنّ من استكمل في حجّه أركان الحجّ وواجباته ولم يقم بزيارة المسجد النبوي، فحجّه صحيح وقد فاته فضل الزيارة.

ألفت نظر فضيلة الشيخ والقرّاء إلى أمرين:

الأمر الأوّل: انّ زيارة المسجد النبوي مستحبة في جميع أيّام السنة، وإقامة ركعة فيه تعادل ألف ركعة أو أزيد من غير فرق بين أيّام الحجّ وغيرها، وهذا ممّا لا خفاء فيه ولا تحوم حوله الشكوك.

الأمر الثاني: تضافرت الروايات على استحباب زيارة قبر النبي ﷺ مطلقاً، بالأخص عند شدّ الرحال إلى الحجّ ويبلغ عدد الروايات ما يربو على العشرين،ونذكر منها ما يلي:

١. روى عبد الله بن عمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ: من زار قبري وجبت له شفاعتي.

٢. روى عبد الله بن عمر مرفوعاً: من جاءني زائراً لا تحمله إلاّ زيارتي كان حقّاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة.

٣. روى عبد الله بن عمر مرفوعاً: من زار قبري بعد وفاتي كمن زارني في حياتي.

٤. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: من حجّ البيت ولم يزرني فقد جفاني.

٥. عن عبد الله بن عمر: من حجّ حجّة الإسلام، وزار قبري، وغزا غزوة، وصلّى عليَّ في بيت المقدس لم يسأله الله عزّ وجلّ فيما افترض عليه.

إلى غير ذلك من الروايات الحاثّة على زيارة قبر النبيّ ﷺ مطلقاً أو عند حجّ بيت الله الحرام.

وقد أخرج هـذه الروايات، الأثبات مـن أئمّة الحديث وحفاظـه وصحّحوا أسنـادهـا، وعلى رأسهـم تقـي الـديـن علي بـن عبـد الكـافي السبكـي الشافعي (المتوفّى ٧٥٦هـ) وقد ذكـر طرق هـذه الأحاديـث في «شفاء السقـام» في أوائل الكتـاب، كما تكلم فيهـا السيـد نـور الديـن عبـد الله الشـافعي القـاهـري السمهودي (المتوفّى ٩١١هـ) في كتاب «وفاء الوفا» إلى غير ذلك، كما ألّفت رسائل خاصّة في هذا المضمار.

ونحن لا نحوم حـول هذه الأحاديث وأسـانيدها ومصادرهـا، وإنّما نلفت نظر القارئ إلى نكتة مهمة وهي:

إنّ هذه الأحاديث والفتاوى المتضافرة على زيارة قبر النبيّ ﷺ خصوصاً ما روي عنه ﷺ: «من حجّ البيت ولم يزرني فقد جفاني» صار سبباً لإثارة هذا السؤال عند بعض الناس: وهو هل زيارة قبر النبي من مكمّلات الحجّ؟

فهذا السّؤال هو الذي يتبادر إلى الأذهان ـ مـن هذه الأحاديث ـ و تتناوله الألسن، لا انّ زيارة مسجـد النبي من مكمِّلات الحجّ، إذ لا يتبـادر منها انّ مجرّد زيارة المسجـد من مكمـلات الحجّ حتى يجيـب عليه فضيلـة الشيخ، لأنّ لسـان الروايات هو زيـارة قبر النبي في أيّام الحجّ لا زيارة مسجده، فلو كـان ثمة سؤال فإنّما يتعلّـق بزيارة قبر النبـي لا بمسجده، وسيـوافيك تصريح بعـض الأعلام أنّ زيارة قبره ﷺ من كمالات الحجّ.

والذي أظن انّ السؤال كان على النحو الذي طرحناه، ولكن لما كانت زيارة قبر النبي ﷺ و شدّ الرحال إليه لا تنسجم مع وجهة نظر المجيب بدّل السؤال من «زيارة قبر النبي» بـ«زيارة مسجد النبي».

وعلى أيّة حال فإذا كان السؤال هـو الدارج بين بعض الناس فالجواب عنه

كالتالي:

إنّ زيارة قبر النبي ﷺ ليست من مكمّلات الحجّ، ومن حجّ البيت واستكمل أركانه وواجباته ولم يقم بزيارة قبر النبي ﷺ فحجّه صحيح، ولكن فاتته فضيلة كبيرة حثّت عليها السنّة النبويّة والسيرة العملية للمسلمين.

أمّا السنّة النبوية فقد وقفت على شيء قليل منها، وقد بلغ ما روي حول زيارة قبر النبي ﷺ ما يربو على عشرين حديثاً حتى أنّ الأئمّة الأربعة أفتوا باستحباب زيارته، حيث اتّفقت عليه كلمات أعلام فقهاء المذاهب الأربعة[1] وقالوا: إنّ زيارة قبر النبيّ ﷺ أفضل المندوبات، وقد ورد فيها أحاديث ثمّ ذكروا ستة منها، وجملة من أدب الزّائر وزيارة للنبيّ ﷺ وأُخرى للشيخين.[2]

وأمّا السيرة: فقد حكاها غير واحد من أئمّة الفقه والحديث نقتصر على النزر اليسير منها.

١. قال أبو الحسن الماوردي(المتوفّى ٤٥٠هـ):

فإذا عاد وليّ الحاج، سار به على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله ليجمع لهم بين حجِّ بيت الله عزّوجلّ، وزيارة قبرِ رسول الله رعايةً لحرمته وقياماً بحقوق طاعته، وذلك وإن لم يكن من فروضِ الحجّ، فهو من مندوبات الشرع المستحبّة وعبادات الحجيج المستحبة.[3]

---

١ و ٢. انظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة:١/ ٥٩٠.

٣. الأحكام السلطانية:١٠٥.

٢. يقول الإمام النووي (٦٣١ـ٦٧٦هـ):

فصل في زيارة قبر رسول الله وأذكاره

اعلم أنّه ينبغي لكلّ من حجّ أن يتوجّه إلى زيارة رسول الله ﷺ سواء كان ذلك في طريقه أو لم يكن، فانّ زيارته ﷺ من أهمّ القربات وأربحِ المساعي وأفضلِ الطلبات، فإذا توجّه للزيارة أكثر من الصلاة عليه ﷺ، فإذا وقع بصره على أشجار المدينة وحرمها و ما يُعرف بها، زاد من الصلاة والتسليم عليه ﷺ وسأل الله أن ينفعه بزيارته ﷺ و أن يُسعِدَه بها في الدارين، وليقل: «اللّهمّ افتح عليّ أبواب رحمتك وارزقني في زيارة قبر نبيّك ﷺ ما رزقته أولياءك وأهل طاعتك واغفر لي وارحمني يا خير مسؤول».[١]

٣. وقال ابن الحاج محمد بن محمد العبدوي القيرواني المالكي (المتوفّى ٧٣٧هـ):

وأمّا عظيم جناب الأنبياء والرسل ﷺ فيأتي إليهم الزائر ويتعيّن عليه قصدهم من الأماكن البعيدة، فإذا جاء إليهم فليقف بالذلّ والانكسار، والمسكنة والفقر، والفاقة والحاجة، والاضطرار و الخضوع، ويُحضر قلبَه وخاطره إليهم وإلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره، لأنّهم لا يبلون ولا يتغيرون.[٢]

٤. قال شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي (المتوفّى ٩٢٥هـ):

يستحبّ لمن حجّ أن يزور قبر النبي ﷺ ويسلم عليه، وعلى صاحبيه بالمدينة المشرّفة.[٣]

---

١. الأذكار النووية: ٣٣٣، طبعة دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ.ق.

٢. المدخل: ١/ ٢٥٧، فصل زيارة القبور. ٣. أسنى المطالب في شرح روض الطالب: ١/ ٥٠١.

٥. قال الشيخ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (المتوفّى ١٠٣١هـ):

وزيارة قبره الشريف من كمالات الحجّ.[١]

وهو يعدُّه من كمالات الحجّ لا من مكمّلات الحجّ وشتان بينهما.

٦. قال الشيخ علاء الدين الحصكفي الحنفي (المتوفّى ١٠٨٨هـ):

وزيارة قبره ﷺ مندوبة بل قيل واجبة لمن له سعة، ويبدأ بالحجّ لو فرضاً، ويُخيّر لو نفلاً ما لم يمرّ به، فيبدأ بزيارته لا محالة، ولينو معه زيارة مسجده ﷺ.[٢]

٧. قال الشيخ إبراهيم الباجوري الشافعي (المتوفّى ١٢٧٧هـ):

ويُسنّ زيارة قبره ﷺ ولو لغير حاج ومعتمر كالذي قبله، ويُسن لمن قصد المدينة الشريفة لزيارته ﷺ أن يُكثِر من الصلاة والسلام عليه في طريقه، ويزيد في ذلك إذا رأى حرم المدينة وأشجارها، ويسأل الله أن ينفعه بهذه الزيارة ويتقبلها منه.[٣]

٨ . وقال الشيخ عبد الباسط بن الشيخ علي الفاخوري مفتي بيروت:

وهي (زيارة النبي) متأكدة مطلوبة ومستحبة ومحبوبة ـ إلى أن قال: ـ و تحصل الزيارة في أي وقت وكونها بعد تمام الحجّ أحب.[٤]

---

١. شرح الجامع الصغير: ٦/ ١٤٠.

٢. الدر المختار في شرح تنوير الأبصار: آخر كتاب الحجّ.

٣. في حاشية على شرح ابن الغزي على متن الشيخ أبي شجاع في الفقه الشافعي: ١/ ٣٤٧.

٤. الكفاية لذوي العناية: ١٢٥.

٩. قال الشيخ عبد المعطي السقافي:

زيارة النّبيّ ﷺ إذا أراد الحاج أو المعتمر الانصراف من مكة ــ أدام الله تشريفها وتعظيمها ـ طلب منه أن يتوجّه إلى المدينة المنورة للفوز بزيارته عليه الصلاة والسلام، فانّها من أعظم القربات وأفضل الطاعات، وأنجح المساعي المشكورة، ولا يختص طلب الزيارة بالحاج غير انّها في حقّه آكد.

والأولى تقديم الزيارة على الحجّ إذا اتّسع الوقت، فانه ربما يعوقه عنها عائق، و قد ورد في فضل زيارته ﷺ أحاديث كثيرة.[١]

١٠. قال السيد محمد بن عبد الله الجرداني الدمياطي الشافعي (المتوفّى ١٣٠٧هـ):

فزيارة قبره ﷺ من أعظم الطاعات وأفضل القربات فينبغي أن يُحرص عليها و ليحذر كلّ الحذر من التخلّف عنها مع القدرة خصوصاً بعد حجّة الإسلام، لأنّ حقّه ﷺ على أُمّته عظيم.[٢]

هذه كلمات الأثبات الحفّاظ أتينا بها كنموذج لما لم نذكر وما تركناه أكثر ممّا نقلناه، وقد انتقينا هذه الكلمات لأنّها تركّز على زيارة قبر النبي ﷺ لمن أراد الحجّ.

إنّ هذه الكلمات تعرب عن اتّفاق الأُمّة بكافة مذاهبها على استحباب زيارة قبر النبي ﷺ لمن زار البيت، و تؤكد ـ في الوقت نفسه ـ على أنّها ليست من مكمّلات الحجّ، فكان اللازم على الشيخ المجيب طرح السؤال والجواب على النحو الذي قررناه.

١. الإرشادات السنية: ٢٦٠.

٢. مصباح الظلام: ٢/ ١٤٥.

وممّا ينبغي الإشـارة إليه هو انّ الذي دعاني إلى تعقيب هـذه الفتوى سؤالاً وجواباً، هو مـا لمست من التحريف الذي تطرق إلى كتاب «الأذكـار» للإمام يحيى النووي لا سيما فيما يـرجع إلى استحبـاب زيارة قبر النبـيّ ﷺ للحاج، فقد حرّف بعضُ من ينتمي إلى السلفية عنوان الفصل ومحتواه، ولمزيد الإيضاح أقول:

طبع هذا الكتاب مرّة في القاهرة عام ۱۳۷٥هـ، ثمّ أُعيد طبعه ثانياً في دار ابن كثير عام ۱٤۰۷هـ، ولما أُعيد طبعه ثـالثاً في دار الهدى للنشر والتوزيع حرّف عنوان الفصل فقـد كان العنوان في الطبعتين الأُوليين هكذا: «فصـل في زيارة قبر رسول الله وأذكـارها»، وجـاء في الطبعة الثـالثة مكـانه: «فصـل في زيارة مسجـد رسول الله».

كما حرّف مضمـون الفصل ومحتواه حيـث جاء في الطبعتين الأُوليين ــ بعد العنوان ـ قوله: «**اعلم أنّه ينبغي لكلّ من حـجّ أن يتوجّه إلى زيارة رسول الله سواء كان ذلـك في طريقه أو لم يكـن، فإنّ زيارتـه من أهمّ القـربات و أربح المسـاعي وأفضل الطلبات، فـإذا توجّه للزيارة أكثـر من الصلاة عليه في طريقـه، فإذا وقع بصره على أشجار المدينة...**»

لكن جـاء في الطبعة الثالثـة مكان تلك العبـارة ما يلي:«**يستحبّ من أراد زيارة مسجد رسول الله ﷺ أن يكثر الصـلاة عليه في طريقه، فـإذا وقع بصره على أشجار المدينة**».

والمختلق المسكين مع أنّـه خان الأمانة العلمية لم يستطـع أن يسدل الستار على خيانته، فانّ ما جاء به عقب العنوان، حتى بصورته المحرّفة، لا يناسب عنوان الفصل المجعول.

فانّ العنـوان حسب جعلـه منصبّ على زيـارة المسجد، ومـا أعقبه ــ مع

تحريفه ـ يركز على الصلاة على الرسول و يقول: «**من أراد زيارة مسجد رسول الله أن يكثر من الصلاة عليه في طريقه**»، فانّ هذه العبارة تناسب حال من أراد زيارة قبره لا مسجده.

وها أنا أُهيب بالأحرار من المثقّفين في البلاد العربية أن لا يسمحوا لأهل التحريف أن يتلاعبوا بالتراث الذي خلفه السلف الصالح.

وممّا أدهشني أنّ محقق الكتاب ـ في الطبعة الثالثة ـ هو عبد القادر الأرناووط السوري، وهو معروف بأمانته العلمية ولا أدري لماذا سمح بطروء التحريف إلى ما حقّقه، ولا أظن انّه قام بهذا التحريف.

﴿وليسئلنّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون﴾[1].

والله من وراء القصد

جعفر السبحاني

قم. الجامعة الإسلامية

٤



إلى أبناء منطقة الأحساء

(حفظهم الله)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد، فقد وافتنا رسالتكم المؤرخة بتاريخ ٦ صفر ١٤٢١هـ.ق تضم في طياتها مجموعة من الاستفسارات، وقد انتابني الحزن والقلق حيال ما جاء فيها من الإجراءات التعسفية للحد من الشعائر الحسينية، ونجيب على تلك الاستفسارات بالنحو التالي:

١. يلزم الحفاظ على هذه الشعائر، لأنّ فيها إحياءً لذكرى الإمام الحسين عليه السلام التي فيها دروس وعبر للأُمّة الإسلامية، و هو سلام الله عليه مثال للصمود والإباء أمام الطغاة كما يقول ابن أبي الحديد البغدادي:

«سيد أهل الإباء الذي علّم الناس الحميّة، والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدنيّة، أبو عبد الله الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام، عرض عليه الأمان، فأنِفَ من الذُّل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان إن لم يقتله، فاختار الموت على ذلك».[1]

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣/ ٢٤٩.

ففي إقامة المجالس لاستشهاد سيد أهل الإباء، إحياء للحميّة الإسلامية، وترجيح الموت في عزّة على الحياة الدنيّة مع الطغاة، وهل هناك شيء معروف أكثر من ذلك؟!

٢. انّ حبّ النبي ﷺ أصل من أُصول الإسلام، وكفىٰ في ذلك:

ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك انّ النبي ﷺ قال: فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين.[١]

وهكذا حبّ أهل بيته عليهم السلام فقد تضافرت الروايات على ذلك.

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ انّه قال في حقّ ولديه «الحسن والحسين»: «من أحبَّهما فقد أحبني، و من أبغضهما فقد أبغضني ـ يعني الحسنين ـ».

أخرج الترمذي عن أنس بن مالك، قال: سئل رسول الله ﷺ أيّ أهل بيتك أحبّ إليك؟ قال: الحسن، الحسين، وكان يقول لفاطمة: ادعي ابنيّ فيشمهما، فيضمهما إليه.[٢]

هذا ولا يخفى على أحد انّ للحبّ مظاهر:

الأوّل: الاتّباع وأخذهم أُسوة في الحياة.

الثاني: مشاركتهم في الأفراح والأحزان، فالاحتفالات و إقامة مجالس العزاء كلّها من مظاهر الحبّ عبر الزمان، ومنعها بخس لحقوقهم و ردّ لوصية الرسول في حقّهم، وليس هذه الشعائر إلاّ تجسيداً لحبهم ومودتهم التي جعلها الله أجر الرسالة وقال: ﴿**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُربىٰ**﴾[٣].

---

١. صحيح البخاري: ١/ ٩؛ صحيح مسلم: ١/ ٤٩؛ مسند أحمد: ٣/ ١٧٧، ٢٠٧، ٢٧٥؛ ٤/ ١١.

٢. سنن الترمذي: ٥/ ٦٥٧ برقم ٢٧٧٢.

٣. الشورى: ٢٣.

على أنّ النبي ﷺ هو أوّل من بكىٰ على الحسين عليه السلام و أبنه.

٣.أخرج الحافظ الحاكم النيسابوري في مستدركه على الصحيحين عن أُم الفضل بنت الحارث انّها دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة، قال: وما هو؟ قالت: إنّه شديد، قال وما هو؟ قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري! فقال رسول الله ﷺ: رأيت خيراً، تلد فاطمة ـ إن شاء الله ـ غلاماً فيكون في حجرك، فولدت فاطمة الحسين فكان في حجري ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ.

فدخلت يوماً إلى رسول الله ﷺ فوضعتَه في حجره، ثمّ حانت منّي التفاتة فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان من الدموع! قالت: فقلت: يا نبيّ الله بأبي أنت وأُمّي مالك؟ قال: أتاني جبرئيل عليه الصلاة والسلام فأخبرني أنّ أُمّتي ستقتل ابني هذا، فقلت: هذا؟ فقال: نعم، وأتاني تربة من تربته حمراء.

فقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.[١]

هذا قليل من كثير حول حبّ النبيّ ﷺ لأهل بيته عليهم السلام ، فالواجب يحتم على المسلمين إحياء أمرهم، وأمّا من يمنع عن إقامة الشعائر، فعليه أن يرجع إلى كتاب الله وسنّة رسوله ، قال سبحانه: ﴿**فَإِنْ تَنازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدّوهُ إِلى الله وَرَسُوله**﴾ [٢] فمن حال بين الأُمة وعترته الطاهرة فقد حرم من شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة.

وأمّا مهمة المؤمنين والخطباء هو التمسك بأهداب ولاية العترة الطاهرة الذين جعلهم الرسول أعدال الكتاب،وقال: «**إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي**»و إشاعة الشعائر الحسينية بين الشباب الواعي والغيور كي يستلهموا

١. مستدرك الحاكم: ٣/ ١٧٦.

٢. النساء:٥٩.

الدروس والعبر من ملحمة الطف الخالدة .

أسأل الله سبحانه أن يمنّ عليكم بالخير والبركة والعافية وأن يحلّلكم بثوب التقوىٰ وأنتم المرحومون بدعاء النبي ﷺ وعترته الطاهرة حيث أحييتم أمرهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١ ربيع الأوّل من شهور عام ١٤٢١هـ

٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الإخوة المؤمنين

في دار الزهراء في الكويت

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد؛

فقد وافتني رسالتكم الميمونة، معربةعن طيب أعراقكم، وشريف أخلاقكم، واهتمامكم البالغ بتربية الشباب تربية دينيّة واعية تصونهم عن الزلل في العقيدة و العمل. وهذه وظيفة ثقيلة ملقاة على عاتق الأولياء لا سيما الأبوين.

هذا هو لقمان الحكيم، المربِّي النموذجي، الذي يعرّفه القرآن الكريم بقوله: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمان الحِكْمة أَنْ اشْكُر لله وَمَنْ يَشْكُر فَإنّما يَشْكُرُ لِنَفْسهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَميد﴾**[1].

والآية تعرب عن إفاضة الحكمة عليه، وطلب الشكرحيالها، فقام هو ببذل النُّصح التامّ لولده وتعليمه الحكمة، وبادر إلى دعوته إلى التوحيد ونبذ الشرك، كما يحكيه سبحانه عنه، ويقول: **﴿وَإِذْ قالَ لُقْمان لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِك بِاللهِ**

---

١. لقمان:١٢.

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١].

فيا بشرى لكم لقد اتخذتم ذلك الحكيم الإلهي أُسوة في حياتكم،حينما طرحتم تلك الأسئلة التي تنمّ عن مدى سعيكم الحثيث لتربية الشباب تربية إسلامية صحيحة.

فها نحن نقوم بالإجابة عليها واحداً تلو الآخر على وجه الإيجاز:

السؤال الأوّل

يعيش الشباب من حيث يشعرون أو لا يشعرون غزواً فكرياً وثقافيّاً لمحو هويّتهم الإسلامية، فما هي نصيحتكم في هذا المجال؟

الجواب:

لا شكّ انّ لتطور شبكة الاتصال أثراً بالغاً في حياة الإنسان لا سيما و انّها أوجدت تحولاً جذرياً في سلوكه وتدبير أُموره و كيفية تعامله مع الناس.

وبات واضحاً انّ وسائل الاتصال، كالتلفزة، والأقمار الصناعية، والانترنت، قد غمرت العالم بأفكارها، وساهمت في ترويج فكرة العولمة الثقافية والاقتصادية.

ففي هذه الظروف الخطيرة التي تزداد فيها الهجمة الثقافية شراسة على المسلمين بغية مسخ هويتهم وذوبها تتضاعف مسؤولية المسلمين، عملاً بقوله ﷺ: «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته».

ومن هنا فانّ انطلاقة أي وعي إسلامي في المجتمع يتم عبر عدة قنوات:

---

١. لقمان: ١٣.

الأُولى: الأُسرة باعتبارها اللبنة الأُولى في بناء شخصية الإنسان المسلم، فالمسؤولية الأُولى تقع على عاتق الوالدين في تربية أبنائهم تربية إسلامية بنّاءة.

الثانية: أجهزة التربية والتعليم فهي التي تنمي طاقات الإنسان الفكرية والمعنوية من خلال عرض برامج تثقيفية و إسلامية تتناسب مع أعمارهم ويا للأسف فانّ تلك الأجهزة تتقاعس عن القيام بهذه المهمة الكبرىٰ.

الثالثة: إقامة المهرجانات والأعياد الدينيّة والشعائر الحسينية وإلقاء الخطب ودعوة رجال العلم والصلاح لإلقاء المحاضرات التي تتجاوب مع روح الشباب لها من الأهمية في بث الروح الدينية وتوثيق أواصر الصلة بين الإخوة المؤمنين وتعزيزها.

الرابعة: تنظيم الرحلات العلمية وإقامة المخيّمات بين الشبيبة والتعرّف على بعضهم البعض بغية ملء أوقات فراغهم.

وفوق هذا كلّه فلابدّ للجهات المعنيّة بالجانب الثقافي من انتاج برامج إسلامية بديلة عن البرامج التي يبثّها الغرب.

السؤال الثاني

ما هي مقوّمات الشخصية الإيمانية ذات التقوى؟

الجواب:

الإيمان هو أمر راسخ في القلب و يتبلور في الإيمان بالله الخالق القادر المتعال، العالم بالسرّ والخفايا، الذي لم يخلق الإنسان سدى.

وفي الإيمان برسالاته ورسله الذين بعثوا لهداية الإنسان إلى ما فيه سعادته وصلاحه، وأناروا الدرب له إلى يوم القيامة.

وفي الإيمان باليوم الآخر الذي يجمع الله فيه الناس قاطبة على صعيد واحد ليجزيهم بما عملوا .

وهذه الأُصول الثلاثة هي الحجر الأساس للإيمان والتقوى.

والإيمان الصادق ينعكس على سلوك الفرد المؤمن في حِلّه وترحاله وسفره وحضره، فيرى نفسه مسؤولاً أمام الله وأمام المجتمع وأمام نفسه، فيؤدّي حق الله سبحانه في حلاله وحرامه، كما يؤدي حقوق الناس في معاشرته معهم. ويؤدّي حقّ نفسه بالتفكّر في صلاحه وفلاحه.

وبكلمة مختصرة :انّ المؤمن يعيش حالة الانصياع لله سبحانه في كلّ أُموره وأحواله، ويبعثه هذا إلى احترام الحقوق في كافة المجالات.

وقد سأل همام ـ ذلك الرجل العابد ـ أمير المؤمنين عليه السلام عن صفات المتّقين، فقال: صف لي المتّقين فكأنّي أنظر إليهم، فخطب الإمام عليه السلام خطبته المعروفة حيث وصف فيها المتّقين بقوله: «فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضُّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم...».[١]

ويا حبَّذا لو قام الأولياء بتحفيظ أبنائهم هذه الخطبة التي جمعت بين روعة اللفظ وجمال المعنى.

السؤال الثالث

كيف يمكن للمربّين المؤمنين تنمية وتحفيز حالة التقوى لدى الشباب؟

الجواب:

إنّ الناشئ كفسيلة بحاجة إلى مراقبة مستمرّة لكي تنمو حتى تُصبح

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

شجرة تضرب بجذورها في الأرض على وجه لا تزعزعها العواصف المدمِّرة، وهكذا حال الناشئ فهو بحاجة ماسة إلى توعية وتربية إسلامية بنّاءة غير منقطعة حتى تكتمل شخصيته الإيمانية للحيلولة دون تسرّب الشيطان إلى قلبه.

و من أهم الأساليب التي تؤثر في تنمية حالة التقوى لدى الشباب هو ان لا يجد الشاب فراغاً في أوقاته ليملأها بما فيه الضرر والضلال على نفسه أوّلاً، وعلى مجتمعه ثانياً.

ولقد قالوا:

انّ الفراغ والشباب والجدة   مفسدة للمرء أيّ مفسدة

وقد مرّ من خلال استعراض الإجابة على السؤال الأوّل كيفية ملء أوقات فراغ الشباب، و بهذا يتضح أيضاً جواب السؤال الرابع.

وفي الختام أرجو من الله سبحانه أن يسدِّد خطاكم في سبيل أهدافكم المقدسة بحقّ نبيّه و آله.

ولكم منّا بالغ التحية والسلام.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

تحريراً في ٢١ من شهر رمضان المبارك

من شهور عام ١٤٢٠هـ

٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الإخوة المؤمنين

في دار الزهراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد،لقد وافتنا رسالتكم المؤرّخة بتاريخ ١١ محرم الحرام عام ١٤٢١هـ التي طرحتم فيها أسئلة تمت إلى الشباب بصلة،وسنقوم بالإجابة عنها بنحو موجز:

١. على ضوء وصايا لقمان لابنه وهو يعظه كم هي قيمة التربية المباشرة في الإرشاد والتسديد والنصيحة؟

إنّ التربية المباشرة لها تأثير بالغ في تكوين شخصية الإنسان وتربيته ومن أبرز مصاديقها التربية داخل محيط الأُسرة، فانّ الأبناء ينظرون إلى الآباء نظرة إجلال و إكبار حيث إنّهم يتربّون في أحضانهم، كما أنّ الآباء ينظرون إلى أبنائهم نظرة الناصح المشفق فيكون لتربيتهم المباشرة أثرٌ بارز في نفوسهم، ولكن شريطة أن يكون الإرشاد جامعاً لما هو شرط التأثير الذي منه إحياء شخصية الطفل لكي يعي ويفهم ويدرك ما يصلح أمره أو يفسده، كما نرى أنّ الإمام الحسن عليه السلام

يخاطب بنيه وبني أخيه ، بقوله: «**إنّكم صغار قوم ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلّموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه فليكتبه وليضعه في بيته**».[١]

ترى أنّه ينفثُ في روعهم العظمة، ويقول:« إنّكم صغار قوم ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين»، فهذا النوع من التوعية يحقق أرضية صالحة لقبول ما يعقبه من النصائح.

وأمّا خطاب الأولاد مرفقاً بالغلظة والشدة فلا يترك وقعاً في نفوسهم إلاّ قليلاً بل يزيدهم لجاجاً.

٢. نريد شباباً قرآنياً... جيلاً قرآنياً كيف يتسنّى لنا ذلك؟

الجيل القرآني عبارة عمّن يخالط القرآن لحمه ودمه، وهو رهن أمرين:

١. تعليم القرآن من لدن صباه، والدعوة إلى حفظ ما أمكن منه، والترغيب بالمشاركة في المهرجانات التي تقام لأجل تكريم حفظة القرآن.

٢. أن يعيش في أحضان أبوين يقرآن القرآن، ويلتزمان بتعاليمه،وإلاّ فالشاب البعيد عن الأجواء القرآنية لفظاً ومعنى، وصورة ومادة، لا يكون شاباً قرآنياً.

٣. هل للإسلام إرشادات توجيهية في ضبط حركة المراهقة وصونها من الوقوع في المزالق؟

إنّ الشاب المراهق في خطر من جهتين: من جهة العقيدة ومن جهة العمل.

---

١. بحار الأنوار:١/ ١١٠.

أمّا الأُولى: فصيانته عـن المزالق رهن توعيته، إمّا عن طـريق إلقاء الدروس الدينية على مسامعهم، أو بـإقامة ندوات علمية تربوية يشـارك فيها الشاب بغية الوقوف على مضاعفات الانحلال الخُلقي

وأمّـا الثاني فهـو رهن المراقبـة التـامة كـي لا يختلـط برفـاق السوء، يقـول سبحانه: ﴿يا لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذ فُلاناً خَليلاً﴾ [1]، فالخلّة أمر لا محيص عنها لكن يجب انتخـاب الخليـل الصالـح لا الطـالـح، مضـافاً إلى ضرورة التسريـع في زواجـه، قال عليه السلام: من تزوج فقد أحرز نصف دينه.

٤. المعلم أو المربي ما هي خصاله وما هي مسؤولياته؟

إنّ من أهمّ خصال المعلم هي:

١. أن يكون ممن يعرف الحقّ ويلتزم به في حياته العملية.

٢. أن تكون له رغبة بعمله سواء على صعيد التربية أو التعليم.

٥. ما هي أصناف الإخوان مع بيان منهج التعاون مع كلّ صنف؟

إنّ الإخوان على قسمين حسب ما قسمهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقال:

الإخوان صنفان: إخـوان الثقة، و إخوان المكاشرة. فأمّا إخـوان الثقة فهم كالكـف والجناح والأهل والمال، فـإذا كنت من أخيـك على ثقة فـابذل له مـالك ويدك، وصاف من صافاه، وعاد من عاداه وأكتم سرّه وأعنه وأظهر منه الحسن.

واعلم أيّها السائل انّهم أعز من الكبريت الأحمر.

---

١. الفرقان: ٢٨.

وأمّا إخوان المكاشرة فانّك تصيب منهم لذتك، فلا تقطعنّ ذلك منهم، ولا تتطلبنّ ماوراء ذلك من ضميرهم، وأبذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه، وحلاوة اللسان.

وقد بين الإمام كيفية المعاشرة والتعامل معهم.

٦. كلمة أخيرة توجّهونها للشباب؟

الكلمة الأخيرة التي أود أن أُقدّمها إلى الشباب المسلم هي انّ المجتمع الإنساني صار كالقرية الكونية، وازدادت فيه الحملات المسعورة على الدين وأهله، فالواجب يحتم على الشباب الواعي أن يتمسّك بأهداب دينه ويلتزم به في سلوكه، لأنّ فيه حفظ هويتهم الثقافية والاجتماعية لاسيما في عصر العولمة الثقافية التي تبغي من وراء بث أفكارها المسمومة طمسَ الهوية الدينية، وأن لا ينجرّ إلى المؤامرات التي يحيكها الغرب بغية النيل من الدين والإطاحة به .

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢ ربيع الأوّل ١٤٢١ هـ.ق

٧

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة مفتوحة

إلى خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

سلام عليكم

أمّا بعد، فإنّ الوهابيّة مُنذُ أن سيطرت على الحرمين الشريفين لم تألُ جهداً في إزالة آثار النبوّة والرسالة، ومحو كلّ ما هو من علائم الأصالة الإسلامية، من خلال هدم بيوت النبيّ ﷺ وحُجرات وبيوت زوجاته أُمّهات المؤمنين وقبور صحابته وأهل بيته المطهَّرين وبيوتهم ومحالّهم في مكة المكرّمة والمدينة المنورة وما حولها!! مع أنّ هذه الآثار التاريخية هي في الحقيقة معالم الأصالة الإسلامية، و هي إلى جانب ما تركه رسول الإسلام العظيم من تراث فكريّ وثقافيّ تدلّ على واقعيّة الرسالة المحمديّة المباركة، وتجذرّها في التاريخ.

ومن هنا تسعى الأُمم المتحضرة المُعتزَّة والمهتمّة بماضيها وتاريخها بما فيه من شخصيات ومواقف وأفكار إلى الإبقاء على كلّ أثر تاريخي يبقىٰ من ذلك الماضي لتدلِّل على واقعيّة ماضيها وتُبقي على أمجادها وأشخاصها في القلوب والأذهان.

ولا شكّ أنّ لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية وخاصّة في مهد الإسلام:

مكة، ومهجر النبيّ الأكرم: المدينة المنورة، نتائج وآثاراً سيّئة على الأجيال اللاحقة التي سوف لا تجد أثـراً بعد عين، وربما تنتهي ـ في المآل ـ إلى الاعتقـاد بأنّ الإسلام قضية مفتعلة ، وفكرة مبتدعة ليس لها أيُّ واقعيّة تاريخيّة، تماماً كما أصبحت قضية السيد المسيح في نظـر الغرب الذي بات جُـلّ أهله يعتقدون بأنّ المسيـح ليس إلاّ قضية أُسطورية حاكتها أيدي القساوسة، لعدم وجود أية آثار مادية ملموسة تدلّ على أصالة هذه القضية، ووجودها التاريخي.

هـذا مضافـاً إلى أنّ الـوهابيـة جلَبـت بفعلهـا هذا، وبـأفكـارها إلى الأُمّـة الإسـلامية، التفـرقة والتمـزيـق و الاختلاف في وقـت أحـوج ما تكـون فيه الأُمّـة الإسلامية إلى التضامن والاتحاد لمواجهـة التحدّيات الكبرىٰ والهجمة الاستعمارية الحاقدة.

ولذلك لابدّ من تقييم الأفكار والأفعال التـي ورثتها هذه الفرقة من محمد ابن عبد الـوهاب، وسلفه ابن تيميـة الحراني الدمشقي، على ضوء القـرآن الكريم والسنّة المطهَّرة ليتضح الحقّ، وتزول أسباب التفرقة و الخلاف.

ونحن بالمناسبة نقترح أُموراً ثلاثة:

أوّلاً: أن تُكوّنـوا لجنة من العلماء وذوي الاختصـاص للمحافظـة على الآثار الإسلامية وبخاصة الآثار النبوية الشريفة وآثار أهل بيته الطاهرين، والعناية بها، وصيانتها مـن الاندثار لما لذلك مـن تكريم لأمجاد الإسلام، وحفظ لـذكرياتها في القلوب والعقول، و إثبات لأصالة هذا الدين.

ثانياً: حثّ علماء الوهابية وكتّابها على مطـالعة ما ألّفه علماء الإسلام و التي تثبت في ضوء الكتاب والسنّة وسيرة السلف جواز مـا ذهبت الوهابية إلى تحريمه، ورمي فاعله بوصمة الشرك والكفـر، وقراءتها قراءة تفهّم و إنصاف، و إبداء رأيهم

في ما جاء فيها.

ثالثاً: أن تأمروا بإقامة مؤتمرٍ عالميّ يحضره علماء الإسلام وعلماء الوهابية ليتحاوروا في هذه المسائل المختلف فيها التي طالما سُفِكت من أجلها الدماء، وزهقت الأرواح، وانتهكت الأعراض وفُرّقت الصفوف، وبعد الوصول إلى النتائج المبرهنة يعلنوا تلكم النتائج على الملأ الإسلامي، خدمة للتضامن والأُخوة الإسلامية.

ونحن انطلاقاً من الحرص على الوحدة الإسلامية على أتم الاستعداد للحضور في ذلك المؤتمر و الاشتراك في هذا النقاش العلمي البنّاء.

ولا شكّ أنّ هذا هو أفضل خطوة لتحقيق التضامن الإسلامي المنشود. ونحن بانتظار ردكم والله الموفق وهو نعم المولى و نعم النصير.

جعفر السبحاني

قم ـ ايران

١/ ٣/ ١٤٠٧هـ

٨



حضرة الأخ الماجد

فضيلة السيد طاهر هاشمي

دام مجده

بعد السلام والتحيّة أرجو أن تكونوا بخير وفلاح.

لقد وافتني رسالتكم التي قمتم فيها بنقل ما ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب حول أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية، وفيه من الإطراء والثناء عليه .

و لكن نود أن نلفت نظركم السامي إلى أنّ الوقوف على شخصيته وحقيقته لا يمكن إلاّ بأحد أمرين:

الأوّل: الرجوع إلى الآثار العلمية التي تركها.

الثاني: الرجوع إلى ما ذكره الآخرون من معاصريه في حقّه، ولا يصحّ الاكتفاء بإطراء واحدٍ، وثنائه عليه.

أمّا الأوّل فيكفي فيه الرجوع إلى كتابه «منهاج السنة» و هو كتاب فيه تحكّمات فظيعة و إنكار للمسلّمات وأكاذيب واضحة، ويكفي في ذلك الرجوع إلى المواضع التالية:

١. قوله: من حماقات الشيعة انّهم يكرهون التكلّم بلفظ العشرة وذلك

لبغضهم العشرة المبشرة إلاّ علي بن أبي طالب، ومن العجب انّهم يوالون لفظ التسعة وهم يبغضون التسعة من العشرة(راجع ج١، ص ٩).

فهل هو كذلك؟ أيّها السيد الجليل وأنت تعيش في أحضان الشيعة وبين ظهرانيهم؟

٢. قوله: تجد الرافضة يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه (راجع ج١، ص ١٣١).

فهل هو كذلك أيّها السيّد الجليل؟

٣. قوله: قد وضع بعض الكذّابين حديثاً مفترىً، انّ هذه الآية ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ**﴾ إلى آخرها، نزلت في علي عليه السلام لما تصدّق بخاتمه في الصَّلاة و هذا كذب بإجماع أهل العلم .(لاحظ ج١، ص ١٥٦).

فهل هو كذلك يا صاحب الفضيلة، وقد رواها ستة وستون من أعلام السنّة آخرهم على ما نعلم الشيخ عبد القادر بن محمد السعيد الكردستاني (المتوفّى عام ١٣٠٤هـ) في «تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام للتفتازاني»، ج٢، ص ٣٢٩ طبعة مصر، وتكلم فيه كبقية المتكلّمين ، مخبتاً إلى اتّفاق المفسرين، على أنّها نزلت في حقّ أمير المؤمنين علي عليه السلام .

هذه بعض أكاذيبه أيّها السيد الجليل.

وأمّا عقائده الباطلة فيكفي للوقوف عليها مراجعة رسائله الكبرى المطبوعة بمصر، و إلى غيرها.

وأمّا الطريق الثاني فيكفي في ذلك كلمة الحافظ ابن حجر حوله، في كتابه «الفتاوى الحديثية» حيث قال في صفحة ٨٦: ابن تيمية عبد خذله الله وأضلّه،وأعماه وأصمّه وأذلّه، و بذلك صرح الأئمة الذين بيّنوا فساد أحواله، وكذب أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتّفق على

إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد أبي الحسن السبكي وولده التاج والشيخ الإمام الغر ابن جماعة، وغيرهم من الشافعية والمالكية والحنفية، ولم يقصر اعتراضه على متأخري الصوفية بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.(إلى أن قال:) انّه قائل بالجهة وله في إثباتها جزءٌ، ويلزم أهل هذا المذهب، الجسميةُ والمحاذاة والاستقرار... إلى آخر ما أفاده.

وليس ابن حجر بالوحيد في اعتراضه هذا على ابن تيمية، بل نقل مؤلف «دفع الشبَه»(ص ٤٥ـ ٤٧) والشيخ محمد زاهد الكوثري في «تكملة السيف الصقيل» (ص ١٩٠) ما أصدره الشاميون من الفتوى حول ابن تيمية التي تتضمن تكفيره، ويكفي في ذلك ما كتبه معاصره: الذهبي في خطابه إيّاه، وقد نقل الخطاب الكوثري في تكملته ففيها من التعبيرات ما يوقف الباحث على ما انطوى عليه ذلك الشيخ من الجهل والضلال، وفيه بعد ملامته: أما آن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ فإذاكان هذا حالك عندي وانا الشفوق المحب الوادّ فكيف حالك عند أعدائك؟ وأعداؤك ـ والله ـ فيهم صلحاء وعقلاء و فضلاء ، كما أنّ أولياءك فيهم فَجَرَة، وكَذَبة وجَهَلَة ، وبَطَلَة، وعُورٌ، وبُقْر؟!

هذا بعض ما حضرني عاجلاً حول هذا الشيخ ، شيخ البدَع والضلال، وكنت أودّ لو سَمَح لي الوقت بأن أُؤلِّف رسالة كاملة تتضمن بدعه، ومخاريقه، وقد أودعنا كلمات المحقّقين في حقّه في موسوعتنا «بحوث في الملل و النحل» الجزء الرابع، فلاحظ.

وفي الختام أرجو أن لا تنساني من الدعاء

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء عليها السلام

اللؤلؤة البيضاء في حضن المصطفىٰ

لقد كثر التـأليف حول بنت المصطفـى، الوردة المُتفتحة في روضة الـوحي، فاطمة الزهراء عليها السلام وكلٌّ قـد أخذ بجـانب مـن شخصيتها وتنـاول بُعداً مـن أبعاد حيـاتها، فمن مشير إلى عبـادتها وتهجّدهـا و إخباتها أمـام ربّها، إلى متحدث عـن زهدها و عزوفها عن زبارج الدنيا رغم كونها امرأة شابّة في مقتبل العمر، إلى ثالث جامع لخطبها المدوّيـة وكلماتها الغرّاء المعبرة عن فصاحتها وبلاغتهـا، و إحاطتها بمعارف الدين... إلى رابع وخامس....

غير انّ هذه الدرّة المكنـونة لا يعرف جوهـرتها القدسية، إلاّ خالقهـا الذي أنزل في شأنها قوله: ﴿**إنّما يُريـدُ اللهُ ليُذهِبَ عَنكُمُ الـرِّجس أَهْل البَيْت وَيُطهِّـركم تَطهيراً**﴾[1].

كما أنـزل في شـأن بيتها قـولـه: ﴿**في بُيُـوتٍ أَذِنَ الله أَن تُـرْفَعَ وَيُـذْكَـرَ فيهَـا اسْمُهُ...**﴾[2].

---

١. الأحزاب: ٣٣.
٢. النور: ٣٦.

و إلاّ والدها العظيم الذي تربّت في حضنه ، وترعرعت في حجره، فهوخير معرّف لها، وهو الذي لا يقصر ولا يغالي في قول أو فعل.

ونحن لا يسعنا في هذا التقديم العاجل أن ندرج ما قاله النبي الكريم ﷺ في حقّها، إنّما نحيل ذلك إلى هذا الكتاب الذي يزفّه الطبع إلى القرّاء الكرام، الذي تكفل بجمع بعض ما صدر عن النبي الكريم ﷺحولها.

فالكتاب الحاضر يضمّ ما تناثر من مناقبها وفضائلها في كتاب «الجامع الصغير» تأليف المحدث الخبير والمتتبع الجليل الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ـ رضي الله عنه ـ المتوفّى عام ٩١١هـ.

وقد وفق الله المؤلف الفاضل الشيخ حبيب الله الصادقي أن يجمع هذه الأحاديث التي تناثرت في أبواب ذلك الكتاب، وينظمها على الأبجدية،ليسهل الاطّلاع عليها، والاستفادة منها، وبذلك أقرّ عيون محبي أهل البيت وشيعتهم وبخاصة السيدة فاطمة سلام الله عليها، سيدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين تلك السيدة التي رسمت الفخر على جبين الدهر وسطّرت آيات الشرف على صفحة الخلود.

ونحن إذ نتقدم بالتقدير والشكر للمؤلّف الكريم نرجو أن يكون عمله هذا خطوة أُولىٰ تتبعها خطوات أُخرى في سبيل نشر فضائل آل الرسول تقوية لقلوب شيعتهم، و إرشاداً لغيرهم من المسلمين،والله وليّ التوفيق.

جعفر السبحاني

غرة جمادى الآخرة١٤١٤هـ

١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب السعادة:

سفير المملكة العربية السعودية المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بعد تقديم فائق الاحترام: يؤسفنا جدّاً أن نبلغكم توزيع رسائل و كتيبات ضدّ الشيعة الإمامية في موسم الحجّ عامنا هذا، وقد وصلت إلينا عدّة نسخ منها و نخص بالذكر رسالة: «الخطوط العريضة للأُسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية، لكاتبها محب الدين الخطيب». و قد حاول مؤلّفها فيها الحط من سمعة الشيعة، بافتعالات وأكاذيب بيّنة، كأنّه يحدث عن أُمة بائدة ليس لها من يدافع عن كيانها أو يكتب عن جماعة تعيش في أقاصى العالم، لا تصل إليهم اليد، وقد أوجد ذلك العمل استياء و قلقاً شديداً في الأوساط الدينية وغيرها لأنّه:

أوّلاً: هذه الرسائل مليئة بافتراءات وأكاذيب ألصقها المؤلّف بالشيعة الإمامية بلا تنقيب ولا اكتراث وهم بريئون من هذه التهم و الموضوعات، شهدت بذلك كتبهم حول عقائدهم، و نستطيع الآن أن نقدّم إليكم الدلائل على بطلان

تلكم النسب المفتعلة والموضوعات الشائنة.

ثانياً: انّ المسلمين اليوم في أشدّ حاجة إلى الاتحاد والترابط والتآخي من أيّ وقت مضى، لأنهّم اليوم يواجهون الصهاينة المعتدية والاستعمار الغاشم. فلا شكّ انّ نشر هذه الرسائل المكذوبة، يجلب النفاق والافتراق، ويضر بمصالح الإسلام والمسلمين، ولا يبعد انّ يد الاستعمار الغاشم، تلعب خلف الستار في نشر هذه الأوراق.

ثالثاً: انّ المملكة العربية السعودية مازالت مهتمة بالدعوة إلى الاتحاد والترابط الإسلامي والتآخي بين الأُمّة المسلمة، ونشر مثل هذه الكتب ينافي تلك الخطة التي درجت عليها مملكتكم الشقيقة، فإنّها ــ بلا شكّ ـ تضرّبالاتحاد والوحدة الإسلامية، و تميت روح التآخي، و تفرق صفوف المسلمين و تشق عصاهم.

رابعاً: انّ الحكمة في تشريع الحجّ هو إيجاد التجاوب والتقارب وإزالة أسباب التفرق وسوء التفاهم بين الأُمّة الإسلامية و محو التخطيطات العدوانية المضرة بوحدة المسلمين وتوحيد كلمتهم.

فهذا العمل في حرم الله الذي سواء العاكف فيه و الباد والذي من دخله كان آمناً يضادّ هذه الحكمة.

أو ما كان في وسع ناشري هذه الأوراق لا سيما في هذه الأيام التي اشتدت فيها الروابط بين شعوب العالم، أن يتصلوا بأحد المراكز والجامعات الدينية الشيعية ويطّلعوا على أوضاعهم عن كثب، ليعرفوا انّه لا قرآن للشيعي غير هذا القرآن، و انّ الشيعة الإمامية براء من تلكم التهم والافتراءات التي رموهم بها، بدل تسويد صحائف ونشرها بين الناس. و مع ذلك فنحن على استعداد لذلك

في كلّ موطن و زمان. و نرحب بكلّ من أراد الاستطلاع على حقيقة الأمر.

وختاماً نرجو من سماحتكم إبلاغ المراجع المسؤولة في المملكة العربية السعودية نصّ هذا الكتاب، فلعلّ في ذلك تلافياً لما أحدثه ذلك العمل من أثر سيء في الأوساط الإسلامية.

وانّ السيرة المحمودة من الدولة العربية السعودية في تكريم حجاج حرم الله سبحانه عامة والإيرانيين خاصة ترخص لنا أن نطلب من الدولة الشقيقة الإسلامية إصدار أوامر مؤكدة لسدّ مثل هذا العمل في مستقبل الأيام.

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام

مجلة مكتب إسلام

حرر في تاريخ ٢٦ من ذي الحجة الحرام ١٣٨٩هـ

اقتراح عقد مؤتمرين

حول التوحيد والشرك

و

الإيمان والكفر

يعاني المسلمون عامة والشيعة الإمامية خاصة من أمرين:

الأوّل: تدمير الآثار الإسلامية بعناوين مختلفة، فتارة باسم الشرك والبدعة، وأُخرى باسم توسعة الحرمين الشريفين، مع أنّ الآثار الإسلامية تحتضن هوية إسلامية لأُمّة عريقة في الحضارة، فتدميرها وهدمها طمس لهويتها وأصالتها.

الثاني: تكفير بعض السلفيين لبعض الطوائف الإسلامية وفي طليعتهم الشيعة الإمامية الذين لا ذنب لهم سوى حبّ أهل بيت النبي ﷺ ـ الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً وعدّهم النبي ﷺ عِدْلَ القرآن وقرينه، وقال: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» ـ واعتناق مذهبهم والاقتداء بهم وأخذ الأُصول والفروع عنهم.

وحرصاً على تقريب الخطى والحط من المضاعفات السيئة التي يمكن أن يتركها كلا الأمرين فقد بذلنا الوسع في الإفصاح عن التوحيد والإيمان و ما

يقابلهما عبْر كتـابين أحدهما يحمـل عنوان «التوحيـد والشرك في القرآن الكـريم » والآخر تحت عنوان «الإيمان والكفر في القرآن والسنّة».

هـذا وإكمالاً للمهمة التـي شرعنـا بها فقـد قمنا بـزيـارة الحرمين الشريفين والالتقاء بعدد مـن الشخصيات منهم الدكتور محمد عبـده يماني ودار بيني وبينه حوار حـول هذا الموضوع واتفقنـا على أن أكتب شيئاً في هـذا الموضوع إلى المعنيين بالأمر في المملكة العربية السعوديّة لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

وحيـث إنّ هذه الـرسـائل تعـد وثائق تـاريخيـة مهمـة توخّينـا نشرهـا على صفحات الكتاب لتبقى أثـراً خالداً، ولتكون دليلاً ساطعـاً على انفتاح الشيعة في كلّ عصر على كلّ حوار علمي هادئ.

١١

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأخ الدكتور

محمد عبده يماني (دامت معاليه)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد، فأرجو من الله سبحانه أن يوفّقكم لمرضاته، وأن يسدّد خطاكم في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة.

بالإشارة إلى ما دار بيننا و بينكم في اللقاء الأخير عند تشرفي للعمرة في شهر جمادى الأُولى من أنّ الوضع السائد على البقيع يؤلم قلوب المسلمين لا سيما الشيعة المحبين لأهل بيت النبوة عليهم السلام الذين يقصدون هذه البقاع المباركة من أقصى نقاط العالم ويشهدون مثوى العديد من الصحابة والتابعين وأئمّة أهل البيت بوضع مؤسف للغاية في حين انّ نظيرتها «المعلى» في مكة المكرمة تتميز بوضع مناسب.

فالرجاء الوافر أن تحظىٰ مقبرةالبقيع بنفس العناية والاهتمام التي تحظى بها نظيرتها المعلى.

فنحن نقترح على الحكومة الراشدة في العربية السعودية أن تبذل مزيداً

من الاهتمام بالبقيع من خلال رصفه بالأحجار ونصب لوحات للوقوف على أسماء أصحاب القبور، وبناء مظلة لزوار هذه البقعة المباركة .

كلّ ذلك خدمة لصحابة النبي ﷺ والتابعين وأئمّة أهل البيت ، وحفظاً للهوية الإسلامية من الاندثار والاندراس علماً بأنّ النبيّ ﷺ أقام حجراً كبيراً على قبر عثمان بن مظعون للتعرّف عليه .

هذا هو اقتراحنا واقتراح عامة المسلمين ، على أمل أن يصل اقتراحنا هذا إلى أيدي المسؤولين في البلدة المباركة كي يلاقوا الله سبحانه و تعالى بوجوه مشرقة ويرضى عنهم النبي ﷺ والمسلمون كافة .

مع تقديم فائق الاحترام

جعفر السبحاني

٧ جمادى الآخرة/ ١٤٢١ هـ

١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأخ الدكتور

محمد عبده يماني (دامت معاليه)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد، فقد أعجبني كتابك حول فاطمة الزهراء الصديقة الطاهرة عليها السلام سيّدة نساء العالمين التي يجب أن يحتذى بها.

وقد وقفت على أنّكم بصدد البحث والكتابة حول أُمّها خديجة الكبرى عليها السلام التي هي أوّل من آمنت بالرسول صلى الله عليه وآله من النساء.

وأود أن أزيدكم اطلاعاً انّه ثمة بحوث هامة حول السيدة خديجة عليها السلام استللناها من كتاب سيّد المرسلين نرسلها إليكم عسى أن تنتفعوا بها.

وبما انّا لمسنا من ثنايا كتبكم انّكم تهتمون بوحدة الكلمة ولمّ شمل المسلمين، فأخبركم بأنّا قد بعثنا إلى صاحب السمو الملكي معالي وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل رسالة [1] في هذا الموضوع عن طريق السفارة في الرياض عند ما كان السيد النوري سفيراً للجمهورية الإسلامية هناك، وقد قام

---

١. سيوافيك نصّها ص ٤١٦.

السفير مشكوراً بتسليمها إلى الأمير، وعلى الرغم من ذلك لم يصل جوابها لحدّ الآن.

ونحن نبعث إليكم نسخة ثانية من هذه الرسالة عسى أن تثمر عن نتائج إيجابية وتتحقق الأمنية الكبرى ألا و هي عقد مؤتمر يتبنىٰ مسودة عمل تتضمن الموضوعات التالية:

١. الإيمان والكفر في الكتاب والسنّة.

٢. التوحيد والشرك في القرآن الكريم.

مع جزيل الشكر

جعفر السبحاني

١ جمادى الآخرة/ ١٤٢١هـ

١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأُستاذ

الدكتور محمد عبده يماني

(دامت معاليه)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد؛ لقد وصلتني رسالتكم الكريمة مرفقة بكتاب «فاطمة الزهراء عليها السلام» ريحانة الرسول صلى الله عليه وآله ووجدته دليلاً ساطعاً على ولائك الصادق، والكتاب جدير بالترجمة إلى سائر اللغات.

بيد انّ هناك وقفات جديرة بالتأمّل.

هي ما نقلتم حول إيمان أبي طالب و ربما يلوح من الكتاب انّه مات كافراً ولم يؤمن، وان ذكرتم انّه قال: أموت علىٰ دين عبدالمطلب، وفي هذا بلاغ لمن ألقى السمع وهو شهيد؛ وقد ذكرتم ـ أنار الله برهانكم ـ في ص ١٣٨ إيمان عبد المطلب بالله وأنّه كان يعبد الله على دين إبراهيم عليه السلام، فلو مات على دينه، فقد مات موحداً غير مشرك بالله.

الوقوف على سيرة الرجل رهن الرجوع إلى ما ترك من تراث، ففيما تركه شيخ

الأباطح ناصر الإسلام وحامي نبيّه ﷺ خير شاهد على إيمانـه، كيف و قد صرح بصحّة الـرسالـة المحمديـة وصدق الـدعوة النبـوية الخاتمة في قصـائده وأشعاره، وترجم إيمانه من خلال دعمه الصريح ـ هو وأبناؤه الغر ـ لرسول الله ﷺ، حيث يقول:

كَـذَبتُـم وبيـتِ الله نُبْـزي محمّـداً ‌‌ ولما نُطـاعِـن دونَـهُ ونناضـل

ونُسلِمُـهُ حتّـى نُصرَّعَ حـولَـهُ ‌‌ وَنَـذهَـل عـن أبنـائنـا والحلائِل

لَعَمـري لقـد كُلِّفتُ وجـداً بـأحمد ‌‌ وإخـوتـه دأبَ المحـبِّ المواصـل

فـلا زال في الـدنيـا جمالاً لأهلهـا ‌‌ وزَينـاً لمن والاه ربُّ المشـاكـل

فمـن مثلُـه في النـاس أيُّ مـؤمَّـل ‌‌ إذا قـاسَـهُ الحُكّام عنـد التفاضـل

حليـمٌ رشيـدٌ عـادلٌ غير طـائش ‌‌ يُـوالي إلاهـاً ليـس عنـه بغـافِـلِ

لقـد علِمُـوا أنّ ابننـا لا مكـذَّبٌ ‌‌ لـدينـا ولا يُعنـى بقـولِ الأبـاطـل

فـأصبَـحَ فينـا أحمدُ في أُرومـة ‌‌ تقصّر عنـه سَـورةُ المتطـاول

حَـدِبْـتُ بنفسي دونَـه وحميتـه ‌‌ ودافعـتُ عنه بـالـذُّرا والكـلاكـل

فـأيّـدهُ ربُّ العبـاد بنصره ‌‌ وأظهـرَ دينـاً حقُّـه غير بـاطـل

نقـل ابن هشـام في سيرته(١/ ٢٧٢ـ٢٨٠) أربعـة وتسعين بيتـاً من هـذه القصيدة، فيما أورد ابـن كثير الشامـي في تاريخه «اثنين وتسعين بيتـاً»، و أورد أبو هفان العبدي الجامع لديوان «أبي طالب» مائة وواحداً وعشرين بيتاً منها في ذلك الديـوان، ولعلّها تمام القصيدة وهـي في غاية العذوبـة والروعة، وفي منتهـى القوة والجمال، وتفوقُ في هـذه الجهات كـلَّ المعلّقات السبع التـي كان عـرب الجاهلية

يفتخرون بها ويعدّونها من أرقى ما قيل في مجال الشعر.

وله وراء هذه اللامية، قصيدة أُخرى ميميّة، فهو ـ سلام الله عليه ـ يصرح فيها بنبوّة ابن أخيه وأنّه نبي كموسى وعيسى عليهما السلام، إذ يقول:

لِيعلم خيارُ الناس أنّ محمّداً ... نبيٌّ كموسى والمسيح بن مريم

أتانا بهديٍ مثل ما أتيا به ... فكلٌّ بأمرِ اللهِ يهدي ويعصم[1]

ونظيرها قصيدته البائيّة وفيها:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمداً ... نبيّاً كموسى خط في أوّل الكتب[2]

أفيصحّ لأحد بعد كلّ هذه البلاغات والتصريحات أن يكفّر سيد الأباطح أو يشكّ في إيمانه؟!

و للمزيد نذكر ما يلي:

إنّكم بحمد الله ممّن يحيطون علماً انّ من رمى أبا طالب ـ شيخ الأباطح ـ مؤمن قريش بالشرك، فإنّما تبع الروايات التي حاكها أبناء البيت الأموي بغية التحامل على أبي تراب سلام الله عليه من خلال تكفير والده.

فهل يكون أبو طالب مشركاً مع كلّ تلكم المواقف المشرفة ومع كلّ تلك الإشارات الصريحة الكاشفة عن عمق إيمانه بالرسالة المحمديّة، وأبو سفيان الذي أشعل نائرة الفتن وحاك مؤامرات عديدة هو و أبناؤه الذين كانوا أساس المشكلة ومبدأ الانحراف عن المسار الإسلامي، مسلمين موحدين يستحقون كلّ

١. مستدرك الحاكم: ٢/ ٦٢٣.

٢. سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٢.

تقدير وتبجيل؟!!!

هذا قليل من كثير.

وفي الختام تقبلوا منّا أطيب التحيات وأجمل الأُمنيات راجين لكم من الله أن يسدد خطاكم في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢٢ رجب المرجّب من شهور عام ١٤٢٠هـ

١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب السمو الملكي معالي
وزير الخارجية الأمير «سعود الفيصل»

(حفظه الله ورعاه)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد، أرجو من الله سبحانه أن تكونوا بخير وصلاح وأن يسدد خطاكم في سبيل خدمة الإسلام ويلمّ بكم شعث المسلمين ويوحد كلمتهم ويجعلهم صفاً واحداً أمام أعدائهم.

غير خفي على سموكم انّ المسلمين في الأقطار الإسلامية يعانون من التشتّت والتفرّق، وما هذا إلاّ لعدم الإلمام بالمشتركات التي تجمعهم في الأُصول والفروع ممّا حدا إلى تكفير بعضهم البعض واتهام طائفة أُخرى بالشّرك، كلّ ذلك نتيجة عدم وقوفهم على حدّ الإيمان والكفر أو حدّ التوحيد والشرك بدقة.

وانطلاقاً من الحرص على وحدة المسلمين، أتقدّم إليكم بأُطروحة كانت تخامرني منذ سنوات عديدة والأمل يحدوني في أنّها سوف تجد أُذناً صاغية لها .

وهي إقامة مؤتمر يضم كافة أكابر علماء الإسلام من مختلف الفرق والنحل بغية البحث والتشاور حول موضوعين :

الأوّل : الإيمان والكفر في الكتاب والسنّة .

الثاني : التوحيد والشرك في القرآن الكريم .

ويكون هدف المؤتمر صياغة أُطر محددة للإيمان والكفر والشرك والتوحيد .

فالمسلمون بحمد الله على نحو ما يصفهم شاعر الأهرام بقوله :

انّا لتجمعنا العقيدة أُمة	ويؤلف الإسلام بين قلوبنا
ويضمّنا دين الهدى أتباعاً	مهما ذهبنا في الهوى أشياعاً

وفي الختام تقبلوا منّا أسمى آيات التحيّة والثناء .

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١٢ شعبان المعظم ١٤٢٠ هـ

هذا نصّ الـرسالة التي بعثناها إلــى فضيلة الشيـخ محمـود شلتوت شيـخ «الأزهـر» حينمـا داهمت طغمـة الشاه الحاكمة الجامعة الإسلاميـة في مدينة قم المقدسة عام ١٣٨٣هـ، وقد أبرق فضيلته ببرقية إلى علماء قم عبر فيها عن انزعاجه لما اقترف من انتهاكات صارخة في حقّ الجامعة الإسلامية ولا سيما مراجعها وعلمائها، كما عبر عن تضامنه معهم.

وقد بادرت شخصياً ببعث رسالة شكرته فيها على عواطفـه حيال علمـاء الإسلام، ومـع الأسف الشـديد لـم احتفظ بنص البرقية التي بعثها الشيخ شلتوت.

١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأُستاذ الأكبر

الشيخ محمود شلتوت

شيخ «الأزهر» الشريف (دام عزّه)

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

أمّا بعد، فانّي أتقدّم إليكم بأسنى التحيات لما أبديتم فيه من تضامن مع علماء قم و مراجع الحوزة حيال ما يجري في إيران خصوصاً مداهمة طغمة الشاه الحاكمة الجامعة الإسلامية.

وأنا بدوري كأحد أعضاء الجامعة الإسلامية في مدينة قم المقدسة أشكركم علىٰ نواياكم الحسنة.

وأودّ أن أُطلعكم إلى أنّ رجال الدين وعلماء الحوزة مازالوا يتعرضون لضغط شديد من قبل جهاز الشاه وقد أودع بعضهم السجن،ولم يزل الجهاز الحاكم يمارس الكبت والاضطهاد والارهاب ضد المؤسسة الدينية بكلّ ما أُتيح له من وسائل إعلامية وعسكرية كي يوفر لنفسه البقاء على سدة الحكم لفترة أطول.

وفي الختام أرجو أن توصلوا نداء استغاثتنا للعالم كي يطلع على ما يمارس من

جرائم وحشية في حقّ الشعب الإيراني المسلم الذي ينشد تطبيق الإسلام على صعيد واقعه العملي، كما أرجو أن تكون على اتصال وثيق بما يجري في إيران من حوادث مريرة .

جزاكم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء

جعفر السبحاني

قم ـ الجامعة الإسلامية

٧ جمادى الأُولى من شهور عام ١٣٨٣هـ

١٦

تقييم كتاب
«أُصول مذهب الشيعة الإمامية»
للدكتور ناصر القفاري

لقد وقفت على كتاب «أُصـول مذهب الشيعة الإمامية» للـدكتور ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، والكتـاب رسالة تقدّم بها المؤلّف لنيل درجـة الدكتوراه من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة لجامعة محمد بن سعود الإسلامية.

وقد أُجيزت هذه الـرسالة بمرتبة الشرف الأُولىٰ مع التـوصية بطبعها وتبادلها بين الجامعات.

طبع الكتاب في أجزاء ثلاثة، رجع فيها المؤلّف أو فريق عمله إلى كثير من مصـادر الشيعة لتتـم الحجّة على الشيعـة على زعمـه، لكن الكتـاب بحاجـة إلى تصحيح وتنقيب وهو رهـن تأليف مفرد، لكنّا نقتصر في هذه العجـالة على تقييم الكتاب على وجه كلّي كي يتضح انّه لم يؤلّف بقلـم نزيه، و بأُسلوب علمي وفكر موضوعي، ولأوّل وهلة تبدو للعيان النقاط التالية:

١ . بذاءة لسانه وقلمه

إنّ الكتاب مليءبالسـب اللاّذع الذي لو جمع لشكّل رسـالة كبيرة، و إليك

هذه النماذج:

١. إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت.[١]

٢. قد ركب مطية التشيع كلّ من أراد الكيد للإسلام وأهله، وكلّ من احتال ليعيش في ظل عقيدته السابقة باسم الإسلام من يهودي، ونصراني، ومجوسي، وغيرهم.[٢]

٣. انّ دين الشيعة سداه ولحمته الكذب، والكيد للإسلام بمحاربة ركنه العظيم، وأصله الذي يقوم عليه وهو القرآن.[٣]

٤. فهؤلاء يشايعون الشيطان.[٤]

إلى غير ذلك من مئات الكلمات البذيئة ومسلسل السبّ والفحش، إذ ما من صفحة إلاّ وفيها لذع ولدغ، وسبّ وطعن.

وكأنّ الرجل لم يسمع قوله سبحانه: ﴿**ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَيهِ رَقيبٌ عَتِيدٌ**﴾[٥] أو لم يسمع قوله ﷺ: «سباب المؤمن فسق وقتاله كفر».[٦]

وفي مسند أحمد لم يكن رسول الله ﷺ سبّاباً و لا لعّاناً و لا فحّاشاً.[٧]

٢. عدم مراعاة الأمانة العلمية

إنّ المؤلّف وإن اعتمد على مصادر شيعية ولكنّه لم يراع الأمانة العلمية في

---

١. أُصول مذهب الشيعة: ٢/ ٩٦٢.

٢. أُصول مذهب الشيعة: ١/ ٨٩.

٣. أُصول مذهب الشيعة: ٣/ ١٠٣٩.

٤. أُصول مذهب الشيعة: ٣/ ١٠١٠.

٥. ق: ١٨.

٦. الوسائل: الجزء ٨، الباب ١٥٨ من أبواب أحكام العشرة، الحديث ٣.

٧. مسند أحمد: ٣/ ١٢٦ و ١٤٤ و ١٥٨.

مواقف كثيرة، فـأخذ ما يدعم موقفـه من حديث أو نصّ كلام و تـرك ذيله الذي يوضح المقصـود، وها نحن نذكر مـوارد كنموذج لما لم نذكر، فـإنّ استيعاب ذلك بحاجة إلى تأليف مفرد.

التحريف في نقل الحديث

رؤية الله تبارك وتعالى في الـدنيا أو الآخرة من العقائد المستوردة عـن طريق أهل الكتاب خصوصاً اليهود منهم، والعهد العتيق يزخر بذلك.

وأمّا الشيعة الإمامية فهم أهل التنزيه، الذين ذهبوا إلى امتناع رؤيته سبحانه وتعاليه من النظر و المشاهدة وكتبهم مشحونة بإقامة البرهان على ذلك.

غير انّ أهل الحديـث وتبعهم الأشـاعرة جنحوا إلى القـول برؤيـة الله تبارك وتعـالى تبعاً لما روي في الصحـاح و السنن مـن أنّ المؤمنين يرون الله سبحـانه يـوم القيامة.

ومـؤلّف الكتـاب يحاول أن يدعـم القول بـالرؤيـة من خـلال الاعتماد على نصوص شيعية فينقل رواية في هذا الصدد من كتاب توحيد الصدوق، ويقول:

«روى ابن بابويه القمي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: أخبرني عن الله عزّوجلّ هل يراه المؤمنون يوم القيامة، قال: «نعم».

فقد اقتصر على هذا المقدار مـن اللّفظ الذي هو ظاهر فيما يـدّعيه الكاتـب ولو كـان المروي هو هـذا، لدلّ على أنّ الإمـام الصادق عليه السلام قائل برؤيـة الله يوم القيامة.

ولكن المؤلف لم يـراع الأمانة وخدع في نقل الحديث فحـذف ذيل الحديث الذي يدلّ على عكس ما يرتئيه المؤلف، وهو انّ المراد من الرؤية هي الرؤية القلبية

التي لا تختص بالدنيا ولا بالآخرة، و إليك ذيل الحديث.

قال: «نعم، وقد رأوه قبل يوم القيامة؟» فقلت: متى؟ قال: «حين قال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلىٰ﴾» ثمّ سكت ساعة، ثمّ قال: «وإنّ المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟» قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك فاحدِّث بهذا عنك؟ فقال: «لا، فإنّك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ثمّ قدّر أنّ ذلك تشبيه كافر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عمّا يصفه المشبّهون والملحدون».[١]

حيا الله الأمانة ترى كيف جزّأ الحديث وقطعه، والحديث صريح في نفي الرؤية بالعين وتبديل الرؤية بالقلب.

هذا نموذج من إنصاف الرجل وأمانته.

التحريف في نقل كلام الشيخ المفيد

إنّ الكاتب بصدد بيان التناقض بين كلام الشيخ الصدوق القائل بعدم التحريف، وكلام المفيد القائل (بزعمه) به، فنقل كلام المفيد بالنحو التالي.

يقول المفيد: إنّ الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمّة الهدىٰ من آل محمّد ﷺ باختلاف القرآن وما أحدثه بعض الطاعنين فيه من الحذف والنقصان.[٢]

هذاما نقله الكاتب عن كتاب الشيخ «أوائل المقالات وأوائل المختارات» ولكنّه حرّف كلامه وذكر صدر كلامه وترك ذيله الذي لا يمكن القضاء إلّا بنقل الجميع والإمعان فيه، و إليك نصّ كلام المفيد:

---

١. توحيد الصدوق: ١١٧، باب ما جاء في الرؤية، الحديث ٢٠.

٢. أوائل المقالات: ٥٤.

إنّ الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمّة الهدى من آل محمّد ﷺ باختلاف القرآن وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الحذف والنقصان.

فأمّا القول في التأليف فالموجود يقضي فيه بتقديم المتأخر وتأخير المتقدّم، ومن عرف الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، لم يرتب فيما ذكرناه.

وأمّا النقصان فانّ العقول لا تحيله ولا تمنع وقوعه، وقد قال جماعة من أهل الإمامة: إنّه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله، وذلك كان ثابتاً منزلاً وإن لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو القرآن المعجز.

وعندي انّ هذا القول أشبه من مقال من ادّعى نقصان كلم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل، وإليه أميل، والله أسأل توفيقه للصواب.[1]

هذا نصّ كلام الشيخ المفيد، وقد صرح فيه بأنّ النقصان وإن كان لا تحيله العقول ولكنّه غير واقع، بل الواقع انّ المحذوف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين بعنوان تفسير معاني القرآن ،ولم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو المعجز، وانّ هذا القول هو أشبه بالحقّ من مقال من ادّعى نقصان كلم من نفس القرآن.

ومع هذا التصريح كيف يرميه الكاتب بتحريف القرآن وانّ كلامه مناقض لكلام شيخه الصدوق؟!

وأمّا قوله: «فأمّا القول بالتأليف فالموجود يقضي فيه بتقديم المتأخر وتأخير المتقدّم» فهو لا يشير إلى وقوع التحريف بمعنى النقصان في القرآن الكريم بل يشير إلى أنّ القرآن جُمع لا على نحو ترتيب نزوله فقدم ما نزل مؤخراً ، وأُخر ما نزل

---

١. أوائل المقالات: ٨٠ـ٨١.

مقدماً، وهـذا ليس أمراً منكراً بل أمـر يكاد أن يكون متفقاً عليه. فكـم من سورة مدنيـة كسورة البقـرة وآل عمران جـاءت في صدر القـرآن وكم مـن سورة مكيـة جاءت في مـؤخره، بل ربما ذكـر الناسخ في سـورة البقرة قبـل المنسوخ، فالكـاتب جعل التأليف معادلاً للتحريف.

إنّ القضاء الحاسم في حـقّ زعيم كالشيخ المفيد إنّما يتم إذا رجـع إلى عامة كلماته في الموضوع الـذي يراد القضاء فيه، فـانّ للشيخ كلاماً في المسـائل السروية يدلّ على أنّ القرآن المنزل هـو الموجود ما بين الدفّتين، وهذا نصّ كـلامه في كتاب المسائل السروية:

فإن قال قائل: كيف يصحّ القـول بأنّ الذي بين الدفّتين هـو كلام الله تعالى على الحقيقة من غير زيادة فيه ولا نقصـان وأنتم تروون عن الأئمّة عليهم السلام انّهم قرأوا «**كنتم خير أئمّة أُخرجت للناس**» و«**كذلك جعلناكم أئمة وسطاً**».

وقرأوا «**يسألونك الأنفال**» وهذا بخـلاف ما في المصحـف الذي في أيـدي الناس.

قيل له: قد مضـى الجواب عن هذا، وهو انّ الأخبـار التي جاءت بـذلك، أخبار آحـاد لا يقطع على الله تعالى بصحتها، فلـذلك وقفنا فيهـا ولم نعدل عمّا في المصحف الظاهـر على ما أمرنا به حسـب ما بيّناه مع أنّه لا ينكـر أن تأتي القراءة (يأتي بالقرآن) على وجهين منزلين:

أحدهما : ما تضمّنه المصحف.

الثاني: مـا جاء به الخبر، كما يعترف مخالفـونا بـه من نزول القـرآن على أوجه شتى.[1]

---

١. المسائل السروية: ٨٣ـ ٨٤.

التحريف في نقل كلام السيد الخوئي

ذكر الكاتب انّ السيد الخوئي من القائلين بصدور بعض روايات التحريف عن المعصومين، يقول: والخوئي مرجع الشيعة في العراق وغيره اليوم، يقول: إنّ كثرة الروايات (روايات في تحريف القرآن) من طريق أهل البيت تورث القطع بصدور بعضها عن المعصومين، ولا أقلّ من الاطمئنان بذلك ففيها ما روي بطريق معتبر.[١]

ولكن الكاتب كعادته في سائر الموارد نقل من كلام السيد الخوئي ما يؤيد موقفه، ولكنّه لم ينقل ما في ذيل كلامه الذي يقسّم التحريف إلى أقسام ويخرج بحصيلة هي انّ التحريف في القرآن بالنقيصة أمر باطل، وإليك نص كلام السيد الخوئي:

إنّ هذه الروايات لا دلالة فيها على وقوع التحريف في القرآن بالمعنى المتنازع فيه، توضيح ذلك: انّ كثيراً من الروايات وإن كانت ضعيفة السند فانّ جملة منها نقلت من كتاب أحمد بن محمد السياري الذي اتّفق علماء الرجال على فساد مذهبه وانّه يقول بالتناسخ، ومن علي بن أحمد الكوفي الذي ذكر علماء الرجال انّه كذاب وانّه فاسد المذهب، إلاّ أنّ كثرة الروايات تورث القطع بصدور بعضها عن المعصومين عليهم السلام ولا أقلّ من الاطمئنان بذلك وفيها ما روي بطريق معتبر، وعلينا أن نبحث عن مداليل هذه الروايات وإيضاح انّها ليست متحدة في المفاد وانّها على طوائف:

الأُولى: المراد من التحريف هو اختلاف القراءة وإعمال اجتهاداتهم في

---

١. أُصول مذهب الشيعة: ١/ ٢٧٤، نقلاً عن البيان للسيد الخوئي: ٢٢٦.

القراءات، ومرجع ذلك إلى الاختلاف في كيفية القراءة مع التحفظ على جوهر القرآن وأصله والتحريف بهذا المعنى ممّا لا ريب في وقوعه بناء على ما هو الحقّ من عدم تواتر القراءات السبع.

الثانية: ما يدلّ على أنّ المراد من التحريف حمل الآيات على غير معانيها الذي يلازم إنكار فضل أهل البيت ونصب العداوة لهم وقتالهم،ويشهد على ذلك قول الإمام الباقر عليه السلام : «وكان من عندهم انّهم أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده».

الثالثة: ما يدلّ على أنّ بعض التنزيل كان من قبيل التفسير للقرآن وليس من القرآن نفسه.

الرابعة: ما يدلّ على وقوع التحريف في القرآن بالزيادة والنقصان وهذه الطائفة بعد الإغضاء عمّا في سندها من الضعف، انّها مخالفة للكتاب والسنّة ولإجماع المسلمين على عدم الزيادة في القرآن.

الخامسة: ما دلّ على التحريف بمعنى خصوص النقيصة لكن أكثر هذه الروايات بل كثيرها ضعيفة السند وبعضها لا يحتمل صدقها، وقد صرّح جماعة من الأعلام بلزوم تأويل هذه الأحاديث أو لزوم طرحها.[١]

وبذلك يعلم أنّ السيد الخوئي و إن ادّعى القطع بصدور بعضها لكن لا في خصوص الطائفة الأخيرة بل في مجموع الطوائف الخمس وهو غير مضر ولا ملازم للقول بالتحريف مثلاً إنّ ادّعاء القطع بالتحريف عن طريق إيجاد قراءات لم يقرأها النبي لا يضر بصيانة القرآن من التحريف، لأنّ الواصل إلينا بالتواتر نفس قراءة النبي وغيرها قراءات تترك إلى أصحابها.

هذه نماذج من تحريفات الكاتب وقس عليه سائر تحريفاته في الكتاب

١. البيان: ٢٢٦ـ ٢٣٣.

الذي يتجاوز رقم صفحاته ١٣٨٠.

اضحوكة

وممّا يُضحك الثكلى قوله: «إنّ الخميني أدخل اسمه في أذان الصلاة وقدّمه على الشهادتين».[١]

نحن لا نعلق عليه شيئاً فانّ العيان لا يحتاج إلى البيان، هـذا أذان الشيعة يذاع من آلاف المآذن في المحافظات والمدن والإذاعات ليس من هذه الفرية فيها أثر.والسيد الخميني كان إنساناً مثالياً أفنى عمره في الذبّ عن الإسلام وحفظ حياضه، وهو أجلّ وأرفع من أن يأمر بالإتيان باسمه في الأذان وكأنّ الرجل يتكلّم عن أُمّة بائدة أكل عليها الدهر وشرب. وإلى الله المشتكىٰ.

حدس خاطئ

إنّ الكاتب يستند في بعض ما يقضي ويبرم على حدس خاطئ ــ يجرّه إليه بغضه لشيعة آل البيت ـ حيث يعتقد انّ حجم الروايات الدالة على التحريف تزايد في عصر الصفوية ولم يكن قبل دولتهم بهذا الحجم ويقول: إنّ الوضع لهذه الأُسطورة (التحريف) لم يتسع ويصل إلى هـذا المستوىٰ الموجود اليوم إلاّ في ظل الحكم الصفوي.[٢]

أقول: إنّ الحجم المتوفر من الروايات في عصر الصفوية هو نفسه الموجود في

١. أُصول مذهب الشيعة:٣/ ١١٥٤ نقله عن موسى الموسوي، و القفاري يعرف موسى الموسوي و منزلته بين الشيعة و مبلغ علمه و أمانته، و مع ذلك نقل عنه تلك الفرية الواضحة و لا غرو، «فكلّ إناء بالذي فيه ينضح» و «لا تكشفنَّ مغطياً فلربما..».

٢. أُصول مذهب الشيعة: ١/ ٢٧١.

عصور سابقة عليه، ولم يكن لقيام الدولة الصفوية أي تأثير في تضخيمها، فانّ العلاّمة المجلسي قد أودع عدداً هائلاً من كتب الشيعة في موسوعة «بحار الأنوار» وقد اعتمد فيها على مصادر متعدّدة، وهذه المصادر متوفرة اليوم. هذا إلى جانب انّ ظهور الدولة الصفوية على المسرح السياسي لم يكن له أي دور في إحياء فكرة التحريف، بل نرى أنّ كثيراً من علماء و مفكّري ذلك العصر ذهبوا إلى عدم التحريف، وقد قام ولدنا الدكتور فتح الله المحمدي في كتابه «سلامة القرآن من التحريف» بسرد أسمائهم، و إليك نصّ كلامه مع تثمين الجهود التي بذلها على هذا الصعيد:

١. قاضي القضاة علي بن عبد العالي المعروف بالمحقّق الكركي (المتوفّى ٩٤٠هـ) في رسالة نفي النقيصة .

٢. محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي المعروف بملا صدرا (المتوفّى ٩٥٠هـ) في شرح أُصول الكافي وتفسير القرآن الكريم.

٣. ملا فتح الله الكاشاني في تفسيره «منهج الصادقين».

٤. المحقّق أحمد الأردبيلي (المتوفّى ٩٩٣هـ) في «مجمع الفائدة والبرهان».

٥. أبو الفيض الناكوري (المتوفّى ١٠٠٤هـ) في «سواطع الإلهام».

٦. السيد نور الله التستري (المتوفّى ١٠١٩هـ) في «مصائب النواصب».

٧. محمد بن الحسين الشهير ببهاء الدين العاملي (المتوفّى ١٠٣٠هـ).

٨. الفاضل التوني (المتوفّى ١٠٧١هـ) في« الوافية في الأُصول».

٩. اللاهيجي (المتوفّى ١٠٩٧هـ) في تفسيره «تفسير شريف لاهيجي».

١٠. الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي (المتوفّى ١١٠٤هـ) في رسالة «تواتر القرآن».

١١ . نور الدين محمد بن مرتضى الكاشاني (المتوفّى ١١١٥هـ) في «تفسير المعين».[١]

هذا معشار ما يمكن أن يقال في هذا الكتاب من التحريف والحدس الخاطئ، ولأجل ذلك قمنا ببعث رسالة إلى المؤلف مرفقة بكتاب «العقيدة الإسلامية من منظار أئمّة أهل البيت». أكدنا فيها بأنّ عقيدة الشيعة هي ما جاء في هذا الكتاب لا ما نسبه إليهم ثمّ عرضنا عليه المناظرة في الأُصول التي حررناها.

وقد أرسلنا الرسالة مع الكتاب إلى الملحق الثقافي في سفارة الجمهورية الإسلامية في الرياض الذي قام مشكوراً بالاتصال بالدكتور ناصر القفاري هاتفياً مرات عديدة، وفي كلّ مرّة يعتذر عن الحضور لبعد المكان إلى أن اضطر أخيراً لاستلام الكتاب والرسالة عن طريق شخص ثالث باسم الدكتور محمد إبراهيم زوج أُخته حسب ما عرّف به نفسه.

وقد مضت قرابة سنتين على بعث الرسالة وهو إلى الآن لم يرد علينا بجواب، و إليك نصّ الرسالة التي بعثناها إليه:



الدكتور ناصر القفاري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد؛ فقد وصلني كتاب «أُصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية» فقرأته حسب ما سمح لي الوقت، وها أنا ذا أذكر

---

١ . سلامة القرآن من التحريف: تأليف الدكتور فتح الله المحمدي:١/ ٢٩٤ـ ٢٩٥.

انطباعاتي حول هذا الكتاب.

إنّ المؤلّف لم يستخدم الأُسلوب الصحيح في نقد عقائد هذه الطائفة وذلك من جهات:

الأُولى: زعم انّ الرواية في كتب المحدّثين دليل على العقيدة، مع أنّ العقيدة تطلب لنفسها دليلاً مفيداً لليقين، وخبر الواحد لا يفيد علماً، وهذا هو أساس الزلّة التي وقع بها في هذا الكتاب، فإنّ العقيدة شيء، والرواية شيء آخر، و بينهما من النسبة عموم و خصوص من وجه.

الثانية: انّي لا أتّهم المؤلّف شخصياً ولكن أُسلوب الكتابة ينمّ عن تحامل شديد على الشيعة وعدم نزاهة في البحث.

وهذا الأُسلوب منبوذ عند العقلاء شرعاً وعقلاً، والقرّاء يستهجنون هذا النوع من الكتابة. ولا يؤثر في العقول الحرّة، لأنّ السبّ والهجو آية العجز عندهم.

الثالثة: لو قام القارئ بجمع الشتائم الموجودة في هذا الكتاب لخرج بصحائف سوداء.

ولهذا وذاك قمت بتأليف كتاب جمعت فيه أُصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، التي هي نفس أُصول العقيدة الإسلامية، بعبارات موجزة، وأشرت إلى دلائلها فلو كان لديكم نقد على تلك الأُصول فنحن مستعدون للمناقشة والمناظرة في أيّ مدينة شئتم، سواء أكان في «الرياض» أو «المدينة المنورة» أو «مكّة المكرمة» أو «جدّة».

ونعلن انّ أُصول مذهب الشيعة الإمـامية الاثني عشرية هي ما جاء في هذا الكتاب وهي واضحـة المعالم، مشرقة البراهين لا ما جاء في الكتاب السابق ذكره.

ونرجـو أن ينال هـذا الاقتراح موضـع القبول شريطـة أن يسود الحوار روح الموضـوعيـة والتجـرد والحرية وتـرأسـه لجنـة مـن علماء الإسلام، ونحن بفارغ الصبر في انتظار تلبية هذا الاقتراح.

جعفر السبحاني

قم ـ الجامعة الإسلامية

١٧

حياة السيد الحميري

وثقافته واخلاصه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يتميّز الإنسان عن سائر الموجودات بالتفكير وهـو موهبة عظيمة، كرّمه الله بها، وراح يعكس تفكيره من خـلال الكلام إمّا منثوراً أو منظوماً، فـالكلام المنثور هو مـا يتكلّم به ارتجالاً، والثاني عبـارة عن الكلام الموزون المقفّىٰ الـذي لا يحصل إلاّ بالتروّي والأناة.

ثمّ إنّ للإنسان نزوعاً إلى هذا النوع مـن الكلام قد يبلغ به تهييج العواطف والتذاذ الأسماع بمكان أنّه ربما يفقد وعيه. والشعر في الوقت نفسه سلاح شديد الوقع، فإن استعملـه الشاعر في الحماسة هاجت النفـس لاقتحام الردىٰ والهلكة، وإن استغله في الاستعطاف والاستعطاء حرك العـواطف وهيّجها، وإن استعان به في التشبيب أغرى الأفئدة بالهوىٰ والمجون، إلى غير ذلك من غايات خاصّة للشعر على وجه الإطلاق، كما أنّه سلاح ذو حدين، فالشعر الهادف هو ما يبني المجتمع ويوقظ الشعـب ويسوقه نحو العلـم والصلاح والفلاح، وغير الهادف منه هـو ما يكرّس النزعات الأنانية في المجتمع ويسير به نحو هاوية الانحطاط، ويبعثه نحو الانحلال الخلقـي، ولله در الشيخ محمـد رضا الشبيبـي شاعـر العراق الفحـل إذ

يقول:

كفـى الشعـر ذمّـاً إنّ للشعـر قـائلاً
وما هـو إلاّ قـائل غير فـاعـل [١]

ولا خير في شعـر إذا لم يقـم بـه
خمولُ نبيـه أو بنـاهـةُ خـامـل

إذا قلـت انّ الشعـر بحـر غبنتـه
متى يستقيم البحر من غير ساحل

قـرائحنـا منهـا بحـور خضـارم
ومنهـا إذا جـربـت رشـحُ الجداول

وأجمعُ أقـوال الـرجـال أسـدُّهـا
معـان كبـار في حـروف قـلائل [٢]

فالحقّ كما قـال الشبيبي انّ قيمـة الشعر بمعنـاه وبتأثيره الخطير في إيقـاظ المجتمع، فربَّ قصيدة كثيرة الأبيات لا تجد فيهـا كلمة حكيمة تُسعد الإنسان في حياته أو تصدّه عن مزالقه.

ورب بيت واحد يفضَّل على قصيدة، لأنّه ينشد إلى حكمـة بالغة يأخذ بيد الإنسان في مزالق الحياة، وقد أشار إلى ذلك الشاعر المذكور.

---

١. إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ انَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يهيمون* وانّهم يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٥ـ٢٢٦).

٢. محمد جمال الهاشمي: الأدب الجديد: ١ـ٢، طبعة النجف الأشرف.

وقـــد يبلـــغ البيـــت البليـــغ قصيـــدة
مطـــوّلـــة لكـــن على غير طـــائل
وقـــد يبلـــغ اللفـــظ القصير رســـالـــة
إذا عـــدَّت الألفـــاظ روحَ الـرســـائل

ويا لـلأسف انّ الشعـراء لم يجروا على حلبة واحـدة، فهم بين مصلـح بنّاء، ومفسد هدّام مثير للميوعات:

يقول امرؤ القيس في معلّقته:

أفـاطـــم مَهْلاً بَعْـــضَ هـذا التَّــدلُّــل
وإن كُنـتِ قَـدْ ازمَعْـتِ صَرْمـي فـاجملي
أغـــرَّكِ منّــــي أنّ حُبَّـــكِ قـــاتِلي
وأنّـــك مهما تـــأمـــرى القَلْـــبَ يفعـــل
وإن تـك قـــد سـاءَتْـكِ مِنِّـي خليقـة
فسُلِّي ثيـــابي مــــن ثيـــابـــكِ تَنْسُـــلِ
ومــــا زَرَفَــــتْ عينــــاكِ إلاّلِتَضْربي
بِسَهميـــك في أعشـــار قلـــبٍ مُقتَّـــل
وبيضـــةِ خِـــدْر لا يُـــرامُ خِبـــاؤهـــا
تَمَتَّعْـــتُ مـــن لهوٍ بها غير مُعجَـــلِ[١]

---

١. شرح المعلّقات السبع لأحمد بن الحسين الزوزني:١٣ـ١٥، ط عام ١٣٨١هـ.

وهناك من يبعث روح الشجاعة والتضحية والفداء في المجتمع ويحثّه في المضي قُدماً في سلالم العز والكمال، وهذا ما نلمسه بوضوح في الأبيات التالية لعميد الدين المعروف بالطغرائي (المتوفّى عام ٥١٠هـ) في لاميته المعروفة بلامية العجم:

حبّ السلامة يُثني همّ صاحبه
عن المعالي ويُغري المرء بالكسلِ
فإن جنحتَ إليه فاتخذ نفقاً
في الأرض أو سُلّماً في الجوِّ واعتزلِ
لو كان في شرف المأوىٰ بلوغُ منى
لم تبرح الشمس يوماً دارة الحملِ
وشأنَ صدقك عند الناس كذبهم
وهل يطابق معوجّ بمعتدلِ
ملك القناعة لا يُخشىٰ عليه ولا
يحتاج فيه إلى الأنصار والخولِ
ترجو البقاء بدارٍ لا ثبات لها
فهل سمعت بظل غير منتقلِ

و ما نرى في الذكر الحكيم من ذم للشعراء، يقول سبحانه: ﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُم الغاوُون* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يهيمُون* وَانَّهُمْ يَقُولونَ ما لا يَفْعَلُون﴾ [1]

---

١. الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

فهو راجع إلى الشعراء الذين لا همّ لهم سوى الحصول على المزيد من حطام الدنيا من خلال مدح ذوي الجاه والمقام أملاً في نيل عطائهم، أو إثارة شهواته الجامحة التي تعصف بالمجتمع في ورطة الانحلال الاخلاقي.

ثمّ إنّه سبحانه لا ينظر إلى الجميع على حدّ سواء بل يستثني منهم طائفة، بقوله: ﴿**إلاّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَذَكَرُوا الله كَثِيراً وَانْتَصروا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلبٍ يَنْقَلِبُون**﴾ (١).

وبذلك يتبين موقف الأحاديث الواردة في هذا المضمار، فهي بين منددة بالشعر وبين مادحة له، كما في قوله:

إنّ من الشعر لحكمة، وإنّ من البيان لسحرا. (٢)

وقد كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة للإعلام و إثارة العواطف والأحاسيس وبثّ الأفكار من خلاله، وكان للشعر و الشعراء في عصر النبي ﷺ وبعده مقام شامخ، وكان أئمّة أهل البيت عليهم السلام يغدقون عليهم بالعطايا والصلات.

قال البراء بن عازب: إنّ رسول الله ﷺ قيل له: إنّ أبا سفيان بن حارث بن عبد المطلب يهجوك، فقام عبد الله بن رواحة فقال: يا رسول الله: ائذن لي فيه، فقال: «أنت الذي تقول ثبّت الله»، قال: نعم، قلت يا رسول الله.

فثبت الله ما أعطاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً مثل ما نصروا

قال ﷺ: «وأنت يفعل الله بك خيراً مثل ذلك». (٣)

---

١. الشعراء: ٢٢٧.

٢. مسند أحمد: ١/ ٢٦٩، ٢٧٣؛ سنن الدارمي: ٢/ ٢٩٦.

٣. مستدرك الحاكم:٣/ ٤٨٨.

و قد أنشد كعب بن زهير قصيدته التي قالها في مدح النبي في مسجده الشريف، و التي مطلعها:

بانت سُعادُ فقلبي اليوم متبول   متيّم إثرَها لم يفد مكْبولُ

قال الحاكم: لما أنشد كعب قصيدته هذه لرسول الله، وبلغ قوله:

إنّ الرسول لسيفٌ يُستضاء به   وصارمٌ من سيوف الله مسلول

أشار ﷺ بكمه إلى الخلق ليسمعوا منه. [١]

ويروىٰ أنّ كعباً أنشد «من سيوف الهند» فقال النبي ﷺ: من سيوف الله.

قال المقريزي في حوادث السنة الثامنة من الهجرة: ففي هذه السنة كان إسلام كعب بن زهير بن أبي سُلمىٰ، فأسلم وقدم على رسول الله المدينة وأنشده القصيدة فكساه بُردة كانت عليه، وقال ابن قتيبة: أعطى رسول الله كعب بن زهير راحلة وبُردًا، فباع البُرد من معاوية بعشرين ألفاً، فهو عند الخلفاء إلى اليوم. [٢]

وقد تأسّىٰ أئمّة العترة الطاهرة بالنبي ﷺ في تكريم الشعراء المجاهرين بولائهم، المخلصين من الذين كانوا ينظمون القريض لغايات دينيّة، معرضين عن التردّد على بلاط الخلفاء الأمويين والعباسيين،وقد كان لشعرهم يومذاك تأثير بالغ في قلوب الناس، وإيقاظ ضمائرهم، ولهذا الهدف الأسمىٰ كان أئمّة أهل البيت يبجّلون بشعرهم ويدعون لهم ويغدقون عليهم بالصلات، ولهذه الغاية راجت بين شيعة أئمّة أهل البيت ميميّة الفرزدق، وهاشميّات الكميت، وعينية الحميري، وتائية دعبل الخزاعي، وميميّة الأمير أبي فراس، وكانوا يحفظونها

---

١. مستدرك الحاكم: ٣/ ٥٨٠.

٢. المقريزي: الإمتاع: ١/ ٣٥٦، ط عام ١٤٠١هـ.

وينشدونها في مجالسهم ومحافلهم، فصارت هذه القصائد كالسيف الصارم بيد الموالين.

ومن هذه الطليعة الشاعر المفلق المكْثر لثناء أهل البيت السيد الحميري الذي نحن بصدد التقديم له وللشرح الذي قام به نابغة عصره الشيخ بهاء الدين الاصبهاني المعروف بـ«الفاضل الهندي»، فيلزم علينا الإلمام بترجمة الشاعر أوّلاً ، ثمّ الشارح ثانياً حسب ما تقتضيه الحال.

السيد الحميري

هو إسماعيل، وكنيته أبو هاشم، بن محمد بن يزيد بن وداع الحِمْيري الملقب بالسيد، وانّه من بني حدّان تزوّج بها أبوه، لأنّه كان نازلاً فيهم، ولد عام ١٠٥هـ[١]، بعُمان و نشأ في البصرة في حضانة والديه الإباضيّين إلى أن عقل وشعر فهاجرهما و اتصل بالأمير عقبة بن مسلم و تزلّف لديه حتى مات والداه، فورثهما ـ كما سيوافيك خبره ـ ثمّ غادر البصرة إلى الكوفة وأخذ فيها الحديث عن الأعمش وعاش متردّداً بينهما. [٢] و مات عام ١٧٣هـ.

ترجمه غير واحد من رجال الفريقين نذكر نصوصهم:

١. فقد ذكره الشيخ الطوسي في رجاله في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ، قال: إسماعيل بن محمد الحميري، السيد الشاعر يكنّى أبا عامر. [٣]

٢. وذكر في الفهرست، وقال: السيد بن محمد، أخباره تأليف الصولي،

---

١. أخبار السيد للمرزباني: ١٥١ـ ١٥٢.

٢. لسان الميزان:١/ ٣٨٣.

٣. رجال الطوسي برقم ١٠٨.

أخبرنا بها ابن عبدون عن أبي بكر الدوري عن الصولي. [١]

٣. ولم يترجمه النجاشي مستقلاً، وإنّما ذكر من جمع أخباره وسيوافيك أسماء من جمع أخبار السيد.

٤. وقال ابن شهر آشوب في المعالم في فصل الشعراء المجاهدين:

السيد أبو هاشم إسماعيل بـن محمد بن يزيد[٢] [بن محمد][٣] بن وداع بن مفرغ الحميري.

من أصحاب الصادق عليه السلام ولقي الكاظم عليه السلام وكان في بدء الأمر خارجياً ثمّ كيسانياً ثمّ إمامياً. [٤]

٥. وقال العـلاّمة في الخلاصة في القسم الأوّل مـن الباب الثاني مـن فصل الهمزة.

إسماعيل بن محمد الحميري: ثقة، جليل القدر، عظيم الشأن والمنزلة رحمه الله. [٥]

إلى غير ذلك من كلمات الإطـراء في حقّه في معاجم أصحابنا، وأمّـا ما ذكره غيرهم، فإليك نصوص بعضها:

٦. قال ابن عبد ربّه: السيد الحميري وهو رأس الشيعة، وكانت الشيعة من تعظيمها له تلقي له الوسادة في مسجد الكوفة. [٦]

٧. وقال أبـو الفرج الاصفهاني (المتوفّى عـام ٣٥٦هـ): كان السيد شـاعراً

١. الفهرست برقم ٣٥٠.

٢. وفي المصدر مزيد و لعله مصحف يزيد كما في اخبار السيد للمرزباني.

٣. هذه الزيادة ليست في أخبار السيد المرزباني.

٤. معالم العلماء: ١٤٦.

٥. الخلاصة، باب الهمزة، برقم ٢٢.

٦. العقد الفريد: ٢/ ٢٨٩.

متقدماً مطبوعاً، يقال له انّ أكثر النـاس شعراً في الجاهلية و الإسلام ثلاثة: بشّار، أبو العتـاهية، والسيـد، فانّه لا يعلـم انّ أحداً قدر على تحصيـل شعر أحـد منهم أجمع.[١]

كان السيـد أسمر، تامّ القامـة، أشنب[٢]، ذا وفرة، حسـن الألفاظ، جميـل الخطاب، إذا تحدث في محل قوم أعطى كلّ رجل في المجلس نصيبه من حديثه.[٣]

٨. ونقل عـن التوزي، أنّه قال: رأى الأصمعـي جزءاً فيه من شعـر السيد، فسترته عنـه لعلمي بما عنده فيـه، فأقسـم عليّ ان أخبره فأخبرته، فقـال: أنشدني قصيدة منـه، فأنشدته قصيـدة ثمّ أُخرى، وهو يستـزيدني، ثمّ قال: قبّحـه الله ما أسلكه لطريـق الفحول! لولا مذهبه، ولولا مـا في شعره ما قدمت عليـه أحداً من طبقته.[٤]

أقول: «كلّ إناء بالّـذي فيه ينضح»[٥]، انّ الاصمعي ناصبـي عنيد يبغض علي بن أبي طالب عليه السلام والعترة الطاهرة عليهم السلام فلا غرو في أن يـدعو على السيد بما عـرفت، ولكـن مع ذلـك لم يستطـع أن يُسدل الستـار على عظمة السيـد في مجال الشعر، وانّه سلـك طريق الفحول في عـالم القريض، ويتلوه في المذهـب والإطراء أبـوعبيـدة، ومـع ذلـك يقول في حـقّ السيـد أشعـر المُحْـدَثِين السيّـد الحميري وبشار.[٦]

٩. وروى عمر بن شبّـة، قال: أتيت أبا عبيـدة معمر بن المثنى يـوماً وعنده رجل مـن بني هاشـم يقـرأ عليه كتاباً، فلمّا رآني أطبقـه، فقال له أبو عبيـدة: إنّ أبا

---

١. الأغاني:٧/ ٢٢٩.

٢. الشنب: البياض والبريق والتحديد في الاسنان.

٣. الأغاني:٧/ ٢٣١.

٤. الأغاني: ٧/ ٢٣٢.

٥. «مثل يُضرب».

٦. الأغاني: ٧/ ٢٣٢.

زيد ليس ممن يحتشم منه فأقرأ، فأخذ الكتاب وجعل يقرأه، فإذا هو شعر السيد، فجعل أبو عبيدة يُعجب منه ويستحسنه، قال أبو زيد: وكان أبو عبيدة يرويه، قال: وسمعت محمد بن أبي بكر المقدمي، سمعت جعفر بن سليمان الضُّبعي ينشد شعر السيد. [١]

١٠. وحكى عن الموصلي عن عمِّه، قال: جمعت للسيد في بني هاشم الفين و ثلاثمائة قصيدة فخِلْتُ أن قد استوعبت شعره حتى جلس إليّ يوماً رجل ذو أطمار رثّة، فسمعني أنشد شيئاً من شعره فأنشدني له ثلاث قصائد لم تكن عندي، فقلت في نفسي لو كان هذا يعلم ما عندي كلّه، ثمّ أنشدني بعده ما ليس عندي، لكان عجيباً، فكيف وهو لا يعلم وإنّما أنشد ما حضره، وعرفت حينئذٍ انّ شعره ممّا لا يدرك ولا يمكن جمعه كلّه. [٢]

١١. قال غانم الوراق: خرجت إلى بادية البصرة فصرت إلى عمر بن تميم، فأثبتني بعضهم، فقال: هذا الشيخ والله راوية، فجلسوا إليّ وأنسوا بي وأنشدتهم وبدأت بشعر ذي الرمة، فعرفوه، وبشعر جرير فعرفوهما ثمّ أنشدتهم للسيد.

قال: فجعلوا يمرقون لإنشادي ويطربون، وقالوا: لمن هذا، فأعلمتهم، فقالوا: هو والله أحد المطبوعين، لا والله ما بقي في هذا الزمان مثله. [٣]

١٢. قال الزبير بن بكار: سمعت عمي يقول: لو انّ قصيدة السيد التي يقول فيها:

انّ يوم التطهير يوم عظيم خصَّ بالفضل فيه أهل الكسا

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٣٦.

٢. الأغاني: ٧/ ٢٣٧.

٣. الأغاني: ٧/ ٢٣٩.

قرأت على منبر ما كان فيها بأس ولو انّ شعره كله كان مثله لرويناه وما عيّبناه.[١]

١٣. حدث الحسين بن ثابت، قال: قدم علينا بدويّ، وكان أروىٰ الناس لجرير، فكان ينشدني الشيء من شعره، فأُنشد في معناه للسيد حتى أكثرتُ، فقال لي: ويحك! من هذا؟ هو والله، أشعر من صاحبنا.[٢]

وهذه الكلمات التي نقلها أبو الفرج الاصفهاني تعرب عن تضلّع السيد في الأدب العربي وبلوغه الذروة في القريض بحيث لا يجاريه فيه أحد، وقد نال اعجاب عباقرة الشعر وجهابذة الأدب، ولولا كفاحه ونضاله وتهالكه في حب أهل البيت، ومناهضته للجهاز الأموي و العباسي، لحظي بمكانة مرموقة في بلاط الخلفاء، وعلى الرغم من ذلك، فقد شهدت بفضله الأعداء، والفضل ما شهدت به الأعداء، وقد أتاح سبحانه لسان أعدائه على تمجيده وتعظيمه.

أُسرة السيد

والعجب انّ أُسرة السيد الحميري كانت من بني حمير الذين قطنوا عمان وكانوا أباضية المذهب يكنّون العداء لعلي بن أبي طالب عليه السلام. وعلى الرغم من كلّ ذلك فقد ظهر من هذا المنبت السوء، موال لأهل البيت عليهم السلام، مخلص في حبهم، ذابّ عن حريم ولايتهم بشعره وبيانه وجسمه وروحه، على نحو لم يُر له مثيل فيمن غبر.

روى سليمان بن أبي شيخ عن أبيه: انّ أبوي السيد كانا إباضيّين، و كان منزلهما بالبصرة في غرفة بني ضبّة، وكان السيد يقول: طالما سُبّ أمير المؤمنين في

١. الأغاني: ٧/ ٢٣٩.
٢. الأغاني: ٧/ ٢٣٩.

هذه الغـرفة، فـإذا سئل عن التشيّـع من أيـن وقع له، قـال: غاصـت عليَّ الرحمة غوصاً.

وروي عن السيد انّ أبـويه لما علما بمذهبه همّا بقتلـه، فأتى عقبة بـن سلم الهنـائي، فـأخبره بـذلك فـأجـاره وبـوأه منـزلاً وهبـه لـه فكـان فيه حتـى مـاتـا فورثهما.[1]

وقال إسماعيـل بن السـاحر راويـة السيد: كنـت عنده يـوماً في جنـاح له، فأجال بصره فيه، ثم قال: يـا إسماعيل طال و الله ما شُتم أمير المؤمنين عليّ في هذا الجناح، قلت و من كان يفعل؟ قال: أبواي.[2]

وقال المرزباني بسنـده عن العباسة بنـت السيد، قالت: قـال لي أبي : كنت وأنا صبيّ أسمع أبويّ يثلبان أمير المؤمنين عليه السلام فأخرج عنهما وأبقى جائعاً، وأوثر ذلك على الرجوع إليهما فأبيت في المساجد جائعاً لحبّي فراقهما وبغضي إياهما حتى إذا أجهدني الجوع رجعت فأكلت ثمّ خـرجت، فلمّا كبرت قليلاً و عقلت وبدأت أقول الشعر.

قلـت لأبـويّ: إنّ لي عليكما حقـاً يصغـر عنـد حقّكما عليّ فجنّبـاني إذا حضرتكما ذكـر أمير المؤمنين عليه السلام ، بسـوء، فإنّ ذلـك يـزعجنـي وأكره عقـوقكما بمقالتكما، فتماديا في غيّهما، فانتقلت عنهما، وكتبت إليهما شعراً ،وهو:

خـف يـا محمّـد فـالـق الاصبـاح

وأزل فسـاد الـديـن بـالإصـلاح

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٣٠.

٢. الأغاني: ٧/ ٢٣٥.

أتسـبّ صنـو محمّـد ووصيـه
ترجـو بـذلـك الفـوز بـالإنجـاح
هيهـات قـد بعـدت عليـك و قـرّبـا
منـك العـذاب وقـابـض الأرواح
أوصـى النبـي لـه بخير وصيـة
يـوم الغـديـر بـأبين الأفصـاح

فتواعداني بالقتل، فأتيت الأمير عقبة بن مسلم فأخبرته خبري، فقال لي: لا تقربهما، وأعدّ لي منزلاً أمر لي فيه بما أحتاج إليه وأجرىٰ عليَّ جراية تفضل عن مؤنتي.[1]

تفانيه في حبّ أهل البيت عليهم السلام ونشر مناقبهم

إنّ الأثر البارز في حياة السيد هو تفانيه في حبّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ونشر مناقبهم بقريظه وشعره وبيانه ولسانه، ونقده اللاذع لأعداء العترة الطاهرة ومناوئيهم، على نحو لا يرضى أن يتبوّأ مجلساً ليس فيه ذكر لأحمد ولا لوصيه عليه السلام .

روى أبو الفرج الاصبهاني، عن الحسن بن علي بن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي: كنا جلوساً عند أبي عمرو بن العلا فتذاكرنا السيد، فجاء فجلس

١. أخبار شعراء الشيعة: ١٥٤ـ ١٥٥، ط عام ١٤١٣هـ.

وخضنا في ذكر الزرع والنخل ساعة فنهض، فقلنا: يا أبا هاشم، مِمّ القيام؟ فقال:

انّي لأكــره ان أطيــل بمجلــس
لاٰ ذكــرَ فيــه لفضــل آل محمّــد

لا ذكـــر فيـــه لأحمد ووصيـــه
وبنيـه ذلـك مجلس نظـف[1] ردئ

انّ الـــذي ينســاهــم في مجلــس
حتـــى يفــارقـــه لغير مســدّد[2]

وهنـاك وثائق تـاريخيـة تعرب عـن إخـلاص السيد وولائه المنقطـع النظير للعترة الطاهرة، نقتطف منها هذه الشذرات، فانّ الاستيعاب يطيل بنا الكلام.

١. ذكر التميمي ـ و هـو علي بن إسماعيل ـ عن أبيه، قـال: كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام إذ استأذنه آذنه للسيد، فأمر بايصاله، وأقعد حرمه خلف ستر، ودخلِ فسلم وجلس، فاستنشده، فأنشده قوله:

أمْــــرُر على جـــدث الحسيـــــ
ـــن فقـــل لأعظُمـــه الـــزكيّـــه

آ أعظُمـــــاً لا زلـــــت مـــــن
وَطفَـــــــــــــــاء[3] ساكبةٍ رَويّه

---

١. النظف: السيء الفاسد.

٢. الأغاني: ٧/ ٢٦٧.

٣. وطفاء: بينة الوطـف، والوطف في السحاب: أن يكون في وجهه كالمحـل الثقيل، أو هو استرخاء في جوانبه لكثرة مائه.

وإذا مـــــررت بقـــــبره

فـــأطـــل بـــه وَقـــف المطيّـــه

وأبـــكِ المطهَّـــر للمطـــــ

ـــــهّر والمطهَّـــرة النقيّـــه

كبُكـــاء مُعـــولـــة أتـــت

يـــومـــاً لـــواحـــدهـــا المنيّـــه

قـال: فرأيـت دموع جعفـر بن محمـد تنحدر على خـديه، وارتفـع الصراخ والبكاء من داره، حتى أمره بالإمساك فأمسك. [1]

٢. روى الشيخ ابـن قولـويه(المتـوفّى عام ٣٦٧هـ) بسنده عـن أبي هارون المكفوف: قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام ، فقال لي: أنشدني، فأنشدته، فقال: لا، كما تنشدون، وكما ترثيه عند قبره، قال فأنشدته.

امـرر على جـدث الحـسين فقـــل لأعظمـــه الـزكيـّه

قال: فلما بكى أمسكـت أنا، فقال: مر، فمررت، قـال:ثمّ قال: زدني، قال: فأنشدته:

يا مريـم قومـي فانـدبي مـولاك وعلى الحسين فاسعدي ببكاك

قال: فبكى وتهايج النساء [2]

٣. روى أبو سليمان الناجي، و محمد بن حليم الأعرج، قالا:

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٤٠ـ٢٤١.

٢. كامل الزيارات: ١٠٥ـ١٠٦، ط النجف الأشرف ؛ ثواب الأعمال: ١٠٩، ط عام ١٣٩١هـ.

كان السيد إذا استنشد شيئاً من شعره لم يبدأ بشيء إلاّ بقوله:

أجَدّ بآل فاطمةَ البكـورُ   فدمعُ العين منهمر غزير

وهناك منام صادق ينمُّ عن أنّ البيت المزبور حظى بإعجاب الرسول ﷺ.

حدث إبراهيم بن هاشم العبدي البصري، قال: رأيت النبي ﷺ في المنام و بين يديه السيد الشاعر وهو ينشد:

أجدّ بآل فاطمة البكـور   فدمع العين منهمر غزير

حتى أنشده إيّاها على آخرها و هو يسمع:

قال: فحـدثت هـذا الحديث رجـلاً جمعتني و إيّـاه طوس عنـد قبر علي بن موسى الرضا، فقال لي: والله لقد كنت على خلاف فرأيت النبي ﷺ في المنام و بين يديه رجل ينشد:

أجدّ بآل فاطمة البكور

إلى آخرها، فـاستيقظت من نومـي وقد رسخ في قلبي مـن حبّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كنت أعتقده. [1]

قال إسحاق: وسمعت العتبي ، يقول: ليس في عصرنا هذا أحسن مذهباً في شعره ولا أنقىٰ ألفـاظاً من السيد، ثمّ قـال لبعض من حضر: أنشدنـا قصيدته اللامية التي أنشدتناها اليوم، فأنشده قوله:

هل عند من أحببت تنويل   أم لا فانّ اللـوم تضـليـل

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٤٦.

يقول فيها:

أقســـم بـــالله وآلائـــــــه | والمرء عمّا قـــال مســـؤول
إنّ علـــي بـــن أبي طـــالب | علـــى التقـــى والبرّ مجبـــول

فقال العتبي:

أحسن والله ما شاء، هذا و الله الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب.[1]

٤. سمع السيد محدّثاً يحدِّث أنّ النبي ﷺ كان ساجداً فركب الحسن والحسين على ظهره، فقال عمر: نعم المطيّ مطّيكما، فقال النبي ﷺ: ونعم الراكبان هما.

فانصرف السيد من فوره ، وقال في ذلك:

أتـــى حسنـــاً والحسين النبـــي | وقـــد جلســـا حجـــرةً يلعبـــان
ففـدّاهما ثـــــمّ حيّاهمـــــا | وكـــانـــا لـديـــه بـذاك المكـــان
فـــراحـــا وتحتهما عاتقـــــاه | فنعـــم المطيّـــة والـــراكبـــان
وليـــدان أُمّهمـــــا بـــــرّة | حَصَـــان مطهّـــرة للحَصَـــان
وشيخهمـــا ابـــن أبـــي طـالـب | فنعـــم الـــوليدان والـــوالـــدان
خليليّ لا تُـــرجيـــا وأعلمـــــا | بـــأنّ الهدى غير مـــا تـــزعُمان
وأنّ عَمَـــى الشـكّ بعد اليقـــين | وضعـــفَ البصيرة بعـــد العيـــان
ضـــلال فـــلا تَلْجَجـــا فيهـــما | فبئســـت لعمـــركُما الخصلتـــان
أيُـــرجـــى عليٌّ إمـــام الهدى | وعثمانُ مـــا أعنـــد المُرجيـــان

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٥٨ـ ٢٥٩.

ويُرجى ابنُ حربٍ وأشياعه وهُوجُ الخوارج بالنَّهروان
يكون إمامَهم في المعاد خبيثُ الهوى مؤمن الشَّيصَبان [١]

إلى غير ذلك من قصائد جمة ذكر فيها فضائل الإمام علي وأهل بيته عليهم السلام.

ويكفيك في ذلك ما ذكره المعتز في طبقاته:

كان السيد أحذق الناس بسوق الأحاديث والأخبار والمناقب في الشعر لم يترك لعلي بن أبي طالب فضيلة معروفة إلاّ نقلها إلى الشعر، وكان يملّه الحضور في محتشد لا يذكر فيه آل محمّد صلوات الله عليهم، ولم يأنس بحفلة تخلو عن ذكرهم. [٢]

وممّا تجدر الإشارة إليه انّ أكثر شعراء العصر الأموي والعباسي قد أنكبّوا على عتبة بلاط الجهاز الحاكم رغبة منهم في الصلة والعطايا، ولكن السيد تنزّه عن هذه الوصمة و أناخ راحلته على عتبة أئمّة أهل البيت عليهم السلام فلم يمدح شخصاً إلاّلضرورة، ولذلك تجد انّه يعيب البشار في شعره لما مدح من ليس أهلاً له، فأقبل عليه، وقال:

أيّها المادح العباد ليُعطىٰ إنّ لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارجُ نفع المنزِّل العوّاد
لا تقُل في الجواد ما ليس فيه وتسمّي البخيل باسم الجواد

قال بشار: من هذا؟ فعرفَه، فقال لولا أنّ هذا الرجل قد شُغل عنّا بمدح

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

٢. طبقات الشعراء: ٧.

بني هاشم لشغلنا، ولو شاركنا في مذهبنا لأتعبنا.[١]

كما نقل انّ السيد دخل على المهدي لما بايع لابنيه موسى و هارون، فانشأ يقول:

ما بال مجرىٰ دمعك الساجم	أمن قذىً بات بها لازم
أم من هوى أنت له ساهر	صبابة من قلبك الهائم
آليت لا أمدح ذا نائل	من معشر غير بني هاشم
أولتهم عندي يد المصطفىٰ	ذي الفضل والمنّ أبي القاسم
فانّها بيضاء محمودة	جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أبي جعفر	خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثمّ ابنه	موسى على ذي الإربة الحازمِ
وللرشيد الرابع المرتضىٰ	مفترض من حقّه اللاّزم
ملكهُم خمسون معدودة	برَغم أنف الحاسد الرّاغم
ليس علينا ما بقُوا غيرهم	في هذه الأُمّة من حاكم
حتى يَردّوها إلى هابط	عليه عيسى منهم ناجم[٢]

وقد بلغ السيد في إخلاصه لأهل البيت انّه كان يجاهر بعقيدته ومودته لهم في مجلس الخلفاء وإن وُشي عليه ما وشي ولم يكن يتقي في ذلك أبداً.

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٣٧.

٢. الأغاني: ٧/ ٢٥٥ـ٢٥٦

روى عبد الله بن أبي بكر العتكي انّ أبـا الخلاّل العتكي دخل على عقبة بن مسلم والسيد عنـده، وقد أمر له بجائزة، وكان أبـو الخلاّل شيخ العشيرة وكبيرها، فقال له: أيُّها الأمير، أتعطي هـذه العطايا رجلاً ما يَفتُرُ عن سـبّ أبي بكر وعمر!، فقـال له عقبـة: مـاعلمت ذاك ولا أعطيتـه إلاّ على العشرة والمودة القـديمة ومـا يُوجبه حقُّه وجواره مع ما هو عليه من موالاة قوم يلزمنا حقُّهم ورعايتهم.

فقال لـه أبو الخلاّل: فمره إن كـان صادقاً أن يمـدح أبا بكر و عمـر حتى نعرف براءته مما ينسـب إليه من الرفض، فقال: قد سمعك، فـإن شاء فعل، فقال السيد:

إذا أنـا لم أحفـظ وصـاة محمـد ... ولا عهـده يـوم الغـديـر المؤكّـدا
فـإنّي كمن يشري الضّـلالة بـالهدىٰ ... تنصَّر مـن بعـد التّقـى وتهوّدا
ومـالي وتيـم أو عـديَّ و انّما ... أُولـو نعمتـي في الله مـن آل أحمد
تتـم صـلاتي بـالصـلاة عليهـم ... وليسـت صـلاتي بعـد أن أتشهـدا
بكـاملـة إن لم أصـلِّ عليهـم ... وأدعُ لهم ربّـاً كـريماً ممجَّـدا
بـذلـت لهم ودّي ونصحي ونصرتي ... مدى الدهر ما سمّيت ياصاح سيداً
و إنّ امـراً يلحىٰ على صـدق ودّهـم ... أحـقّ وأولى فيهـم أن يُفنّـدا
فإن شئـت فاختر عاجل الغـم ضِلّةً ... و إلاّ فـأمسـك كـي تصـان وتُحمـدا

ثمّ نهض مغضباً، فقام أبو الخلاّل إلى عُقبـة، فقال: أعِذْني من شرّه، أعاذك الله من السوء أيّها الأمير.

قال: قد فعلت عليٰ ألاّ تعْرِضَ له بعدها. [1]

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٦٢_٢٦٣.

ارتجاله في إنشاء الشعر

روى أبو الفرج الاصبهاني: كان السيد يـأتي الأعمش فيكتب عنـه فضائل علي «رضي الله عنه» ويخرج من عنـده، ويقول في تلك المعاني شعـراً، فخرج ذات يوم من عند بعض أُمراء الكوفة وقد حملـه على فرس وخلع عليه، فوقف بالكُناسة، ثمّ قال: يـا معشر الكوفيّين، من جاءني منكـم بفضيلة لعلي بن أبي طالـب لم أقل فيها شعـراً أعطيته فرسي هـذا و ما عليَّ. فجعلوا يحدّثونـه و ينشدهم، حتـى أتاه رجل منهم، وقـال: إنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «رضي الله تعـالى عنه» عزم على الركوب، فلبس ثيابه وأراد لُبس الخُفّ فلبـس أحد خُفّيه، ثمّ أهوىٰ إلى الآخر ليأخـذه فانقضّ عقاب مـن السماء فحلّق به ثـمّ ألقاه فسقط منه أسـود وانساب فدخـل حُجراً، فلبس عليّ رضي الله عنه الخُفّ قـال: ولم يكن قال في ذلـك شيئاً، ففكّر هنيهة، ثمّ قال:

ألا يـا قـوم للعجـب العجـاب ... لخُفّ أبي الحسين وللحُبـابِ

أتـى خُفّـاً لـه وانسـاب فيـه ... لينهْـش رجلـه منـه بنـابِ

فخـرّ مـن السماء لـه عُقـاب ... مـن العِقْبـان أو شبـه العقـابِ

فطـار بـه فحلّـق ثـمّ أهـوىٰ ... بـه لـلأرض مـن دون السّحـابِ

إلى جُحـر لـه فـانسـاب فيـه ... بعيـد القعـر لم يُـرتـج ببـابِ

كـريـهُ الوجـه اسـودُ ذو بصيـص ... حـديـدُ النّـاب أزرق ذو لُعـابِ

ودوفِـع عـن أبي حسـن عليٍّ ... نقيـعُ سمامـه بعـد انسيـابِ[1]

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٥٦_٢٥٧.

وزاد المرزباني بعد نقل القصة: ثمّ حرك فرسه وثناها و أعطى ما كان معه من المال والفرس للذي روى له الخبر،وقال: إنيّ لم أكن قلت في هذا شيئاً. [١]

صلته الوثيقة بالإمام الصادق عليه السلام

إنّ أئمّة أهل البيت كانوا يُثمِّنون جهود الشعراء المخلصين المجاهرين بالولاء الذين نذروا أنفسهم في هذا السبيل، ولبسوا في ذلك جلباب البلايا، منهم شاعرنا المفلق السيد إسماعيل فكان الإمام الصادق يتفقده حيناً بعد حين.

روي أنّ أبا عبد الله عليه السلام لقي السيد بن محمد الحميري، وقال: سمّتك أُمّك سيّداً، وفِّقت في ذلك، وأنت سيّد الشعراء، ثمّ أنشد السيّد في ذلك.

ولقد عجبت لقائل لي مرّة ... علامةٍ فهمٍ من الفقهاء

سماك قومك سيِّداً صدقوا به ... أنت الموفّق سيّد الشعراء

ما أنت حين تخصُّ آل محمّد ... بالمدح منك وشاعر بسواء

مدح الملوك ذوي الغنى لعطائهم ... والمدح منك لهم بغير عطاء

فابشر فانّك فايز في حبّهم ... لو قد وردت عليهم بجزاء

ما يعدل الدنيا جميعاً كلّها ... من حوض أحمد شربة من ماء [٢]

مذهبه

كان السيد أباضي المنبت، ثمّ صار شيعياً كيسانياً، يقول بإمامة محمد بن

---

١ .أخبار شعراء الشيعة: ١٧١، ط عام ١٤١٣هـ.

٢ . رجال الكشي: ٢٤٥، ط النجف الأشرف.

الحنفية، لكنّه عدل عنه إلى الإمامية على يد الإمام الصادق عليه السلام، وعليه أكثر المؤرّخين.

يقول السيد الحميري عن نفسه: كنت أقول بالغلو واعتقد غيبة محمد بن علي الملقب بابن الحنفية، قد ضللت في ذلك زماناً، فمنَّ الله عليَّ بالصادق جعفر ابن محمد عليهما السلام وأنقذني به من النار و هداني إلى سواء الصراط... وتبت إلى الله تعالى ذكره على يديه وقلت قصيدتي التي أوّلها:

ولمّا رأيت الناس في الدين قد غووا ... تجعفرت باسم الله فيمن تجعفروا

وناديت باسم الله والله أكبر ... وأيقنت ان الله يعفو ويغفر

ودنت بدين غير ما كنت دايناً ... به ونهاني سيد الناس جعفر

فقلت: فهبني قد تهوّدت برهة ... وإلاّ فديني دين من يتنصّر

وإنّي إلى الرحمن من ذاك تائب ... وإنّي قد أسلمت والله أكبر

فلست بغال ما حييت وراجع ... إلى ما عليه كنت أُخفي وأُضمر

ولا قائلاً حيٌّ برضوى محمّد ... وإن عاب جُهال مقالي فأكثروا

ولكنّه ممّا مضى لسبيله ... علىٰ أفضل الحالات يُقفى ويخبر

مع الطيبين الطاهرين الأُولى لهم ... من المصطفى فرعٌ زكيٌّ وعنصر [1]

وهانحن نذكر بعض الكلمات، التي أشارت إلى مذهبه:

١. قال المرزباني: كان السيد بلا شكّ كيسانياً يذهب إلى أنّ محمد بن الحنفية هو القائم المهدي وانّه مقيم في جبال رضوىٰ، وشعره في ذلك يدل على أنّه

---

١. الغدير: ٢/ ٢٤٥ـ٢٤٦.

كما ذكرنا كيسانياً فمن قوله:

يا شعب رضوى ما لمن بك لا يرىٰ ... وبنا إليه من الصبابة ألوق

حتى متى وإلى متى وكم المدىٰ ... يا ابن الوصي وأنت حي ترزق

إنّي لآمل أن أراك وانّني ... من أن أموت ولا أراك لأفرق

غير انّه رحمه الله رجع عن ذلك وذهب إلى إمامة الصادق عليه السلام وقال:

تجعفرت باسم الله والله أكبر

وأيقنت انّ الله يعفو ويغفر

ويثبت مهما شاء ربي بأمره

ويمحو ويقضي في الأُمور ويقدر [1]

ومن زعم انّ السيد أقام على الكيسانية فهو بذلك كاذب عليه وطاعن فيه، ومن أوضح ما دل على بطلان ذلك، دعاء الصادق عليه السلام وثناؤه عليه. [2]

٢. وقال المعتز في طبقات الشعراء: حدّثني محمد بن عبد الله، قال: قال السدري راوية السيّد: كان السيّد أوّل زمانه كيسانياً يقول برجعة محمد الحنفيّة، وأنشدني في ذلك:

حتى متى؟ وإلى متى؟ ومتى المدى

يابن الوصيّ وأنت حيٌّ ترزق

---

١. هذا البيت ذكره المعتز في طبقاته كما سيوافيك.

٢. أخبار شعراء الشيعة: ١٦٥.

والقصيدة مشهورة، وحدّثني محمد بن عبد الله، قال: قال السدري: ما زال السيّد يقول بذلك حتى لقي الصّادق عليه السلام بمكّة أيّام الحجّ فناظره وألزمه الحجّة، فرجع عن ذلك، فذلك قوله في تركه تلك المقالة ورجوعه عمّا كان عليه ويذكر الصادق:

تجعفـــرت بـــاســـم الله والله أكبر
وأيقنـــت انّ الله يعفـــو ويغفـــر
ويثبـــت مهما شـــاء ربي بـــأمـــره
ويمحـــو ويقضي في الأُمـور ويقـــدر [1]

٣. وقال الصدوق: فلم يزل السيد ضالاً في أمر الغيبة يعتقدها في محمد بن الحنفية، حتى لقي الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام ورأى منه علامات الإمامة وشاهد منه دلالات الوصية، فسأله عن الغيبة، فذكر له انّها حقٌّ، ولكنّها تقع بالثاني عشر من الأئمة عليهم السلام، وأخبره بموت محمد بن الحنفية وانّ أباه محمد بن علي ابن الحسين بن علي عليهم السلام شاهد دفنه، فرجع السيد عن مقالته، واستغفر من اعتقاده ورجع إلى الحقّ عند اتضاحه له ودان بالإمامة. [2]

٤. وقال المفيد: وكان من الكيسانية أبو هاشم إسماعيل بن محمد الحميري الشاعر رحمه الله، وله في مذهبهم أشعار كثيرة، ثمّ رجع عن القول بالكيسانية وتبرّأ منه ودان بالحقّ، لأنّ أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام دعاه إلى إمامته، وأبان له عن فرض طاعته، فاستجاب له فقال بنظام الإمامة وفارق ما كان عليه. [3]

---

١. طبقات الشعراء: ٧.
٢. كمال الدين: ٢٠.
٣. الفصول المختارة: ٩٣.

٥. وقال الإربلي: السيد الحميري ﵀ كان كيسانياً يقول برجعة أبي القاسم محمد بن الحنفية فلما عرّفه الإمام جعفر بن محمد الصادق ﵉ الحق والقول بمذهب الإمامية الاثني عشرية ترك ما كان عليه ورجع إلى الحقّ وقال به:

وينبئك عن مذهب الحقّ الصحيح قوله:

على آل الرسول وأقربيه
سلامٌ كلّما سجع الحمام
أليسوا في السماء هم نجوم
وهم أعلام عزّ لا يرام
فيا من قد تحيرّ في ضلال
أمير المؤمنين هو الإمام
رسول الله يوم غدير خمّ
أناف به وقد حضر الأنام
وثاني أمره الحسن المرجّى
له بيت المشاعر والمقام
وثالثه الحسين فليس يخفى
سنا بدر إذا اختلط الظلام
ورابعهم علي ذو المساعي
به للدين والدنيا قوام

وخـــامسهـــم محمـــد ارتضـــاه

لـــه في المأثـــرات إذن مقـــام

وجعفــر ســادس النجبــاء بــدر

ببهجتـــه زهـــا البـــدر التمام

ومـوســى سـابــع ولــه مقــام

تقــاصر عــن أدانيــه الكــرام

علي ثــــان والقبر منــــه

بــأرض الطــوس إن قحطــوا رهــام

وتـاسعهــم طـريـد بني البغـايـا

محمّــد الــزكــيّ لــه حســام

وعــاشرهــم عليّ وهــو حصــن

يحنُّ لفقـــده البلـــد الحرام

وحـــادى العشر مصبــاح المعـــالي

منير الضـــوء الحســـن الهمام

وثـــاني العشر حـــان لــه القيـــام

محمـــد الـــزكـــي بـــه اعتصـــام

أُولئـــك في الجنـــان بهم مســـاعـــي

وجيرتي الخوامـــس والســـلام [1]

---

١. كشف الغمة: ١٢٤، عنه الغدير: ٢/ ٢٥١.

وفاته

أثار نبأ وفاة السيد ضجة كبيرة في المجتمع الكوفي، فقد توفّي السيد عام ١٧٣هـ، وقيل ١٧٨هـ[1].

روى المرزباني باسناده عن ابن أبي حودان، قال: حضرت السيد ببغداد عند موته، فقال لغلام له: إذا متُّ فأت مجمع البصريين وأعلمهم بموتي وما أظنه يجيء منهم إلّا رجل أو رجلان، ثمّ اذهب إلى مجمع الكوفيين فأعلمهم بموتي أنشدهم:

يـا أهـل كـوفـان إنّي وامـق لكـم
مـذ كنـت طفـلاً إلى السبعين والكبر

أهـواكـم وأواليكـم وأمـدحكـم
حتماً عليَّ كمحتـوم مـن القـدر

بحبّكـم لـوصي المصطفـى وكفـىٰ
بـا لمصطفـى وبـه مـن سـائر البشر

إلى أن قال:

و كفّنـوني بيـاضـاً لا يخالطـه
شيء مـن الـوشي أو من فـاخـر الحبر

ولا يشيعنـي النصّـاب إنّهم
شرُّ البريّـة مـن انثـى و مـن ذكـر

١ .لسان الميزان: ١/ ٤٣٨.

عسـى الإلـه ينجّيني بـرحمته

ومدحي الغرر الزاكين من سقر

فـانّهم ليسارعـون إليَّ ويكبرون ، فلما مات فعـل الغلام ذلـك، فما أتى مـن البصريين إلاّ ثلاثـة معهم ثـلاثة أكفـان وعطر، وأتـى من الكـوفيين خلق عظيـم ومعهم سبعون كفناً ووجّه الرشيد بأخيه علي وبأكفان وطيب، فردت أكفان العامة عليهم وكفن في أكفـان الرشيد، وصلّى عليه علي بن المهـدي وكبّر خمساً، و وقف على قبره إلى أن سطح ومضى كلّ ذلك بأمر الرشيد.[1]

ونقل أبو الفرج الاصبهاني، عن بشير بن عمّار، قال: حضرت وفاة السيد في الرُّميلة ببغداد، فـوجه رسولاً إلى صفّ الجزّارين الكوفيين يُعلمهم بحـاله ووفاته، فغلط الرسـول فذهب إلى صف السمـوسين فشتموه ولعنوه، فعلم أنّـه قد غلط، فعاد إلى الكـوفيين يُعلمهم بحـاله ووفاتـه، فوافاه سبعـون كفناً، قـال: وحضرناه جميعاً، وانّه ليتحسّر تحسراً شديداً وإن وجهه لأسود كالقار وما يتكلم، إلى أن أفاق إفاقـة، وفتح عينيه، فنظـر إلى ناحية القبلة، ثـمّ قال: يا أمير المؤمنين، أتفعـل هذا بوليك! قالها ثلاث مرات ، مرة بعد أُخرى.

قال: فتجلّى والله في جبهته عـرق بياض، فما زال يتسع ويلبس وجهـه حتى صار كلّـه كالبدر، وتـوفي فأخذناه في جهـازه و دفناه في الجنينة ببغـداد، وذلك في خلافة الرشيد.[2]

نعم ثمة أوهام حيكت حول وفاة السيد نشير إلى بعضها:

---

١. أخبار شعراء الشيعة: ١٧٠.

٢.الأغاني: ٧/ ٢٧٨.

قال أبو الفرج الاصبهاني : كنت عند جعفر بن محمد، فأتاه نعي السيد، فدعا لـه و ترحّم عليه، فقال رجل: يابن رسول الله، تدعو له وهو يشرب الخمر ويؤمن بالرَّجعة، فقال: حدثني أبي عن جدّي، انّ محبِّي آل محمّد لا يموتون إلاّ تائبين وقد تاب، ورفع مُصلّى كانت تحته، فأخرج كتاباً من السيد يعرِّفه فيه انّه قد تاب ويسأله الدعاء له. [١]

أقول: إنّ ما ذكره صاحب الأغاني لا يوافق التاريخ القطعي، فانّ الإمام توفي عام ١٤٨هـ و توفيّ السيد عام ١٧٣هـ وعلى قول١٧٨هـ فكيف يصحّ ما ذكره ؟!

ويقرب من ذلك ما ذكره الكشي بسنده عن محمد بن النعمان، قال: دخلت على السيد بن محمد، وهو لما به قد اسود وجهه وازرقت عيناه وعطش كبده وسلب الكلام، وهو يومئذٍ يقول بمحمد بن الحنفية، وهو من حشمه، وكان ممّن يشرب المسكر فجئت، وكان قد قدم أبو عبد الله عليه السلام الكوفة، لأنّه كان انصرف من عند أبي جعفر المنصور، فدخلت على أبي عبد الله، فقلت: جعلت فداك انّي فارقت السيد بن محمد الحميري، وهو لما به قد اسودّ وجهه وازرقت عيناه وعطش كبده وسلب الكلام فانّه كان يشرب المسكر.

فقال أبو عبد الله عليه السلام : اسرجوا حماري، فاسرج له فركب ومضى، ومضيت معه، حتى دخلنا على السيد وانّ جماعة محدقون به، فجلس أبو عبد الله عليه السلام عند رأسه، وقال: يا سيد، ففتح عينه ينظر إلى أبي عبد الله عليه السلام ولا يمكنه الكلام وقد اسودّ وجهه، فجعل يبكي وعينه إلى أبي عبد الله، ولا يمكنه الكلام، وانا لنتبين فيه انّه يريد الكلام ولا يمكنه ، فرأينا أبا عبد الله عليه السلام حرك شفتيه فنطق السيد،

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٧٧.

فقال: جعلني الله فداك، أبأوليائك يفعل هذا؟

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا سيد قل بالحقّ يكشف الله ما بك ويرحمك ويدخلك جنته التي وعد أولياءه، فقال في ذلك:

تجعفرت باسم الله و الله أكبر

وأيقنت انّ الله يعفو ويغفر

فلم يبرح أبو عبد الله عليه السلام حتىٰ قعد السيد على أسته.[1]

إنّ المتبادر من الخبر انّ السيد كان في حالة الاحتضار، وانّه اعتنق المذهب الإمامي في ذلك الوقت، مع أنّك عرفت انّ السيد قد توفّي بعد وفاة الإمام الصادق بسنوات طويلة.

وليس من البعيد أن يُتّهم السيد بشرب النبيذ للحط من مكانته، و من كان محبّاً للوصي عليه السلام ومتفانياً في حبه، كيف يخالفه، وانّه ليعلم أنّ شرب النبيذ أبشع منكر عنده.

ويظهر من الحجاج الذي دار بينه و بين شاعر أهل البيت الكميت الأسدي، انّ السيد كان عارفاً بالكتاب والسنّة وإقامة الحجج الدامغة وإفحام الخصم، فمن تنوّر قلبه بالكتاب والسنّة، كيف يشرب النبيذ أواخر عمره، ونكتفي هنا بسرد هذه الواقعة التاريخية التي تكشف بوضوح عن تضلّعه في العلم والفقه والتاريخ.

قال المرزباني: قيل إنّ السيد حجّ في أيّام هشام، فلقي الكميت فسلّم عليه، وقال: أنت القائل:

---

١. رجال الكشي: ٢٤٤ـ ٢٤٥، ط النجف الأشرف.

ولا أقول إذا لم يعطيـا فدكـا بنت الرسول ولا ميـراثه كفـرا
الله يعلـم ماذا تـأتيـان بـه يوم القيامة من عذر إذاح ضرا

قال: نعـم، قلته تقيـة من بني أُميّـة، وفي مضمون قـولي شهادة عليهما إنّهما أخذا ما كان في يدها.

فقال السيد: لولا إقـامة الحجّة لوسعني السكوت لقد ضعفـت يا هذا عن الحق، يقول رسـول الله ﷺ: فاطمـة بضعة منّي يـريبني مـارابها، وانّ الله يغضب لغضبها ويرضـى لرضاها، فخـالفت رسول الله ﷺ وهب لها فـدكاً بأمـر الله له، وشهد لها أمير المؤمنين والحسـن والحسين وأُمّ أيمن بـأنّ رسول الله أقطـع فاطمـة فدكاً فلم يحكما لها بـذلك، والله تعالى يقول: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آل يَعْقُوب﴾ [١] ويقول: ﴿وَوَرِثَ سُليمان داود﴾ [٢]. وهـم يجعلون سبـب مصير الخلافة إليهـم، الصلاة وشهادة المرأة لأبيهـا انّه ﷺ قال: مروا فـلاناً بالصلاة بالنـاس، فصدقت المرأة لأبيها، ولم تصدق فاطمة والحسن والحسين وأُم أيمـن في مثل فدك، وتطالب مثل فاطمة بالبيّنة على ما ادّعت لأبيها.

وتقـول أنت مثـل هـذا القـول و بعد فما تقـول في رجـل حلـف بالطـلاق انّ الذي طلبت فـاطمة عليها السلام هـو حق و إنّ عليّـاً والحسـن والحسين وأُمّ أيمن مـا شهدوا إلاّ بحق ما تقول في طلاقه؟ قال: ما عليه طلاق.

قال: فإن حلف بالطلاق إنّهم قالوا غير الحقّ؟

قال: يقـع الطلاق، لأنّهم لا يقولون إلاّ الحقّ، قـال: فانظر في أمـرك، فقال

---

١. النساء: ١٩.
٢. النمل: ٢٧.

الكميت: أنا تائب إلى الله مما قلت، وأنت أبا هاشم أعلم وأفقه منّا. [١]

ومن تتبع شعره الطافح بالكتاب والسنّة ، وثباته على المبدأ وتحمل المصائب والمشاق في سبيل عقيدته، لوقف على سخافة ما اتّهم به من شرب الخمر والنبيذ.

وأين الصامد في سبيل الحق من المخمور الذي لا يبالي بما يدور حوله؟!

هذه نبذة مختصرة من سيرة السيد الحميري و أخباره وشعره، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المصادر التي تعرضت لبيان اخبار السيد وأخص بالذكر منها :

أ: الأغاني [٢] لأبي الفرج الاصبهاني المتوفّى عام ٣٥٦هـ.

ب: أخبار السيد الحميري، تأليف أبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني الخراساني المتوفّى عام ٣٨٤هـ تحقيق الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني.

مضافاً إلى ما في المعاجم والتراجم حول السيد، كأعيان الشيعة للسيد الأمين، والغدير للشيخ الأميني، وقد بلغوا الغاية، شكر الله مساعيهم.

ثمّ إنّ هناك من جمع أخبار السيد في كتب خاصة من أصحابنا وغيرهم.

فقد ذكر النجاشي من جمع أخبار السيد، وقال:

أحمد بن عبد الواحد بن أحمد البزاز أبو عبد الله شيخنا المعروف بابن عبدون، له كتب منها اخبار السيد بن محمد. [٣]

وقال: إسحاق بن محمد بن أحمد بن أبان له كتاب أخبار السيد، وكتاب

---

١. الأغاني: ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٨ و ٤/ ٢ و ٦/ ٢٠٦و ٨/ ٢٧٦ و١٨/ ٢٥٤.

٢. أخبار شعراء الشيعة: ١٧٨ـ ١٧٩.

٣. رجال النجاشي برقم ٢٠٩.

مجالس هشام.[١]

وقال: عبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي، شيخ البصرة واخباريّها، ثمّ ذكر تآليفه الكثيرة، منها: اخبار السيد بن محمد.[٢]

وقد عقد الدكتور الشيخ هادي الأميني محقق كتاب اخبار السيد للمرزباني عنواناً لمن ألف في أخباره وذكر منهم:

١. أحمد بن محمد بن عبيد الله بن الحسن بن عباس بن إبراهيم بن أيّوب الجوهري (المتوفّى عام ٤٠١هـ).

٢. أحمد بن إبراهيم بن المعلّىٰ بن العمي ينسب إلى العم، وهو مرة بن مالك ابن حنظلة بن زيد مناة بني تميم.[٣]

٣. صالح بن محمد الصرابي شيخ أبي الحسن الجندي.[٤]

٤. كاظم بن الشيخ باقر بن حسين مظفر له أخبار وشعر السيد.[٥]

قصيدته العينيّة

لقد نالت قصيدتان من قصائد السيد أقبالاً واسعاً من قبل الأُدباء والشعراء، و أكبّ غير واحد من المحقّقين على شرحهما وهما:

١. القصيدة المذهَّبة التي مستهلها:

---

١. رجال النجاشي برقم ١٧٥.

٢. رجال النجاشي برقم ٦٣٨.

٣. رجال الطوسي برقم ٣٠؛ رجال النجاشي برقم ٧٠.

٤. رجال النجاشي برقم ١٤١.

٥. معجم رجال الفكر و الأدب:٤١٩.

هلا وقعت على المكان المُعْشب　　بين الطويلع فاللوىٰ من كُبكُب

وتناهـز القصيدة ١١٢ بيتاً، شرحها السيـد الشريف المرتضى (المتـوفّى عام ٤٣٦) وطبع في مصر عام ١٣١٣هـ، كما شرحها الحافظ النسابة المعروف بتاج العلى الحسيني (المتوفّى عام ٦١٠هـ).

٢. القصيدة العينية التي مستهلّها:

لأُمّ عمر باللوىٰ مربع　　طامسة أعلامه بلقع

التي تناهـز ٥٤ بيتاً شرحها غير واحد مـن المحقّقين والأُدباء، كما اعتنىٰ بها أئمّـة أهل البيـت عليهم السلام بـالسماع، و دعـوة الآخـريـن الى سماعهـا وحفظهـا كما سيوافيك، وقد شرحها أعلام الطائفة، وقد ناهزت شروح القصيدة ١٥ شرحاً. وقد وقفنا على بعضهـا وذكر قسماً منهـا شيخنا المجيز الطهـراني، وبعضاً منهـا شيخنا المحقّق الأميني و إليك أسماؤهم:

١. الشيخ حسين بن جمال الدين الخوانساري(المتوفّى عام ١٠٩٩هـ).

٢. ميرزا علي خان الكلبايكاني تلميذ العلاّمة المجلسي.

٣. المولى محمد قاسم الهزار جريبي(المتوفّى عام ١١١٢هـ) وقد صنّف فيها التحفة الأحمدية.

٤. بهاء الديـن محمد بـن تاج الديـن الحسن الاصبهـاني الشهير بالفـاضل الهنـدي(١٠٦٢ ـ ١١٣٥هـ) و هذا هـو الذي يـزفّه الطبـع إلى القرّاء الكـرام، وسنقوم بترجمة الشارح عن قريب.

٥. الحاج المولى محمّد حسين القزويني المتوفّ في القرن الثاني عشر.

٦. الحاج المولى صالح بن محمّد البرغاني.

٧. الحاج ميرزا محمد رضا القراجة داغي التبريزي، فرغ منه سنة ١٢٨٩هـ وطبع في تبريز سنة ١٣٠١هـ.

٨. السيّد محمّد عبّاس بن السيِّد علي أكبر الموسوي (المتوفّى ١٣٠٦هـ)، أحد شعراء الغدير في القرن الرابع عشر.

٩. الحاج المولى حسن بن الحاج محمّد إبراهيم بن الحاج محتشم الأردكاني (المتوفّى عام١٣١٥هـ).

١٠. الشيخ بخشعلي اليزدي الحائري (المتوفّى ١٣٢٠هـ).

١١. ميرزا فضل علي بن المولى عبد الكريم الإرواني التبريزي (المتوفّى سنة ١٣٣٧هـ) مؤلِّف «حدائق العارفين».

١٢. الشيخ علي بن علي رضا الخوئي (المتوفّى ١٣٥٠هـ).

١٣. السيد أنور حسين الهندي (المتوفّى ١٣٥٠هـ).

١٤. السيّد علي أكبر بن السيِّد رضي الرضوي القمي.

١٥. الحاج المولى علي التبريزي مؤلِّف (وقائع الأيام) المطبوع. [1]

قد كان لقصيدته العينية التي نحن بصدد التقديم لها دويّ واسع في المجتمع الإسلامي، وهذا هو الإمام الصادق عليه السلام يُشيد بهذه القصيدة ويضرب ستراً لتسمعها النساء.

روى في الأغاني عن فُضيل الرسان، قال: دخلت على جعفر بن محمد أُعزيه عن عمّه زيد، ثمّ قلت له: ألا أنشدك شعر السيد؟ فقال: أنشد، فأنشدته قصيدة يقول فيها:

---

١. الغدير: ٢/ ٢٢٤.

فـالنـاس يـوم البعـث رايتهـم
خمس فمنهـا هـالـك أربـع
قـائدهـا العجـل وفـرعـونهم
وسـامـري الامّـة المفظـع
ومـارق مـن دينـه مخرج
أسـود عبـدٌ لكـعٌ أوكـع
و رايـة قـائدهـا وجهـه
كـأنّـه الشمـس إذا تطلـع

فسمعت مجيباً من وراء الستور، فقال: من قائل هذا الشعر؟ فقلت: السيّد! فقال: رحمه الله. [1]

روى المرزباني، قال: حدثني فضيل بن عمر الحبال، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام بعد قتل زيد عليه السلام فجعل يبكي، ويقول: رحم الله زيداً انّه العالم الصدوق، ولو ملك أمراً لعرف أين يضعه.

فقلت: أنشدك شعر السيد؟ فقال: امهل قليلاً، وأمر بستور، فسدلت، وفتحت أبواب غير الأُولى، ثمّ قال: هات ما عندك فأنشدته:

لأُمّ عمرو باللوىٰ مربع   دارسة أعلامه بلقع [2]

---

١. الأغاني:٧/ ٢٥٢، وما في ذيله من العبارة المشعرة بوفاة السيد حين إنشاء الشعر فموضوعة ،لأنّ السيد توفي بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام .

٢. أخبار شعراء الشيعة:١٥٩.

وظاهر هـذين النصين انّ المجلس انعقد بعد وفاة زيـد الشهيد بقليل. لأنّ فُضيل الرسان دخل على جعفر بن محمد الصـادق ليعزّيه عن عمه، وقد استشهد زيد في صفـر عام ١٢٢هـ أو ١٢٣هـ وعلى ذلك، فقـد انشأ السيـد القصيدة في هذه السنة أو قريبة منها و بما انّه ولد عـام ١٠٥هـ فقد كان في ريعان شبابه حين قتل زيد وانشأ القصيدة في تلك الأيّام .

ولا غرو في ذلك، وقـد نقل المرزباني عن العبـاسة بنت السيد، انّها قـالت: قال لي أبي: كنـت وأنا صبـي أسمع أبـويَّ يثلبان أمير المؤمنين عليه السلام فأخرج عنهما وأبقى جـائعاً، واوثـر ذلك على الـرجوع إليهما، فأبيـت في المساجـد جائعـاً لحبّي فراقهما وبغضي إيّـاهما حتى إذا أجهـدني الجوع رجعت فأكلـت ثمّ خـرجت، فلمّا كبرت قليلاً وعقلت وبدأت أقول الشعر.... [1]

ونقل المرزباني عن أبي إسماعيل إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن بـن طباطبا، قال: سمعـت زيد بن موسـى بن جعفر، يقول: رأيـت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم و قدّامه رجل جالس عليه ثياب بيض، فنظرت إليه فلم أعرفه، إذ التفت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لـه: يا سيـد، أنشدني قـولك:«لأُمِّ عمـرو في اللِّوى مَرْبَعُ».

فأنشده إيّـاها كلّها ما غادر منهـا بيتاً واحداً، فحفظتها عنـه كلّها في النوم. قال أبو إسماعيـل: وكان زيد بن مـوسى لحّاناً رديّ الانشاد، فكـان إذا أنشد هذه القصيدة لم يتعتع فيها ولم يلحن. [2]

وقد نقل العلاّمة المجلسي مناماً عن علي بـن موسى الرضا، نقله عنه سهل

١. أخبار شعراء الشيعة: ١٥٤.

٢. المصدر نفسه: ١٦١ـ١٦٢، وقريب منه ما نقله الشريف الرضي في حقائق الأئمّة.

ابن ظبيان يتعلق بهذه القصيدة وقائلها. [١]

إلى هنا تم ما كنّا نرمي إليه من ترجمة سيد الشعراء السيد إسماعيل الحميري، و ما يرجع إلى قصيدته العينيّة.

ولا يفوتنا أن نعرج على سيرة شارح هذه القصيدة، أعني: الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسن الاصفهاني المعروف بـ«الفاضل الهندي»(١٠٦٢ـ ١١٣٧هـ).

بما انّه طال بنا الكلام في المقام نذكر شيئاً مختصراً عن حياته ونحيل التفصيل إلى كتب السير والمعاجم لا سيما الترجمة الوافية التي قدمت له في مستهل كتابه «كشف اللثام عن قواعد الأحكام».

ترجمة الشارح

قد قام بشرح القصيدة العينية نابغة عصره وفريد دهره أبو الفضل بهاء الدين محمد بن الحسن الاصفهاني المشهور بالفاضل الهندي(١٠٦٢ـ ١١٣٧هـ) مؤلف الموسوعة الفقهية الضخمة المسماة بـ«كشف اللثام عن قواعد الأحكام» إلى غير ذلك من الآثار العلمية.

يحدّثنا التاريخ انّ لفيفاً من نوابغ المجتهدين، قد نالوا درجة الاجتهاد وهم بعدُ في سن مبكر لم يبلغوا الحلم.

منهم على سبيل المثال: العلاّمة الحلّي.

قال سيدنا الأمين في أعيان الشيعة: برع في المعقول والمنقول وتقدم وهو في عصر الصبا على العلماء الفحول. [٢]

---

١. بحار الأنوار:٤٧/ ٣٢٨ـ ٣٣٢.

٢.أعيان الشيعة:٢٤/ ٢٧٩.

ومنهم نجله محمد بن الحسن المعروف بفخر المحقّقين(٦٨٣ـ ٧٧٢) وذلك لأنّ والده ألّف كتاب القواعد باستدعاء ولده فخر المحقّقين.

وقال العلاّمة في خطبة القواعد: فهذا كتاب «قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام» لخصت فيه لبّ الفتاوى خاصة، وبينت فيه قواعد أحكام الخاصة، إجابة لالتماس أحبّ الناس إليّ وأعزّهم عليّ، وهو الولد العزيز محمد الذي أرجو من الله طول عمره بعدي. [1]

وذكر ذلك أيضاً نفس فخر المحقّقين في شرحه لهذا الكتاب، قال في شرح خطبة القواعد:

إنّي لما اشتغلت على والدي قدّس الله سرّه في المعقول والمنقول وقرأت عليه كثيراً من كتب أصحابنا، فالتمست منه أن يعمل لي كتاباً في الفقه جامعاً لقواعده حاوياً لفرائده، مشتملاً على غوامضه ودقائقه، جامعاً لأسراره وحقائقه، يبني مسائله على علم الأُصولين وعلى علم البرهان. [2]

هذا من جانب،ومن جانب آخر فانّ العلاّمة يصرّح في خاتمة كتاب القواعد انّه فرغ منه بعد ان بلغ من العمر الخمسين ودخل في عشرة الستين.

وبما انّ العلاّمة من مواليد عام ٦٤٨ هـ فقد فرغ عنه عام ٦٩٨هـ فيكون عمر ولده فخر المحقّقين عند إتمام الكتاب ١٥ سنة أو ١٦ سنة ، فلو استغرق تأليف هذا الكتاب سنتين فقد ألفه لولده وهو ابن ١٤ سنة.

ويؤيد ذلك انّ العلاّمة فهرس أسماء كتبه في «خلاصة الأقوال في معرفة

---

١. قواعد الأحكام:٢، الطبعة الحجرية.

٢. إيضاح الفوائد: ١/ ٩.

الـرجال»، وذكـر منهـا «قـواعد الاحكـام في معـرفـة الحلال والحرام»، وقد ألّـف الخلاصة عام ٦٩٣ [١]، فلولده فخر المحقّقين من العمر يومذاك ١١ سنة.

ومنهم شيخنا المترجم شارح القصيدة فانّه بعد ما ذكر قصة تأليف العلاّمة كتابه القـواعد لولده، قال: وقـد يستبعد ذلك، ثمّ شرع في رفـع الاستبعاد، وقال: وقـد فرغـت مـن تحصيل العلـوم معقولها ومنقـولها ولم أكمـل ثلاث عشرة سنـة، وشرعت في التصنيف ولم أكمـل احدى عشرة، وصنفت « منية الحريـص على فهم شرح التلخيص» ولم أكمل تسـع عشرة سنة. وقد كنت عملت قبله مـن كتبي ما ينيــف على عشرة مـن متــون وشروح وحــواشي، كـــ«التلخيص في البـلاغــة» وتـوابعهـا،و«الـزبـدة في أُصول الـديـن»، و«الخود البريعـة في أُصـول الشريعـة» وشروحها و«الكاشف»، وحواشي شرح عقائد النسفيـة، وكنت ألقي من الدروس وأنا ابن عشر سنين شرحي التلخيص للتفتازاني مختصره ومطوله. [٢]

هذا ولكن الذي يدل على نبوغ مؤلفنا الشارح هي الآثار العلمية التي تركها لـلأجيـال الآتية، فـانّ كتـابـه «كشف اللثـام» آيـة نبـوغـه في الفقه وبـراعتـه في الاستنباط.

ويكفي في قيمة هذا الكتاب ما نقله المحدّث القمي، عن أُستاذه المحدث النوري، عن شيخه الشيخ عبد الحسين انّ صاحب الجواهر كان يعتمد على كتاب «كشف اللثـام» على نحو لا يكتـب شيئاًمن مـوسوعته إلاّ بعـد الرجـوع إلى ذلك الكتاب.

ومن لاحـظ كتاب الجواهـر أيقن انّـه اعتمد على كشـف اللثام في مـوارد

١. خلاصة الأقوال: برقم ٢٧٤.

٢. كشف اللثام: المقدمة:١/ ١١٢.

كثيرة، كما اعتمد هو على موسوعات أُخرى أبرزها كتاب «الرياض» للسيد علي الطباطبائي، و «مجمع الفائدة» للأردبيلي و «المسالك» للشهيد الثاني، وفي الحقيقة كتاب الجواهر يشكل عصارة هذه الموسوعات مضافاً إلى تحقيقاته الرشيقة.

وقد برز نبوغ الفاضل الهندي وراح يشق طريقه وسط أجواء سادتها الحركة الاخبارية وهيمنت على معظم الأفكار، وكان هو أحد القلائل الذين ظلّوا أو فياء للحركة الفقهية الموروثة من المحقّقين الكبار نظير: المحقّق الكركي(المتوفّى عام ٩٤٠هـ)، و زين الدين الشهيد الثاني(المتوفّى عام ٩٦٥هـ)، والمحقّق الأردبيلي(المتوفّى عام ٩٩٣هـ)، وصاحب المدارك السيد محمد بن علي الموسوي (المتوفى عام ١٠٠٩هـ)، ونجل الشهيد الثاني الشيخ حسن بن زين الدين (المتوفى عام ١١١١هـ)، والمحقّق السبزواري صاحب كفاية الأحكام (المتوفى عام ١٠٩٠هـ)، الآقا حسين الخوانساري (المتوفى عام ١٠٩٨هـ)، و المحقّق الشيرواني (المتوفى عام ١٠٩٩هـ) إلى أن وصلت النوبة إلى الشارح تاج المحقّقين والفقهاء فخر المدققين والعلماء الفاضل الهندي، وبكتابه هذا حفظ التراث الفقهي الاجتهادي.

المرء بأفكاره وآرائه

إنّ الآثار الجلائل التي تركها شيخنا المؤلف تعرب عن تضلعه في أكثر العلوم الإسلامية، لا سيما في الفقه والأُصول والأدب العربي، وقد امتاز بالتنوع في الموضوع، وقد برز من قلمه ما يناهز ٨٠ كتاباً. [١]

ولو أضيف إليه ما ألّفه من رسائل وكتيبات ربما ناهز المائة والخمسين بين

١. الفوائد الرضوية: ٤٨٧.

كتاب ورسالة، وقد استقصى صديقنا الجليل الشيخ عبد الرسول جعفريان أسماء تآليفه في تقديمه لكتاب كشف اللثام فوقف منها على٤٢ كتاباً. [١]

وقد لعب الزمان بآثاره كما لعب بآثار الآخرين. فاللازم تركيز البحث على كتابه الذي نحن بصدد التقديم له وهو: «اللآلئ العبقرية في شرح العينية الحميرية» وقبل أن ننوه بهذا الشرح ومميزاته أود أن أُشير إلى بعض الكلمات التي قيلت في حقّه من قبل العلماء:

١. يقول المحقق الشيخ أسد الله التستري (المتوفّى عام ١٢٣٧هـ):

و منهم الاصفهاني المحقّق المدقق، النحرير الفقيه، الحكيم المتكلم، المولى بهاء الدين محمد بن الحسن الاصفهاني الشهير بالفاضل الهندي... وكان مولده سنة ٦٢ بعد الألف ونشؤه في بدو حاله وصغره في بلاد الهند ولذا نسب إليها وجرت له فيها مع المخالفين مناظرة في الإمامة معروفة على الألسنة.

وصنف من أوائل دخوله في العشر الثاني كتباً ورسائل وتعليقات في العلوم الأدبية والأُصول الدينيةوالفقهية أيضاً.

منها ملخص التلخيص وشرحه، كلاهما في مجلد صغير جداً، وهو موجود عندي، ولعلّه أوّل مصنّفاته، وفرغ من المعقول و المنقول ولم يكمل ثلاث عشرة سنة كما صرح نفسه به، وهو صاحب المناهج السوية في شرح الروضة البهية، رأيت جملة من مجلداتها في العبادات وهي مبسوطة ومشحونة بالفوائد والتحقيقات وتاريخ ختام كتاب الصلاة منها سنة الثماني وثمانين بعد الألف، فيكون عمره خمساً وعشرين سنة.

---

١. كشف اللثام، قسم التقديم:٤٦ـ ٦٥.

وله أيضاً كشف اللثام عن قواعد الأحكام شرع فيه أوّلاً من النكاح وأنهاه إلى الختام وسلك فيه النمط الأوسط الذي هو أقرب إلى الاختصار، ثمّ بدأ من الأوّل مع استيفاء للمهم من الأدلّة والأقوال ولا سيما أقوال القدماء الأبرار، ولم يبرز منه قيماً وجدنا ونقل إلاّ الطهارة والحج وكذا الصلاة إلاّ انّها ناقصة.

وله ملخص الشفاء لابن سينا. [١]

٢. يقول الخوانساري: إنّ المستفاد من بعض خطوطه التي ألقيناها بالعيان كونه في سنة سبع وسبعين بعد الألف في عداد فضلائنا الأعيان، والمشار إليهم بين الطائفة وغيرها بالبنان. [٢]

٣. يقول السيد جلال الدين الاشتياني: إنّي عثرت على عبارة في الماضي منقولة عن شخص كان يعيش في أواخر الدولة الصفوية كتب: فيها: إنّي رأيت في المدرسة صبياً مراهقاً، ماهراً في الأبحاث العلمية، وحائزاً لمرتبة عالية في العلوم العصرية، وآثار النبوغ تلوح من ناصيته بوضوح، فسألت عن نسبه، فقالوا: هو ابن الملا تاج الدين، اسمه محمد بهاء الدين. [٣]

وقبل أن أذكر انطباعي عن هذا الكتاب، أود أن أشير إلى ما كتبه صاحب الروضات تعليقاً على ذلك الكتاب، قال: إنّ هذا الكتاب أقوى دليل على كون الرجل قد وجد من كلّ فن من فنون العربية كنزه. [٤]

فرغ منها سنة ١٠٨٩هـ.

---

١. مقابس الأنوار:١٨، الطبعة الحجرية.

٢. روضات الجنات:٧/ ١١٦.

٣. منتخبات آثار الحكماء:٣/ ٥٤٤ في الهامش.

٤. روضات الجنات:٧/ ١١٢، برقم ٦٠٨.

ملامح الكتاب و مميّزاته

من ألقى نظرة على ذلك الكتاب، ولو نظرة عابرة يذعن بأنّ الشارح كاتب قدير له إحاطة تامة بمفردات اللغة العربية، وقواعدها، ومعانيها، ويكفيك في ذلك قراءة خطبة الكتاب، فانّ النص الموجود فيه و إن كان على نظام السجع الرائج في القرن الثاني عشر، لكنّه يستخدم غريب الألفاظ بشكل يعرب عن إلمامه باللغة العربية بشكل واسع.

هذا هو أوّل ما يظهر للإنسان من قراءة صفحات من الكتاب، وأمّا إذا قرأه بدقة و إمعان حينها تنكشف له مميزات الكتاب وملامحه التي تتلخص في النقاط التالية:

١ . بيان معاني المفردات

لما كانت القصيدة الحميرية لشاعر عربي صميم وقد أخذ بناصية اللغة العربية، فأودع فيها الاصطلاحات الرائجة في البادية، راح الشارح إلى بيان مفردات البيت ومعانيها اللغوية، وما يشتق منها من الأسماء والأفعال وفي كلّ ذلك يشبع الموضوع على وجه لا يترك شاردة ولا واردة إلاّ ويخوض فيها.

ثمّ يشرع ببيان إعراب الكلمات الواردة في البيت، فيذكر جميع الوجوه المحتملة مشيراً إلى آراء أكابر العلماء، ثمّ يذكر رأيه بعد ذلك مع ذكر الدليل الذي دعاه إلى تبنّي هذا الرأي أو ذاك.

والنكتة الجديرة بالذكر انّه ربما يوافق رأي القائل الذي لا يتفق معه في العقيدة، ويرفض قول الآخر و إن كانت ينسجم معه في المبدأ.

ثمّ بعـد أن ينهي اعـراب البيت يأخـذ ببيان النكـات الأدبية والبـلاغية في القصيدة تحت عنوان (مسائل) أو البيان ويتمتع كـلّ ذلك بدقة الملاحظة وجودة التفكير.

٢. استعراض التفاسير المطروحة وتقييمها

ومن المميـزات البارزة أيضاً في هذا الشرح أنّ القـارئ يلتقي فيه مـع ذهن وقاد وعقليـة كبيرة، قادرة على التحليـق في سماء المعاني وذكـر الفروض المحتملـة التـي يمكن أن تكـون مرادة للشـاعـر، مما يضفـي على الشرح جمالية أكبر وقعـة للقارئ، فعلى سبيـل المثال: نـرى انّه يتطـرق إلى سبب تسميـة القصيدة بـالعينية يذكـر لها احتمالات ستة، ويذكـر لكلّ وجهـه العلمي والأدبي، وبالتـالي يعلم انّ المؤلف ليس ناقلاً للآراء ومدوِّناً لها، بل نراه ناقلاً ومحقّقاً للآراء المطروحة فلا يختار إلاّ عن حجة ولا يرفض إلاّ كذلك.

٣. الأمانة في النقل

ومن المميزات البارزة هي الأمانة في النقل، وهذه ميزة شاخصة عند المؤلف حيث حـاول الإشارة إلى جميـع المصادر التي اعتمـدها، ويستنبـط منها خـاصية أُخرى وهي رجوعه إلى مصادر كثيرة و ما يرافقه من جهود كبيرة ومضنية.

٤. محاولة ربط القصيدة بالواقع الموضوعي

ومن ميـزات هذا الشرح هو محاولة الشـارح الربط بين القصيدة و الـواقع الموضوعـي السياسي والاجتماعي الذي عـاشه أمير المؤمنين عليه السلام مما يُضفـي على

القصيدة صفة كونها وثيقة تاريخية واجتماعية تحكي عن تلك الفترة التي عاشها الإمام عليه السلام وعن طبيعة المجتمع الذي كان يحيط به عليه السلام.

٥. دعم موقفه بآيات الذكر الحكيم

ومن المميزات الأُخرى هي قدرة المؤلف على دعم آرائه بآيات الذكر الحكيم، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على تبحر الشارح في فهم القرآن الكريم، ولذلك تراه في أكثر البحوث التي يوردها يستنجد بالقرآن الكريم لدعم حجته وتأييد رأيه .

إلى غير ذلك من المميزات التي يقف عليها القارئ حين مطالعته.

نسخ الكتاب

توجد نسخ خطية من هذا الكتاب في المكتبات:

١ . نسخة مكتبة الجامعة برقم ١٨٧٠ [١]، وكتب صاحب الروضات عليها تعليقته التي نقلناه من كتابه.

٢ .نسخة مؤلفة من ٢٢٤ [٢] ورقة في مكتبة السيد المرعشي تحت رقم ٤٧٩، وعلى ظهر النسخة تملكات لأشخاص مختلفين سقط من آخرها سبع ورقات.

٣.نسخة في مكتبة السيد المرعشي تحت رقم ١٨١٤ في ٢٣٢ ورقة كتبها ابن علي محمد علي وفرغ من استنساخها عام ١٢٣٣.

وقد اتخذ محقّق الكتاب هاتين النسختين الأخيرتين أصلاً، وراجع في

١ . الذريعة:١٨/ ٢٥٩ رقم ١٧.

٢ . وقد كتب في فهرس النسخة انّها ذات ٢١١ ورقة ولكنّه خطأوقد سقط من آخرها سبع ورقات.

استخراج ما نقل فيه إلى المصادر ، وتحمل في ذلك جهداً كبيراً وذلك لأنّ الشارح عكف على جمع النسخ من هنا و هناك، وبذلك صار ذا مكتبة عظيمة نوّه بها صاحب رياض العلماء في مواضع كثيرة من كتابه.

نحمده سبحانه على إنجاز هذا المشروع ونشره في الأوساط الإسلامية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

شوال المكرم من شهور عام ١٤٢٠

١٨

آية الله البروجردي

والخطوط العريضة لتراثه الفكري[1]

أشعر انّ للسيد الإمام البروجردي حقّاً كبيراً عليَّ يتجاوز حدود القاء محاضـرة قصيرة في هـذا الحفل الكريـم، وقد طويـت من عمري لـديه سنين متمادية، فارتويت من علمه الغزير، وأدبه الجم، وأخلاقه العالية.

وبما انّي لا أتمكن من أداء هذا الحقّ الكبيـر، فاكتفي بالميسور آخذاً بقول الإمام علي عليه السلام : «الميسور لا يسقط بالمعسور».

تزامنت حياة الأُمّة الإسلامية بعلماء وعباقرة كانوا كالنجوم اللامعة في سماء العلم والعمل، وقد استضاءت بهم الأُمّة الإسلامية في مسيرها التكاملي، فانتعشت بهم حيـاة العلـم والديـن فصـاروا بحـق مصاديـق للحـديـث المأثور عـن سيّـد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال:

«يحمل هذا الديـن في كلّ قرن، عدول يَنفون عنه تـأويل المبطلين، وتحريف الغالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكيرُ خبث الحديد».[2]

ومع الاعتراف بفضل الجميع إلاّ أنّ مواقفهم كانت مختلفة.

---

١ .القيـت هذه المحـاضرة في الملتقى الـدولي لتكريـم الإمام البروجـردي والإمام محمـود شلتوت عـام ١٤٢١، شوال المكرّم في قم المشرفة.

٢ . رجال الكشي، باب فضل الرواية والحديث، ص ١٠ .

فمنهم من سار على المنهج السائد في حياته في مجال العلم، فخدم الإسلام برأيه وفكره، وقلمه وبنانه .

ومنهم من أحـاط إحاطة تامة بـا لمنهج السائد ولم يكتف بذلـك، بل طفق يبتكر أُسسـاً تلبّي حاجات العصر، وهـم في كلّ عصر ومصر نزر قليل. ولـو أردنا استعـراض أسماء بعضهم نـذكـر على سبيل المثـال: شيخنا المفيـد في إبـداعاتـه الكلامية ومناظراته العلمية، والسيد المرتضى ـ مضافاً إلى أدبه الجم ـ في انتاجاته الأُصولية، وتلميـذهما شيخ الطائفة الطوسي في الحديـث والفقه المقارن والتفسير، إلى غير هؤلاء من العباقرة الذين خاضوا عُباب بحار العلوم فأثاروا أمواجاً هائلة، وحالوا دون خمول العلم وركوده، فخرجوا بدرر وجواهر ثمينة أهدوها بكلّ تواضع إلى الأُمة الإسلامية.

وهكذا كـانت سيرة فقيدنا الـراحل السيد البروجـردي (١٢٩٢ـ١٣٨٠هـ ق) في حياته التي ناهزت قرابة تسعين عـاماً، فلو غضضنا النظر عن مقتبل عمره وايام دراستـه على مشايخه وأساتذتـه حتى استقلاله بـالتدريس، نرى أنّ حيـاته العلمية حفلت بـابتكارات قيّمة، سواء قبل تسنُّمـه المرجعية والزعامـة الدينية أم بعدها، وها نحن نذكر الخطوط العريضة لتراثه الفكري.

ابتكاراته وخدماته العلمية

إنّه ﵀ تمتـع بمواهـب خارقـة، فقـد جمع بين الحفظ والفهـم، والتصرف في الأفكار والآراء، والأخيرة منها عزيزة الوجـود بين أوساط العلماء، فالسيد الراحل بفضل هـذه الموهبة ــ أي موهبـة التصرف في الأفكار والآراء ــ جاء بـإبداعـات تركت بصمات واضحة على العلوم الإسلامية لا سيما في الرجال والفقه والحديث.

الف. ابتكاراته الرجالية

كان السيد البروجردي متضلّعاً في رجال الفريقين يعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وتلاميذهم ومشايخهم، وقد لمس النقائص الفنية في الجوامع الرجالية للشيعة الإمامية مع ما لها من الأهمية البالغة، وإليك الإشارة إليها:

١. انّ الخطة التي رسمها القدماء وتبعها المتأخّرون في التوثيق والجرح لا تخرج عن إطار التقليد لأئمّة الرجال، وليس طريقاً مباشراً للمستنبط بُغية التعرف على أحوال الراوي بأن يلمس بفهمه وذكائه ويقف عن كثب على كلّ ما يرجع إلى الراوي من حيث الطبقة والعصر أوّلاً، ومدى الضبط والإتقان ثانياً، وكمية روايته كثرة وقلة ثالثاً، ومقدار فضله وعلمه وكماله رابعاً، وهذا ممّا لا تفي به الكتب الرجالية الدارجة.

٢. لا شكّ انّ التحريف والتصحيف تطرق إلى قسم من اسناد الأحاديث المروية في الكتب الأربعة وغيرها، وربما سقط الراوي من السند من دون أن يكون هناك دليل يدلّنا عليه، وليست الكتب الرجالية بصورة توقفنا على طبقات الرواة من حيث المشايخ والتلاميذ حتى يقف الباحث ببركة التعرّف على الطبقات على نقصان السند وكماله، لأنّها كتبت وفق حروف المعجم مبتدأة بالألف و منتهية بالياء، لا يُعرف أصل الراوي وطبقته في الحديث ولا أساتذته وتلامذته.

٣. انّ أسماء كثير من الرواة مشتركة بين عدّة أشخاص، بين ثقة يُركن إليه، وضعيف ترد روايته، فعندما يلاحظ المستنبط الأسماء المشتركة في الاسناد لا يقدر على تعيين المراد.

ولأجل رفع هذه النقيصة التجأ العلماء إلى تأسيس فرع آخر لعلم الرجال باسم «تمييز المشتركات».

٤. انّ هناك رواة جاءت أسماؤهم في اسناد الأحاديث ولا نرى أثراً لهم في الكتب الرجالية، وصار هذا سبباً لوصف كثير من الروايات بالضعف للجهل بالراوي.

٥. انّ التصحيف والتقليب طرأ على الأسانيد عبر القرون، فكثيراً ما جاء محمد بن مسلم بصورة محمد بن سالم فأوجد غموضاً في الحديث، كما قلب الحسين بن خالد عن يعقوب بن شعيب، إلى يعقوب بن شعيب عن الحسين بن خالد.

٦. توجد إضافات بين الأسماء فـ«أبو علي الأشعري» المعروف بابن إدريس، يروي عن علي بن الحسن الكوفي، ولكن ورد في بعض الأسانيد أبو علي الأشعري، عن (محمد بن) الحسن بن علي الكوفي، فما هو الميزان في التعرّف على زيادة (محمد بن)؟

٧. ربما نرى أنّ الراوي يروي عمّن لم يدركه، ولكن في روايات أُخرى نرىٰ أنّه يروي عنه بواسطة شخص خاص.

كلّ هذه المشاكل كان يعاني منها السيد البروجردي، فعاد إلى معالجة هذه النقائص الفنية في كتب الرجال بتأليف يعبّر عنه تارة بتجريد الأسانيد، وأُخرى بترتيب الأسانيد، وثالثة بتنقيح الأسانيد.

ويتلخّص عمله في أنّه قام بتجريد أسانيد كلّ من الكتب الأربعة وسمّاها: تجريد أسانيد الكافي، وتجريد أسانيد الفقيه، وتجريد أسانيد التهذيب، وتجريد أسانيد الاستبصار، ثمّ انصرف إلى تجريد أسانيد الأمالي والخصال وعلل الشرائع للشيخ الصدوق، وتجريد أسانيد الفهرست للطوسي، وأسانيد رجال الكشي والنجاشي وغيرها من الكتب، مراعياً فيها ترتيب الحروف، فباستيفاء

الأسانيد وقياس بعضها مع بعض قام بحلّ كافة المشاكل التي كان يُعاني منها.

بالنظر إلى هذه الأسانيد المجرّدة ، يتسنّى الحصول على الفوائد التالية:

١. يعلم مشايخ الراوي وتلاميذه، ومن هو مشاركه في نقل الحديث وكان في طبقته.

٢. يعرف مشايخ كلّ من هؤلاء الرواة وطرقهم إلى الإمام.

٣. يعرف الفقيه وجود الواسطة الساقطة بين الراوي والمروي عنه.

٤. يعرف المصحّف عن الصحيح، والمقلوب عن غيره.

لا أقول إنّ السيد هو الوحيد الذي اختط هذا السبيل؛ بل سبقه المحقّق الأردبيلي المعاصر للعلاّمة المجلسي مؤلّف «جامع الرواة»، فانّه يلتقط في ترجمة الرواة، جملة من الأسانيد عن الكتب الأربعة وغيرها ويجعلها دليلاً على التعرّف على شيوخ الراوي؛ كما تبعه السيد محمد شفيع في كتابه: «طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال» فإنّهما بذلا جهدهما في رفع النقائص الفنية الطارئة على رجال الحديث، ولكن الذي قام به المحقّق البروجردي يعدّ من أبرز الأعمال و أعظمها في هذا الحقل.

كما تبع السيد البروجردي في هذا المشروع، الزعيم الديني السيد الخوئي ﷺ، فقد رفع بعض النقائص في كتابه الضخم «معجم رجال الحديث و تفسير طبقات الرواة» حيث إنّ من خصائص و مزايا هذا الكتاب انّه ذكر في ترجمة كلّ شخص أسماء من يروي عنه ومن روى هو عنهم في الكتب الأربعة ، وقد يذكر ما في غيرها، ولا سيّما رجال الكشي فقد ذكر أكثر ما فيه من الرواة والمروي عنهم، وبذلك خدم علم الرجال خدمة كبيرة (شكر الله مساعي الجميع).

ب. منهجه الفقهي

إنّ الوقوف على الأحكام الشرعية من الكتاب والسنّة وسائر أدلّتها، هو الفقه الذي كان يمارسه السيد البروجردي منذ شبابه إلى رحيله، فقد قام بتدريس كثير من أبواب الفقه طيلة حياته، كما درس سائر الأبواب بنفسه مرّة بعد أُخرى، وكان يتمتع بذاكرة حادّة بالنسبة إلى المسائل الفقهية والآراء التي دارت حولها من قبل الفريقين. وهو حين إلقائه المحاضرات الفقهية يتّبع النهج التالي:

١. إذا كانت المسألة ذات تاريخ عريق في الفقه الإسلامي من عصر الصحابة والتابعين والأئمّة المعصومين إلى يومنا هذا، درج في بيان سيرها التاريخي وما مرّت عليه من مراحل تاريخية، ولم يكن ذلك من خصائصه في الفقه فحسب، بل كان يدخل من هذا الباب في المسائل الأُصولية أيضاً. مثلاً كان ﷺ يدرّس مبحث «العام والخاص» وكانت المسألة المعنونة هي: صيرورة العام مجازاً بعد التخصيص وعدمها، فخاض في لباب تاريخ المسألة حتى وصل إلى النتيجة التالية: بأنّ المسألة عنونت في أوائل القرن الرابع، ثمّ ذكر الآراء من ذلك العصر إلى يومنا هذا. وهذه من خصائصه فكان يرى أنّ الإحاطة بالأقوال من أركان الاستنباط، ومع أنّه كان يمتلك أكثر الكتب الفقهية للفريقين مخطوطها ومطبوعها، ولكنّه كان يعتمد في نقل الآراء على كتاب «الخلاف» للطوسي و «تذكرة الفقهاء» و «منتهى المطلب» للعلاّمة الحلّي.

وكثيراً ما ينقل الآراء الفقهية لأصحابها حسب تدرّجها الزماني حتى يعلم تطور المسألة، وربما يشير إلى مباني الآراء عند ذكرها إشارة عابرة.

٢. ثمّ إنّه بفضل التركيز على نقل آراء فقهاء الفريقين والإشارة إلى بعض الأدلّة، كان لمنهج فقهه صبغة الفقه المقارَن، فيذكر آراء الفقهاء و بعض أدلّتهم

وربّما يصحّـح وأُخرى ينـاقش بصـدر رحب، وكثيراً مـا يعتمد على كتـاب «الأُم» للشافعي و «الموطّأ» لمالك، و عندما يجلس على منصة التدريس يحس الطالب أنّه فقيه متضلّع خبير بكافة الآراء الفقهية لجميع المذاهـب الإسلامية، وهذا كان من أبرز سمات منهجـه، ولم يكن استيعـابه للصحاح و المسـانيد بأقـل من استيعـابه للكتب الأربعة.

٣. انّ السيد البروجردي كان يقيم للشهرة الفتوائية أو العملية ـ على الفرق الواضح بينهما ـ قيمة كبيرة، فإذا كانت الرواية ممّن أفتى بها القدماء من الفقهاء لم يكن يعـدل عنها، بـل انّه كـان يتبع هـذا الأُسلوب فيما لـو كانـت هناك فتـوى مشهورة بين القدماء و إن لم تعضد بالدليل، و كان يقيم الأدلّة على حجّية الشهرة الفتوائية للقدماء بما لا مجال لبيانه.

٤. انّه ﷺ يذكـر حول الـروايات الواردة عـن أئمّة أهـل البيت عليهم السلام كلمة معروفة، مضمونها كالتالي: كما أنّ للآيات القرآنية شأن نزول، فهكذا لروايات أئمّة أهل البيت أسباب ورود، ولا يعلم إلاّ بالرجوع إلى فتاوى الفقهاء المعاصرين لهم، فبالتعرف على فتاواهـم تعرف إشارات الإمام في كلامه ولطـائف مقاله، كما تعرف بها الروايـة الصادرة عن مصلحـة الراوي من الـرواية الـواردة لبيان الواقـع، وكان تـلاميذ الأئمـة على اطّـلاع بكـلا النوعين مـن الفتيـا؛ فـإذا وصل إليهـم فتـاوى الصادقين يعرفون ما هو الوارد لبيان الواقع، فيصفونه بأنّه أعطاه من عين صافية. و ما هو الـوارد على وفق الواقع لمصـالح اقتضت ذلك، فيصفـونه بأنّه أعطـاه من جراب النورة.

٥. ومن مميّزات منهجه الفقهي في استنباط الأحكام هو انّه كان يلتزم بقراءة كلّ روايـة وردت حول المسـألة في ومسائل الشيعـة والمستدرك و مـا في الصحاح

والسنن، و كـان يقرأ كلّ رواية بسنـدها التام، ويـذكر خصوصية أكثـر الرواة غير المعروفين وانّه مـن أي طبقة من الطبقات، وكثيراً ما ينبّه على سقـوط الواسطة، أو طروء تقليب، أو تصحيف على الرواية أو يشير إلى عدد رواياته قلّة وكثرة.

وفي ظل الإحاطة بالأسانيد كان يجهد في توحيد الروايات، فيُرجع الروايات المتعدّدة ظاهراً إلى أصـل واحد، قائلاً: بأنّ التكثّر طرأ عليها مـن قبل الوسائط. وهذا كان من اختصاصاته في الفقه.

٦. كان ﷺ يجهد في أن يـذكر لكلّ مسـألة الـدليل المهم الـذي يمكن أن يستند إليـه المجتهد، وينـأىٰ بنفسه عن ذكـر الأدلّة الضعيفة ومنـاقشاتها صيـانة لوقت الطالب.

هكذا كانت محاضرات سيدنا الأُستاذ الراحل ومنهجه الفقهي الذي أصبح فيما بعدُ المنهـجَ الرسمي السـائد على الحوزة العلمية في مدينـة قم المقدسـة، وأمّا الكلام في منهجـه الحديثي والخدمـات التي أسـداها في هـذا المضمار، فنحيله إلى وقت آخر.

ج. نشاطاته الاجتماعية

إنّ الإمـام الـراحل السيـد البروجـردي كـان مـن أرومـة عريقـة ضربـت بجرانها عبر العصور والقرون، فهو سليل الشجرة الطيّبـة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ،فلا عتـب على اليراع إن وقف عـن سرد محاسنه وفضائلـه، فإنّ سيـدنا المترجم فذّ في كلّ نـواحيها. ونسبة الفضائل إليه كأسنان المشـط لا تفاضل بينها، لأنّه واقع في نقطة المركز من الدائرة، فخطـوط الفضائل إليه متساوية، ومع ذلك نشير إلى بعض ما للسيد مـن نشاطات ومواقف كريمة، ومـا كان يحمل من هموم الأُمّة و ما قدّم لها من خدمات.

أ. دعوته إلى التقريب

كان السيد الراحل من دعاة التقريب وعماده، وقد ورث فكره التقريب عن أُستاذه السيد محمد باقر الاصفهاني (المتوفّى عام ١٣٤٢هـ) ، ويعلم مدى دعمه لمسألة التقريب انّه قد كان للسيد مساهمة فعالة في تأسيس دار التقريب بين المذاهب، ودعم المعنيّين بتأسيسها من دون فرق بين السنّة والشيعة، وقد كان على صلة وثيقة بأخبار دار التقريب عن طريق مندوبه، أعني: الأمين العام لجماعة دار التقريب، الشيخ محمد تقي القمي، كلّ ذلك يدلّ على شدة اهتمامه بأمر التقريب ولمّ شمل الأُمّة كسائر روّاده من معاصريه، نظير: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء(المتوفّى١٣٧٣هـ) و السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي(المتوفّى ١٣٧٧هـ) وغيرهم من أقطاب التقريب.

ولم يقتصر نشاطه على متابعة اخبار دار التقريب فحسب، بل انّه ﷺ راح يراسل شيخ الأزهر عبد المجيد سليم. لمّا بعث إليه برسالة يستفسر فيها عن صحّته بعدما سمع من المذياع انّ صحته قد تدهورت، و قد اغتنم السيد الفرصة وبعث بجواب إليه، و إليك نصّ رسالة شيخ الأزهر:

حضرة صاحب السماحة آية الله الحاج آقا حسين البروجردي

سلام الله عليكم ورحمته

أمّا بعد: فقد بلغنا ـ عن طريق المذياع ـ أنّ صحتكم الغالية قد ألمّ بها طارئ من المرض، فأسفنا لذلك أشدّ الأسف لما نعرفه فيكم من العلم والفضل والإخلاص للحق، وإنّا لنسأل الله جلّت قدرته أن يعجل بشفائكم،ويلبسكم لباس العافية، حتى تتمكّنوا

من العود الحميد إلى نشاطكم المعهود في خدمة الإسلام والمسلمين.

ولقد شاءت إرادة الله أن أكون أنا أيضاً في هذه الفترة مريضاً معتكفاً في بيتي أحمل همّين ممضين: همّ نفسي وهمّ قومي،وأطيل التفكير حالياً في حال أُمّتنا العزيزة، فيأخذني من القلق والحزن ما الله به عليم، فأرجو أن تسألوا الله لي العافية كما أسأله لكم، والله يتولّانا جميعاً برحمته.

إنّ الأُمّة الإسلامية الآن، أحوج ما تكون إلى رجال صادقي العزم، راجحي الوزن، يجاهدون في الله حقّ جهاده، ليدرأوا عنها غوائل الفتن، ونوازل المحن، فقد تألّبت قوى الشر، وتجمّعت عناصر الفساد، وزلزل المؤمنون في كلّ قطر من أقطارهم زلزالاً شديداً، وكأن قد أتى الزمان الذي أنبأ الصادق الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ـ : أنّ القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، وإنّما مثل أهل العلم من المؤمنين الصادقين كأطواد راسية أو حصون منيعة ألقاها الله في الناس أن تميد بهم الأرض من فتنة أو جهالة، أو كنجوم ثاقبة في ليل داج، ترشد السارين، وتهدي الحائرين. فادع الله معي أن يحفظ هؤلاء ويكثر في الأُمّة منهم، وينشر عليهم رحمته، وينزل عليهم سكينته، ويؤيد بهم الحقّ والدين، ويهزم بهم المبطلين والملحدين والمفسدين، إنّه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.[1]

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

١٤ من شعبان سنة ١٣٧٠هـ

١ .رسالة الإسلام: العدد الثالث من السنة الثالثة .وليست هذه الرسالة، الرسالة الوحيدة التي تم تبادلها بين شيخي السنّة والشيعة، بل ثمّة رسالة أُخرى كتبها الشيخ عبد المجيد سليم إلى السيد في جواب رسالة شفوية حملها إليه الأمين العام لدار التقريب، وقد نُشر الجواب على صفحات مجلة رسالة الإسلام العدد الثاني من السنة الرابعة عام ١٣٧١هـ.

ولمّا وصلت رسالة شيخ الأزهر إلى السيد الراحل قام بكتاب جواب يشكر فيه عواطفه تجاهه، وقال:

حضرة صاحب الفضيلة الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

شيخ الجامع الأزهر ـ دامت إفاضاته ـ

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد ـ فقد بلغنا كتابكم الكريم الحاوي للعواطف الإسلامية السامية، يحكى لنا أنّـه لمّا بلغكم عـن طريق المذيـاع أنّ صحّة هذا العبـد قد ألمّ بها طـارئ من المرض، أسفتم لذلك، ودعوتم الله تعالى أن يعيد له الصحة.

فـأشكـركـم على ذلـك، وأسـأل الله تعـالى أن يبـدّل التعـارف والتعـاطـف بين المسلمين، ممّا كان بينهم من التناكر والتدابر والتقاطع، إنّه على مايشاء قدير..

ويحكي كتابكـم أيضاً، أنّه قد ألمّ بصحتكم الغاليـة طارئ من المرض، كما ألمّ بي، فاعتكفتم في البيت حاملين لهمين ممضين: همّ نفسكم، وهمّ قومكم، وأنّ إطالة التفكير في حالة الأُمّة، توجب لكم من القلق والحزن، ما الله به عليم.

هكذا ينبغي أن يكون رجال العلم ورجال الإسلام، مهما حاقت با لمسلمين زلازل الفتن،وأحاطـت بهم نوازل المحن، فأسأل الله عـزّ سلطانه، أن يلبسكم لبـاس العافية، ويوفقكم لخدمـة الإسلام والمسلمين،ولما يوجبه الاهتمام بـأمر الأُمّة في مثل هـذا الزمان، من أمثـال جنابكـم الذيـن وقفوا أنفسهم لخدمـة هذه الأُمّـة، ودرء عوادي المفسـدين والملحدين عنها، إنّه قريب مجيب.

إنّ هنا أُموراً كنت أحب إبداءها لكم، لكن حالي لا تساعدني على ذلك.

والسلام عليكم وعلى من أحاط بكم من المؤمنين الصادقين ورحمة الله وبركاته.

١٧ من رمضان سنة ١٣٧٠هـ.[١]

كان السيد يترصّد الفرص بين حين وحين لأن يُدعم موقف التقريب ومن نماذج ذلك:

إنّ الملك سعود بن عبد العزيز زار إيران وأرسل بهدية سنية للسيد البروجردي، وقام السيد ببعث كتاب إلى سفير المملكة السعودية في طهران كاجابة لما أُهدي إليه، وقد أشار في ذلك الكتاب إلى أنّ مسألة الحجّ من أهم مظاهر الوحدة، فللمسلمين أن يؤدّوا مناسك الحج وفق الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وإليك نصّ رسالته إلى السفير:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سلام الله عليكم ورحمته

أمّا بعد: فقد بلغنا كتابكم مع السيد يوسف بوعلي، ومعه حقيبة كبيرة ذكرتم أنّها تحتوي على خمس عشرة نسخة من القرآن الكريم، وعلى قطع من حزام ستار الكعبة الشريفة، وعلى ... وأنّ جلالة الملك أمر بإرسالها إليّ، فتحيّرتُ في الأمر، لأنّ سيرتي عدم قبول الهدايا من الملوك والعظماء، ولكن اشتمال هذه الهدية على القرآن الكريم وستار الكعبة الشريفة؛ ألزمني قبولها، فأخذت نسخ القرآن الكريم والقطع من حزام ستار الكعبة الشريفة، وأرسلت الحقيبة «بما بقى فيها» إلى جنابكم هدية مني إلى شخصكم، لأكون على ذكر منكم في أوقات الصلوات والدعوات، ولمّا كان أمر الحجّ في هذه السنين بيد جلالة الملك؛ أرسلت حديثاً طويلاً في صفة حج رسول الله صلى الله عليه وآله، رواها

١. رسالة الإسلام: العدد الثالث من السنة الثالثة.

مسلم في صحيحه، وأبـو داود في سننه ويستفاد منه أكثر أحكـام الحجّ إن لم يكن كلّها، لترسله إلى جلالة الملك هدية منّي إليه، وتبلغـه سلامي وتحياتي، وأسأل الله عزّ شأنه أن يؤلِّـف بين قلوب المسلمين، ويجعلهـم يداً واحـدة على من سـواهم، ويـوجههم إلى أن يعملوا بقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[١] وأن يجتنبوا التدابر والتباغـض واتّباع الشهـوات الموجبة لافتراق الكلمـة، وأن يلتزمـوا بقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾[٢].

والسلام عليكم ورحمة الله[٣]

ب. مواقفه السياسية

كان السيد الراحل منذ أوان شبابه إلى أواخر حياته ملمّا بالأوضاع السياسية التي تمرّ على المسلمين في أنحاء العالم، وقد ابتلي المسلمون في أواسط القرن الماضي بفتنة اليهود وإنشائهم لدويلتهم الغاصبة في قلب الأُمّة الإسلامية وعلى مقربة من أُولى القبلتين، وقـد كـانت هـذه الفكـرة تـراود اليهـود منذ عصر الامبراطـوريـة العثمانية إلى أن أُتيحت لهم الفرصـة في مختتم الحرب العالمية الثانية حيـث أعانتهم القوى الكـافرة بتأسيس تلـك الدولة الغـاصبة، فأخذوا يقتلـون المسلمين رجالهم ونسـائهـم وأطفالهم ويشرّدونهم مـن أراضيهـم إلى أن أُستتـبّ لهم الأمر بـإنشـاء دويلتهم عام ١٩٤٧م، وقد ضبط التاريخ جرائمهم في دير ياسين وغيره ممّا يندىٰ لها جبين البشرية، وليسـت جرائمهـم هذه الأيـام غائبـة عن أعيننـا فقد أعـادوا

١. آل عمران:١٠٣.

٢. النساء: ٩٤.

٣. رسالة الإسلام، العدد الأوّل من السنة الثامنة.

التاريخ بنفسه.

وقد قام السيد البروجردي يومذاك بإصدار بيان يندّد فيه بتلك الجرائم النكراء، واحتفلت بسماع بيانه الحوزة العلمية وشارك هو ﷺ ذلك الاحتفال، وقرأ البيان الخطيب المصقع الشيخ محمد تقي الاشراقي (١٣١٣ـ١٣٦٨هـ) وإليك نصّ ذلك البيان:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

نحمد الله تعالى في السّراء والضّرّاء وعلى كلّ حال، ونشكو إليه ما لقيه إخواننا المسلمون في زماننا هذا من المشركين بباكستان ومن اليهود بفلسطين، ولقد صدق عملهم بالمسلمين ماأخبرنا الله تعالى به في كتابه الكريم: **﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاسِ عَداوةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ اَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنّا نَصارىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾**.[١]

ولكن العجب والأسف كلّه من صنع اليهود، فانّهم بعد ما كانوا تحت حماية الإسلام والمسلمين قريباً من أربعة عشر قرناً، محفوظين بنفوسهم وأعراضهم وأموالهم وشعائرهم الدينية، قد أصبحوا في هذا الزمان ينتقمون من المسلمين ما صنعوه إليهم في تلك المدّة المديدة من الإحسان، فجعلوا يقتلون رجالهم الصالحين بالفتك والغيلة والقتال، ويقتلون ذراريهم، ويهتكون أعراضهم، ويخرّبون معابدهم وبيوتهم ولا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذمّة وأُولئك هم المعتدون.

فنسأل الله تعالى أن ينصر المسلمين نصراً عزيزاً، ويجعل لهم من لدنه

١. المائدة:٨٢

سلطاناً نصيراً، وأن يخذِّل هذا القوم الذين لم يراعوا حقّ المسلمين، ويضرب عليهم الذلّة والمسكنة، ويجعلهم أذلّ الأُمم، ونرجو من إخواننا المؤمنين ببلاد إيران وغيرها أن يجتمعوا في الدعاء عليهم بالخذلان، ولإخوانهم المسلمين بالنصر والغلبة.

اللّهمّ انصر جيوش المسلمين وسراياهم ومرابطيهم في مشارق الأرض ومغاربها، واخذل أعداءهم وفرّق بين كلمتهم، والق الرعب في قلوبهم، وأنزل عليهم بأسك الذي لا تردّه عن القوم المجرمين، وصلّ على أشرف أنبيائك محمّد وآله المنتجبين.

حسين الطباطبائي

ج. مشاريعه الخيرية

كان السيد البروجردي بحقّ من مصاديق قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰن وُدّاً**﴾[1] فقد كانت له في القلوب محبة عريقة وود أصيل، وفي الوقت نفسه عظمة ومهابة، وكانت مهابته تملأ القلوب، وقد اكتسب ذلك الحب بخدماته الجليلة طيلة عمره لا سيما مشاريعه الخيرية، فقد بُنيت بأمره وتحت إشرافه مساجد في إيران وخارجها ومدارس علمية ومستوصفات، حتى أنّه ﷺ في عام المجاعة في بروجرد بذل جلّ ما يملك للفقراء.

ومن أهمّ مشاريعه العمرانية مسجد «هامبورغ» الذي هو ملجأ لعامّة

١. مريم: ٩٦.

المسلمين فـي تلك البلاد النـائية يقام فيـه الجمعة والجمـاعة، وتحضره عـامة الطوائف في مختلف الأوقات.

د. نشر الإسلام

كان السيد البروجردي على إيمان بأنّ الغرب لو اطّلع على حقيقة الإسلام لرغب إليـه بشوق، فانّ الغرب و إن كـان نهض ضد القيم الأخـلاقية، إلاّ أنّ فيه رجالاً واعين لو وقفوا على الإسلام لاعتنقـوه، وفي ظل تلك العقيدة بعث نخبة من فضلاء الحـوزة إلى ألمانيا، فصـار ذلك سبباً لتوثيـق الصلة بين جامعـة قم الإسلاميةوالمراكز العلمية فيها، كمابعث دعاة إلى سائر نقاط العالم.

هـ. احياؤه للتراث الشيعي

إنّ علماء الإمامية قاموا بخدمات جبّارة من خلال تأليف موسوعات وكتب ورسائل فـي مختلف العلـوم، لكن ممّـا يؤسـف له انّ أكثـر هذه الكتـب رهينة محبسين: رداءة الطباعة، وعدم اطّلاع المحقّقين على هذه الكتب؛ فشمّر ﭬ عن ساعد الجـد وقام بنشر كثير من المخطوطات التي لـم تر النور، ويمكن أن تعدّ الكتب التالية من ثمرات جهوده علىٰ هذا الصعيد:

ـ «الخلاف» للشيخ الطوسي فقد طبع في جزءين في مجلد واحد.

ـ «قرب الإسناد» للحميري.

ـ «مفتاح الكرامة» للسيد محمد جواد العاملي: الجزء التاسع والعاشر.

ـ «جامع الرواة» للأردبيلي.

ـ«النصّ والاجتهاد» للسيد عبد الحسين شرف الدين العاملي.

ومن أهمّ ما قام به هو انّه أشـار إلى الشيخ محمد تقي القمي الأمين العام لجماعة دار التقريب أن يقوم بنشر «المختصر النافع» للمحقّق الحّلي، فقد كان لنشر هذا الكتـاب صدى عظيم في الأوسـاط العلمية في القاهـرة، حتى نفذت نسخه الناهزة ستة آلاف خلال شهرين.[1]

و. خلقه

كان السيد الـراحل بحق إنساناً أخـلاقياً، أبي النفسي، متواضعـاً، خائفاً من الله سبحانه و كان في نهاية العام الدراسي يعظ الحاضرين في مجلس درسه ويبتدأ كلامه بتـلاوة الآية المباركة: **﴿يَا أَيُّهَـا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَـى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾**[2] فإذاً عينـاه تمتلئ بالـدموع وتسيل علـى وجهه، وهو بعـد لم ينبس ببنت شفه.

وقد بلغ من شعفه بأهل البيت عليهم السلام لا سيما الإمام الحسين عليه السلام انّ دموعه كانت تتقاطر دون انقطاع كلما ذُكر.

ز. حبه للعلم والعلماء

كان السيـد البروجـردي يحب العلم والعلمـاء من كـافة الطبقـات، وكان يقدّم الحوار العلمي علـى سائر الحوارات، ومع كبر سنه إذا دخـل مجلسه كبير من العلماء يقوم له احتراماً ولو بمعونة الآخرين.

---

١. انظر كيفية نشره ومدىٰ تأثيره في الأوساط العلمية في مصر، رسالة الإسلام، العدد الثالث من السنة التاسعة.

٢. فاطر:١٥.

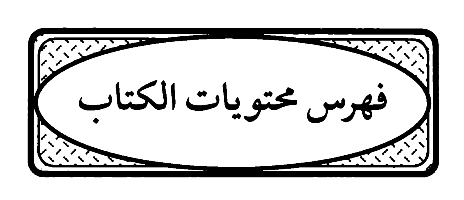
وبما انّ كاتب هذه السطور أدرك من حياة السيد قرابة خمسة عشر سنة، وتتلمذ عليه سنين عديدة، فإنّه يحتفظ بذكريات عطرة عنه يضيق بنقلها المجال.

هكذا كانت حياة سيدنا الراحل، **فسلام الله عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حيّاً.**

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢١ رمضان المبارك من شهور عام ١٤٢١ هـ ق



فهرس محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٤

ملامح الجهاد الإسلامي
في الكتاب والسنّة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

١٠
زيارة النساء للقبور
في الشريعة الإسلامية

١١
معجم المصطلحات

١٢
الخياباني التبريزي
رجل العلم و الأدب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة